مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥ م) (٢)

رحلة الرحلات

مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة

تأليف

الدكتور عبد الهادي التازي

مراجعة

الدكتور عباس صالح طاشكندي

الجـزء الأول



١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

رحلة الرحلات

مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة

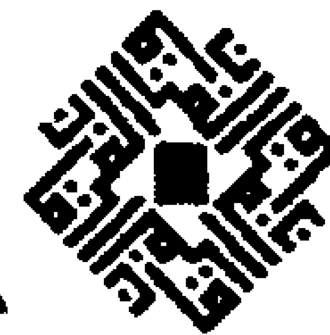
تأليف

الدكتور عبد الهادي التازي

مراجعة

الدكتور عباس صالح طاشكندي

الجزء الأول



مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي

فرع موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة

١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

ح مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

التازي، عبد الهادي

رحلة الرحلات.. مكة المكرمة في مئة رحلة مغربية ورحلة /

عبد الهادي التازي .ـ الرياض، ١٤٢٥هـ.

٨٢٥ ص؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٧-١٩٤-٤٦-٩٩٦٠ (مجموعة)

١ ـ مكة المكرمة ـ وصف ورحلات أ ـ العنوان

ديوي ٩١٥,٣١٢١٠٤ ١٤٢٥/٣٨٣٠

رقم الإيداع: ١٤٢٥/٣٨٣٠

ردمك: ٧-١٩٤-٤٦-٩٩٦٠ (مجموعة)

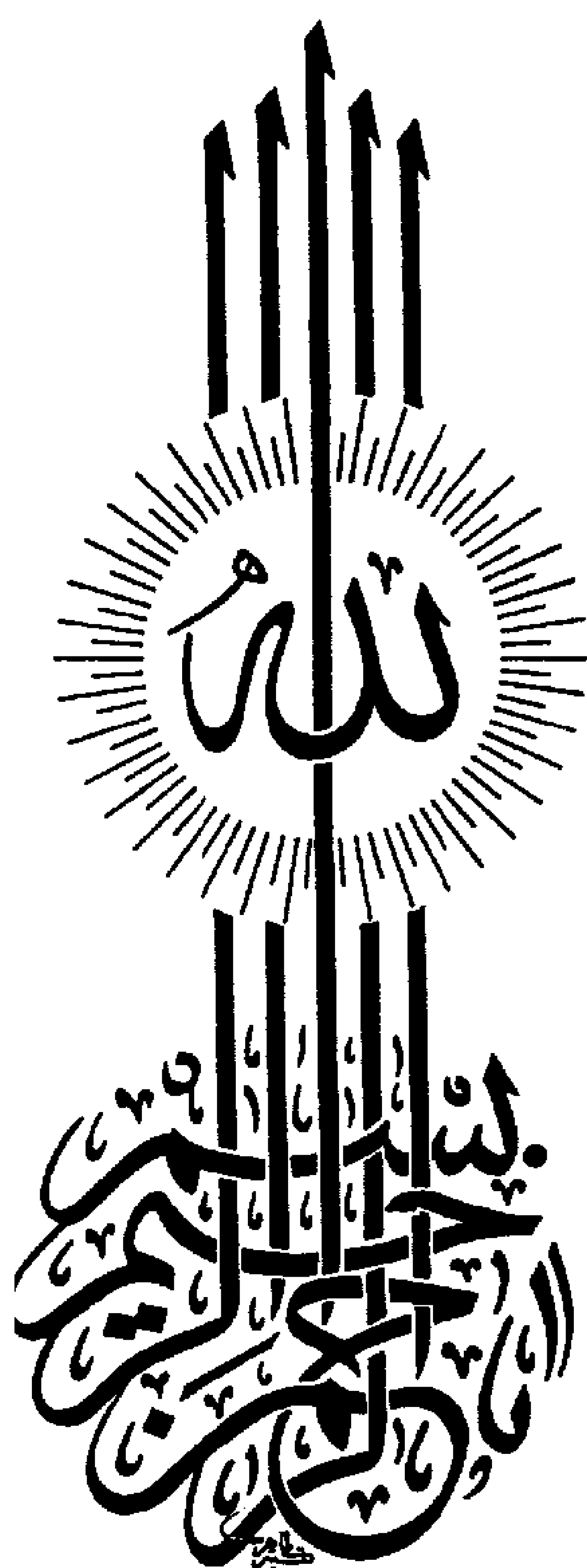
٥-١٩٥-٤٦-٩٩٦٠ (ج١)



مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي

فرع موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة

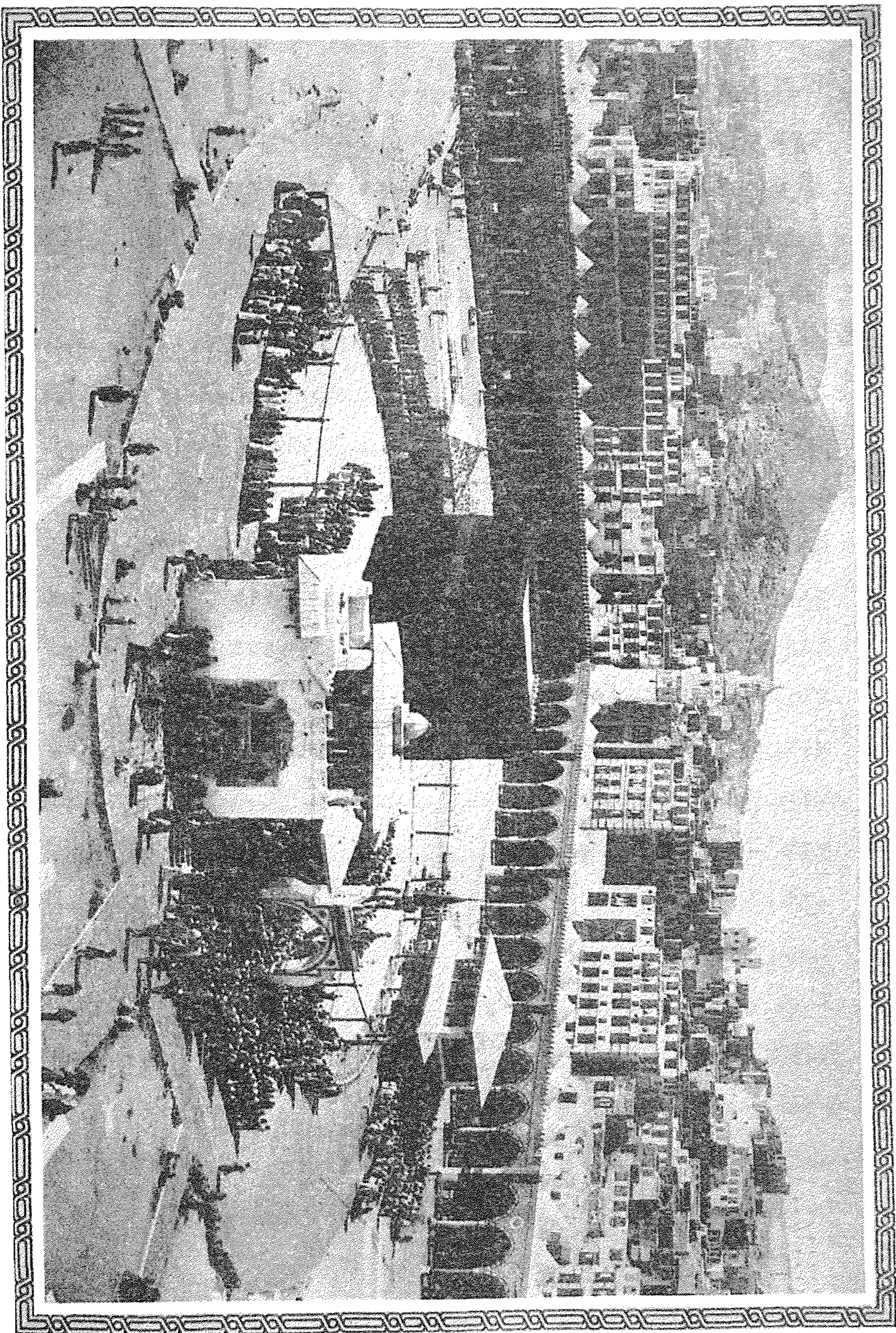
١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م


الله

المحتويات

الجزء الأول

الجـــزء الثانـــي



تقديم

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وجعل مكة المكرمة قبلة المسلمين، وضع فيها أول بيت، وظهرت من أرضها آخر الرسالات، فكانت الأساس لأرقى الحضارات.

وما أظن أن مدينة أخرى على وجه البسيطة حظيت بما حظيت به مكة المكرمة عاصمة الإسلام، قصدها مئات الملايين من كل الأقطار خلال القرون، يحجون إليها، ثم يعودون محملين بأجمل الذكريات، منهم من يتحدث عنها، ومنهم من يكتب عنها.

ومن أجمل الرسائل التي كتبها أولئك الحجاج الوافدون رسائل كتبها حجاج المغرب العربي، الذين تجولوا بأبصارهم يصفون معالمها ومشاعرها والطريق إليها، وتعمقوا ببصيرتهم يصفون روحانيتها والنور الذي ينبثق منها.

بعض تلك الرسائل مطبوع متداول، وكثير منها لا يزال مخطوطاً لا تصل إليه غير أيدي القلة النادرة من الباحثين والمؤرخين.

وعندما بحث المجلس الأعلى لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي فكرة الإسهام في الاحتفاء باختيار المدينة المقدسة مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية بإصدار سلسلة من الأبحاث والتحقيقات لموضوعات تتعلق بقبلة الإسلام، ومخطوطات تعنى بتراثها الثقافي والديني والأدبي، بادر الأستاذ العلامة المحقق الدكتور عبد الهادي التازي (وهو عضو في مجلس الفرقان) فتبرع مشكوراً بجهده الفريد في هذا المضمار، ووافق على إخراج كتاب سماه «مئة رحلة مغربية ورحلة»، يتضمن ذلك عدداً من رسائل المسلمين القدامى من

علماء المغرب العربي وحجّاجه، الذين حجّوا إلى بيت الله الحرام، وكتبوا عن مشاهداتهم ومشاعرهم بعد عودتهم.

والمهم أن معظم تلك الرسائل تحتاج إلى كبير المؤرخين وإمام المحققين العلامة الدكتور التازي ليخرجها من مخابئها ويعلق عليها، ويجعلها متاحة للباحثين في تاريخ البلد الحرام، والمحبين لمكة المكرمة قبلة الإسلام.

ومهما تحدثت عن القيمة العلمية والتاريخية لهذا المؤلَّف الجليل فلن أوفيه حقه، ومهما توجهت إلى أستاذنا التازي بالشكر على صنيعه فلن أوفيه جزاءه، فذلك أمر نكله إلى رب البيت الحرام الذي قيّض لنا مثل هذا العالم، فأضاف إلى الكثير من مؤلفاته وتحقيقاته هذا المؤلَّف الذي تضعه «الفرقان» بين يدي الباحثين ليكون درّة مضيئة بين أعمال أستاذنا التازي.

جعل الله عمله صدقة جارية في ميزان حسناته، وجعل عمل «الفرقان» خالصاً لوجهه معبراً عن حبها لمكة المكرمة وتراثها وآثارها وأخبارها.

والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

أحمد زكي يماني

ديباجة

راودني هاجس الإسهام في أدب الرحلات منذ عيّنني الملك محمد الخامس عضواً في الركب الرسمي المغربي لموسم الحج عام ١٣٧٨هـ / (يونيو ١٩٥٩م).

كنت أعرف عن طائفةٍ من الشخصيات المحظوظة التي تقاطرت طوال العصور الخالية على أرجاء مكة المكرمة ورجال مكة المكرمة، وما أدرك ما تلك الأرجاء وأولئك الرجال!

وما تفضل الأرجاءَ إلا رجالُها
وإلا فلا فضلٌ لتربٍ على تربِ!

كنت أعرف عن سلسلةٍ متلاحقةٍ من الأركب التي قصدت تلك الديار مبعوثة من الدولة، ومن مختلف أقاليم المغرب، جنوبه وشماله، شرقه وغربه...

ولكن ذلك الهاجس ظل محدوداً فيما حررته عن الحجة الأولى، وفيما كتبته بين الحين والآخر عن مشاهدات عابرةٍ سمحت بها الظروف في مناسبات مختلفة، وخاصةً عندما عيّنني للمرة الثانية عام ١٩٧٩م الملك الحسن الثاني عضواً أيضاً في الركب في أعقاب سفارتي لبلادي لدى الجمهورية الإسلامية في طهران.

كنت أريد أن أكتب عن الذين سبقوني في التجربة، لأقارن وأوازن بين هذا وذاك ... لكنني ظللت ـ وأقولها بصراحة ـ مشغولاً بالشأن الدبلوماسي، إلى أن قيّض الله من صحّاني للعودة إلى الهاجس ..

وكان هذه المرة هو معالي الأخ العزيز الدكتور الأستاذ أحمد زكي يماني رئيس مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن، وكان بصدد إصدار موسوعة عن مكة المكرمة والمدينة المنورة تتضمن جميع ما قيل عنهما في كل جهات العالم الإسلامي، وبخاصة عن مكة المكرمة التي أصبحت منذ السنة الثامنة للهجرة القطبَ الذي يقصده الناس من جميع أطراف دار الإسلام بحكم أن الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام.

لم تعد قواعد الإسلام منحصرةً فيما كنا نعرف قبل هذه السنة، ولكنها ـ أي القواعد ـ تجاوزت ذلك إلى قاعدةٍ أخرى تقتضي من المسلم أن يتحرك، وأن يتنقل، وأن تكون

عيونه على مواقع جغرافية قد تقرب إليه أو تبعد. ولكن عليه أن يصل إليها ليتعرف إلى حدودها ومعالمها ورسومها...

لقد كان الحج أكبر وأعظم وأهم مؤسسة قدمها الإسلام للمسلمين أينما كانوا وحيثما كانوا، أعظم مؤسسة بما تشتمل عليه من تنوع زادٍ... كان الحج أبرز رسالة موجهة إلينا لمعرفة الآخر، ولاكتشاف الآخرين لحوار الحضارات ... مهما كتب الناس سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، فإنهم لن يصلوا إلى استجلاء جميع جوانب هذه المؤسسة الحضارية الكبرى ...

ولا نحتاج هنا إلى التذكير بما زودنا به هذا الركن من أركان الإسلام من ثروةٍ فقهيةٍ نادرة المثال ... وعشرات النوازل، ومئات الحالات التي كان على الفقهاء أن يجدوا لها حلولاً تتناسب وأهداف المشرِّع. ثقافة الحج وحدها تعبر عن فكر خلاّق تجلّى فيما قدمه الفقهاء لنا سواء أكانوا ينتسبون إلى هذا المذهب أو ذاك، أم ينتسبون إلى هذه المدرسة أو تلك، وبخاصة عندما يمتزج الجانب الفقهي المتعلق بالحج بالجوانب الأخرى المتعلقة بالأسفار وآدابها، وقضايا الإيجار، والعلاقات بين الرجل والمرأة في هذه الفترة، ثقافة الحج التي تتضمن في صدر ما تتضمنه ضبط تلك العلاقات في أثناء الحج والتدريب على تحمل المتاعب ومواجهة المصاعب وتخْليق الممارسات..

ولا بد أن نذكر أن هذا التشريع ـ تشريع الحج ـ خلق للمسلمين عموماً، وللمغاربة خصوصاً، مرجعيةً مهمة لثقافتهم وعِلمهم، ومن هنا كانوا يعتزون بالسند الذي يعودون به إلى بلادهم وهم يرددونه في مجالسهم العلمية، يعود المغاربة ليؤدُّوا صورةً صادقة عن طريق تلقُّنهم، وعن الدين، أو الذين تلقوا منهم تلك العلوم. كنا نشعر بالمتعة تغمرنا ونحن نقرأ عن الآصرة المقدسة التي تربط العالم المغربي من فاس أو سوس بالعالم من بخارى أو خراسان ... كان المغاربة يعودون بحمولةٍ مهمة من الزاد العلمي والمعرفي، وكانت مكة المكرمة بالنسبة إليهم المرجعية التي يشعرون إزاءها بوجدانهم وآمالهم.

سنقرأ في روايات الحجاج وفي رحلات العائدين ما يؤكد لنا مدى إيمان المغاربة بمصداقية تلك المرجعية التي كانت تعني فضاءً عاش فيه نبي الإسلام ﷺ وصحابته

وخلفاؤه الراشدون وعلماء الإسلام من مختلف جهات الدنيا...

كان الحجاج يعودون وهم يحملون معهم ذكرياتٍ وإفاداتٍ، ينقلونها إلى المجتمع الذي ينتسبون إليه، هذا المجتمع الذي يستفيد من كل تلك المعلومات للاسترشاد بها والاستئناس بها، وإشاعتها، كانوا ينقلون بعض اللقطات التي يجب ألا نمرَّ عليها مرور الكرام بوصفها لقطاتٍ دالةً هادفةً، وأحياناً مُسلية أيضاً!

ولنتصور أحد الذين كتبوا رحلتهم في العصر الوسيط ... العبدري الحيحي يلاحظ أن أحد الحجاج من الذين التقاهم مصادفة في الموسم كان معوق النطق بحرف الكاف، ينطق به همزة، عوض أن يقول: (لبيك اللهم لبيك) بالكاف، يقول: (لبيأ اللهم لبيأ !!) بالهمزة!

ويمضي الفكر بالذين يسمعون عن هذه اللقطة بالمغرب، يمضي بهم ليتصوروا ذلك الحاج وهو يتلو آيةً شريفةً تحتوي على سطرين اثنين وتشتمل على ستة عشر حرف كاف: **﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾** [البقرة: ١٥١ – ١٥٢].

أرجو أن تجعلوا أنفسكم مكان العبدري وهو ينقل تلك اللقطة إلى زملائه في أقصى الجنوب المغربي!!

مائة رحلة ورحلة، كلٌّ يتحدث بما كان يعتقد أنه مقصده، وبما كان يهتم به هو في خاصة نفسه، هذا مهتم بمن يلقاه من الرجال، وذاك مهتم بالمنشآت المعمارية، وهذا مهتم بالطبيعة وألوانها، وآخرون اهتموا بالمخالفات والمنكرات التي شاهدوها، وأنشدوا معنا قول المعري:

سَبِّحْ وصلِّ وطفْ بمكةَ زائراً
سبْعينَ لا سبعاً فلستَ بزائرِ
جَهِل الديانةَ مَنْ إذا عرضتْ له
أطماعُهُ لم يُلْفَ بالمتماسكِ!!

هؤلاء اهتموا بأحوال الحكم في البلاد، وتعاقب الحكام على الكرسي بما يصحب

ذلك من مماحكات ومواربات، وهؤلاء بأحوال الأوبئة والمناخ والجو حتى قرأت عن بعضهم رصد خسوف القمر على سماء مكة المكرمة مما لم أقرأه في كتاب يتعلق بتاريخ مكة المكرمة!!

هناك القصصُ المطرف بل المُغرق في الطرافة مما يحكيه الحجاج، وكان موضع تعليق ممن يستمعون أو يعلقون، وموضع أمثالٍ شعبية وتعابير دارجة، ونحن نعرف عن "حكايات" الحجاج وما يتصل بها...

وإذا كان بعض الحجاج من إخوتنا في المشرق قد تألقوا في كتابة رحلاتهم سواء كانوا عجماً أو عرباً، فإن الحجاج المغاربة بزّوا زملاءهم كماً وكيفاً، وهكذا توفرنا على العشرات والعشرات من الرحلات المغاربية المكتوبة، فيها المقتضب وفيها المسهب، فيها المنثور والمنظوم، والفصيح والعامي على ما سنرى، وما كان حديثاً يفترى!..

ولقد كان كراتشكوفسكي على حق عندما لاحظ أن المغاربة أحرزوا درجة السبق في أدب الرحلات، وهي الحقيقة التي أبرزها زميلنا الراحل الشيخ حمد الجاسر عندما كان ـ وفي كل مناسبة ـ يشيد بالتفوق المغربي في هذا الصدد.

ولقد عرفتُ السرَّ في إلحاح (أبى هاني) على التصدي بالخصوص للرحلات المغربية، كان على حقٍّ عندما أراد جردها وإعدادَ مسْرَدٍ لها، ثمّ إبراز أمرها لدى عشّاق أمّ القرى وما أكثرهم! ! إن كل رحلةٍ من الرحلات المغربية تجر وراءها أكواماً من الروايات والحكايات المكتوبة، وإذا أضفنا إلى هذا المكتوب ما يردده المغاربة في رواياتهم الشفوية مما لا ينتهي ولن ينتهي فإننا نصل، في خاتمة المطاف، إلى الاقتناع بأن الزَّاد المغربي فيما يتصل بالحج، وما يتصل بمكة المكرمة والكعبة المشرفة وزمزم والصفا والمروة، يحتاج وحده إلى تتبع؛ لأنه أدب متحف مليء بالعظة والإيمان.

وهل يسوغ لنا أن ننسى أسطورة الحاج المغربي الفقير الذي عثر على صرةٍ ثقيلةٍ من المال في منعرجٍ من منعرجات مكة المكرمة، فحملتْه أمانته على أن يسلمها في مكة المكرمة إلى المسؤولين الذين أخذوا عنوانه، ولكن ليبحثوا عنه بعد فترة من الوقت ليسلموه الصرة؛ لأن صاحبها لم يظهر؟! وهكذا أصبح الحاج المسكين بين عشيةٍ

وضحاها من أغنى أغنياء بلدته، غير أنه لم يقلل من ذلك الغنى أن يقتني هذا الإنسان عقاراً كبيراً في بلدته ليحبسه على فقراء مكة المكرمة..! وكيف نفسر وجود فخذةٍ بكاملها من قبيلة بني زروال تحمل اسم بني مكة؟!

والحديث عن عطاءات المغرب إلى تلك البقاع مسجلٌ في كل حجج الوقف عندنا قديمها وحديثها، ومعروف في كلّ المراسلات التي تتصل بركب الحاج ... والمهم في هذا حقاً أن نقف على جميع الأسماء التي كانت تتوصل كلَّ موسم بالمبالغ المرسلة إليها مما يعطينا فكرة دقيقة عن أسماء الأسر المقيمة في الحرمين الشريفين اسماً اسماً ... لوائح العلماء، ولوائح الخطباء والأئمة ... وعبيد الحرم (الأغوات)، وخَدَمة عين زبيدة، وخدمة الحرم ومصالح الحرم، وشيخ زمزم وجماعته من الموقتين والمؤذنين بالمنائر والمكبرين والمرحمين ووقّادي الحرم، وسرَّاجي الأروقة الأربعة وسرّاجي منائر الحرم وشيالة القمائم، وكنّاسي الحرم، وفرّاشي مقامات الحرم والجبّادين ببئر زمزم، والبّوابين بأبواب الحرم، وحاملي مبخرة باب الكعبة (حامل شمع باب الكعبة)، وحاملي أعلام الخطيب، وكنَّاسي ما بين الصفا والمروة، ومؤذني جبال مكة! وخدمة مشاهد مكة، ومعلمي الصبيان من الرجال والنساء... عالم كبير من الموظفين والأطر نجد تفصيل الحديث عنهم في الرحلات المغربية...

والطريف أن كلَّ هؤلاء الأطر بمن فيهم الذين يؤذنون على رؤوس الجبال نعرف أسماءهم وأسماء أسرهم على ما نجده في السجلات المحفوظة...

هذه خصائص لا يمكن أن نجدها في رحلاتٍ أخرى مما قرأنا عنها بالمشرق، وهذا ما يؤكد حالة الخصوصية بالنسبة إلى المغرب، أو يؤكد مرة أحرى ما دعونا إليه من ضرورة عودة المؤرخ في الجزيرة العربية إلى ما سجلته الرحلات المغربية عن مكة المكرمة والمدينة المنورة، وعن "الأطر" التي كانت تقوم عليها مختلف الوظائف الدينية، ومرافق الحياة في تلك الديار المقدسة مما كان يقوم به الحجازيون، وكذا المجاورون والمجاورات. وهكذا تتوفر الرحلة المغربية مثلاً على شمولية الموضوعات المطروحة من جهة، وهي من جهة أخرى - لكونها رحلات متتابعة متوالية متلاحقة - تغطي جميع سائر فصول السنة، ففيها

نموذج من لائحة العطاءات المغربية لبعض الفئات بالحرمين الشريفين

ما كان يتم في الصيف، وفيها ما كان يتم في الشتاء أو الربيع أو الخريف، ومن ثمت فقد كنا على خبرةٍ من حالة البلاد الحجازية على طول الفصول الأربعة . . .

إن كثيراً من المعلومات والإفادات ما كان لها أن تُعرف من خلال ما قرأناه في تواريخ مكة المكرمة والمدينة المنورة لولا رجوعنا إلى ما حررته أيادٍ مغربية ونقلته إلى الجناح الآخر من دار الإسلام، مما يعني أن تاريخ ذلك الإقليم يوجد ـ كما قلنا ـ موزعاً في أقاليم أخرى، ومن أبرزها وأهمها بلاد المغرب الكبير، بما فيها الأندلس وطرابلس وتونس والجزائر وموريتانيا وغرب إفريقية على العموم.

وهكذا، فعلى نحو ما أسلفناه نردد هنا أنه منذ السنة التي شُرع فيها الحج أصبحنا مدعوين للبحث عن تاريخ الجزيرة في جميع بلاد الدنيا، وحيث يوجد الإسلام؛ أي أن شبه الجزيزة لم تبق حدودها على ما كانت قبل السنة الثامنة من الهجرة، ولكنها حدود اتسعت وترامت وأمست، أو بعض أجزائها على الأقل، محرمةً على كل من يريد اقتحامها ما لم تتوافر فيه شروط الإقامة، التي كان من أبرزها وأهمها اعتناق الإسلام. . !!

عجيب أمر ذلك التشريع ـ تشريع الحج ـ الذي غيّر أوضاع العالم، وفرض عليه تقنيات من واجبه أن يقبلها إن كان يريد مسالمة دار الإسلام ومعايشتها. . .

ومن الطريف أن نلمس صدى العلاقات الدولية في هذا الركن من أركان الإسلام، نلمسها في أمر المعاملات التجارية، في أمر التأشيرات والزيارات.

وأية رحلةٍ حجازيةٍ في الدنيا سجلت حضور سيدات فضليات وأميرات عالمات جليلات حظين بشهادة قاضي مكة المكرمة ورئيس الموسم، حظين منه بشهادةٍ مكتوبة تتحدث عن حضورهن في مكة المكرمة، وطوافهن وسعيهن ووقوفهن بعرفة، وبسط ذات اليد للفقير والمحتاج. . واقتنائهن العقار، وتحبيسه على أهل الخير والصلاح من المنقطعين والمتبتلين؟! ومتى كنا نعرف أن هناك مؤذنين على الجبال المحيطة بمكة المكرمة يُسمعون ذكر الله لمن كان وراء تلك الجبال . . . ويعرفون أن لهم عطاءات خاصة لضمان وصول صدى تلك الأصوات، عطاءات تأتيهم مما وراء البحار؟!

إن المرء ليأسف اليوم وهو يرى أن الحديث عن أدب الرحلة في طريقه إلى النهاية إن لم

يكن قد انتهى فعلاً بسبب ما جدّ من تطورات حسَّنت وسائل أداء الفريضة، لكنها قضت على كثير من مظاهر جمالها وأسرار كمالها التي كانت تتمثل في تلك المبادرات التي أصبحت اليوم أثراً بعد عين، وأمست، فقط، حديثاً خاطفاً للحجاج المتعجلين، والمعتمرين العابرين..!

ومن باب التحدث بالنعمة أن أذكر في الأخير أن من نعم الله عليَّ أن كل الذين كنت أقصدهم للأخذ بيدي في الحصول على ما لم يكن متوافراً لديّ من نصوص رحلات، كل أولئك استجابوا مشكورين لرغبتي. لقد كان لزاماً عليَّ أن أرحل إلى حيث أحقق رغبتي، وهكذا حصلت في جامعة ليبسيك (شرق ألمانيا) على مخطوطة لرحلة مغربية فريدة لا توجد إلا في تلك المكتبة دون سائر جهات العالم..! وكان الأمر هكذا بالنسبة إلى مخطوطةٍ في لندن بمركز الدراسات الإفريقية والآسيوية (SOAS)، وهكذا بالنسبة إلى مخطوطة فريدة أخرى ثالثة توجد بدار الكتب المصرية، وأخرى رابعة بمكتبة الإسكندرية لرحالةٍ آخر، شاكرين كذلك لذوي الأريحية نجدتهم، ومخطوطة خامسة بالدار التونسية للكتب، وسادسة من الجمهورية الجزائرية التي غمرني الإخوة فيها بلطفهم. ولا أتحدث عن المغرب؛ فقد أزعجت المشرفين على المخطوطات سواء بالعاصمة الرباط أو سلا أو بفاس أو مراكش أو تطوان وطنجة، بالمكتبات العامة والخاصة مما لم أكن أتوفر عليه في مكتبتي من رحلاتٍ موزعة على العصور والدهور...

ومع كل تلك الأتعاب التي كنت أحسها، لكني مع كل ذلك كنت أشعر بالمزيد من المتعة وأنا أعيش مع المعلومة الجديدة أقرؤها، ومع الخط الصعب أكتشفه.

وقد سنحت الفرصة في لندن يوم ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٢م في أثناء اجتماع المجلس الاستشاري الدولي لمؤسسة الفرقان فأنهيت لزملائي مراحل العمل التي وصلت إليها ... وهو ما رحب به السيد الرئيس الذي زف إلينا خبراً هو أن سنة ٢٠٠٤م ستكون السنة الثقافية العالمية لمكة المكرمة!..

وبينما كان (جار الله) يضع اللمسات الأخيرة على عمله هذا إذا أزمة صدرية تنتابني اضطررتُ معها دخول مستشفى ابن سينا، لكن من غير أن يفارقني الأمل في أن

أستمر في عملي، لأني من المؤمنين بالحديث الشريف: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلةٌ فليغرسها»!!

لقد كان أخوف ما أخافه ألا أكمل تصنيفي ... وأن يتحدث الناس بعدي بمثل ما تحدثوا عن مؤلفين سابقين عندما قالوا عنهم: "واخترمته المنية قبل أن ينهي تأليفه!!".

وهكذا، ففي المستشفى اشتغلت على عددٍ من المخطوطات، وشكرت الله على أن مكنني من أن أنجز ما به وعدت مما أسعد اليوم بتقديمه إلى القرّاء والقارئات من مختلف الجهات والقارات.

وبعد، فلقد كان الشعار الذي رفعته في معظم مؤلفاتي هو الشعار نفسه الذي رفعه الأدباء والفقهاء والمؤرخون من أمثال ياقوت عندما سأل الناظر في (معجمه) ألا يقصد قصد من إذا رأى حسناً ستره، وإذا رأى عيباً أظهره!!

ومن أمثال الشيخ خليل بن إسحاق الذي توسل في مقدمة مختصرة إلى القراء" أن يكملوا النقص، ويصلحوا الخطأ، فقلما يخلو مصنف من الهفوات، وينجو مؤلف من العثرات ...".

ومن أمثال ابن خلدون الذي اعترف في نهاية مقدمته بالعجز، وأهاب بمن يأتي بعده، ممن يزوده الله بعلمٍ صحيح، أن يفصل ما أجمل، ويلحق ما أهمل، ويصلح ما أغفل ...

هذا الشعار عندي هو الذي أرفعه اليوم أيضاً معلقاً الأمل على جميع القراء والقارئات أن يجعلوه "المنسك" الذي لا غنى عنه لكل الباحثين الشرفاء الأمناء.

تمام الحج أن تقف المطايا
على خرقاء واضعة اللثام!

د. عبد الهادي التازي

خريطة الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة ومواقع مواقيت الإحرام

مكة المكرمة كمرجع علمي للغرب الإسلامي

لقد كان من أطرف ما استأثرت به مرويات التاريخ المغربي ما تضافرت الروايات على نقله من توجه وفادةٍ مغربيةٍ منذ الأيام الأولى لظهور نبي الإسلام إلى مكة المكرمة للاجتماع به ﷺ والاستماع إليه قبل أن يهاجر إلى المدينة المنورة، ويتعلق الأمر بجماعةٍ تتألف من سبعة رجال من قبيلة رجراجة؛ أشراف قبائل مصمودة كان شاكر بن يعلي بن واصل على رأسها... وعن طريق هذه الوفادة سمعت بلاد المغرب بالإسلام أول الأمر على ما ذكره أبو عبدالله محمد بن سعيد المرغيتي السوسي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ /١٦٧٨م.

ولعل مما يستأنس به في هذا الصدد ما يوجد في صحيح الإمام مسلم عن نافع بن عقبة قال: كنا مع النبي ﷺ في غزوة، فأتى النبيَّ ﷺ قوم من قبل المغرب عليهم ثياب الصوف فوافوه عند أكمة، فإنهم لقيام ورسول الله ﷺ قاعد، قالتْ لي نفسي: ائتهم فقم بينهم لا يغتالونه، قال: قلت لعله نجيّ معهم، فقمت بينهم وبينه... الحديث.

ولا بد لي أن أذكر أن تلك الوفادة ظلت عالقةً بأذهان المغاربة إلى اليوم، أمراء وعلماء، وهو ما يفسر انشغال السلطان المولى إسماعيل بن الشريف ١٠٨٢-١١٣٩هـ / ١٦٧١-١٧٢٧م الذي جمع علماء المغرب لمدارسة الموضوع وإبداء رأيهم فيه(١)...

وبداية أذكر أننا في هذا البحث إذ نعطي للمغرب بعداً جغرافياً واسعاً يشمل قواعد الأندلس وبلدان المغرب الكبير وبلاد السودان، فلأننا نعرف أن المغرب كان في فترةٍ واسعةٍ من الفترات يمثل إقليماً واحداً، بحيث كنا نجد أن القاضي يمكن أن يكون أصلاً من المغرب الأدنى (تونس) ويتعلم بقرطبة (الأندلس)، ويستقضي بالمغرب الأوسط

---

(١) أثارت معلومة الشيخ المرغيتي عدداً من التعاليق، فيها المؤيد وفيها المعقب. ومهما كان، فإن المهم أن ألفت النظر، منذ البداية، إلى أن مشايخ المغرب من أمثال المرغيتي كانوا حريصين على تقصي كل ما يعبر عن تطلع المغاربة إلى استجلاء الأخبار وحرصهم على أن يكونوا من السباقين إلى البحث عن الآثار.

العباس بن إبراهيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج٥، ص٣٠٤-٣٠١. المختار السوسي: المعسول، ج٤، ص ٦-١٦. مطبعة فضالة - المحمدية ١٣٣٠-١٩٦٠. د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٣، ص ٢٩-٣٠. الإيداع القانوني ٢٥ /١٩٨٨. مطابع فضالة.

(تلمسان)، ليتحول إلى قضاء إشبيلية ثم يعين قاضياً بالمغرب الأقصى (فاس) على أن يصل إشعاعه إلى مالي في قلب إفريقية الغربية.

ونحن نعرف أن المغاربة ـ منذ كانوا ـ مولعون بالرحلة إلى المشرق ... يبحثون بذلك عن ذاتهم، عن منابعهم وأصولهم.. وقد سجلت تلك الاتصالات من خلال مدونات التاريخ، وكتب الفهارس، وتراجم العلماء ورجال الفضل ... من خلال كل هذه المصادر المهتمة بالغرب الإسلامي نكشف الكثير عن حياتها الاقتصادية والاجتماعية كذلك، صيفاً وشتاءً، ربيعاً وخريفاً، لماذا؟ لأن موسم الحج ـ وهو تابع للسنة القمرية ـ كان يختلف من حر إلى قر، إلى اعتدال ...

كل مصادر تاريخ الغرب الإسلامي ـ وما أكثرها ـ كانت تهتم بلقب "الحاج"، وهي عادة معروفة من قديم لدى المغاربة، وخاصة منهم غير المنتسبين إلى آل البيت، فإن هؤلاء لا يحملون عادة لقب (الحاج) بالمغرب؛ لأنهم لا يحتاجون إلى هذا اللقب الذي هو الحاج. كان المغاربة ـ وما يزالون ـ يحرصون على أن يضيفوا إلى نعوتهم الشخصية نعت "الحاج" ... لأن المسافة الفاصلة بينهم وبين مكة المكرمة لم تكن مسافةً قصيرةً ولا سهلة، ولا حتى آمنة ... فالذين كانوا يستطيعون أن يجتازوا إقليم برقة في ليبيا كأنهم كانوا روادَ فضاءٍ باصطلاح اليوم.!! برقة التي ضربت بها الأمثال في الصعوبة والامتناع، هذا إلى سبب آخر له ـ أحياناً ـ علاقة بالطموح إلى الزعامة السياسية!! فإن هذا اللقب قد يصبح مرجعيةً للذين يتوقون إلى منصب قيادي..!

وفي هذا الصدد لا أنسى أن أذكر أن لقب "الحاج" أمسى عند بعض المغاربة يعوض الاسم العائلي المعروف للأسرة بالأمس، بمعنى أن الأسرة قد تزهد في ألقابها السابقة التي تنسبها إلى حيّز جغرافي أو مهنةٍ أو صفةٍ، وتميل إلى الاكتفاء بكلمة "الحاج"، فتجد في هذا اللقب كل ما كانت تتوق إليه.. وهكذا فإننا نجد من العائلات المغربية المعروفة اليوم في الأندلس والمغرب عائلة ابن الحاج ... عوض أن تقول القرطبي أو القيرواني أو التلمساني أو الفاسي...

وإن كل الذين يقومون بترجمة عَلَم من الأعلام، سواء أكان ينتسب إلى قواعد

الأندلس أو ينتسب إلى قواعد المغرب وإفريقية، كانوا يرون أن من واجبهم أن يعرفونا أن هذا العالم أو ذلك "له رحلة إلى المشرق وأنه أدى الفريضة، وأخذ بمكة عن فلان وفلان أو صحب معه فلاناً وفلاناً" .

لقد كان الإنسان المغربي يحس بأن الفضاء الذي يعيش فيه لم يكن كافياً لإرضاء كل رغباته، بكل ما كان يحتضنه هذا الفضاء من محامد ومناقب، ولذلك فإن عليه أن يسعى لرؤية العالم الآخر: عالم المشرق الذي كان مصدرَ سعادته، والذي لم يكن يعني غير مراكز الإشعاع الروحي والفكري التي كانت تتمثل فيها تلك السعادة التي تغمره طوال يومه وليله، تلك المراكز التي كان يتصدرها قطب مكة (البيت الحرام) ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ .

مرت بيننا مجموعةٌ كبيرة من رجالات الغرب الإسلامي ممن كانوا يرون أن شخصياتهم إنما تكتمل عندما يذكرون أن لهم رحلةً إلى المشرق، وأنهم قصدوا مكة المكرمةَ بالذات، وحرصوا على أن "يأخذوا" عن شيوخها، وهنا تسنح الفرصة لذكر بعض الشيوخ ممن كانوا يتصدون للتدريس هناك في البيت المعمور . . .

ومن ثمتَ نجد أن كتب التراجم والفهارس حافلة بذكر طائفة من الرواد الذين طبعوا حياة الغرب الإسلامي بما نقلوه وبثوه في صدور الرجال . ونذكر في صدر هؤلاء رجالاً عاشوا منذ القرن الثاني الهجري والثالث، وطوال القرن الرابع والخامس والسادس فيما بعد،، ممن كانوا زينة المجالس وقرة العيون، فيشعر المرء وكأنه يعيش في عالم إسلامي واحد لا فرق بين مشرقه ومغربه . وهكذا فأنت تقف ـ والحالة هذه ـ على أعلامٍ شخصيةٍ قد تكون من الهند أو السند أو الصين، ينقلها أحد المغاربة إلى قلب المدن الأندلسية أو الحواضر المغربية أو حتى تخوم بلاد السودان . . .

١ـ ونذكر في البداية يحيى بن يحيى الليثي المتوفى سنة ٢٣٤هـ / ٨٤٧-٨٤٨م . . . هذا الذي يذكر أن أصله من برابر مصمودة، وهو راوي « كتاب الموطأ » عن الإمام مالك . . . وكان رواها بالأندلس عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون . . . ثم ارتحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة . . . والمهم أن نذكر هنا أنه سمع بمكة

المكرمة عن سفيان بن عُيينة .. وقد ذكر ابن الأبّار في «التكملة»[1] أن ولده محمد بن يحيى سمع هو الآخر بمكة، وقد توفي هناك في حياة والده الذي وجد عليه وجداً شديداً... وقد ترجم ليحيى هذا غير واحد، منهم ابن الفرضي (ت٤٠٣هـ / ١٠١٣م) في «تاريخ علماء الأندلس» والحُمَيدي (ت ٤٨٨هـ /١٠٩٥م) صاحب «جذوة المقتبس»، والضبي (ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م) مؤلّف «بغية الملتمس»، وابن خلكان (ت ٦٨١هـ /١٢٨٢م) في «وفيات الأعيان»[2].

٢ـ ونذكر أبا عبدالرحمن العالم الشهير الذكر الذي أثار انتباه ابن تيمية فقال: إن تفسيره للقرآن أفضل من تفسير الطبري!! هذا هو بقيّ بن مَخْلد بن يزيد المتوفى سنة ٢٧٦هـ / ٨٨٦م الذي ينعته المقّري بالأحق بالسبق والتقديم، أندلسي قرطبي ... ارتحل إلى المشرق ولقي كبار القوم، وسمع عدداً عظيماً من الشيوخ بمكة المكرمة والمدينة المنورة ومصر ودمشق وبغداد، وكان لا يقتصر على السماع من المالكيين، ولكنه كان يتجاوز ذلك إلى الشافعيين[3]...

٣ـ ونذكر أبا عبدالله محمد بن عبد السلام القرطبي المتوفى سنة ٢٨٦هـ /٨٩٩م. رحل قبل الأربعين ومئتين، فحج وسمع بمكة المكرمة من محمد بن يحيى العدني وغيره.

٤ـ ومن هؤلاء أبو يحيى زكرياء بن خطاب الكلبي التُّطِيلي الذي رحل عام ٢٩٣هـ. فسمع بمكة المكرمة كتاب "النسب" للزبير بن بكار، سمعه من الجرجاني الذي حدث به عن علي بن عبد العزيز الجمحي عن الزبير ... كما سمع بها من إبراهيم بن عيسى الشيباني والقزاز في آخرين[4].

---

(١) ابن الأبّار: التكملة لكتاب الصلة، طبعة حجرية ١٨٨٧م، ج١، رقم ٣٠٥.

(٢) نفح الطيب في غصن الأندلس الرّطيب، تأليف الشيخ أحمد بن محمد المقّري، تحقيق د. إحسان عباس، ج١ص ٣٣٩، ج٢، ص٩-١٠، ص ١٤٩- دار صادر، بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

(٣) المقّري: نفح الطيب، ج٢، ص ٤٧-٤٨، ٥٢٠.

أبو عبدالله ابن الأبّار القضاعي: الحلة السيراء، تحقيق عبدالله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

(٤) المقّري: نفح الطيب ج٢، ٦٣٢.

٥ـ ومنهم أبو زكرياء يحيى بن عبدالعزيز القرطبي المعروف بابن الخراز المتوفى سنة ٢٩٥هـ، وقد قام بالرحلة إلى المشرق وسمع بمكة المكرمة من علي بن عبدالعزيز، وكانت رحلته ورحلة سعيد بن عثمان الأعناقي، وسعيد بن حميد، وابن أبي تمام واحدة(١).

٦ـ وأبو محمد قاسم بن ثابت العوفي السرقسطي المتوفى سنة ٣٠٢هـ الذي كان أول من أدخل كتاب (العين) إلى الأندلس، وقد رحل مع أبيه، فسمع بمكة المكرمة من عبدالله بن علي بن الجارود، ومحمد بن علي الجوهري(٢).

٧ـ ومنهم أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن حيّون من أهل وادي الحجارة (على مقربة من مدريد الحالية) المتوفى بقرطبة سنة ٣٠٥هـ. وقد رحل إلى المشرق فتردد هناك نحواً من خمس عشرة سنة وسمع بمكة المكرمة ... ولقي جماعة من أصحاب الإمام أحمد ابن حنبل منهم عبدالله بن أحمد... وفيه قيل: لو كان الصدق إنساناً لكان ابن حيُّون!!(٣).

٨ـ ومنهم القاضي أبو عبدالله محمد بن أبي عيسى المتوفى سنة ٣١٤هـ، عَلَمُ الأندلس، وعالمها الندس. مما يروى عنه أنه أعجب بأبياتٍ شعريةٍ سمعها فكتبها على ظهر يده حتى لا ينساها!! وقد رحل من قرطبة سنة ٣١٢هـ، وحج وسمع بمكة المكرمة من ابن المنذر، والعقيلي، وابن الأعرابي، وغيرهم(٤).

٩ـ ومنهم أبو محمد قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف البيَاني، (بيانة من أعمال قرطبة)، وقد رحل إلى المشرق مع محمد بن عبدالملك بن أيمن، ومحمد بن زكرياء بن عبد الأعلى سنة ٢٧٤هـ، فسمع بمكة المكرمة من محمد بن إسماعيل الصائغ، وعليّ بن عبدالعزيز... وانصرف إلى الأندلس بعلمٍ كبيرٍ، فمال الناس إليه ... مولده سنة ٢٤٧هـ، توفي بعد المحرم سنة ٣٢٤هـ(٥).

(١) النفح، ص٦٢٧.
(٢) المصدر السابق، ص٤٩.
(٣) المصدر السابق، ص٥٢.
(٤) النفح ٢، ١٢.
(٥) النفح ٢، ٤٧.

١٠ـ ومنهم أبو بكر محمد بن سعدون التميمي الجزيري الذي حج غير مرة، سمع بمكة المكرمة وطاف ببلاد الشام... وقد أدركته وفاته سنة ٣٤٤هـ(١).

١١ـ ومنهم أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج القرطبي المعروف والده بالقنتوري، رحل سنة ٣٣٧هـ فسمع بمكة المكرمة من ابن الأعرابي، ولزمه حتى مات. ثم سمع بمكة المكرمة أيضاً من جماعة غيره ... وعاد إلى الأندلس بزادٍ كبيرٍ، فاستقضاه الحكم المستنصر ... وتوفي برجب سنة ٣٤٨هـ(٢).

١٢ـ ومنهم أبو المطرف عبدالرحمن بن خلف التُّجيبي الإقليشي، روى عن أبي ميمونة دراس بن إسماعيل فقيه مدينة فاس، ورحل حاجاً سنة ٣٤٩هـ. سمع بمكة المكرمة من أبي بكر الآجُرِّي وأبي حفص الجمحي ... كان مولده سنة ٣٠٣هـ(٣).

١٣ـ وأبو عثمان بن نصر بن عمر بن خلْفون الاستجي الذي رحل إلى المشرق فسمع بمكة المكرمة من ابن الأعرابي سنة ٣٥٠هـ، وقد أدركه أجله ببغداد...

١٤ـ ومنهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة بقرطبة، كان تحفةَ زمانه علماً وحصافةَ رأي، وصلابة موقف، وأرْيَحية سلوك... رحل حاجاً سنة ٣٠٨هـ واجتمع بعدة أعلام، وظهرت فضائله بالمشرق، وكان ممن سمع عليه منذر بالمشرق ثم بمكة المكرمة محمد بن المنذر النيسابوري، سمع عليه كتابه المؤلف في اختلاف العلماء المسمى بـ «الإشراف».. كان متفنناً في ضروب العلوم ... غلب عليه التفقه بالظاهرية، لكنه إذا جلس للحكم قضى بمذهب مالك؛ لأنه المذهب الذي عليه العمل بالأندلس ... أدركه أجله بقرطبة سنة ٣٥٥هـ(٤).

١٥ـ ومنهم علامة فاس الشهير الأثير دَرّاس بن إسماعيل دفين مدينة فاس عام ٣٥٧هـ. وقد توجه إلى الحج فلقي عدداً من العلماء في مكة المكرمة، ثم رجع إلى فاس فكان أولَ من أدخل إليها مدونة سحنون، ولا يزال مشهده معروفاً إلى الآن بفاس(٥) ...

---

(١) النفح ٢/١٣٨.

(٢) المصدر السابق، ٢١٨.

(٣) المصدر السابق، ص٦٣٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) د. التازي: جامع القرويين، المسجد والجامعة، ج١، ص١٥٤، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٢م.

١٦ـ ومنهم الشيخ المعروف أبو جيدة بن أحمد الفاسي اليازغي، دفين فاس عام ٣٦٥هـ، كان يحسن مذهبي مالك والشافعي، وهو مع درّاس بن إسماعيل ممن بعثوا الحياة العلمية بالمغرب، وكان ذلك بفضل الرحلة إلى المشرق والأخذِ عن أعلامه... وعلى رأسهم رجالُ مكة المكرمة(١).

١٧ـ ومنهم أبو الأصبغ الشيخ عبدالعزيز بن عبدالملك بن نصر الأموي الأندلسي الذي ولد بقرطبة، وتوفي ببخارى سنة ٣٦٥هـ. كان ممن تزودوا بعلم مكة وثقافتها، وهو الذي حدث بما قاله رسول الله ﷺ: «أنا وليُّ ولد فاطمة وهم عترتي»(٢).

١٨ـ ومنهم القاضي أبو بكر محمد بن إسحاق، الشهير بابن السليم، قاضي الجماعة بقرطبة ... رحل سنة ٣٣٢هـ، فسمع بمكة من ابن الأعرابي ... وعاد إلى الأندلس وأقبل على دراسة العلم فسمع منه الناس. وقد أدركه أجله عام ٣٦٧هـ(٣).

١٩ـ ومنهم أبو عبدالله محمد بن صالح القحطاني المغافري الأندلسي المالكي، رحل إلى الشرق فسمع بمكة المكرمة أبا سعيد ابنَ الأعرابي ... وروى عنه كثير من الناس فيهم أبو عبدالله الحاكم قائلاً: اجتمعنا به في همذان، أدركه أجله في بخارى عام ٣٨٣هـ(٤).

٢٠ـ ومنهم أبو هارون موسى بن يحيى الصديني الفاسي الذي له رحلة إلى المشرق، كذلك لقي فيها أبا جعفر الأُسواني المالكي، ولا يزال في فاس زقاق يحمل اسم الصديني، كما أن هناك بفاس بالقيسارية قبةً تحمل اسم قبة الصديني، وقد أدركه أجله سنة ٣٨٨هـ(٥).

٢١ـ ومنهم خلف بن القاسم بن سهل بن الدباغ الحافظ الأندلسي الذي رحل إلى المشرق ... وسمع بمكة المكرمة من بكير الحداد وأبي الحسن الخزاعي والآجُرّي... وقد

(١) د. التازي: تاريخ القرويين، ج١ ص١٥٥.
(٢) النفح ج٢، ص٥٣.
(٣) النفح ٢، ١٠٥.
(٤) النفح ٢، ١٤٢.
(٥) د. التازي: جامع القرويين، ص١٣٥.

أدركه أجله سنة ٣٩٣هـ[١].

٢٢- ومنهم أبو عبدالله محمد بن عبدالملك بن ضيْفون اللخمي الرصافي القرطبي الحدّاد. وقد حج عام ٣٣٩هـ؛ أي سنة رد القرامطة الحجر الأسود إلى مكانه، وقد سمع بمكة المكرمة من ابن الأعرابي ... حدث وكتب عنه الناس. أدركه أجله بقرطبة في شوال سنة ٣٩٤هـ.

٢٣- ومنهم أبو عمرو الداني عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر الأموي القرطبي، عرف بالداني لسكناه في دانية ... رحل إلى المشرق سنة ٣٩٧هـ ... وحج وخلف كتبه بالحجاز وغيرها، وينعته المقّري في النفح أيضاً بالشهير عند أهل الغرب والشرق والأحق بالتقديم والسبق، وقال بعض أهل مكة: إن أبا عمرو الداني مقرئ متقدم، وإليه المنتهى في علم القراءات ... وقد أدركه أجله في دانية سنة ٤٤٤هـ[٢].

٢٤- ومنهم شخصية "كان لها من اسمها نصيب" كما يقولون، هو العلامة المسمى: نعم الخَلَف بن عبد الله بن أبي ثور الحضرمي الطرطوسي، الذي رحل إلى المشرق، ولقي بمكة المكرمة أبا عبدالله محمد بن عبد الله الأصبهاني، فسمع منه سنة ٤٢٢هـ، وقد حدث عنه ابنه القاسم بن نعم الخلف[٣]..

٢٥- ومنهم أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حَاج الفاسي، إليه ينسب درب (بوحاج) بفاس (الطالعة الكبرى)، اضطر إلى مغادرة فاس لأسبابٍ سياسية ... ثم رحل إلى المشرق ... وأخذ بمكة المكرمة عن أبي القاسم عبدالله بن محمد بن أحمد السقطي ... ثم حج حجاتٍ كثيرة، وتجدد لقاؤه بعلماء مكة المكرمة ... ويعدّ الرأس المدبر لاستنزال ولاة زناتة عن الحكم! أدركه أجله سنة ٤٣٠هـ[٤].

٢٦- ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد الميّورقي، رحل حاجاً فأدى الفريضة سنة ٤٥٢هـ، وصحب في رحلته سنة ٤٥٢هـ عبد الحق الصقلي الفقيه ... وقدم أبو المعالي

---

(١) النفح ٢، ١٠٥.

(٢) النفح ٢، ١٣٨.

(٣) التكملة، ص٤٢٢، رقم ١٢١٣.

(٤) د. التازي: تاريخ القرويين ج١، ص١٥٧–١٥٨، مصدر سابق.

الجويني مكة المكرمة وهما بها حين سمعا منه جميعاً، ورويا عنه تآليفه قبل العودة إلى ميّورقة(١).

٢٧ـ ومنهم أبو الحسين طاهر الأندلسي المالقي ... ترك قرطبة لما دخلها البربر عنوة سنة ٤٠٣هـ، والتحق بمكة المكرمة إلى حدود الخمسين وأربعمئة ... وجاورَ بمكة طويلاً، وأقرأ على مقربة من (باب الصفا)، وكان الشيبيون يكرمونه ويفرحون به عند دخول البيت الحرام(٢) ...

٢٨ـ ومنهم أبو القاسم عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد القدوس، مقرئ أهل قرطبة، رحل وقوّى معلوماته في القراءات بمكة المكرمة على أبي العباس الكازريني ... وكانت الرحلة إليه في وقته، أدركه أجله سنة ٤٦١هـ(٣).

٢٩ـ ومنهم أبو عبدالله محمد بن شريح الرُّعيني الإشبيلي الذي رحل إلى المشرق سنة ٤٣٣هـ. سمع بمكة المكرمة عن أبي ذر الهروي، وقد أدركه أجله بإشبيلية سنة ٤٧٦هـ. ونذكر أن أبا ذر المذكور هو عبدالله بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن غفير الأنصاري المالكي، سمع بهراة ... ثم حج وجاور وتزوج في العرب، وكان يحج كلَّ عام ويحدّث(٤).

٣٠ـ ومنهم أبو عبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله الأزدي الحَميدي نسبة إلى جده حميد الأندلسي ... كان يُحمل على الكتف للسماع سنة ٤٢٥هـ ولمّا يبلغ عمره عشر سنوات !! وقد رحل سنة ٤٤٨هـ، وسمع بمكة من الزنجاني ... كان إماماً من أئمة المسلمين في حفظه ومعرفته وإتقانه وصدقه ونبله وديانته وورعه ونزاهته ... ومن تآليفه: «جذوة المقتبس في أخبار علماء الأندلس» الذي ألّفه في بغداد، و«الذهب المسبوك في وعظ الملوك»، و«ما جاء من الأخبار في حفظ الجار». أدركه أجله ببغداد سنة ٤٨٨هـ.

---

(١) التكملة، ص١٢٦.
(٢) كتاب التكملة، رقم ٤٤٣، ص٨٠.
(٣) النفح ٢، ص ٦٣٧.
(٤) النفح ٢، ص٧٠-٧١-١٤١.

٣١ـ ومنهم محمد بن خليفة الذي رحل إلى مكة المكرمة فسمع من غير واحد، واستكثر من أبي بكر محمد بن الحسين الآجُرّيّ، وسمع كذلك من الخزاعي تأليفه عن «فضائل مكة»(١).

٣٢ـ ومنهم أبو القاسم عبدالرحمن بن يحيى بن عبدالرحمن فورتش السرقسطي الذي رحل حاجاً، فسمع بمكة أبا ذر الهرويّ، وأجاز له أبو عمرو السفاقسي. توفي قبل أو سنة ٤٨٩هـ(٢).

٣٣ـ ومنهم أبو عبدالله محمد بن يوسف بن علي بن خَلَصة المعافري الشاطبي، رحل حاجاً فلقي بمكة المكرمة أبا الحسن علي بن المفرح الصقلي، وسمع منه صحيح البخاري عن أبي ذر الهروي، ولازمه وأكثر عنه، ولقي أيضاً بها أبا محمد هياج بن عبيد الحظيني فأخذ عنه كتاب الزهد لهنَّاد بن السري سنة ٤٦٤هـ، وقد أدركه أجله سنة ٤٩٠هـ(٣).

٣٤ـ ومن أهل القرن السادس الهجري أبو بكر محمد بن عمر بن قطري الزبيدي، من أهل إشبيلية، له رحلة حج فيها، وروى بمكة المكرمة عن الحسين الطبري ... وقد أدركه أجله سنة ٥٠١ هـ حيث كان ينشر العلم(٤).

٣٥ـ ومنهم أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المعافري، من أهل سبتة، يعرف بابن الفلُّو، كان من الرحالين في طلب العلم وأهل العناية بتحصيله ... سمع بالحجاز من جماعة، ولقي بمكة المكرمة أبا المعالي الجويني، وأبا محمد عبدالحق بن هارون الصقلي وغيرهما، ودرس هناك الأصول، وقفل إلى بلده فولي القضاء به ... وعكف على التدريس حياته كلها، توفي في آخر المحرم سنة ٥٠٢هـ.

٣٦ـ ومنهم أبو محمد عبدالوهاب بن محمد بن عبد الملك اللخمي الإشبيلي الذي رحل حاجاً فأخذ بمكة المكرمة في رمضان عام ٤٩٢هـ عن أبي عبد الله الحسين بن علي الطبري، سمع منه صحيح مسلم سنة ٥١٧هـ.

---

(١) التكملة رقم ١٥٦٣، ص ٥٥٢-٥٥٣.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس، ص٥١.

(٣) التكملة رقم ٥٠٨.

(٤) التكملة ص ١٤٤.

٣٧ـ ومنهم أبو علي حسن بن إبراهيم بن محمد بن تقي الجذامي المالقي ... كانت له رحلة سمع فيها من عدد من الرجال بتاريخ رجب سنة ٥١٥هـ. وفي رحلته هذه لقيه أبو علي الحسن بن علي البطليوسي نزيل مكة المكرمة. حدث عنه أبو طالب التنّوخي من أهل الإسكندرية ... وقد روي عنه عن بعض الشيوخ: قيل لأبي ذَر الهروي: أنت من هراة، فمن أين تمذهبت بمذهب مالك والأشعري؟ فأجاب: عن طريق القاضي أبي بكر الباقلاني الذي تعرفت عليه بفضل الدارقطني[١].

٣٨ـ ومنهم عبدالرحمن بن محمد بن أبي زرعة الحضرمي من أهل إشبيلية، رحل حاجاً فأدى الفريضة وسمع بمكة المكرمة من أبي الفتح بن البيضاوي في ذي القعدة سنة ٥١٦هـ.

٣٩ـ ومنهم أبو بكر اليابري، ويكنى أيضاً أبا محمد، وهو عبدالله بن طلحة بن محمد بن عبدالله، أصله من يَابُرَة (البرتغال) ونزل بإشبيلية، وروى عن جماعة ... ورحل إلى المشرق، وروى عن جماعة. ثم رحل إلى مكة المكرمة وبها أدركه أجله، وكان سماع أبي الحجاج منه موطأ مالك سنة ٥١٦هـ[٢].

٤٠ـ ومنهم أبو محمد عبدالوهاب بن محمد بن عبد الملك اللخمي من أهل إشبيلية، رحل حاجاً فأخذ بمكة المكرمة عن أبي عبدالله الحسين بن علي الطبري، سمع منه صحيح مسلم في رمضان سنة ٤٩٢هـ وقفل إلى بلده، وحدَّث وأخذ الناس عنه سنة ٥١٧هـ[٣].

٤١ـ ومنهم أبو زيد عبدالرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبي المرسي، رحل حاجاً فأدى الفريضة، وجاور بمكة، ولقي بها أبا الحسن علي بن المفرج الصقلي فسمع منه موطأ الإمام مالك رواية أبي مصعب الزهري، كما لقي أبا عبدالله الحسين بن علي الطبري فسمع منه صحيحي البخاري ومسلم، ولقي أبا عبدالله بن اللَّجَالة النحوي الأندلسي فحدث عنه بالملخص للقابسي عن مؤلفه، وقفل إلى بلده فدرس التفسير

(١) التكملة رقم٣٢.

(٢) التكملة رقم ١٣٣٠.

(٣) التكملة ص ٦٣٩.

والحديث. وأدركه أجله بعد العشرين وخمسمئة من الهجرة(١).

٤٢ـ ومنهم أبوالحجاج يوسف بن عبدالعزيز بن علي اللخمي الميّورقي، يعرف بابن نادر، حج وأدى الفريضة، وسمع بمكة من أبي عبدالله الطبري صحيحَ مسلم، ومن أبي الحسن علي بن سليمان البغدادي صحيح البخاري بروايته عن أبي ذر ... توفي في آخر سنة ٥٢٣هـ(٢).

٤٣ـ ومنهم أبو عمر ميمون بن ياسين الصنهاجي اللمتوني، سكن المرية، وأصله، كما يقول ابن الأبار، من صحراء المغرب ... وكانت له رحلة حج فيها. وسمع بمكة المكرمة من أبي عبدالله الطبري صحيح مسلم في سنة ٤٩٧هـ، وسمع بها أيضاً من أبي مكتوب عيسى ابن أبي ذر الهروي صحيح البخاري في أصل أبيه أبي ذر، وابتاعه منه بمالٍ جليل، وهو الذي أوصله إلى المغرب ... كان ميمون بن ياسين من أمراء المرابطين، رغب في السماع من عيسى ابن أبي ذر بمكة المكرمة، واستقدمه من سراة بني شبانة، وبها كان سكناه وسكنى أبيه أبي ذر من قبل، فاشترى منه صحيح البخاري أصل أبيه الذي سمع فيه على أبي إسحاق المستهلي وغيره بجملةٍ كبيرة وسمعه عليه في عدة أشهر قبل وصول الصحيح إليه، وقفل ميمون إلى الأندلس، وحدّث بها. توفي بإشبيلية في ذي القعدة سنة ٥٣٠هـ(٣).

٤٤ـ ومنهم أبو القاسم خلف بن فرج بن عامر بن فحلون القنطري، سكن بطليوس، يعرف بابن الرَّوية، رحل حاجاً فأدى الفريضة، ولقي بمكة المكرمة رزين بن معاوية الأندلسي فحمل عنه كتابه في تجريد الصحاح سنة ٥٠٥هـ، ومنها حج وقفل إلى بلده ... قال ابن الأبّار: أحسبه في سنة ٥٣٠هـ(٤).

٤٥ـ ومنهم أبو بكر محمد بن الحسين بن أحمد بن يحيى بن بشر الأنصاري، يعرف بالميُورقي ... رحل حاجاً فسمع بمكة المكرمة عن أبي الفتح عبد الله بن محمد

(١) التكملة ٥٥٧–٥٥٨.

(٢) التكملة رقم ٢٠٧٥.

(٣) التكملة رقم ١١٣٧.

(٤) التكملة رقم١٧١.

البيضاوي، وابن نصر عبد الملك بن أبي مسلم النهاوندي في شوال وذي القعدة سنة ٥١٧هـ ... بقي الحديث عنه إلى سنة ٥٣٧هـ(١).

٤٦- ومنهم أبو محمد عبدالله بن خلف بن بقي القيسي من أهل بياسة ... رحل حاجاً فلقي أبا القاسم عبدالرحمن بن عتيق القرشي الصقلي، وأبا بكر عبدالجليل، ولقي بمكة المكرمة أبا محمد عبدالله بن عمر المعروف بابن العرجاء فحمل عنهم القراءاتِ، وسمع من أبي القاسم الصقلي ... وقفل إلى بلده وتصدر للإقراء ... توفي بعد سنة ٥٤٠هـ(٢).

٤٧- ومنهم أبو زيد عبدالرحمن بن علي بن محمد بن سليمان التجيبي ... وقد رحل حاجاً صحبة ابن عمه أبي أحمد محمد بن أحمد بن معط التجيبي فأدى الفريضة، وسمع بمكة المكرمة أبا عبدالله الحسين بن أحمد بن طحال المقدادي في ذي الحجة سنة ٧٢٩هـ وجماعةً سواه، وأخذ القراءات بها عن أبي علي الحسن بن عبد الله ابن عمر القيرواني المعروف بابن العرجاء. توفي بعد الأربعين وخمسمئة من الهجرة(٣).

٤٨- ومنهم أبو الحسن محمد بن عبدالرحمن بن الطفيل العبدي الإشبيلي المعروف بابن عظِيمة، رحل حاجاً فروى بمكة المكرمة عن رزين بن معاوية، وكانت رحلته مع أبي علي منصور بن الخير الأحدب، توفي في حدود الأربعين وخمسمئة من الهجرة(٤).

٤٩- ومنهم أبو الحسن علي بن خلف بن رضا الأنصاري الضرير البلنسي الذي حج وأقرأ، وهناك أخذ عنه القراءات أبو الحسن بن كوثر. توفي سنة ٥٤٤هـ(٥).

٥٠- ومنهم أبو القاسم عبدالرحمن بن أبي رجا البلوي المقري ... رحل حاجاً في سنة ٤٩٧هـ فأدى الفريضة في سنة ثمان بعدها، ولقي بمكة المكرمة أبا محمد عبدالله ابن عمر بن العرجاء فأخذ القراءات عنه، ولقي أبا حامد الغزالي فسمع منه وأجاز له

---

(١) النفح، رقم ١٥٥.
(٢) التكملة رقم ١٣٥٦.
(٣) التكملة رقم ٢٠٧٥.
(٤) النفح، ٢، ١٥٥-١٥٦.
(٥) التكملة رقم ١٨٥٠.

تآليفه ... ونزل المرية وتصدر للإقراء، وخرج من المرية عام ٥٤١هـ قبل تغلب الروم عليها بعامٍ حيث توفي بوادي آش سنة ٥٤٥هـ.

٥١ـ ومنهم أبو عبدالرحمن مساعد بن أحمد بن مساعد الأصبحي من أهل أَرْيُولة، يعرف بابن زعوقة، ورحل حاجاً سنة ٤٩٤هـ فأدى الفريضة سنة خمس بعدها. ولقي بمكة المكرمة أبا عبدالله الطبري، فسمع منه صحيح مسلم، مشتركاً في السماع مع أبي محمد بن أبي محمد بن العرجاء، ولقي أبا بكر بن الوليد الطرطوْشي وأصحاب أبي حامد الغزالي.

ويروى أن الحاج أبا عبدالرحمن هذا لقي بالمشرق امرأة تعرف بصباح عند باب الصفا، وكان مساعد الأصبحي يقرأ عليها بعض التفاسير، وهنا جرى الحديث عن شعر شاهد: هل له صاحب؟ فسألوا الشيخ أبا محمد بن العرجاء فقال: لا أذكر له صاحباً، وحينئذ أنشدت صباح:

طلعت شمس أخيك ليلا
واستضاءت فمالها من مغيب
إن شمس النهار تغرب باللّيـ
ـل وشمس القلوب دون غروب!!

أدركه أجله في أُورِيولة سنة ٥٤٥هـ.

٥٢ـ ومنهم أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن محمد من أهل شنتمرية الغرب، له رحلة حج فيها مع أخيه عمر بن إسماعيل، ولقي بمكة المكرمة أبا علي بن العرجاء وأبا المظفر الشيباني ... وقد ذكره ابن الأبّار قبل ابن عيّاش المتوفى سنة ٥٤٦هـ(١).

٥٣ـ ومنهم أبو الحسن محمد بن خلف بن صاعد الغساني، من أهل شلب، لقي بقرطبة أبا الوليد بن رشد ... ورحل حاجاً فأدى الفريضة، وروى بمكة عن رزين بن معاوية وأبي الحجاج بن نادر. وقد تولى قضاء شلب بعد عودته، وتوفي سنة ٥٤٧هـ.

٥٤ـ ومنهم أبو محمد عبدالله بن عيسى بن عبدالله بن أحمد بن أبي حبيب،

---

(١) التكملة رقم٦٦٤.

صرف عمره في طلب العلم، ورحل إلى المشرق وجاور بمكة المشرفة، وأدركه أجله في هراة سنة ٥٤٨هـ(١).

٥٥ـ ومنهم أبو عبدالله محمد بن القاسم بن مسعدة البكري، من أهل وادي الحجارة على مقربة من مدريد اليوم ... له رحلة سمع فيها من ابن الأعرابي بمكة المشرفة قريباً من تاريخ ٥٤٩هـ(٢).

٥٦ـ ومنهم أبو محمد طارق بن موسى بن يعيش بن الحسين بن علي بن هشام المخزومي من أهل بلنسية، رحل قبل العشرين وخمسمئة من الهجرة فأدى الفريضة وجاور بمكة المكرمة، وسمع بها من أبي عبدالله الحسين بن علي الطبري، ومن الشريف أبي محمد عبدالباقي الزهري المعروف بشقران، أخذ عنه كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي عن مؤلفه(٣) ... ثم قفل إلى بلده ... ثم رحل ثانية إلى المشرق مع صهره أبي العباس الإقليشي وأبي الوليد بن خيرة الحافظ سنة ٥٤٢هـ وقد نيّف على السبعين، فأقام بمكة المكرمة مجاوراً إلى أن توفي بها عن سن عالية سنة ٥٤٩هـ.

٥٧ـ ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى ابن وكيل التجيبي، ويعرف بابن الإقليشي ... سمع من أبي بكر بن العربي ... ورحل إلى المشرق سنة ٥٤٢هـ، وجاور بمكة المكرمة سنين، وسمع بها من أبي الفتح الكروخي جامع الترمذي برباط أم الخليفة العباسي سنة ٥٤٧هـ... كان الناس يدخلون عليه بيته والكُتُب عن يمينه وشماله ... أدركه أجله في صَدَره عن المشرق بمدينة قوص من صعيد مصر في عشر الخمسين وخمسمئة من الهجرة(٤).

٥٨ـ ومنهم أبو الوليد محمد بن عبدالله بن محمد بن خيرة القرطبي المالكي ... أخذ عن ابن رشد، وخرج خوفاً من الموحدين: بني عبدالمؤمن بن علي، ثم بدا له أن يقصد القاهرة، لكنه خاف من وصولهم إليها ... فسافر إلى الصعيد فخاف أيضاً!

---

(١) النفح ٢، ص١٣٦.

(٢) التكملة رقم٣٥٥.

(٣) النفح ٢، ص٥١٣-٥١٤.

(٤) النفح ٢، ٥٩٩.

فمضى إلى مكة المكرمة وهنا قال: ما أنا إلا هربت منه إليه!! ثم دخل اليمن فقال: هذه أرض لا يتركها بنو عبدالمؤمن، فتوجه إلى الهند حيث أدركه أجله سنة ٥٥١هـ(١).

٥٩- ومنهم أبو الحسن عبدالملك بن أبي بكر يحيى بن عمرو بن إبراهيم الجذامي، من أهل قرطبة، سمع بمكة المكرمة من قاضي الحرمين أبي القاسم عبدالرحمن بن علي الشيباني الطبري، كان ذلك نحو سنة ٥٥١هـ.

٦٠- ومنهم أبو بكر عتيق بن أحمد بن عبدالرحمن الأزدي من أهل أوريولة، حج سنة ٤٨٩هـ، وسمع بمكة المكرمة من أبي الفوارس الزينبي، وحج سنة ٥٢٠هـ، وجاور وسمع بمكة المكرمة من رزين بن معاوية وزاهر بن طاهر الشحامي ... وصدر إلى بلده بروايات عليةٍ وفوائد كان يُقصد لأجلها. وأدركه أجله بأُوريولة سنة ٥٥١هـ.

٦١- ومنهم أبو أمية إبراهيم بن منبه بن أحمد بن أحمد الغافقي، من أهل المَرِيَّة ونزل مرسية ... رحل حاجاً فسمع بمكة المكرمة من أبي علي بن العرجاء أحاديث جعفر بن نسطور وغيرها في شعبان ٥٢٦هـ، وسمع أيضاً من أبي الفتح سلطان بن إبراهيم المقدسي، وقفل راجعاً إلى بلده... وأسمع صحيح البخاري آخر ذي الحجة سنة ٥٥٥هـ، وكان يحدث به عن سلطان بن إبراهيم عن كريمة المروزية التي قال عنها أبو ذر الهروي: إنها تحمل البخاري(٢).

٦٢- ومنهم أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن يعيش اللخمي من أهل بلنسية، وقد رحل حاجاً في سنة ٥٠٦هـ فأدى الفريضة في آخرها، ثم في سنةٍ بعدها، ولقي بمكة المكرمة رزين بن معاوية، وقد أدركه أجله بإشبيلية سنة ٥٥٦هـ(٣).

٦٣- ومنهم أبو أحمد بن محمد بن أحمد بن معط التجيبي، رحل حاجاً، ولقي بمكة المكرمة أبا علي بن العرجاء فأخذ عنه القراءات، وقفل إلى بلده، وتصدر للإقراء.

(١) هذا مما يؤيد أن الموحدين كانوا يصممون على وحدة العالم الإسلامي فكان لهم في كل الجهات من يسندهم. النفح ٢، رقم ٢٤٠.

د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٦، ص٢٨٣.

(٢) النفح ٢، ٦٠٥.

(٣) التكملة، رقم ١٥.

أخذ عنه أبو عبدالله التجيبي ابن عمر والده، وأجاز له في شهر رمضان سنة ٥٦٥هـ[١].

٦٤ـ ومنهم أبو محمد بن محمد المرجلي البطليوسي يروي عن أبي ذر الذي لقيه بمكة المكرمة سنة ٥٦٥هـ. وحدث عنه بمغازي ابن عقبة أبو القاسم خلف بن أحمد . . .

٦٥ـ ومنهم أبو بكر عبدالرحمن بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خلف بن إبراهيم ابن محمد بن أبي علي الأنصاري المرسي، سمع أبا علي الصدفي ولازمه واختص به، وقلما فاته مجلس من مجالسه ... ورحل حاجاً في سنة ٥٢٨هـ، فأدى الفريضة سنة تسع بعدها، ولقي بمكة المكرمة أبا المظفر الشيباني، وأخاه أبا القاسم عبدالرحمن، وأبا علي بن العرجاء وأبا سعيد حيدر بن يحيى الجيلي فسمع منهم ... وقفل إلى الأندلس سنة ٥٣٠هـ. بضاعتُه حمْلُ الآثار، على حد تعبير ابن الأبّار ... أدركه أجله بمرسية في شعبان سنة ٥٦٦هـ[٢].

٦٦ـ ومنهم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة... سمع أبا بكر بن العربي ... ورحل إلى المشرق سنة ٥٢٠هـ، وأدى فريضة الحج سنة ٥٢١هـ، ولقي بمكة المكرمة أبا الحسن بن رزين بن معاوية العبدري إمام المالكية بها، وأبا محمد بن صدفة المعروف بابن غزال من أصحاب كريمة المروزية، فسمع منهما وأخذ عليهما، وروى عن أبي الحسن علي بن عياش الغساني فأجمل عن أبي حامد الغزالي في تصنيفه، وعاد إلى مرسية سنة ٥٢٦هـ، وقد حصل في رحلته علوماً جمة ورواية فسيحة، وكان عالماً بالسنن والآثار... أدركه أجله بإشبيلية في متم ذي الحجة سنة خمسمئة وستة وستين من الهجرة، ودفن أول يوم من سنة ٥٦٦هـ[٣].

٦٧ـ ومنهم أبو مروان عبدالملك بن هشام الجذامي القرطبي، رحل حاجاً، ولقي بمكة المكرمة أبا علي بن العرجاء، فحمل عنه الموطأ وحدث به عنه، وله سماع أبي طاهر السلفي سنة ٥٦٧هـ.

٦٨ـ ومنهم علي بن أحمد بن أبي بكر الكناني القرطبي ابن حنين، رحل إلى المشرق

(١) التكملة، رقم ٧٤٤.

(٢) التكملة، رقم ١٦٠٣.

(٣) التكملة، رقم ٧٤٦.

فلقي أبا حامد الغزالي ... وعاد إلى بلدته فاس ليعلم الناس في المسجد المنسوب إليه إلى الآن والمعروف بسيدي حنين(١).

٦٩- ومنهم أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن عمر القرشي العلوي الإشبيلي، رحل حاجاً وسمع من أبي حفص الميانشي بمكة المكرمة سنة ٥٧٠هـ(٢).

٧٠- ومنهم أبو بكر محمد بن مالك بن أحمد بن ملك المقّري، من أهل ميرتلة، روى عن أبي بكر بن العربي، ورحل حاجاً فسمع بمكة المكرمة من أبي المظفر الشيباني في سنة ٥٣٤هـ، وقفل راجعاً إلى بلاده حيث قرأ عليه ثابت بن خيار الليلي كتاب سيبويه، وقد أجاز الأصبحي سنة ٥٧٨هـ.

٧١- ومنهم مفرج بن حماد بن الحسين بن مفرج المعافري من أهل قرطبة، صحبه محمد بن وضّاح في رحلته الثانية، وشاركه في كثير من رجاله وصدر عن الشرق معه، ثم كرّ إلى مكة المكرمة بعد موت ابن وضاح فنزلها واستوطنها إلى أن أدركه أجله(٣).

٧٢- ومنهم أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن كوثر المحارثي الغرناطي، سمع من أبيه أبي العباس وحج معه، فسمعا بمكة المكرمة جامع الترمذي سنة ٥٤٧هـ من أبي الفتح الكروخي، وأخذ القراءات بها عن أبي علي بن العرجاء القيرواني، وأبي الحسن علي بن رضا الكفيف البلنسي، وسمع منهم ومن أبي الفضل الشيباني، وأبي بكر بن أبي الحسن الطوسي ... وتصدّر للقراءة بغرناطة ... أدركه أجله سنة ٥٨٩هـ.

٧٣- ومنهم أبو محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن هاجر الأنصاري الذي خرج حاجاً سنة ٥٧١هـ، فجاور بمكة المكرمة، وسمع بها قبل أن يعود إلى بلده سنة ٥٩٦هـ، أدركه أجله سنة ٥٩٨هـ.

٧٤- ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد الأنصاري من (المَرِيّة)، ويعرف بابن اليتيم، وقد رحل إلى فاس قبل أن يخرج إلى الحج سنة ست وستين وخمسمئة من الهجرة، حيث لقي بمكة المكرمة عند أداء الفريضة أبا محمد

(١) التازي: القرويين، ج١ ص١٧٠.

(٢) النفخ ج ٢، ٦٠٦.

(٣) التكملة، رقم ١١٣٩.

المبارك بن الطباخ وأبا حفص الميانشي، تجاوز شيوخه المئة ... وقفل إلى بلاده، فقدم للقضاء والخطبة، توفي سنة ٦٢١هـ.

٧٥- ومنهم أبو محمد صالح بن محمد بن عبد الله بن حِرْزهم (ينطقه المغاربة حْرَازم) الأندلسي الأموي من ذرية عثمان بن عفان، عم أبي الحسين علي بن إسماعيل.. كان قد رحل إلى المشرق وحج فزار بيت المقدس وانقطع مدةً هناك بقريةٍ قريبة منه حيث اجتمع بالإمام أبي حامد الغزالي ... وإليه تنتسب العين المعدنية التي توجد بخولان (سيدي حرازم) غير بعيد عن فاس. أدركه أجله بهذه المدينة أواسط القرن السادس الهجري، ودفن على مقربةٍ من ضريح ابن أخيه علي بن إسماعيل(١).

٧٦- ومنهم أبو جعفر الحسن بن محمد بن الحسن الأنصاري من أهل لرية (من أعمال بلنسية) ... رحل حاجاً سنة ٥٧٢هـ ... وجاور بمكة المكرمة وأخذ بها عن أبي الحسن علي بن حميد الطرابلسي صحيح البخاري. وكان يرويه عن أبي مكتوم عيسى ابن أبي ذر الهروي، وسمع أيضاً عن أبي محمد المبارك بن الطباخ البغدادي ... وبعد عودته أصابه خُدر فمنعه من التصرف ... أدركه أجله سنة ٥٨٥هـ(٢).

٧٧- ومنهم أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن وضاح اللخمي من أهل غرناطة ... رحل حاجاً إلى المشرق فأدى الفريضة وأخذ القراءات بمكة المكرمة عن أبي يعلى بن العرجاء في سنة ٥٤٦هـ، وسنة سبع بعدها، وحج ثلاث حجات .. توفي في صفر سنة ٥٨٧هـ.

٧٨- ومنهم أبو عبدالله محمد بن أحمد بن موسى بن هذيل العبدري، من أهل مربيط، رحل حاجاً فسمع بمكة المكرمة من أبي الحسن علي بن حميد الطرابلسي ... ثم صدر إلى بلاده حيث أدركه أجله بمربيط سنة اثنتين وتسعين وخمسمئة للهجرة...

٧٩- ومنهم أبو بكر محمد بن علي بن خلف التجيبي الكاتب، من أهل إشبيلية، رحل حاجاً قبل الستين وخمسمئة للهجرة، ولقي بمكة المكرمة أبا حفص الميانشي وأبا الحسن

---

(١) شيد هذا الضريح بنو مرين، وجدَّده السلطان محمد بن عبدالله (محمد الثالث). السلوة للكتاني، ج٣، ص ٦٩-٧٠.

(٢) التكملة، رقم ٤١.

المكناسي وسواهما، وقفل إلى بلده ... توفي بعد المحنة الجارية عليه من لدن المنصور الموحدي سنة ٥٩٦هـ(١).

٨٠ـ ومنهم أبو محمد عبدالله بن علي بن أحمد الخولاني الأندلسي، له رحلة حج فيها، وجاور بمكة المكرمة، وتلقب برهان الدين، حدَّث عنه بعض أهل مرسية، لقيه بمكة المكرمة في سنة ٦٠٤هـ وسمع منه(٢)، لقيه بمكة المكرمة عن أبي الحسن بن مؤمن، أدركه أجله في رمضان سنة ٦٠٤هـ. بنى ببلده مالقة خمسة وعشرين مسجداً من صميم ماله، وعمل فيها بيده، وحفر بيده آباراً عدة أزيد من خمسين بئراً، غزا مع المنصور الموحدي بالمغرب ومع صلاح الدين بالشام(٣) ..! وهذا ما كنا بحاجة إلى تأكيده أن الموحدين كانوا إلى جانب صلاح الدين في فلسطين(٤) ...

٨١ـ ومنهم أبو الحجاج يوسف بن محمد بن عبدالله بن يحيى بن غالب البلوي المالقي المعروف بابن الشيخ. حجَّ وسمع بمكة المكرمة(٥) عن أبي الحسن بن مؤمن.. إلخ.

٨٢ـ ومنهم أبو عبدالله محمد بن حسن بن محمد بن يوسف بن خلف الأنصاري، من أهل مالقة ويعرف بابن صاحب الصلاة وبابن الحاج ... ورحل حاجاً فلقي عدداً من رجالات العلم، ولقي بمكة المكرمة أبا إبراهيم الخُجَنْدي، وأبا عبدالله بن أبي الصيف اليمني، وأبا إبراهيم التونسي، وأبا حفص الميانشي المجاورين هناك، أخذ عنهم وكان ذلك في موسم سنة ٥٨٣هـ، قبل أن يرجع إلى بلده ويستشهد في موقعة العقاب يوم الاثنين الرابع عشر لصفر سنة ٦٠٩هـ / ١٦ يوليو ١٢١٢م(٦).

وقد تحدث عن ابن صاحب الصلاة هذا علاوة على (التكملة لابن الأبّار) ابن عبد الملك المراكشي في (الذيل والتكملة)، وكذا ما تفرع عن هذين المصدرين

(١) النفح، ج٢، ص٥٧.

(٢) التكملة، رقم ٤١.

(٣) التكملة، رقم ١٤٢٧.

(٤) التكملة، رقم ٢٠٨٩.

(٥) التكملة، رقم ٢٠٨٩.

(٦) د.التازي: الطب النبوي بين المشرق والمغرب، مطبعة المعارف الجديدة بالرباط ـ رقم الإيداع القانوني ٢٠٠٠/٦٠.

الأساسيين ابتداءً من الديباج لابن عرضون ... وهكذا، فكما قلنا، أخذ ابنُ صاحب الصلاة عن مشايخ مكة المكرمة الذين نختصر الحديث عنهم في الأسطر التالية:

أولاً: أبو إبراهيم الخُجَنْدي الذي يذكره ابن عبدالملك باسم عبيد الله بن عبداللطيف الخجندي الذي سمع منه ابن صاحب الصلاة الأربعين حديثاً.

ثانياً: أبو عبد الله بن أبي الصيف (بالصاد) اليمني وهو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن علي بن عبد الله بن أبي الصيف، فقيه شافعي، أصله من مدينة زبيد، أقام بمكة المكرمة وتوفي بها، له عدد من الكتب منها (الأربعون حديثاً) جمعها عن أربعين شيخاً من أربعين مدينة، وهو من العلماء المشارقة الذين أجازوا أبا القاسم الملاحي، كما أنه كان من المراسلين لابن سليمان بن حوط الله[1].

ثالثاً: أبو إبراهيم التونسي، وهذا التونسي هو المكنى بأبي حفص ...

رابعاً: أبو علي الحسن بن حفص عمر بن عبدالمجيد المياغي. وهو من العلماء المشارقة الذين أجازوا أبا القاسم الملاحي على ما نقرؤه في التكملة.

وإذْ عرَّفنا بهؤلاء الأربعة الذين لقيهم ابن صاحب الصلاة في مكة المكرمة فإنه من المفيد أن نذكر أن ابن عبدالملك المراكشي أضاف إليهم اسم أبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الغساني .. إلى جانب اسمٍ آخر ممن لقيهم بمكة المكرمة، وهو أبو عبد الله محمد بن مفلح الذي أجاز ابن صاحب الصلاة لفظاً وخطاً على حدّ تعبيرهم[2] ...

٨٣ـ ومن أولئك نذكر أبا بكر عتيق بن علي بن خلف بن أحمد الأموي المرواني الذي حج سنة اثنتين وستين وخمسمئة للهجرة، فسمع بمكة المكرمة من علي بن عبدالله المكناسي، ثم قفل وتصدَّر للإقراء ... وتوفي في رجب سنة ٦١٢هـ[3].

٨٤ـ كما نذكر أبا بكر يحيى بن أحمد بن مسعود الأنصاري القرطبي الذي حج وسمع بمكة المكرمة من علي بن عبد الله بن حمّود المكناسي.. أدركه أجله سنة ٦١٤هـ.

---

(١) التكملة، الترجمة رقم ٩٦٠– ورقم ٢٠٥.

(٢) د. التازي: الطب النبوي ... ص٥٨–٥٩، مصدر سابق.

(٣) التكملة، رقم ١٩٤٠.

٨٥ـ ونذكر أبا بكر محمد بن يوسف بن أحمد بن معين بن ميمون الأزدي من أهل شريش، روى عن أبيه، ورحل حاجاً، فادى الفريضة، وسمع بمكة المكرمة من أبي محمد ابن الطباخ وصحب في السماع منه الشيخ أبا عبدالله التجيبي . . . أدركه أجله في ٢٤ من ذي القعدة سنة ٦١٤هـ.

٨٦ـ ومنهم أبو بكر محمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن العربي المعافري من أهل إشبيلية من بيت القاضي أبي بكر بن العربي، رحل إلى المشرق في رحلته الأولى سنة ٥٧٢هـ فادى الفريضة، وسمع في طريقه من عدد من العلماء، ثم رحل ثانيةً سنة ٥٩٦هـ فلقي طائفة من المشايخ، ولقي بمكة المكرمة أبا محمد يونس بن يحيى الهاشمي، وسمع منه صحيح البخاري ومسند عبد بن حميد، وغير ذلك، وأبا عبدالله ابن أبي الصيف اليمني، وأبا شجاع زاهر بن رستم الأصبهاني قدمها حاجاً، وسمع منه سنن الترمذي، توفي سنة ٦١٧هـ.

٨٧ـ ونذكر أبا عبدالله محمد بن علي بن محمد بن يحيى الأنصاري من أهل مرسية . . . رحل حاجاً فسمع بمكة المكرمة من أبي عبدالله بن أبي الصيف، وأبي محمد يونس ابن يحيى الهاشمي، وأبي شجاع زاهر بن رستم، وأبي الفتوح نصر بن أبي الفرج الحصري، وغيرهم قبل أن يعود إلى بلده مرسية حيث أدركه أجله نحو سنة ٦١٧هـ.

٨٨ـ ونذكر أبا عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن أحمد الأنصاري، المعروف بابن اليتيم . . . لقي بمكة المكرمة عند أداء الفريضة أبا محمد المبارك بن الطباخ وأبا حفص الميانشي . . . وقفل إلى بلده فقدم للفتيا . . . أدركه أجله على ظهر البحر سنة ٦٢١هـ.

٨٩ـ ونذكر أبا عبدالله محمد بن أحمد بن عطية بن موسى بن عبد العزيز الأنصاري من أهل دانية . . . حل حاجاً فادى الفريضة، وسمع بمكة المكرمة من أبي عبدالله بن أبي الصيف اليمني وغيره، أدركه أجله سنة ٦٢٣هـ.

٩٠ـ ونذكر أبا محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عفير الأموي . . . رحل حاجاً فسمع بمكة سنة ٦٠٤هـ جماعةً منهم أبو محمد يونس بن يحيى الهاشمي،

أخذ عنه صحيح البخاري عن أبي الوقت السجزي، وهو من أهل بغداد، جاور بمكة المكرمة وأسمع الحديث ... وبعد جولةٍ واسعةٍ عاد إلى بلده ... توفي بعد الثلاثين وستمئة للهجرة.

٩١ـ ونذكر أبا عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن غالب بن يعلى، من أهل مالقة يعرف بابن حريرة، وهو ينتمي أصلاً إلى غمارة من البربر ... رحل حاجاً فلقي بمكة المكرمة أبا محمد يونس بن يحيى الهاشمي، وأبا عبدالله بن أبي الصيف اليمني، وأبا شجاع زاهر بن رستم الأصبهاني، وأبا الفتوح نصر بن أبي الفرج الحصري وغيرهم، فسمع منهم وكتب عنهم كثيراً ... أدركه أجله سنة ٦٣٥هـ.

٩٢ـ ونذكر أبا الحسن علي بن أبي نصر فاتح بن عبد الله البجائي، والده رومي اعتنق الإسلام ... حج فسمع يونس بن يحيى الهاشمي بمكة المكرمة ... وبالقدس أبا الحسن ابن جبير. أدركه أجله في بجاية سنة ٦٥٢هـ(١).

٩٣ـ ونذكر أبا المكارم جمال الدين بن مسدي المهلبي الأزدي الأندلسي، فُوضت إليه خطابة الحرم الشريف بمكة، فكان كما يقال: "هذا السوار لمثل هذا المعصم"! وترجم لمن لقي من الأعلام... أدركه أجله سنة ٦٦٣هـ بمكة.

٩٤ـ ونذكر أخيراً أبا عبدالله محمد بن إبراهيم اليقوري، السفير المغربي الذي حمل رسالة ملك المغرب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ثاني ملوك دولة بني مرين إلى الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون الصالحي. وكان أبرز ما حمله المصحف الذي أهداه العاهل المغربي سنة ٧٠٣هـ إلى مكة المكرمة...

ويفسح لنا إهداء هذا المصحف إلى مكتبة مكة المكرمة المجال لاكتشاف جانبٍ آخر من التاريخ المجيد الذي يربط المغرب بمكة المكرمة، والذي يعبر بكثير من الدقة عن التعلق المتين بتلك الديار.

كان من مهمة السفارة المهمة التي حملت المصحف المذكور إلى مكة المكرمة أن تقف بالقاهرة لتحية ملك مصر الذي كان يشرف ـ كما هو معلوم ـ على خدمة الحرمين

(١) التكملة، رقم ١٩٢٣.

الشريفين، وليوصيه خيراً بالحجاج المغاربة الذين أخذوا يترددون بانتظام إلى الحجاز .. لقد كان أول ركب جهزه بنو مرين بعدما توقف ذهابه مدة بسبب بعض الفتن الداخلية التي حالت في المغرب الأوسط دون وصول الحجاج إلى مكة المكرمة.

وقد تحدث عن هذا الموضوع مصدران اثنان معاصران: أحدهما شرقي وهو «السلوك» للمقريزي، والثاني مغربي وهو «العبر» لابن خلدون ... وبما أن هذا الركب كان أول ما بعثه - كما قلت - المرينيون، فقد كان يكتسي أهمية خاصة، ولهذا نظمه يوسف تنظيماً استمر نموذجاً للأركب بعده من التي سنقرأ عنها من خلال الرحلات المغربية.

٩٥- وقد كان الركب يتوفر أيضاً على القاضي، وهو محمد بن زغبوش أحد أعلام المغرب، وقد بعث العاهل معه فرقةً عسكرية تناهز خمسمئة من رماة زناتة، كما بعث معه أموالاً كثيرة برسم توزيعها على سكان الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة.

٩٦- وقد كان في الركب أيضاً جماعة من رجالات الفضل والعلم برسم مصاحبة المصحف الشريف موضوع الحديث، ومن هؤلاء العلماء أبو عبد الله القصار كبير علماء المغرب، علاوة على أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اليقوري السالف الذكر الذي أدركه أجله بمراكش، والذي على ما يبدو من خلال الوثائق أنه كان المكلف الرئيس بشأن الربْعة القرآنية على ما يذكره المقّري في نفح الطيب، وعلى ما يؤكده ابن خلدون الذي يقول:

« ... فأمر (يوسف) بانتساخ مصحف رائق الصنعة، كتبه ونمقه أحمد بن الحسن البلياني التلمساني الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه، وفعل غشاءه من بديع الصنعة. واستكثر فيه من مغالق الذهب المنظم بخرزات الدرر والياقوت، وجعلت فيها حصاة وسط المغلق تفوق الحصيات مقداراً وشكلاً وحسناً، واستكثر من الأصونة عليه».

وقد وقف محمد بن مرزوق التلمساني على هذا المصحف بالحرم المكي حسب إفادته في تأليفه المعروف «المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن»(١).

ومن الطريف والمهم كذلك أن نقف على رسالة معاصرة صادرة من العاهل المغربي

(٣) تحقيق د. ماريا خيسوس بيغيرا - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ١٤٠٠هـ/ ١٩٨١م. الباب ٢٦ الفصل الثامن.

يوسف بن يعقوب إلى أمغار (كبير الأشراف) يطلب إليه أن يعين ثلاثة رجال من بين الأشراف المغاربة ليتوجهوا إلى مكة المكرمة مع من يتوجه برسم حمل الربعة القرآنية . . . وقد أُرِّختْ هذه الرسالة في ١١ صفر الخير سنة ٧٠٣هـ. ومن المهم والطريف كذلك أن نقف من خلال هذه الرسالة على حقيقةٍ تاريخيةٍ لم نكن نعرفها إلى الآن تلك أن ملك المغرب يعلن عن توجيهه الكسوة للكعبة المشرفة، وهي معلومة انفردت بها هذه الوثيقة.

والجدير بالذكر أن نقول في ختام هذه الصفحات: إن شريف مكة المكرمة على ذلك العهد أبا نُمَيّ بعث بوفادةٍ إلى العاهل المغربي جاءت مع الركب الذي كان قد حمل المصحف إلى مكة المكرمة، كانت الوفادة برئاسة ابنه لبيدة؛ حيث نجد أن الوفادة تلقى ضروب التكريم خلال زياراتها لمختلف أقاليم المغرب(١).

وإذا كانت كتب التاريخ والتراجم والفهارس قد رسخت في ذاكرتنا مدى اهتمام أسلافنا بمكة المكرمة من خلال هذه الأسماء التي تناهز مئة اسم، فإن هناك مصادر أخرى تصدت بصفة أكثر دقة وأكثر تفصيلاً، ويتعلق الأمر بالرحالين المغاربة الذين عرفوا كيف يبرزون التعلق بتلك البقاع المقدسة، ويرسمون صوراً جميلة بأقلام لتلك الديار، وخاصة منها مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف. . .

وإذا كانت عوامل الزمن قد أتت على الكثير من نصوص الرحلات التي وردت الإشارة إلى بعضها فإن هناك طائفةً من الرحلات التي نجت لحسن الحظ من الضياع وتناهت إلينا كلها أو بعضها بما كانت تحتضنه من معلومات ثمينة عن تلك الديار الغالية على كل مسلم .. وخصوصاً مكة المكرمة التي نجد لها في كل رحلة حيزاً خاصاً يختلف أسلوباً ومضموناً. وقد تفنن الرحالون في وضع العناوين الجميلة الدالة لرحلاتهم مما كان يترجم بذاته عن الشغف الذي يتملك المغاربة إزاء البيت العتيق، ومن هنا حبب إلينا أن نقوم بجرد مسرد كامل شامل لما نتوفر عليه من رحلات تجاوزت مئة رحلة. اشتملت على إفادات وشهادات معبرة عن مكة المكرمة وعن الكعبة بالذات وما يتصل بها.

---

(١) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب. ج٧، ص ٢٠٣، مصدر سابق.

ويجب علينا أن نؤدي عبارات الشكر والامتنان لأولئك الذين دونوا رحلاتهم الحجازية وقدموا فيها إلينا تلك الديار على مدى عدة قرون، بمن حكمها من قادة أشراف، وما شاهدته من منافساتٍ ساخنةٍ بين أولئك القادة سواء أكانوا من مصر أم من اليمن أم من المغرب كذلك..!

ثم كذلك نقدم عبارات التقدير والإكبار لكل الذين اهتموا بنشر تلك الرحلات والحديث عنها؛ لكونها تمثل تراثاً جميلاً في فضائنا الفكري[1].

لقد مكننا أولئك الرحالون من معرفة التاريخ العلمي لمكة المكرمة بما تركوه لنا من لوائح لعدد من العلماء والمشايخ الذين كانوا يعقدون لهم مجالس طوال اليوم حتى الليل على ضوء الشموع والمصابيح. وليس الرجال فقط، ولكن السيدات العالمات من أمثال الشيخة صباح المكية والشيخة كريمة المروزية اللتين كانتا حاضرتين في المجالس العلمية بالحرم الشريف ...

أولئك الرحالون مكنونا من معرفة أنواع الإنتاج الزراعي للمنطقة بكاملها من خلال ما كان يحتاج إليه الحجاج من طعام وشراب.

أولئك الرحالون مكنونا من معرفة الفئات الحاكمة والمتنفذة في المنطقة ممن عرفوا في التاريخ بأشراف الحجاز، بمن فيهم الحسنيون والحسينيون، بما عرف عنهم ـ أحياناً ـ من احتكاكات مع السلاطين، فقد قرأنا عن التجاء بعضهم إلى ملوك المغرب للاحتكام إليهم وأحياناً لبيعة رجاله أملاً في التخلص من هيمنة المماليك..!

أولئك الرحالون مكنونا ـ وهذا مهم ـ من معرفة مدى إسهام السيدة المسلمة في تأثيث تلك الديار وما يتصل بها من قريب أو بعيد مما يسهل على الحجاج أداء مناسكهم في أحسن الظروف ... ومما يشجع القيمين على تلك العتبات المقدسة حتى يظلوا شاعرين بأنهم معززون مكرمون ...

أولئك الرحالون مكنونا من معلوماتٍ جغرافية جعلتنا نعرف الكثير عما يفصل هذا الموقع عن ذلك، ومدى أهمية هذا دون ذاك.

---

(١) نذكر من هؤلاء زميلنا الراحل الشيخ حمد الجاسر مؤرّخ الجزيرة.

أولئك الرحالون مكنونا - كذلك - من متعة زائدة ونحن نقرأ عنهم هم، عن مشاعرهم، عن إحساساتهم وهم يجدون أنفسهم أمام الكعبة التي يتوجهون إليها خمس مرات - على الأقل - في اليوم على ما عرفنا . . .

أمامنا اليوم، ونحن نتحدث عن (مكة المكرمة في وجدان المغاربة) أو بالأَحْرى عن (الرحلات المغربية)، فيها المختصر وفيها المطول، فيها المخطوط وفيها المطبوع، فيها ما حرر بأقلام قوم ينتسبون إلى الغرب الإسلامي بما في ذلك بلاد الأندلس، وبلاد المغرب الكبير، وبلاد السودان . . ومنها كذلك ما حرر بأقلام غير إسلامية تمكن أصحابها من الدخول لمكة المكرمة متنكرين تحت أسماء إسلامية، لكنهم مع ذلك قدموا لنا صورةً عن تلك الديار من وجهة نظرهم . . . هي رحلات كما أشرنا تتجاوز المئة بكثير . . . سنقدمها واحدةً واحدةً حسب التسلسل التاريخي لوفاة أصحابها في معظم الأحيان، نعرضها بما أفادتْه من جديد عن مكة المكرمة، وسأكتفي بعرضٍ كاملٍ لمحتوى مئة رحلة ورحلة وقفت عليها بنفسي وملكتْها مكتبتي . . . إضافة إلى رحلاتٍ أخرى لا تحتوي على إضافاتٍ جديدة مهمة، ومع ذلك عنينا بجردها أيضاً تحت عنوان: مسرد الرحلات الإضافية؛ لكي نفسح المجال لمن يريد أن يستوعب الحديث عن سائر ما قيل عن الرحلات الحجازية المغربية.

أما الرحلات التي يقتصر الحديث على مجرد العابر من الرواية، والمفترض من الكلام، فقد رأينا عدم الاشتغال بها.

خُذْ ما رأيتَ، ودع شيئاً سمعتَ به
في طلعة الشمس ما يُغنيك عن زحل!!

مكة المكرمة في مئة رحلة ورحلة

لقد أمكننا أن نتعرف من خلال معظم المغاربة الذين دوّنوا رحلاتهم إلى الكثير مما قيل عن مكة المكرمة عبر العصور.

لقد عرف المغاربة ـ كما هو معروف ـ بأنهم متفوقون في أدب الرحلة الحجازية وموفقون فيها كذلك، يدل على ذلك ما تركوه من بصمات لهم في مختلف كتب التراث العربي، "لقد بزُّوا في هذا الفن غيرهم من المشارقة"(١).

وترجع أسباب اهتمام المغاربة بالرحلة والكتابة عن تحركاتهم وخاصةً في العهد الإسلامي، أولاً وبالذات، إلى أن الإسلام يجعل من الحج ركناً بارزاً من أركانه، فالمسلم ـ وهو يفكر في الثوابت التي تجعل منه مسلماً مثالياً ـ تنتصب أمام مخيلته مكة المكرمة والكعبة المشرفة سواء أكان من الشرق أم من الغرب، يرحل إليها بوجدانه خمس مرات في اليوم على الأقل في صلاته وفي توسلاته. ومن هنا يكون الهدف الأول هو تحقيق الأمل في زيارة تلك البقاع التي تشدّه إليها شداً، ومن هنا ندرك السر في توجه المغربي نحو المشرق، نحو مهد الإسلام ومهبط الوحي، كانوا يقصدون تلك الديار على الرغم مما يصلهم عنها من صعوبة المسالك وأخبار المهالك، على الرغم من العدد الكبير من الذين ابتلعهم البحر أو أودت بهم الفيافي والقفار والأوبئة القتالة، ممن أقبروا هناك على طول الطريق، فيهم العلماء والأمراء والسيدات والسادة، لا يبالون بشيء ما داموا قاصدين تلك الديار المحببة إليهم مهما كان الأمر، تلك الديار التي كانوا ينسون فيها كلّ المصاعب والمتاعب عندما يبلغونها، ويشهدون الكعبة المشرفة.

ومن ثمة كان بعض من يقصد البلاد الحجازية من الفقهاء والعلماء والأدباء يشعر بأن عليه ديناً يجب أن يؤديه لإخوانه من الذين لم تسمح لهم ظروفهم بالالتحاق بتلك الديار، من الذين كانوا يقنعون بسماع أو قراءة وصف تلك المعالم، وما تضمنته من عوالم.

---

(١) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي. نقله عن الروسية: صلاح الدين عثمان هاشم، طبعة ثانية، دار الغرب الإسلامي ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م. رحلات لحمد الجاسر، إصدار الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ص٥٨ وما بعدها.

وقد تجلى الشعور بذلك الدَّين في تحرير مقالات للتعريف بذلك المقام وبمن يحتضنه ذلك المقام من رجال أحياء وأموات، طبعاً مع وصف المراحل التي يمر بها الحاج من قرية أو مدينة؛ حيث يجتمع بإخوته هناك من سائر جهات العالم الإسلامي إلى أن يشهد موقف عرفة ... ذلك التعريف هو الذي نسميه بالرحلة التي يتحدث فيها صاحبها عن محطاته المتبعة سواء كانت براً أو كانت بحراً، وأخيراً جواً، مضيفاً إلى هذا حديثه ـ كما عرفنا ـ عما يعترضه في طريقه من مشاهدات، ومعرفاً بالآثار التي شاهدها، ومعطياً نبذة من المواقع الجغرافية التي يسلكها بما تحتوي عليه من نعوت وأوصاف ... وهكذا ازدهرت الرحلة نتيجة لهذا، واتسعت حركة استنساخ الرحلات المخطوطة وخاصة منها كتب الرحلة إلى الحجاز، يستصحبها الحجاج معهم للاستئناس وللقيام أحياناً بالمقارنات والمفارقات، والمنافسة على الزيادات وإضافة المعلومات التي لم يذكرها السابقون...

ويلاحظ أن تاريخ المغرب، وخاصة في القرون السادس والسابع والثامن الهجرية فما بعد، عرف ظهور مثل هذه الرحلات الحجازية بفضل تشجيع الناس بمن فيهم القادة والحكام لتوفير هذا النوع من المعلومات للمواطنين، ولم يقلل من وفرة الرحلة الحجازية والكتابة عنها إلا ما ظهر من رغبة لتفضيل الجهاد على الحج في أعقاب الاستخفاف المتوالي بالمسلمين في الغرب الإسلامي، وفي أعقاب ما تناهى إلى رجال الحُكم في البلاد المغربية مما يعانيه الحاج المسلم من تعسفات وإهانات في المراكب الأجنبية، خصوصاً عندما تعطل الأسطول المغربي! وبالأخص عندما فرضت المحاجرُ الصحية إجراءاتِها الصارمةَ بحجة ما قد يصيب الحجاج من وباء!

هنا ظهرت فتاوى لعلماء الإسلام رُددت أصداؤها في بعض المدونات المغربية... وهي تفضل أن يحافظ المسلم على عزته قبل أن يستسلم أمام الإهانات والإكراهات التي من شأنها إذلال المسلم والنيل من كرامته!..

ومع كل ذلك، فقد تكونت لدينا لائحة لطائفة من الأعلام الذين قصدوا الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، فيهم الكثيرُ ممن لم تصلنا مذكراتهم إلى اليوم، لكن فيهم جماعة ممن اشتهر ذكرهم بما خلفوه من أعمالٍ جليلة خلدت أسماءهم...

ونذكر في صدر المشاهير من هؤلاء الرحالين: أبا الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (ت٦١٤هـ / ١٢١٧م) الذي سار بالرحلة خطوات واسعة، وأصبح مرجعاً لمعظم الحجاج المغاربة الذين كتبوا في الرحلة الحجازية، وبخاصة منهم الفقهاء والكتاب، من أمثال الرحالة العالمي ابن بطوطة الذي قال عنه علامة الدنيا ابن مرزوق الخطيب كلمته العظيمة: "لا أعلم أحداً جال البلاد كرحلته"(١). لقد أصبح ابن جبير دليلاً للمغاربة في الطريق التي يسلكونها للوصول إلى مكة المكرمة، دليلاً حول المعلومات التي قدمها عن البيت الحرام، دليلاً عن المعالم التاريخية التي شاهدها والمواقع الجغرافية التي زارها، ودليلاً لهم حول ما يفعلون وما به يقومون...

وإذا عرفنا أن ابن جبير ـ ومعه زميلهُ ابن بطوطة ـ كان مرجعاً للحجاج المغاربة في الفترة السابقة من التاريخ، فإن علينا أن نعرف أن أبا سالم العياشي غدا بالنسبة إلى المغاربة مرجعاً قوياً في الفترات اللاحقة، إذ أمسى مرجعهم الذي يلجؤون إليه فيما يروون. ...

وإذا حاولنا أن نقوم بمقارنة بين عدد الذين دونوا رحلاتهم الحجازية من أطراف العالم الإسلامي عبر التاريخ، فإننا نصل إلى حقيقةٍ واضحةٍ تتمثل في أن بلاد المغرب، وأعني بها الغرب الإسلامي كله، سجّلت رقماً قياسياً بالنسبة إلى الجهات الأخرى، ولعل مرد ذلك كما ردده الناس مراراً تلك المسافة البعيدة التي تفصل المغاربة عن الحرمين الشريفين. وهكذا، فعلى مقدار بُعد الدار يكثر الحنين إلى تلك الدار عند العاشقين والمحبين!

وبهذا نفسر هذا العدد الكثير ممن دونوا رحلاتهم إلى تلك الجهات، كان فيهم العلماء والمؤرخون، والأدباء والشعراء، والأمراء والزعماء، فيهم المبصرون والمكفوفون ... ومنهم من دوّن رحلته بالدارجة حتى لا يحرم الذين لا يعرفون إلا تلك اللغة. ولم يقتصر حديث المغاربة عن مكة المكرمة والبيت الحرام على الرحلة المدونة بالنثر والشعر الفصيح، ولكنه تجاوز ذلك إلى ما نسميه في بلادنا بالشعر الملحون، وهو من التراث المغربي الأصيل الذي عالج كل الموضوعات التي عرفها الشعر الفصيح إن لم يكن تفوق

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة. ج ٤، ص١٠٠.

عليه في بعض الموضوعات. وهكذا نسجل هنا أن شعراء الملحون وهواته حرصوا ويحرصون على تعداد المواقع الجغرافية التي يمر بها الركب المغربي فيجمعون بين الجغرافية والتاريخ، كما أنهم يطربون بوصف المقام الشريف وما يشعرون به وهم يجدون أنفسهم في بقاعٍ وطئتها بالأمس قدم الرسول الكريم ﷺ، وهكذا تكون قصائدهم للآخرين بمنزلة قناديل تضيء لهم طريق المعرفة!

وهكذا نقرأ للحاج المنداسي وللحاج ابن مسايب من المغرب الأوسط، كما نقرأ للحاج محمد بن علي الدمناتي المسفيوي من المغرب الأقصى أداءً جميلاً يعبر عن مشاعره عندما سافر إلى الحجاز بقصد الحج أولاً وثانياً.

كما نقرأ لزميله الحاج إدريس بن علي الحَنْش قصائده في وصف المراحل والمنازل قبل المناسك والمشاعر...

كما نقرأ لغير هذين الشاعرين قصائد أخرى تفيض بالشوق والتطلع إلى رؤية تلك المعالم والمشاهد، مما يؤكد أن للمغاربة تفوقاً ـ فيما كتب ـ على غيرهم في التزلف إلى تلك الديار(1).

وقد قمنا بالوصف الدقيق لكل تلك المذكرات حتى لا يضيع الحديث عنها ولا يفنى، وحرصنا على أن نرتبها كما أشرنا حسب وفاة الذين سجلوها تيسيراً على المتتبعين والمعقبين.

كانت الرحلات قد رتبت من لدن الباحثين السابقين على نحو لا يخلو من تهافت... أحياناً حسب تاريخ الرحلة، وأحياناً حسب حروف مؤلفيها أو حسب عناوينها... وقد أحلنا على مصادر الرحلة ومراجعها بوصفها تراثاً إسلامياً وحضارياً، سجلناها شعوراً منا بأن أدب الرحلات في طريقه إلى الاختفاء، وتحريكاً لهمم الذين يرغبون في أن يعرفوا عن أطارف الأمس البعيد والقريب...

---

(1) د. التازي: ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي في طبعة فضالة، عام ١٩٧٦م، ص٤٢.
معلمة الملحون، القسم الأول من الجزء الأول والقسم الثاني من الجزء الثاني، تأليف محمد الفاسي، أكاديمية المملكة المغربية ١٩٩٢م مجموع في ملك الأستاذ محمد بن عبد الهادي المنوني رحمه الله.

وها هي ذي الصفحات التي تعتمد على عدد مهم من المصادر الموثقة التي سنتبعها بعروض لما جاء في أهم تلك الرحلات، مما نرى فائدةً في عرضه متحاشين التكرار قاصدين أن نبرز دور أولئك الرحالين بالمغرب في كتابة تاريخ تلك المشاهد بالمشرق، كتابتها وهم شهود عيان لا فرق بين زمان وزمان، وإنسان وإنسان، كان فيهم من حج واعتمر عن طريق البر مستعيناً بالمطايا والرواحل، ومنهم من حج بواسطة السفن والمراكب غير مكترث بالمخاطر والكوارث، ومنهم من أصبح يصل إلى الربوع عن طريق الأجواء التي لا تخلو بدورها من المغامرات والمعاكسات، وألححنا على ذكر التاريخ الشمسي إلى جانب التاريخ القمري لجعل القارئ في الصورة الصادقة لظروف الرحلة، وهل كانت تصادف الشتاء أو الصيف.

ورأينا في الأخير ألا نغفل "منافسة" العمرة للحج، وخاصة في العقود الأخيرة عندما وجد بعض الناس راحتهم في أن يقصدوا تلك الديار في غير موسم الحج الذي يتميز عادة بكثافة الحضور، يقصدونها خصوصاً في شهر رجب ورمضان، إذ أمسينا أمام مواسم أخرى تضاهي موسم ذي الحجة، واضطر المشرفون على شؤون موسم الحج إلى أن يدخلوا في حسبانهم مواسم جديدة في رجب أو رمضان لا تقل عن الموسم الأول، الإجراءات نفسها، والترتيبات نفسها باستثناء موقف عرفات.

مسرد مئة رحلة ورحلة

(١) ابن العربي ٥٤٣ هـ / ١١٤٨م

(٢) الشريف الإدريسي ٥٦٠ هـ / ١١٦٥م

(٣) ابن جُبير ٦١٤ هـ / ١٢١٧م

(٤) الباجي الإشبيلي ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨م

(٥) العبدري الحاحائي ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠م

(٦) ابن رُشيد السبتي ٧٢١ هـ / ١٣٢١م

(٧) البادسي ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣م

(٨) التُجيبي ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧م

(٩) مانسا موسى ٧٣٨هـ / ١٣٣٨م

(١٠) الأميرة الوالدة ٧٣٨هـ / ١٣٣٨م

(١١) الأميرة مريم ٧٤٥هـ / ١٣٤٥م

(١٢) الوادي آشي ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م

(١٣) المقَّري الجدّ ٧٥٩هـ / ١٣٥٨م

(١٤) البلوي ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م

ابن بطوطة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م

(١٥) الرحلة الأولى ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م

(١٦) الرحلة الثانية ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م

(١٧) الرحلة الثالثة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م

(١٨) الرحلة الرابعة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م

(١٩) ابن مرزوق الخطيب ٧٨١هـ / ١٣٧٩م

(٢٠) ابن خلدون ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م

(٢١) القلصادي ٨٩١هـ / ١٤٨٦م

(٢٢) ابن الصبّاح . . القرن التاسع الهجري

(٢٣) ابن أبي مَحَلِّي ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م

(٢٤) ابن عاشر ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م

(٢٥) المقَّري الحفيد ١٠٤١هـ / ١٦٣٢م

(٢٦) القيسي (ابن مليح) ١٠٤٨هـ / ١٦٣٩م

(٢٧) الحَجَري الأندلسي ١٠٥١هـ / ١٦٤١م

أبو سالم العياشي ١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م

(٢٨) الرحلة الثانية ١٠٦٨هـ / ١٦٥٨م

(٢٩) الرحلة الكبرى ١٠٧٢هـ / ١٦٦٢م

(٣٠) ابن سليمان الروداني ١٠٩٤هـ / ١٦٨٣م

(٣١) اليوسي ١١٠٢هـ / ١٦٩١م

(٣٢) الرافعي الأندلسي ١١١٠هـ / ١٦٩٨م

(٣٣) الهشتوكي ١١٢٧هـ / ١٧١٥م

(٣٤) أحمد بن ناصر ١١٢٩هـ / ١٧١٧م

(٣٥) القادري ١١٣٣هـ / ١٧٢٠م

(٣٦) الدلائي ١١٤١هـ / ١٧٢٩م

(٣٧) الغنامي ١١٤٢هـ / ١٧٣٠م

(٣٨) المنداسي ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م

(٣٩) الأميرة خناثة ١١٥٥هـ / ١٧٤٢م

(٤٠) أبو مدين الدرعي ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م

(٤١) سيدي بناني ١١٦٣هـ / ١٧٥٠م

(٤٢) المنالي الزبادي ١١٦٣هـ / ١٧٥٠م

(٤٣) الولتيتي ١١٦٨هـ / ١٧٥٥م

(٤٤) ابن الطيب الشرقي ١١٧٠هـ / ١٧٥٧م

(٤٥) العامري التازي ١١٧٠هـ / ١٧٥٧م

(٤٦) الهلالي ١١٧٥هـ / ١٧٦١م

(٤٧) ابن مسايب ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م

(٤٨) ابن عبدالسلام السلاوي ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م

(٤٩) الحضيكي ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م

(٥٠) الورثيلاني ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م

(٥١) الأمير المولى علي ١١٩٧هـ / ١٧٨٣م

(٥٢) العيني ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م

(٥٣) ابن عمار ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م

(٥٤) ابن عثمان ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م

(٥٥) الفاسي ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م

(٥٦) الشريف العباسي ١٢٢١هـ / ١٨٠٧م

(٥٧) الأمير المولى عبدالسلام ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م

(٥٨) الأمير المولى إبراهيم ١٢٣٤هـ / ١٨١٩م

(٥٩) المعسكري بورأس ١٢٣٩هـ / ١٨٢٤م

الناصري ١٢٣٩هـ / ١٨٢٤م

(٦٠) الرحلة الأولى ١١٩٦هـ / ١٧٨٢م

(٦١) الرحلة الثانية ١٢١١هـ / ١٧٩٧م

الزياني ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م

(٦٢) الرحلة الأولى ١٢٠٨هـ / ١٧٩٤م

(٦٣) الرحلة الثانية ١٢٢٦هـ / ١٨١١م

(٦٤) الحيوني ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م

(٦٥) ابن بابا التيجاني ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م

(٦٦) ابن طوير الجنة ١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م

أبو العلاء إدريس ١٢٦٧هـ / ١٨٥١م

(٦٧) الرحلة الأولى ١٢٢٥هـ / ١٨٠٩م

(٦٨) الرحلة الثانية ١٢٣٨هـ / ١٨٢٣م

(٦٩) الرحلة الثالثة ١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م

(٧٠) أنجال السلطان المولى عبدالرحمن ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م

(٧١) الغيغائي ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م

(٧٢) ابن الشيخ سيدي ١٢٧٤هـ / ١٨٥٨م

(٧٣) العلمي الوزاني ١٢٨٠هـ / ١٨٦٤م

(٧٤) التامراوي ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م

(٧٥) ابن البشير ١٣١٣هـ / ١٨٩٦م

(٧٦) ابن كيران ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م

(٧٧) السنوسي التونسي ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م

(٧٨) الإلغي ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م

(٧٩) ماء العينين ١٣٢٨هـ / ١٩١١م

(٨٠) السرغيني العمراني ١٣٢٩هـ / ١٩١١م

(٨١) الولاتي ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م

(٨٢) ابن عبدالهادي ١٣٣١هـ / ١٩١٣م

(٨٣) السبعي ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م

(٨٤) الكتاني بن جعفر ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م

(٨٥) البلغيثي ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م

(٨٦) مؤلف مجهول ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م

(٨٧) دنية الرباطي ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م

(٨٨) الغسال ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م

(٨٩) الجعايدي ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م

(٩٠) المنبهي ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م

(٩١) التميمي القيرواني ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م

(٩٢) التُوزاني الميضاري ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م

(٩٣) العياشي سُكَيْرج ١٣٦٣هـ / ١٩٤٤م

(٩٤) القاضي السائح ١٣٦٨هـ / ١٩٤٨م

(٩٥) الهواري ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م

(٩٦) الرهوني ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م

(٩٧) الحجوي ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م

(٩٨) ابن العتيق ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م

(٩٩) كنون ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م

(١٠٠) التازي ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م

(١٠١) محمد الخامس ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م

رحلة ابن العربي ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م

تحدث الناس كثيراً عن رحلة الإمام أبي بكر بن العربي الذي رحل إلى المشرق في مهمتين اثنتين على ما يتأكد:

الأولى: سياسية، وهي السفارة لدى المستظهر بالله العباسي من لدن يوسف بن تاشفين، وهي المهمة التي نص عليها ابن خلدون في مقدمته، وهو أولى من يعرف عن هذا الأمر، خصوصاً أنه قد أكد أن المهمة نجحت، حسبما تضمنه "مكتوب للخليفة بذلك منقول في أيدي الناس"(١).

المهمة الثانية: القيام بفريضة الحج وما يصحبها من طلب العلم ولقاء الرجال أخذاً وعطاءً. وتتضمن الرحلة، على ما يبدو من الشذرات التي وصلتنا منها، الحديث عن المهمتين معاً...

وهكذا فإن الرحلة ولو أنها تعدّ مفقودة، بيد أن ما نقل عنها في بعض أمهات الكتب يعطي فكرة عن أهمية المعلومات التي تضمنتها.

وأذكر - على سبيل المثال - ما أورده عبدالملك ابن صاحب الصلاة المؤرخ (٥٩٤هـ / ١١٩٨م) في تأليفه العظيم عن الموحدين حول (كتاب الرحلة) قال حين دخل بغداد وتعرف إلى سلطانها: "نعمت المعرفة التعرف بالسلطان والتشرف به عند التغرب في الأوطان، ونعم العون على العلم الرياسة بالأمن والاستيطان"(٢).

وفي اعتقادي أن هذه النصيحة التي تقدم بها ابن العربي في بداية زيارته لبغداد كانت تهدف إلى فتح الأبواب أمامه في الزيارات الباقية، وفي صدرها زيارته لمكة

---

(١) ابن خلدون، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت عام ١٩٢٦، ج٦، ص١٨٦. د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٥، ص٢٧٤، رقم الإيداع القانوني ٢٥ / ١٩٨٦، مطابع فضالة، المحمدية.

(٢) المن بالإمامة على المستضعفين، تأليف ابن صاحب الصلاة، طبعة ثالثة ١٩٨٧م، تحقيق د. عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، ص ١٨٥- ١٨٦، الرسالة الأولى التي نوقشت في جامعة محمد الخامس في ٢٨ فبراير ١٩٦٣م.

المكرمة لأداء مناسك الحج... ونحن نعرف أن أبا بكر بن العربي -على نحو والده الشيخ عبدالله- كانا يخلصان في المهمة التي عَهِد إليهما بها ابن تاشفين الذي كان على ما تحدث الناس عنه من فضل واستقامة، الأمر الذي كان ينقله الحجاج المغاربة عنه وبخاصة القاضي ابن القاسم الذي شهد له ابن العربي نفسه بقوله: ولقد وصل إلى ديار المشرق في هذا العام قاضٍ من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم، وذكر من حال هذا الأمير (المرابطي) ما ذكرته، ويؤكد ما أوردته، وقد أشاع القاضي المذكور ذلك بمكة المكرمة، وذكر أن الروم على شفى جرف من تضييقه عليهم وحصاره لهم[1]...

وعندما عدد المقّري تآليف ابن العربي [2] ذكر في آخرها[3] كتاب «ترتيب الرحلة» معلقاً بقوله: «وفيه من الفوائد ما لا يوصف»، وهنا أخذ يعدد بعض الفوائد فقال:

ومن الفوائد قوله: «شاهدت (المائدة) بطورزيتا مراراً، وأكلت عليها ليلا ونهاراً .. وكان الناس يقولون: مسخت صخرة، والذي عندي أنها كانت صخرة في الأصل قطعت من الأرض محلاً للمائدة النازلة من السماء ... وقد كنت أخلو فيها كثيراً للدرس» إلى آخر ما ذكره قائلاً: «وقد شرحت أمرها في كتاب (ترتيب الرحلة) بأكثر من هذا».

ومن الفوائد قوله: «كنت بمكة مقيماً في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وأربعمئة، وكنت أشرب ماء زمزم كثيراً، وكلما شربته نويت به العلم والإيمان، ففتح الله تعالى لي ببركته في المقدار الذي يسَّر لي من العلم»، قال: «ونسيت أن أشربه بنية العمل بالعلم، ويا ليتني شربته لهما حتى يفتح الله تعالى لي فيهما، ولم يقدر، فكان صَغْوِي للعلم أكثر منه للعمل»!!

وقد ذكره ابن بشكوال في «الصلة» فنعته بأنه ختام العلماء، وأنه رحل إلى المشرق

---

(١) إحسان عباس، الجانب السياسي من رحلة ابن العربي إلى المشرق، مجلة الأبحاث الجامعة الأمريكية (حزيران ١٩٦٣م) - رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل، ثم أيضاً مجلة الجامعة الأمريكية - بيروت - كانون الأول ١٩٦٨م.

(٢) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تاليف المقري، ج٢، ص٨٨ وما حواليها، نشر اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المغرب والإمارات.

(٣) نفح الطيب، ج٢، ص٣٧.

مع أبيه مستهل ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمئة ... ثم حج في سنة تسع وثمانين ... وقدم إلى إشبيلية بعلم كثير.

يذكر المقَّري في النفح أن ابن سعيد ما وفّى حافظ الإسلام أبا بكر بن العربي حقه، وأنه؛ أي: المقَّري، يحاول أن يملأ الفراغ بما يحضره في التعريف به.

وهنا يذكر بعض ما عرف عن القاضي ابن العربي من استقامة وصرامة، وإقبال على نشر العلم وبثه على الرغم من ارتباطاته بخدمة السلطان، ونحن نعرف أن الإمام ابن العربي سمع بالأندلس وبجاية والمهدية والإسكندرية ومصر ودمشق، لكننا نخصص هذه المناسبة لنشاطه العلمي بمكة المكرمة، ولو أن مكة كانت تعيش في هذه الأعوام ظروفاً قلقةً بسبب الفتن الناشئة(١) ... وهكذا نقرأ عن أخذه في مكة عن محدثيها ومفتيها أبي عبدالله الحسين بن علي بن الحسن الطبري الشافعي (٤١٨-٤٩٨هـ) الذي جاور بمكة، وحدث بالحرمين الشريفين. وأخذ عن أبي محمد عبدالله بن طلحة الأندلسي اليابري، وهو من شيوخ الزمخشري، أخذ عنه كتاب سيبويه. وعن أبي المعالي ثابت بن بندار الحمامي البقالي المقرئ المتوفى سنة ٤٩٨هـ، سمع منه نسخة دينار بن عبدالله الأهوازي عن أنس بن مالك.

وقد أخذ بمكة أيضاً عن جملة ممن سمع منهم في بغداد من أمثال أبي الفوارس طراد بن محمد الزينبي مسند العراق ونقيب العباسيين(٢)..

(١) السنجاري: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، ج١١، جامعة أم القرى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

(٢) ابن العربي: العواصم من القواصم حول مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، تحقيق وتعليق محب الدين الخطيب، ١٣٧٥هـ المطبعة السلفية.

الأحكام الصغرى لابن العربي، تحقيق سعيد أحمد أعراب، منشورات الأيسيسكو ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.



ابن العربي

الشريف الإدريسي ٥٦٠هـ / ١١٦٥م

مرّ المؤرخون لمكة وكأنهم لا يعرفون شيئاً عن إفادات الإدريسي الذي لا أشك في أنه زار الحرمين الشريفين وهو في مصر وبلاد الشام، إلى جانب رحلاته التي تحدث عنها المهتمون بحياته. ولا بد أنه اكتسب معرفة بأحوال البلاد وإحاطة بأهلها، وهذا الذي كان وراء دعوته من قبل روجار الثاني لقاعدة صقلية ... ولعل للظروف الدولية التي صادفت وجوده هناك أثراً في إهمال المعلومات التي أوردها عن مكة المكرمة(١)، والتي خفيت عن سائر الذين تناولوا تاريخ البلد الحرام. والمهم في هذه المرويات أنها تملأ فراغاً كبيراً مما شعرنا به في "العقد الثمين"، و"شفاء الغرام"، و"غاية المرام"، وما كان يتبع هذه التآليف من "منائح الكرم" إلى "تاريخ مكة" و"الحرم المكي" وغير ذلك مما كنت أرجع إليه فيما توفرت عليه مكتبتي المتواضعة.

فماذا عند الإدريسي من جديد في عهده عن مكة في كتابه المعلمة: «نزهة المشتاق»(٢) الذي كتبه عام ٥٤٨هـ؟ سنلاحظ منذ البداية أن الإدريسي يتجنب الأساطير المروية عن هيّان بن بيّان، ونلاحظ على العكس من ذلك أن مكة المكرمة تظل عنده القطب الذي يحيل إليه حتى لو تحدث عن «أهل الصّمان الذين كتب لهم الفقر بأمان»! وحتى لو كان حديثه عن قرية معدن النقرة التي يجتمع فيها حاج الكوفة والبصرة...

ثم إنه ما ينفك ذاكراً الحجيج ومسالكه إلى مكة، وهذا يعبر عن تعلق الرجل بالمكان ولو أنه أغفل الزمان. وهكذا نجده وهو يتناول الجزء الخامس من الإقليم الثاني يذكر أن فُرضة مكة هي جدة التي يذكر أن واليها تابع لشريف مكة الهاشمي الذي يقصد به ـ دون شك ـ هاشم بن فُلَيتة الذي تولى أمر مكة من سنة ٥٢٧هـ إلى سنة ٥٥١هـ، هاشم هذا هو الذي أقام الخطبة للعباسيين(٣)...

---

(١) المهندس الدكتور أحمد سوسة: الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية، ج٢، ص٢٧١ فما بعد ـ بغداد: نقابة المهندسين العراقيين ١٩٧٤م.

(٢) نشر النزهة، المعهد الجامعي الشرقي بنابولي في تسعة أجزاء.

(٣) السنجاري: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق د. جميل عبدالله محمد المصري، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ج٢، ص٢٤٥، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

ويؤكد الإدريسي في النزهة أن الهاشمي شريف مكة هو الذي يقبض صدقات جدة ولوازمها ومكوسها ويحرس عمالتها، ولها - وهي فُرضة مكة - مراكب كثيرة تتصرف إلى جهات كثيرة.

وهو يقول عن مكة: إنها قديمة أزلية البناء، مشهورة، معمورة مقصودة من جميع الأرض الإسلامية، وإليها محجهم المعروف، وهي مدينة بين شعاب الجبال، وطولها من المعلاة إلي المسفلة نحو ميلين، وهو من حد الجنوب إلى جهة الشمال، ومن أسفل جبل أجياد إلى ظهر جبل قُعَيْقِعان ميل.

والمدينة مبنية في وسط هذا الفضاء، وبنيانها حجارة وطين، وحجارة بنيانها من جبالها ...

وفي وسط مكة مسجدها الجامع المسمى بالحرم، وليس لهذا الجامع سقف، وإنما هو دائر كالحظيرة والكعبة، وهو البيت المسقف في وسط الحرم، وطول هذا البيت من خارجه من ناحية الشرق أربع وعشرون ذراعاً، وكذلك طول الشقة التي تقابلها في جهة الغرب[1].

وشرقي هذا الوجه باب الكعبة، وارتفاع الباب على الأرض نحو قامة[2]، وسطح الكعبة من داخل مساوٍ لأسفل الباب.

وفي ركنه الحجر الأسود، وطول الحائط الثاني الذي من جهة الشمال، وهو الشامي، ثلاث وعشرون ذراعاً، وكذلك الشقة الأخرى التي تقابلها من جهة اليمن.

ومع أصل هذه الشقة موضع محجوز في دائر، وطوله خمسون ذراعاً، وفيه حِجْر أبيض يقال: إنه قبر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وفي الجهة الشرقية من الحرم قبة العباس، وبئر زمزم، والقبة اليهودية، وما استدار بالكعبة كله حطيم يوقد فيه بالليل مصابيح ومشاعل. وللكعبة سقفان، وماء السقف الأعلى يخرج عنه إلى خارج البيت في ميزاب من خشب.

---

(١) الأزرقي: اخبار مكة، ج١، ص٢٨٩، تحقيق رشدي الصالح ملحس، مطبعة دار الثقافة، مكة، طبعة ثامنة، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

(٢) اخبار مكة، مصدر سابق، ص٣٠٧.

ونعتقد أن هذا الميزاب الذي كان على عهد الإدريسي من خشب هو نفسه ميزاب ابن رامشت الذي نقل السنجاري أن سنة خمسمئة وسبع وثلاثين شهدت وصول مثقال خادم الشيخ أبي القاسم بن رامشت صاحب الرباط المشهور، وصوله بعد موته بتابوته ومعه ميزاب كان قد عمله سيده للكعبة، فركب الميزاب(١).

قال الشريف الإدريسي: وذلك الماء (النازل من الميزاب) يقع على الحِجْر الذي قلنا: إنه قبر إسماعيل.

والبيت كله من خارج - على استدراته - مكسو بثياب الحرير العراقية، لا يظهر منه شيء، وارتفاع سمك البيت المذكور سبع وعشرون ذراعاً.

وهذه الكسوة معلقة فيه بأزرار وعرا، وصاحب بغداد المسمى بالخليفة يرسلها في كل سنة إليها فتكسى بها، وتزال الأخرى عنها، قال: وهذا مهم، ولا يقدر أحدٌ أن يكسوها غيره!

ومن خلال هذا النقل المعاصر تقريباً لهذه المعلومة، نستفيد أن ما قاله التقي الفاسي: "وفي سنة خمسمئة واثنتين وثلاثين كسا الشيخ أبو القاسم بن رامشت الكعبة"، كان يعني أن أبا القاسم المذكور كان يعمل لحسابه الخاص بتواطؤ مع هاشم بن فُلَيتة.

وقد حدث أن جرؤ الهاشمي هذا سنة خمسمئة وتسع وثلاثين على نهب ركب الحاج العراقي بالحرم الشريف وهم يطوفون، بسبب حدث وقع بين هاشم وأمير الحاج العراقي، فكان هذا سبباً لرد فعل من المقتفي الخليفة العباسي في بغداد (٥٣٠-٥٥٥هـ) تجلى في إنفاذ الخليفة المذكور ميزاباً جديداً عوض ميزاب ابن رامشت ... وفي السنة نفسها عمر سقف الكعبة، والدرجة التي يصعد منها إلى سطحها(٢).

بعد أن يتحدث الإدريسي عما يذكره أهل الخبر من أن الكعبة كانت خيمة لآدم عليه السلام قبل أن يهدمها الطوفان، وتأتي مدة إبراهيم وإسماعيل التي شهدت إعادة

(١) منائح الكرم للسنجاري، ج٢، ٢٤٦، تعليقات ٣، ٤، ٥.
أخبار مكة للأزرقي، ص٣١١-٣١٤.

(٢) منائح الكرم، ص٢٤٧.

البنيان، بعد ذلك يتحدث عن قضية الماء في مكة، وأنها لم تستتم إلا في أيام المقتدر من بني العباس (٢٩٥-٣٢٠هـ) ... ومياه مكة زعاق لا تسوغ لشارب، وأطيبها ماء بئر زمزم، وماؤها شروب غير أنه لا يمكن إدمان شربه ... وليس بجميع مكة شجر ثمر إلا شجر البادية.

ويسكن صاحب مكة في قصر له بالجهة الغربية بموضع يعرف بالمربعة على بعد ثلاثة أميال من مكة، وهو قصر مبني من الحجارة، وتجاوره حديقة قريبة العهد فيها نخيلات، وكثير من المُقل (الدوم)، وبها جملة شجر منقولة إليها... ويتحدث عن الناحية الأمنية في البلاد، فيقول:

وليس للهاشمي شريف مكة عسكر خيل، وإنما معسكره رحالة لا خيل لهم، وتسمى رجالته (الحرابة).

ولباسه البياض والعمائم البيض، وهو يركب الخيل، وسياسته حسنة، وحكمه عدل، وإنصافه ظاهر، وإحسانه غَدق على قدر إمكانه.

قال: ولمكة موسمان ينفق فيهما كل ما جلب إليها، أحدهما في أول رجب، والثاني موسم الحجيج. ولأهل مكة أموال صامتة وأحوال فاشية، ودوابّ وجمال، كما أن لمكة مخاليف وهي الحصون ... ولا زرع بها ولا حنطة إلا ما جلب إليها من سائر البلاد، والتمر يأتي إليها كثيراً مما حولها، والعنب يجلب إليها من الطائف التي ينعتها بالمدينة المتحضرة التي تأتي منها أكثر فواكه مكة ... والتي يضرب المثل بجودة بغالها! والغالب على ضعفاء أهل مكة الجوع وسوء الحال، وإذا خرج أحد عن مكة في كل جهة تلقاه أودية هنا جارية وعيون مطردة، وآبار غدقة، وحوائط كثيرة، ومزارع متصلة...

والرجل في حديثه عن المسالك التي تصل مكة بالمدينة لا يقتصر على المسلك الواحد، ولكنه يعدد الدروب لتختار منها ما تشاء، وهو في هذه الأثناء يشير إلى ما تأكد عندنا من أنه شاهد عيان، يشير إلى نمطٍ من الناس سمة الشقاء عليهم بادية!.

وفي معرض حديثه عن المدينة المنورة قال: إنها تقع في مستوٍ من الأرض، وإنها حارة سبخة، كان عليها سور قديم، وبخارجها خندق محفور، وهي الآن في حين تأليف

الكتاب (شوال ٥٤٨هـ / يناير ١١٥٤م) عليها سور حصين منيع من التراب بناه قسيم الدولة الغازي، ونقل إليها جملةً من الناس، ورتب المسير إليها ... وحولها نخل كثير وثمرها حسن ... وشرب أهلها من نهر صغير، يأتي إليها من جهة المشرق جلبه عمر بن الخطاب وجاء به إليها من عين كبيرة إلى شمال المدينة وأجراه بالخندق المحتفر بها، ومقدار مدينة يثرب على قدر نصف مكة ... وفُرضتها هي (الجار)، وهي قرية آهلة عامرة، وكانت قبل هذا مدينة قريبة من جدة (ينبع الحالية).

لقد وصف الإدريسي مكة على نحو ما وصف به مدينة سبتة مسقط رأسه، وعلى نحو هذا وجدناه يصف المسجد الأقصى بأنه ليس في الأرض كلها مسجد على قدره إلا المسجد الجامع بقرطبة في ديار الأندلس!

لقد ظلت مكة محور حديثه حتى عندما تحدث عن مدينة أودغشت في إفريقية الغربية عندما قال: إنها مدينة بين جبلين على نحو مكة ... وعندما قارن في آسيا بين مكة ومدينة الجُرْزُوان التي تقع هي كذلك بين جبلين...

وهكذا، فكما أشرت منذ البداية، فإني على مثل اليقين، إن لم يكن اليقين كله، من أن الإدريسي ـ بهذه المعلومات ـ سجل لنا رحلته إلى مكة، وأنه إذا لم يذكر طوافه وسعيه ووقوفه بعرفات، وإذا لم يذكر من لقيه من الرجال ومن زودوه بالمعلومات فلأنه يحترم موضوع التآليف الذي كان مخصصاً بالدرجة الأولى للشأن الجغرافي الصرف، على الرغم من أنه مع ذلك لم يستطع أن يحمي نفسه من ذكر حركة العمران بمكة المكرمة، وذكر رجال النفوذ بها، وذكر الحالة الاقتصادية والاجتماعية.

فإذا أضفنا إلى كل هذا أنه كان يتحدث إلى الملك روجار الثاني الذي لم يكن يشاطره في المعتقد ولا في الهوية أدركنا إذن طريقة الإدريسي في أدائه لهذه الرحلة التي رأيت من واجبي أن أذكرها في صدر الرحلات التي أسهمت، وبصفة واضحة، في التعريف بأم القرى، وما كان حديثاً بفترة.



الشريف الإدريسي في مجلس الملك روجار الثاني يشرح له تفاصيل كرته الأرضية الفضية (حوالي 548 هـ – 1154 م)

Al Idrissi présentant sa mappemonde à Roger II (1154)

الشريف الإدريسي في مجلس الملك روجار الثاني يشرح له تفاصيل كرته الأرضية

ابن جبير ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م

دخل ابن جبير مدينة مكة المكرمة في الساعات الأولى من يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ٥٧٩هـ، وهو الرابع من شهر أغسطس ١١٨٣م، على ما حرص على ذكره الرحالة الأندلسي الذي ـ كما نعلم ـ كان يعايش بين الذين يستعملون التاريخ الشمسي الذي يضبط فصول السنة . . .

وتعبيراً من ابن جبير عن الفرحة العارمة التي غمرته في هذه اللحظات الفريدة من حياته وصف "البدر الذي ألقى على البسيطة شعاعه، والليل قد كشف عنا قناعه، والأصوات تصك الآذان بالتلبية من كل مكان، والألسنة تضج بالدعاء، وتبتهل إلى الله بالثناء، فتارة تشتد بالتلبية، وآونة تتضرع بالأدعية، فيالها ليلةً كانت في الحسن بيضة العُقْر[١]، فهي عروس ليالي العمر، وبكر بنيات الدهر . . . وألفينا الكعبة الحرام عروساً مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان محفوفة بوفود الرحمن، فطفنا طواف القدوم، ثم صلّينا بالمقام الكريم، وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم ـ وهو ما بين الحَجَر الأسود وباب الكعبة ـ ودخلنا قبة زمزم، وشربنا من مائها. ثم سعينا بين الصفا والمروة، ثم حلقنا وأحللنا . . ."

وبعد وصف دقيق للمسجد الحرام والبيت العتيق، يذكر أن ظاهر الكعبة مكسو بستور من الحرير الأخضر رسم في أعلاها بالحرير الأحمر[٢]: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ**﴾ الآية واسم أبي العباس أحمد الناصر ابن عبدالله بن المستضيء بالله بن المستنصر بالله . . . وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنها الرخام حسناً، فيها سود وسمر وبيض . . . وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة . . .

ويتحدث ابن جبير عن الأشكال الشطرنجية التي أمر بها الخليفة الناصر الذي نجد نقشاً حوله على رخامة على هذا النحو: «مما أمر بعمله عبد الله وخليفته أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ابن عبدالله أمير المؤمنين، وذلك في سنة ست وسبعين وخمسمئة».

---

(١) العقر: أول بيضة للدجاج، والعقر أيضاً الذي لا ولد له.

(٢) يلاحظ أن لون الكسوة سيتحول إلى ألوان أخرى حسبما يقتضيه الوضع السياسي وشعار الدولة الحاكمة.

وتحت الميزاب ـ وهو من صفر مذهب سعته مقدار شبر ـ قبر إسماعيل غير بعيد عن قبر أمه هاجر ... بينهما سبعة أشبار، يقول ابن جبير معتمداً في إفادته على بني شيبة.

وبعد وصف قبة زمزم على عهده، يذكر قبة الشراب المنسوبة إلى العباس عم النبي ﷺ، والقبة اليهودية، وقد أصبحتا مخزناً لأوقاف البيت الكريم ... كما يتحدث عن الحجر الأسود..

ومن المهم أن نعرف عن الحرم الشريف أنه كان محدقاً بحلقات المدرسين وأهل العلم، وهذا الذي كانت تؤيده شهادات الحجاج الرحالين من الذين قرأنا عنهم من خلال كتب التراجم.

ولم يفت ابن جبير، وهو الحريص على اعتماد النقوش مصدراً حياً من مصادر التاريخ، أن يذكر أن للمهدي محمد بن أبي جعفر العباسي يداً في توسعة المسجد الحرام على ما يدل عليه نقش يقول: «أمر عبدالله محمد المهدي أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ بتوسعة المسجد الحرام لحجاج بيت الله وعمَّاره في سنة سبع وستين ومئة»، وعلى ما يدل عليه أيضاً ما وجده منقوشاً على ساريتين مقابلتين للركن الأسود دخولاً من باب الصفا: «أمر عبدالله محمد المهدي أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ بإقامة هاتين الأسطوانتين علماً لطريق رسول الله ﷺ إلى الصفا ليتماشى به حجاج بيت الله وعمَّاره على يد يقطين بن موسى، وإبراهيم بن صالح، في سنة سبع وستين ومئة».

وقد نقش بالذهب في باب الكعبة المقدسة: «مما أمر بعمله عبدالله وخليفته الإمام أبو عبدالله محمد المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين، صلى الله عليه وعلى الأئمة آبائه الطاهرين وخلد ميراث النبوة لديه، وجعلها كلمةً باقيةً في عقبه إلى يوم الدين، في سنة خمسين وخمسمئة»...

ويلاحظ ابن جبير أن الخطيب يوم الجمعة دعا للخليفة العباسي أبي العباس أحمد الناصر، ثم لأمير مكة مكثر بن عيسى ... الحسني، ثم لصلاح الدين ابن المظفر يوسف ابن أيوب، ولوليّ عهده أبي بكر بن أيوب(١).

---

(١) رحلة ابن جبير. نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ١٩٨١م، ص ٦٦.

ويذكر ابن جبير معلومةً طفق معظمُ الرحالين يرددونها من بعده، ويتعلق الأمر بأن حَمَام الحرم الشريف - وهي لا تحصى كثرة - لا سبيل لها أن تنزل سطح البيت العتيق، ولا تحل فيه بوجه ولا على حال، وهذا ما سترده بعض الرحلات، ويذكر أنه قرأ في (أخبار مكة) يعني تأليف أبي الوليد الأزرقي الذي كان يروي أحاديثه عن جده، أنه لا ينزل عليه طائر إلا عند مرض يصيبه(١)...

ولا يهمل ابن جبير في مذكراته عن البيت الحرام وسائل الإضاءة التي كانت تجعل من الليل نهاراً في مختلف العصور...

هذا إلى جانب أنواع التأثيث الأخرى من سجاد وكراسي ومنابر وشراجيب، لكن الظاهرة التي نظل في كشفها مدينين لابن جبير هي الحديث عن تعدد المذاهب الفقهية مما لا يخلو منه حديث لحاج أو زائر ممن كانوا يترددون إلى مكة. وهكذا نجد ابن جبير يتحدث عن الأئمة الأربعة، بالإضافة إلى إمام خامس هو إمام الزيدية، الذين لا يصلون الجمعة مع الناس، وإنما يصلونها ظهراً أربع ركعات، ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتهم ...

فهو يذكر الإمام الشافعي المقدم من الخليفة العباسي ... كما يذكر المالكي والحنفي والحنبلي وموقع كل واحد من هؤلاء الأئمة في المسجد الحرام(٢).

ولا شك أن ابن جبير استغرب من هذه التعددية التي لم يألفها في الأندلس والمغرب؛ لأن الغرب الإسلامي جميعه يعتنق المذهب المالكي الذي لاحظ الرحالة المغربي أن الإمكانيات المادية لإمام هذا المذهب هناك تعدّ زهيدة؛ فإنه أقل شمعاً، وأضعف حالاً؛ لأن مذهبه في تلك البلاد غريب على حد قول ابن جبير ...

وقد وقف ابن جبير في مكة المكرمة، في الحرم الشريف، في القبة العباسية على مصحف لأحد الخلفاء أصحاب رسول الله ﷺ، وبخط زيد بن ثابت، منتسخ سنة ثماني عشرة من وفاة رسول الله ﷺ، تنقصه ورقات كثيرة، وهو كبير الورقات واسعها...

---

(١) سنقرأ أن بعض الرحالين ينكر هذه المعلومة.

(٢) سنلاحظ أن هذه الظاهرة اختفت مع ظهور المملكة العربية السعودية.

وكان لمبنى الحرم الشريف اتصال ببعض الديار كدار زبيدة، ودار القاضي، ودار العجلة، وسواها من الديار . . .

وقد اهتم ابن جبير بتعداد أبواب الحرم الشريف على عهده باباً باباً، بادئاً من باب الصفا لكونه أكبر الأبواب، وهو الذي يخرج منه إلى المسعى، ويُثني بباب بني شيبة الذي استحب الدخول منه إلى الطواف على أن يخرج من باب الصفا. وكان مما لوحظ عليه نسبته باب إبراهيم إلى إبراهيم النبي عليه السلام مع أن القصد إلى خياطٍ كان يحمل اسم [1] إبراهيم!.

ويتحدث ابن جبير عن المسافة التي يقطعها الحاج في السعي بين الصفا والمروة حيث نصب الميلان الأخضران . . حيث نقش ما يلي: «أمر بعمارة هذا الميل عبدالله وخليفته أبو محمد المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين ـ أعز الله نصره ـ في سنة ثلاث وسبعين وخمسمئة».

وقد انتقد ابن جبير ما كان عليه الحال مما يتعرض له الساعون الذين لا يرتاحون من كثرة الزحام على الحوانيت الموجودة في المسعى يميناً وشمالاً[2]!

ولقد وجد نقيشة على سارية خارج باب الصفا تقابل السارية الواحدة من اللتين أقيمتا عَلَماً لطريق النبي ﷺ، وفيها: «أمر عبدالله محمد المهدي أمير المؤمنين ـ أصلحه الله تعالى ـ بتوسعة المسجد الحرام لما يلي باب الصفا؛ لتكون الكعبة في وسط المسجد، في سنة سبع وستين ومئة».

وتحت هذا النقش في أسفل السارية منقوشٌ أيضاً: «أمر عبد الله محمد المهدي . . بتوسعة الباب الأوسط الذي بين هاتين الأسطوانتين، وهو طريق رسول الله إلى الصفا . . .». وفي أعلى السارية التي تليها منقوش أيضاً: «أمر عبدالله المهدي محمد أمير المؤمنين . . . بصرف الوادي إلى مجراه على عهد نبيه إبراهيم عليه السلام، وتوسعة الرحاب التي حول المسجد الحرام لحاج بيت الله وعماره». وتحتها أيضاً منقوش ما تحت الأول من ذكر توسعة الباب الأوسط.

---

(١) الرحلة ص٧٤.

(٢) يلاحظ أن هذه الشكوى ظلت جاهزة عند معظم الذين كتبوا مذكراتهم عن حجهم.

ويقصد بالوادي المذكور الوادي المنسوب إلى سيدنا إبراهيم المشار إليه في القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾، وكانت الأمطار تغرق الحرم الشريف بالسيول فيطاف حول الكعبة سبحاً في بعض الأحيان!!

ولم يفت ابن جبير أن يتحدث عن موقع مكة بين الجبال المحدقة بها ... وقد كان لها ثلاثة أبواب قبل أن تصبح مدينة مفتوحة...

ويخصص ابن جبير فصلاً كاملاً لمشاهد مكة ... فذكر منها قبة الوحي في دار خديجة أم المؤمنين ... وقبة فيها كان مولد فاطمة الزهراء ... والحسن والحسين ... ومن مشاهدها مولد النبي ﷺ ... ودار أبي بكر الصديق. وقبة الصفا والمروة تنسب إلى عمر بن الخطاب أو إلى عمر بن عبد العزيز ...

ويتحدث ابن جبير عن جبل أبي ثور؛ حيث الغار الذي أوى إليه النبي ﷺ مع صاحبه الصديق رضي الله عنه ... منددا ببعض المبادرات التي يقوم بها هنا طائفة من الحجاج الجهلاء.

وقد ذكر ابن جبير في رحلته ما وجد في مكة المكرمة من الثمرات، وفوجئ بوفرتها وتنوعها على نحو أكثر مما يوجد بالأندلس، قال: «وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد، حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغصّ بالنعم والفواكه والتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمُقْل ... ومن أعجب ما اختبرناه البطيخ (لنتصور أن ابن جبير زار مكة في قلب الصيف، جمادى الأولى عام ٥٧٩هـ / أغسطس ١١٨٣م) كانت رائحته من أعطر الروائح وأطيبها ... يكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رؤياه عن أكلك إياه! حتى إذا ذقته خيل إليك أنه شِيب بسكر مذاب أو بجني النحل اللُّباب». قال ابن جبير: «ولعل متصفح هذه الأحرف يظن أن في الوصف بعض غلو، كلا لعمر الله! إنه لأكثر مما وصفت، وفوق ما قلت(١)...».

ويذكر من أخلاق المكيين وعادتهم مصافحة بعضهم بعضاً عند مطلع كل شهر

(١) الرحلة ص٨٧.

مهنئين متغافرين كفعلهم عند حلول الأعياد.

وفي معرض حديثه عن الأعمال الإنشائية والخيرية نوه بأحد رجال الفضل ممن كان يحمل اسم جمال الدين، المصلاوي الأصل، ولكل امرئ من اسمه نصيب ... هذا الرجل الذي جلب الماء إلى عرفات ... وجدد باب الكعبة وغشاه فضة مموهة بالذهب. هذا الرجل الذي كان يحظى بحب كبير من أبناء البلاد الذين قاموا بتكريمه بعد الوفاة حيث حجّجوا رفاته ودفنوه بالمدينة غير بعيد عن قبر الرسول عليه السلام.

ومن الطريف أن ينبهنا ابن جبير إلى أن من المحظورات في الحرم المكي أن أحداً مهما علا قدره وكثر يساره لا يمكنه أن يجد سبيلاً لتجديد بناء أو إقامة حطيم (Enclosure)[1] أو غير ذلك مما يختص بالحرم المبارك!!

ولو كان هذا الأمر مباحاً لتمكن أهل الثراء من جعل حيطانه عسجداً وترابه عنبراً ... فلا بد إذن من إذن الخليفة الذي ـ كما نعلم ـ لا يسمح بترويج اسم أيٍّ كان غير اسم الحاكم!

ويتحدث ابن جبير عن مركز شهر رجب عند المكيين ... فهو أكبر أعيادهم يتوارثون تعظيمه خلفاً عن سلف متصلاً ميراث ذلك من الجاهلية، كانوا يسمونه (منصل الأسنة)، يحرمون فيه القتال.

وللعمرة الرجبية ذكر لا يبلى، وخاصة في اليوم الأول من رجب، وقد شاهدالرحالة الأندلسي هودج الشريفة جمانة بنت فُلَيتة عمة الأمير مكثر[2] .. مصحوبة بهوادج حرم الأمير وحرم قواده. ولم يبق في مكة إلا من خرج للعمرة من أهلها ومن المجاورين ... فكدنا لا نتخلص إلى مسجد عائشة من الزحام وانسداد ثنيات الطريق بالهوادج ... والنيران قد أشعلت بحافتي الطريق، والشمع بين أيدي الإبل ...!

واجتمع الناس قبيلة قبيلة، حارة حارة ... شاكّين في الأسلحة فرساناً ورجالاً ...

---

(١) يتردد مصطلح الحطيم عند معظم الرحالين القدماء، وقد قرأنا أن الإدريسي يرى أن الحطيم هو كل المساحة التي تدور بالكعبة، وسوف نقرأ وجهات نظر أخرى.

(٢) هو من الطبقة الثالثة من الأشراف الذين حكموا الحرمين: الهواشم بعد الطبقة الأولى الموسويين، والثانية طبقة السليمانيين، على ما سنرى عند الحديث عن ابن بطوطة.

كانوا يرمون بالحراب إلى الهواء ويبادرون إليها لقفاً بأيديهم... وربما رمى بعضهم بالسيوف في الهواء... ويستلقونها قبضاً على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم، إلى أن خرج الأمير يزحف بين قواده، وأبناؤه أمامه... وقد امتلأت الجبال والطرق والثنيات بالنظارة.

وبعد الميقات ... وصل إلى المسجد الحرام فطاف والقراء أمامه ... وخرج إلى المسجد فلما فرغ من السعي استلت السيوف أمامه، ثم توجه إلى منزله ... والناس بين هذا وذاك يتغافرون، والنساء كذلك، والكل لبس أفخر ثيابه ...

وبعد أن يطرف ابن جبير قراءه بأخبار عن قبائل من اليمن وتعرف بالسرو ... نقل أخبارها عن فقيه من اليمن يعرف بابن أبي الصيف ... يستقبلون البيت عند صلاتهم فيسجدون دون الركوع، وينقرون بالسجود نقراً، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة، ومنهم من يسجد الاثنتين والثلاث والأربع ... ثم يسلمون أو يقومون من دون تسليم ولا جلوس للتشهد..!

كلّ هذه المشاهد في مكة المكرمة حكى عنها ابن جبير.. إلى قصص أخرى عن هؤلاء السرو ... وقد كان من المشاهد المثيرة التي حكى عنها ابن جبير مما وقع داخل الحرم المكي ما حدث في اليوم المخصص لطواف النساء.

لقد ذكر أنه في اليوم التاسع والعشرين من رجب ٥٧٩هـ / ١٧ نوفمبر ١١٨٣م، وكان يوم خميس، أفرد البيت للنساء خاصة، فاجتمعن من كل أوب، ولم تبق امرأة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم... فلما لم يبق حول البيت أحد من الرجال بادرت النساء إلى الصعود إلى البيت المبارك حتى كاد الشيبيون لا يخلصون بينهن عند هبوطهم من البيت! وتسلسل النساء بعضهن ببعض وتشابكن حتى تواقعن، فمن صائحة ومعولة ومكبرة ومهللة..! وظهر من تزاحمهن ما ظهر من السَّرو اليمنيين.. وتمادين في ذلك صدراً من النهار وانفسحن في الطواف... وتشفين في تقبيل الحجر واستلام الأركان... كن مع الرجال مسكينات مغبونات، لا يرين البيت الكريم ولا يلجنه ويلحظن الحجر المبارك ولا يستلمنه... فهذا اليوم عندهن الأكبر، والأزهر الأشهر...

ثم يتحدث عن العادة المكية في شهر شعبان ... وعن اعتقاد العامة أن ماء زمزم

يفيض ليلة النصف من شعبان!

والجميل في رحلة ابن جبير أنه يقوم بتقديم يومياته لما يجري في مكة المكرمة والبيت الحرام طوال الشهور حتى نأخذ فكرة مسبقة عما ينتظرنا هناك إن كنا ممن يخططون للزيارة!

وهكذا نجده وهو يعيش في مكة المكرمة مع إطلالة ليلة الاثنين ثاني رمضان سنة ٥٧٩هـ / ١٩ ديسمبر ١١٨٣م، وما أدراك ما رمضان بالمسجد الحرام!! نجده يتحدث عن الحركة المتميزة التي شاهدها المسجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير المشاعل وتوزيع الأئمة لإقامة التراويح، ما بين الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية والمالكية الذين توزعوا على ثلاثة قراء يتناوبون. لقد كان المالكية أحفل جمعاً وأكثر شمعاً بهذه المناسبة؛ لأن قوماً من التجار المالكيين تنافسوا في ذلك فجلبوا لإمام الكعبة شمعاً كثيراً، من أكبره شمعتان نصبتا أمام المحراب فيهما قنطار!

ويلاحظ أن ابن جبير يستعمل مصطلح (أسبوع) للدلالة على سبعة أشواط على نحو ما سيفعله ابن بطوطة مما خفي على بعض الناشرين!!

وحديثه عن عادة "التسحير" في بعض الصوامع يذكّرنا بما يسميه المغاربة "التهليل" الذي يقصد به تأنيس الذين يسهرون حتى وقت السحر بالذكر والتوسل ... كما تذكّر القناديل المرفوعة في المنارات بما يوجد عليه الحال في جهات أخرى انتظاراً لوقت الإمساك ...

وقد رأى ابن جبير من الأمانة أن يتحدث عن العمرة التي قام بها بعض كبار القوم وكيف تتم المحافظة على الأمن ... وكان الأمر يتعلق بسيف الإسلام الأمير طُغْتِكين بن أيوب أخي صلاح الدين الذي كان في استقباله الأمير مكثر السالف الذكر حيث فتح البيت الحرام تكريماً للزائرين ...

وبعد هذا يتحدث عن تراويح العشر الأواخر من رمضان بالمسجد الحرام، وما أكثرها بهجةً وإشراقاً بما فيها من صلاة القيام، ولا أدري لِمَ لم يتحدث ابن جبير عن تناول الإفطار داخل الحرم بما يحتف به من نثير وعبير لدى المسلم المستنير، ولا ينبئك مثل خبير! وقد ذكرتني حكايات ابن جبير بما يتسابق إليه أطفال مكة عند المحاريب للإمامة

بالحاضرين، ذكرتني في الحال بالمساجد الكبرى بالديار المغربية عند أواخر رمضان ...

ويستهل شوال وهو فاتحة أشهر الحج المعلومات المباركات، وكان يصادف شهر يناير المعروف بطقسه البارد وقد لبس الناس أثواب العيد ... وقاموا بأداء الأسبوع ... ويتصافح الناس ويتبادلون التهاني ...

وينتقل ابن جبير إلى مناسك الحج فيتحدث عن ظهور هلال ذي الحجة ليلة الخميس سنة ٥٧٩هـ / ١٥مارس ١١٨٤م.. والحديث عن هلال ذي الحجة بالنسبة إلى الحجاج حديث مهم؛ لأنه يكشف عندهم عن سر يعلق الحجاج عليه آمالاً كبرى تعني الرغبة في الوقوف بعرفات يوم الجمعة! "وكأن الحج - يلاحظ ابن جبير - لا يرتبط إلا بهذا اليوم بعينه!!" .

كانت السماء مملوءة بالغيوم (١٥ مارس)، ومع ذلك كبر أحد الحاضرين فكبر الناس لتكبيرته، وانطلقوا نحو القاضي حرصاً منهم على تثبيت الوقفة يوم الجمعة، لكن القاضي جرّح شهادتهم أسوأ تجريح قائلاً: لو أن أحدكم يشهد برؤيته للشمس تحت ذلك الغيم الكثيف لما قبلته، فكيف برؤيته هلالاً ...؟!

ذكرْتُ هذه القصة لأنه ستظل حديث الموسم، ولأنها تتكرر كل سنة عند الحجاج كلما صادف اليوم ٢٩ أو ٣٠ عشية أربعاء أو عشية خميس!!

وصعد الناس إلى عرفات عبر منى ... ويحرص ابن جبير على تحديد المواقع على نحو ما حدده نبي الإسلام ﷺ حتى لا يقع الحجاج في خطأ...

وعلى عادته يقدم ابن جبير أنباء مفيدة عن وصول أمير الحج العراقي الذي كان يصحبه عدد من أمراء الأعاجم الخراسانيين، وعدد من النساء الخواتن، والسيدات بنات الأمراء.

ومن الطريف أن نسمع عن مقدم الأمير العراقي ... وعن محلته المتنقلة بمضاربها وقبابها المتعددة المقاييس بما كان يدور بها من حاجز كان بمنزلة حدود لهذه المدينة المتنقلة[١] ... كان هذا يذكرني بما يعرف بالمغرب: (أفراك) الذي سيتحدث عنه بعض الرحالين المغاربة من أمثال البلوي وابن بطوطة ...

---

(١) رحلة ابن جبير، ص ١٣٧، مصدر سابق.

ويتحدث ابن جبير وهو بالمزدلفة عن هذه الوفرة الكبيرة من الشموع "فيخيل للناظر إليه أن كواكب السماء كلها نزلت به" . ومن مزدلفة يستصحب الناس حصيات الجمار التي نعرف عن عددها وعن محل رميها ... وانحدر الناس إلى مكة في اليوم الثالث .. ولا يغفل ابن جبير الحديث عن (الكسوة) التي أعدها الأمير العراقي للكعبة على ما كانت عليه العادة آنئذ بما تحتويه الكسوة من تطريز يتضمن اسم الخليفة والدعاء له على ما تقتضيه المراسيم ...

ويُخَصَّص يوم لأصحاب عراق العجم (الفرس) الذين لا يملكون أنفسهم من فرط الطرب أن يلقوا بأنفسهم على باب الكعبة إلقاء الفراش بنفسه على المصباح!! وعادتْ أحوال السّرو اليمنيين بالنسبة إلى هؤلاء الأعاجم حالاً تتسم بالتؤدة والوقار!!

ويختم ابن جبير حديثه عن سوق المسجد الحرام الذي يباع فيه كل شيء من الدقيق إلى العقيق! ومن البر إلى الدر ...

لقد كانت مدة مقام ابن جبير بمكة من يوم وصوله إليها إلى يوم إقلاعه ثمانية أشهر وثلث الشهر ... والله لا يجعله آخر العهد بحرمه الكريم، يختم الرحالة الأندلسي.

الباجي الإشبيلي ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م

كم كنا نتمنى أن نقف على النص الكامل لرحلة أبي مروان الباجي الإشبيلي إلى المشرق حيث قصد فيها مكة المكرمة ... لكننا لم نقف إلاّ على ملخصها(١).

لقد وصل أبو مروان إلى مكة - شرفها الله - لأربع خلون من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين وستمئة (٢٨ يوليو ١٢٣٧م) فنزل بالأبطح، وهو بين مكة ومنى، ولما قضى فريضة الحج (تاسع ذي الحجة) نزل بدار إمام المالكية الذي يرى زميلنا الدكتور محمد ابن شريفة أنه أبو البركات عمر بن محمد التوزري الذي ولي الإمامة في سنة ٦١٤هـ، وكان يسكن بباب العمرة الذي كان يحتضن عدداً من المراكز العلمية المهمة في مكة. ويلاحظ أن النشاط العلمي لأبي مروان بمكة المكرمة كان محدوداً جداً، ولعل ازدحام الموسم كان وراء الاقتصار على إمام المالكية(٢).

ولعل للتوزري هذا صلةً بنزيل الحرم الأمين الشيخ أبي عمر عثمان بن محمد بن عثمان بن أبي بكر بن محمد بن داود التوزري المالكي الذي عدّه القاسم بن يوسف التجيبي السبتي من شيوخه في كتابه «مستفاد الرحلة والاغتراب»(٣).

والمعروف عن أبي مروان الباجي أنه من الشخصيات الأندلسية المتنفذة، وقد كان

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة، تحقيق د. إحسان عباس، ج٥، ص٦٨٩.
أبو مروان الباجي ورحلته إلى المشرق ٥٦٤-٤٣٥، تقديم وتحقيق د. محمد بن شريفة (كتاب دعوة الحق)، رقم الإيداع القانوني ٢٠٠٠ / ١٨٥٦. د. محمود علي مكي: أثر الحج في الثقافة الأندلسية، بحث قدم للندوة الدولية حول طرق الحج، القاهرة، يونيو ٢٧-٢٨ / ٢٠٠٢م.

(٢) يكتشف الدكتور ابن شريفة أن نشاط أبي مروان بدمشق كان كبيراً ظهر أثره فيما بعد بالمغرب، فقد لقي العلماء هناك وروى عنهم ورووا عنه، ومنهم أبو عمرو عثمان بن البطاح، وسمع منه كتابه المشهور في علوم الحديث. ورواية أبي مروان هي التي وصلت إلى المغرب وتداولها الناس ... المصدر السابق لابن شريفة، ص٤٤- ٦٥، ص١٠٢، تعليق ١٥.

(٣) مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق وإعداد عبدالحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ص ٤١٥-٤١٦.

قاضي الجماعة، لكن الظروف العصيبة التي عاشها جعلته يقدم على هذه الرحلة عبر البحر إلى أن وصل إلى عكا ميناء فلسطين، ثم يرحل بطريق البر إلى دمشق التي وصلها لسبع خلون من رمضان (٣ مايو ١٢٣٧م)؛ حيث أقام إلى منتصف شوال فخرج منها مع الركب الشامي الذي مضت له سبعة أعوام لم يتوجه فيها إلى مكة بسبب مضايقة التتار.. فصار إلى بصرى ثم إلى محطة الأزرق ثم إلى تيماء ثم إلى خيبر، ثم إلى المدينة المنورة التي أقام بها يومين، ثم إلى ذي الحليفة التي تقع على بعد سبعة أميال من المدينة، ومنها إلى ميقات أهل المدينة، وهناك ارتدى الإحرام إلى مكة التي كان قد وصلها ابن جُبَير قبله بعقود قليلة.

العبدري الحاحائي ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م

أما عن رحلة أبي عبدالله محمد بن محمد العبدري الحاحائي[١] (٦٨٩هـ / ١٢٩٠م) فقد خصص المؤلف فيها فصلاً من (رحلته المغربية) لدخوله إلى البلد الأمين الذي تم يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة سنة ٦٨٨هـ (٢٣ ديسمبر ١٢٨٩م) والفصل فصل شتاء[٢].

لقد صاغ هذا العالم الجليل بقلمه العربي السيال، مع أنه ينتسب جغرافياً إلى فضاء الأمازيغ، صاغ عبارات تفرض علينا أن نلحظ ما تتضمنه من نثر تاركين النظم لأهل النظم ... وأن نتمعن بعض فقراتها، ولا سيما أن الرحالة المغربي المشهور ابن بطوطة اقتبسها، فكانت مما حيّر تراجمة الرحلة البطوطية من الفرنسيين على الخصوص ...

يقول العبدري:

«وفي يوم التروية (٨ ذي الحجة) دخلنا البلد الأمين مقر المجد الصميم والشرف المكين، فخر بقاع الأرض كلها على مرّ السنين، فأقسم بالله أعظم يمين قسماً لا يكذب: ما حُرم سكناه إلا ذو حظ غبين»!!

وبعد قطعة شعرية لامية في المعنى يقول في أولها:

بلد نحوه يحن الرسولُ
وبه عقلت قديماً عقول

بعد ذلك يعود إلى القول:

يا له مشهداً شهد له التنزيل بالتفضيل، وسما عن أن يقرن بعديل أو مثيل، ما كاده أحد إلا وشبا حدّه فليل، ولا مال إليه بظلم إلا والآفات عليه تميل، ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل! بلد كأن نفوس الخلق عجنت من طينته، فالخواطر مشغولة بتصور

(١) الحاحائي: نسبة إلى حاحا جنوب المغرب، ومن المؤلفين من يقول: الحاحي، ومنهم من يقول: الحيحي.

(٢) حقق الرحلة وقدم لها وعلق عليها زميلنا الراحل الأستاذ محمد الفاسي، رئيس جامعة محمد الخامس، ضمن سلسلة الرحلات، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م. لكن كثرة الأخطاء في الطبع حملنا على العودة لمخطوطة الخزانة العامة رقم ١٠١٢د.

زينته، انزعج نحوه عقل طالما سار على هيئته، وابتذل بالسعي بدن نشأ على سكينته، يقطع إليه ميلاً بعد ميل، كم حوى من مآثر لا تحد، كم ضم من مفاخر لا تعد، كم به من أشعث دعوته لا ترد، توده الدنيا وهو يعلم ما يود، مال عنها وهي للعقول تستميل، حَرَم لا تهتك حماه، شرف لا يحط علاه، علم لا يجحد هداه، مَن أَمّه من قفر التيه هداه، ويشفي إن يمسح به العليل، إن حلّه مُناءٍ استقام منه ما أقاد[1]، وإن رآه الصعب سلس وانقاد، يسلو به الفتى عما أَلَف واعتاد، ويأمن مكر من مكره أو كاد، ويظل الخائف ما عليه من سبيل، هو ربْع السلامة لا ربع بذي سلم، كم فيه للهدى من رسم وعلم، كم جبر به من الدين ما انثلم! كم أَمّه بالقصد ناقص فلم يلبث أن أمد بالتفضيل! هنيئاً لمن أصبح به قاطناً، لقد ظفر بالمنى ظاهراً وباطناً، يكفيه فيه من محكم كتابنا ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾، لا خلف فيه ولا تبديل، ما عسى أن يذكر العارف، ما عسى أن يسرد الواصف، ما عسى أن يمدح السالف والخالف، ما عسى أن ينقص من البحر الغارف، فإن العجز سواء أقصر أم أطيل، ليت شعري هل أعود إليه ثانية! ليت شعري هل تفك هذه النفس العانية! ليت شعري في منى ترفض هذه الفانية! فتصبح الآمال بمكة دانية، وحبذا فيها المعرس والمقيل..

ويأتي بعد هذا بقطعةٍ شعريةٍ يبتدئها بقوله:

ألا ليت شعري هل يساعدني الوقت
وتدني لي الأيام ما نحوه تُقت!!

وكل ما قدمه العبدري من نثر ونظم لم يكن كافياً عنده لأداء الصورة، فأعاد الكَرة بأسلوب آخر على الرغم من الظروف التي اقتضت منه تعجيل عودته، معتمداً على المقولة السائدة: "للكلام صور متباينة كالإنسان، ويختلف على قدر اختلافها الاستحسان". ومستأنساً بالمثل الجاري على الألسنة عبر الأعمار: «الجحشَ إذا بذّك الأعيارُ»[2].

(١) أي ما أوجب القود كتابة على ارتكاب الجريمة.

(٢) الجحش: ولد الحمار، وهو منصوب في هذا المثل، ومعناه اركب الجحش لما فاتك الحمير، ويضرب به مثلاً للاكتفاء بالشيء القليل عند فقدان الشيء الكثير. انظر الميداني: مجمع الأمثال، طبع القاهرة ١٩٥٩م تحت رقم ٨٦٣.

إن مكة ـ شرفها الله ـ يقول العبدري ـ من عظيم آيات الله في الأرض الدالة على عظيم قدرته، فإنها بلد يسبي العقول والخلق، ويستولي على قلوبهم، ويتملك رقها من غير سبب ظاهر، والنفوس إليه نزاعة من كل أرض، ولا يدخله أحد إلا أخذ بمجامع قلبه، مع عدم الدواعي إلى ذلك، ولا يفارقه إلا وله إليه حنين، ولو أقام به على الضنك سنين لا يمل سكناه، ولا تضيق النفس بلزوم مغناه، على أنه بوادٍ ـ كما قال الله عز وجل ـ غير ذي زرع، وأرضها جدبة كلها حجر، لا ماء بها ولا شجر..!

وبعد عتابٍ لبعض أهلها استدرك ليقول: وقلَّ ما ترى منهم من يتبرم بسكناها، ولا من يسر بالانفصال عنها! وما فارقها أحد إلا وفي نيته الرجوع إليها، وهذا أمر أطبق عليه السالف ممن رآها والخالف، واتفق عليه الموالف ممن شاهدها والمخالف، لا يخلو فكر من تصورها، ولا خاطر من توهمها، فهي نصب الأعين وحشو القلوب، حكمة من الله، وتصديقاً لوعده لدعوة خليل الله(1)، يحضرها الشوق إليها وهي غائبة! ويدنيها وهي نائية! ويهون ما يتكلف إليها من المشاق، وما يعاني إليها من العناء، فكم من ضعيف يرى في الطريق إليها الموت عياناً، ويبصر فيها الحين مشاهدة، ويلقى فيها الردى مكافحة، يطوي الليالي والأيام وتطويه! وتتقاذف به الفلوات والبيد، يسقط في كل مرحلة جزءٌ من قواه! وينهدّ في كل منهلة جانب من جثته! يقدم على الردى وهو يشاهده، ويترامى الهواجر وصر البكر، يباشره الأذى من غير حائل، وينافحه من غير جنة، رجله مطيته، وأخمصه حذاؤه، وبشرته دثاره! لا زاد إلا ما ترشح به الأكف، ولا ماء إلا ما يتبرّض في المناهل، فلا يصل إليها إلا وهو نضو دنف، قد سامه ليبتاعه التلف، فما هو إلا أن يرده امتداد الأجل إلى أرضه، ويرميه إلى مسقط رأسه، حتى تراه مستعداً لمثلها! مشيح العزم في الإقدام ثانية عليها! لم يثن عزمه ما كابده من البرحاء، ولا يكسر من حده ما شاهده من فرط العناء، فيبتديها جديدة، ويفرّ عنها جذعة، ويستقبلها مستأنفة، كأنه لم يذق لها مرارة، ولا رأى من دلائل نصبها أمارة، وهل هذا إلا صنع إلهي وأمر ربَّاني، ودلالة لا تشوبها شبهة، ولا تمر بها مرية، تقوي بصيرة المستبصر، وتسدد فكرة المتفكر.

(1) الإشارة إلى الآية الكريمة: ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾.

ولا يفوتني أن أذكّر بأن هذه الفقرة الأخيرة هي التي اقتبسها ابن بطوطة، وحيّرت المترجمين ... ولم يدرك معناها تمام الإدراك إلا المستشرق البريطاني المعروف السير هاميلتون جبْ عندما أداها على نحو معقول مقبول[1].

وبعد أن يؤدي العبدري وصفاً لموقع مكة المكرمة على نحو ما أداه ابن جبير، ينتقل إلى وصف المسجد الحرام معتمداً على الأزرقي ... ويحكي العبدري، وهو يعدد معالم مكة المكرمة، عن مدرسةٍ على مقربة من باب العمرة، "مدرسة مليحة لها علو وسفل كان يعتزم السكن بها ... وذكر له أن المدرسة لحفيد الشيخ الفقيه محب الدين الطبري ... وهو يقول عن ماء زمزم: إنه دافئ، ولكنه ليس بتلك العذوبة! ومع ذلك فالرحالة العبدري يقول: وبودي لو عوضته عن كل ماء، وغنيت به عن كل مشروب، ووردته دون كل منهل ... وهو يضيف إلى هذا أنه لم يدخل قبة زمزم لكثرة الازدحام ... مما لم يرد به شرع ... وما ليس له أصل ... ".

وعلى ذكر الازدحام نراه ينتقد ما تواطأت العامة عليه من مسح مقام إبراهيم بالأيدي! كما انتقد تهالك الناس على الحجر الأسود، وعلى دخول الكعبة: ترى الرجال يتساقطون على النساء، والنساء يتساقطن على الرجال، ويلتفّ بعضهم ببعض، ويتأهبون للقتال ... إن باب الكعبة مرتفع ... فإذا تمكن أحد الحجاج من التسلق تعلق به آخرون ... ورأيت ـ يقول العبدري ـ رجلاً ينزو ليجد ما يتعلق به فصادف ساق امرأة فقبض عليه من أعلاه وتعلق به مباشرة من غير حائل!!

وإن الذين يعرفون الحس النقدي للعبدري الحيحي لا يستغربون تشنيعه لما شاهده من قمامات وكناسات وتحريفات كذلك!

ولم ترحم النكتة رحالتنا العبدري الحيحي فقد سمع حاجاً مصرياً ينطق عوض الكاف همزة، يقول في التلبية عوض لبيك اللهم لبيك: لبيأ اللهم لبيأ! يجعل الكافات همزة، فلو سمعته ـ يقول العبدري ـ لسمعت كلاماً مضحكاً[2]! قلت: ولو سمع

---

(١) رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. عبدالهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، جزء١، ص٣٠٢، تعليق ١٠٧، رقم الإيداع القانوني ٣٢١/١٩٩٧.

(٢) الرحلة، ص ١٢٧.

العبدري إلى هذا الحاج يتلو الآية الكريمة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ قلت لو سمعه لأغرق في الضحك!!

ويخصص العبدري كسابقيه حيزاً مهماً للحديث عن المقام؛ مقام إبراهيم، إنه ـ كما قال السابقون ـ حجر فيه أثر قدمي إبراهيم عليه السلام وقف عليه وهو يبني الكعبة فساخت فيه قدماه ... معتمداً على ما روي عن البخاري، وما قاله الأزرقي ... قال: وهو في حوض من ساج مربع حوله رصاص، والحوض ملبس بالرصاص، وعليه صندوق ساج يقفل عليه ... وهو حجر رخو مضبب بالذهب من أعلاه وأسفله، ضببه المهدي بألف دينار، وزاد عليه المتوكل ذهباً آخر.

ويشهد العبدري بأن على الحجر في وقت حجه هو شباكاً مقفلاً عليه، ومن ورائه موضع قد حِيز، وجُعل مصلًّى لركعتي الطواف وغيرهما...

ويلاحظ أن العبدري كان يريد أن يحقق حول بعض المعلومات وترك فضاءً من تأليفه لملئه، غير أن زحمة الوقت أعجلته فترك على الصفحة بياضاً...

وقد عني العبدري بالتعليق على الأسماء المتنوعة لمكة المكرمة، وكذا للكعبة المشرفة نقلاً عمن اهتموا بذلك... كما عني بالحديث عن المسجد الحرام ذاته منذ عهد الرسول ﷺ حتى كان عمر بن الخطاب الذي بنى حوله حائطاً، وصنع عثمان كما صنع عمر في أمر توسعة المسجد وإعداد فنائه...

وتحدث عن موقع المزدلفة ومنى وعرفات وعن المسافة بين هذه المسالك ... ويبدو أن العبدري كان يبذل جهده لتقديم بعض الإضافات على ما عرفناه عن هذه البقاع، فهو يتحدث عن مسجد عرفات الذي يعرف بمسجد إبراهيم عليه السلام الذي قلَّ من يعرفه من الحجاج.

قال: وعرفني بالمسجد شيخ حجازي عارف بالبلاد سألته عنه وعن حدود عرفة ونحن في الموقف، وسألته عن العلمين المنصوبين على الطريق في وسط بسيط عرفة، فقال لي: إنما بناهما الأمراء ...

ويعني بالموقف بسيط عرفة عند جبالها الشرقية، ويقول: ويكون بعرفة سوق كبيرة ... يجلب إليها كل شيء، ويكثر بها الطعام الذي يأتي به قوم من اليمن يقال لهم السرو ... ويصفهم العبدري بنعوت لا تقل عن نعوت ابن جبير الذي ظل مرجعاً لكل المغاربة... وهو يقول معلقاً: وكانوا إذ ذاك يصلون على نحو ما ذكر ابن جبير، أما الآن فإنما يقصدون السوق ومنى ثم ينصرفون إلى بلادهم!!

وبالإشارة إلى الحدث الذي ذكرناه عند الكلام عن ابن جبير حول الحرص على الوقفة يوم الجمعة، أفادنا العبدري أن الوقفة كانت في عهده يوم الأربعاء حيث سلم من الخلاف!! ويستطرد هنا بذكر أن الحجاج عام ٦٨٠هـ انقسموا على أنفسهم، فبعضهم وقف يوم الجمعة، وبعضهم يوم السبت!! مغتنماً هذه الفرصة ليردد ما شاع من جهالات حول أن من لم ينفذ إلى الغار الذي دخله رسول الله مع صاحبه أبي بكر فهو ولد زنى!.

وإذا كان ابن جبير قد ترفع في مذكراته عن ذكر الفتن الكبرى التي قد تتعرض لها هذه البقاع في أثناء الحج، فإن العبدري ـ على نحو ما سنرى من ابن بطوطة ـ تعرض لوصف أحداث شهدتها تلك البقاع في أعقاب الحج مما كان سبباً ربما في قرار العبدري بأن يعدل عن عزمه في مجاورة الحرم بعد أن كان قد قرر البقاء هناك!!

ويختم العبدري مذكراته عن مكة والمسجد والبيت بفصل فقهي مسهب عن مناسك الحج ابتداءً من شرط الاستطاعة، ومروراً بأركان الحج وسننه ومستحباته، إلى ما ينبغي للحاج من التزام الصمت ما أمكن إلا لحاجة تقتضي الكلام ... وعن السر الذي يكمن في السير السريع عند بعض المواقع، وعن الأصل في رمي الجمار... إلى استحسان أن يخرج المودع للكعبة راجعاً القهقرى على نحو ما يفعل المحب عند وداع محبوبه!!

وتكون الصفحة الأخيرة من رواية العبدري حول حدود الحرم، وهي صفحة مهمة بالنسبة إلى الذين يريدون أن يقتحموا مثل هذه البحوث.

وأخيرا يشكو العبدري من ضعف العلم بتلك الدّيار، مرجِعاً ذلك لضعف العيش بها، والناس مع الدنيا وصاحبها!!.

وأما الذي يبهر من المناهل ويحار الفهم فيها إذ هو نخوة نفس. فمن رامه
ليستطيعه العقل. بما هو الأرض أمثال الأجل الأرض مد. ومهما
لم يشغله حتى تراه مشتغلا بمثلها. متبعا النظر في الإقلاع ثانية
عليها لم يتوع نهمه ما كابده من البرحاء ولا كسبه من جهد ما اشتاقه
من العنا يلين بها حوبته ويمر عنها جزعه ويستقبلها مستأنفة
كأنه لم يرد لها مزارة ولا رأى منها إلا أن نصيبها أمارة. وهل هذا إلا صنع
من الهي وأمر رباني. ومن آية الله أن تشوبها متشبهة ولا تميزها من جهة تفوق
بصيرة المستنبط ونقد وكيد المنتقد. هذا لعمر من آية لها تبهر
العقول. ومن آية الله تشد العجب على وفق المنقول. وهي شرفها الله بلدة كبيرة
مستطيلة البنيان في بطن واد بين جبال محيطة بها لا يراها القاصد إليها
حتى يشرف عليها والجبال المحيطة بها ليست شامخة وبنيانها آخذ من الأرض
مستطيلة مع الوادي ولا سور لها لأنها حين بنيانها على الوادي واستطالته مع
يطلب من شدة امتلائها فقطعنا الوادي عرضا حتى وصلنا بين الجبلين
وهما على ... من أسفل وأعلى الوادي ناحية المشرق واستطالته ناحية المغرب
والركن ... من أعلى ... ولها ثلاثة أبواب باب المعلاة من
من أعلاها وباب الشبيكة من أسفلها والثالث باب اليمن من جهة الجنوب
وبه فيها المنازل كلها عربية ومزدلفة ومنى على ما يليق ...
وفي الجنوب منها جبل أبي قبيس وفي الشمال الجبل الأحمر وقعيقعان
وأبو قبيس والأحمر هما الأخشبان والأخشب ما غلظ من الأرض وكذلك
كل غليظ يقال له أخشب وخشب ومنه أخشبا مكة والأخشبا منى
أي جبلاها. ومن جهة أبي قبيس أجياد الكبير وأجياد الصغير
شعبان هنالك وبها الخندمة وهو جبل مذكور في الحرب وفي الشعر
المشهور لها وجه ـــــــ يوم الفتح قال: إنك

إحدى صفحات مخطوطة رحلة العبدري

ابن رُشَيد ٧٢١هـ / ١٣٢١م

ينبغي أن ننوه بالجهد الكبير الذي بذله زميلنا الأستاذ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة من أجل نشر رحلة الحافظ المحدث الخطيب أبي عبدالله محمد بن عمر بن محمد ابن عمر بن محمد بن إدريس بن سعيد بن مسعود بن حسين بن محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي المولود بسبتة في رمضان سنة ٦٥٧هـ والمتوفى بفاس في المحرم سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م. كانت الرحلة تحت عنوان: «ملء العَيْبة بما جمع بطول الغَيْبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة»، وقد قام بالحج في موسم سنة ٦٨٤هـ وعاد إلى سبتة في جمادى الآخرة سنة ٦٨٦هـ.

وإذ ننوه بذلك الجهد نأسف معه إزاء افتقاد الجزء الخامس من الرحلة الذي يختص بموضوع الحرمين الشريفين ... إذ يذكر ابن رشيد في جملة ما يذكر محاوراته مع الأصحاب ومذكراته... ويطنب عند الحديث عن المناسك وهي غرضه الأول من السفر، فيتحدث عن البيت الحرام، وعن المقام، وعن السعي، والمشعر الحرام (المزدلفة)، وعرفة ومنى، ولا يغفل عما التزمه في برنامجه من التعريف بمن لقي من الرجال أو ذكر من روى لهم وقيد مقالاتهم وأشعارهم من أئمة العلم وأهل الفكر والأذن(١).

ففي الحرمين الشريفين يعرف بثلة من العلماء والمحدثين، منهم:

١ـ عفيف الدين بن الزجاج.

٢ـ أبو القاسم عبدالحميد محمد بن الزجاج.

٣ـ أم الخير أم محمد فاطمة البعلبكية.

٤ـ أبو إسحاق إبراهيم الفاسي.

٥ـ أبو محمد عبدالسلام بن مزروع بن عزاز.

٦ـ أبو نصر الشقاري.

---

(١) ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة... تقييد أبي عبدالله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي (٧٢١هـ / ١٣٢١م) بفاس، الجزء الثاني، تقديم وتحقيق الدكتور محمد الحبيب الخوجة، الدار التونسية للنشر، تونس ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ٢٥-٣٢-٤١.

٧ـ أحمد عثمان المصري.

٨ـ أبو عبدالله بن أبي القاسم.

٩ـ أبو محمد المرجاني.

١٠ـ أبو علي عمر الصواف.

١١ـ أحمد بن أبي بكر بن خليل.

١٢ـ أبو عبدالله بن أبي بكر بن خليل.

١٣ـ أبو اليمن بن عساكر.

١٤ـ أحد العلماء أُنسي اسمه.

١٥ـ أبو محمد البسكري.

١٦ـ أبو الحسن التجاني[١].

ويجب أن نذكر هنا أن رحلة ابن رشيد ظلت مرجعاً لكل الرحالين الذين تمكنوا من الوقوف عليها كلاً أو بعضاً.

ونرى من المفيد أن نعرف بعض الأخبار المهمة التي نقلها إلينا أبو عبدالله بن رُشَيد عن بعض المشايخ الذين لقيهم بمكة المكرمة... ويتعلق الأمر بمعلومة تتعلق باجتياح بغداد من قبل التتر ... غابت عن كل الذين تتبعوا أخبار ذلك الاجتياح الوحشي الشنيع.

وهكذا نقرأ في رحلة ابن بطوطة نقلاً عن ابن جزي ناسخ الرحلة يذكر أن شيخه العلامة الشهير قاضي القضاة أبا البركات ابن الحاج محمد بن محمد بن إبراهيم البلفيقي السلمي قال: إنه سمع أبا عبدالله بن رُشيد يقول: لقيت بمكة المكرمة نور الدين بن الزجاج، وهو من علماء العراق ومعه ابن أخ له، فتفاوضنا الحديث، فقال لي: هلك في فتنة التتر بالعراق أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم، ولم يبق منهم غيري وغير ذلك، وأشار إلى ابن أخيه ...

وكما قلنا، فإن هذه المعلومة غابت عن سائر الذين اهتموا بتاريخ بغداد أيام نكبته على عهد العباسيين[٢].

---

(١) ملء العيبة، ج٢، ص٤١-٤٢، الدار التونسية للنشر، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، تونس.

(٢) رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المجلد الثالث ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، رقم الإيداع القانوني ١٩٩٧/٣٢١م، ص ٢٦-٢٧، تعليق ٤٢.

البادسي ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م

نحن أمام نمط من الرحلة يختلف عما نعرفه من الرحلات، سواء في الحوافز أو الاهتمامات، كما يختلف عن هذه الرحلات في طريقة التدوين، ومدّون هذه الرحلة هو أبو محمد عبدالله بن محمد الأوربي الفاسي الذي حَلاه صاحب «الجِذوة» بقاضي الجماعة ... ومما ذكره صاحب «السلوة» في تعريفه أنه كان فقيهاً عارفاً بعقد الشروط، قريب الغور، بعيد الشأو...

أما صاحب الرحلة فهو أبو يعقوب يوسف بن محمد بن عبد الله الزهيلي البادسي الشهير بابن الغمَّاز الذي وصفه ابن خلدون بأنه كبير الأولياء بالمغرب في أول المئة الثامنة، ونعته لسان الدين ابن الخطيب بالإمام العارف، ونعته صاحب «المقصد الشريف» بمعمور الأوقات. أدركه أجله في ليلة الثلاثاء ١١ ربيع الآخر سنة ٧٣٤هـ / ٢٠ نوفمبر ١٣٣٣م، وقد ارتبط اسمه بذكر العارف الكبير أبي الحجاج يوسف الأقصوري دفين الأقصر (جنوب مصر). ولا يهمنا هنا أسلوب مدون الرحلة الذي كان يتتبع من غير ترتيب ظروف الرحلة انطلاقاً من ذكر شيوخه الذين أخذ عنهم علم الظاهر وعلم الباطن، ولكن الذي يهمنا أن نسجل لقطات من الرحلة مما يتصل بالحرمين الشريفين ومكة المكرمة على الخصوص.

وقد ذكر الأوربي أن سبب قيام البادسي بحج بيت الله كان استجابة لما أمره به الرسول ﷺ في أثناء رؤية له في المنام...

وقصدت ذكر هذا بداية لتأكيد أن هذه الرحلة من نمط غير الأنماط التي عشناها. وهكذا نجد أن الباعث له على الرحلة كانت الرغبة في تأدية فريضة الحج وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام.

لقد بدأ رحلته نحو الحجاز في شهر المحرم من سنة ٧٠٥هـ / أغسطس ١٣٠٥م في عدد من الذين توجهوا معه إلى الديار الحجازية .. حيث التحقوا بالركب الحجازي

الرسمي في بجاية على ما يحكيه خديمه أبو زكرياء يحيى الشاكري الذي رافق شيخه أبا يعقوب، الذي لم يزل في درب الحجاز يحمل ركوة الشيخ في يده عساه يحتاج إلى الماء...

وعلى نحو ما نعتوه من أنه "معمور الأوقات" فإنه لم يترك في أثناء رحلته شيئاً من أوراده كلها؛ لا صلاةً ولا صوماً ولا تلاوة قرآن ولا شيئاً مما كان يفعله وهو مقيم ...

لقد كان قاسياً على نفسه في هذه الرحلة، ويكفي أن نذكر أنه ما أفطر مدة غيبته في الحجاز غير أيام الأعياد وغير يوم بين مكة والمدينة كان أصاب الناسَ فيه حرٌّ شديدٌ، ومات من الناس ألفان ونيّف، فأفطر الشيخ في ذلك اليوم (يونيو – يوليو ١٣٠٦م).

ويحكي خديمه الذي لازمه في أثناء حجتيه معاً أن الشيخ لم يفتر في كل الأحوال عن العبادة والطواف قائلاً: « لما دخلنا مكة كان الشيخ سيدي يعقوب يطوف الليل كله وما رأيته نام فيها ليلاً أصلاً »!!

وعلاوةً على حرص الشيخ أبي يعقوب في التعرف إلى رجال الخير من الأحياء، وفي زيارة مشاهد الأعلام من الأموات وجدناه وهو بمكة المكرمة يتردد مراراً على مقابر المعلاة، يترحم هناك على من آوته تلك التربة من عيون الرجال والنساء، ومن خلال بعض الإشارات الواردة في الرحلة تبين اهتمام الشيخ بالجانب المعرفي، حيث نراه يجلس إلى المذاكرة والمدارسة ...(١).

---

(١) المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف، تأليف عبد الحق إسماعيل البادسي (٧١١هـ / ١٣١١م)، تحقيق سعيد أحمد أعراب ١٤٢٠هـ / ١٩٨٢م، المطبعة الملكية الرباط. احمد البوعناني: حرب الريف التحريرية ومراحل النضال، ج ١، ص ٣٠ وما بعدها، أدب الرحلات في العصر المريني، تاليف الحسن الشاهدي، ج٢، منشورات عكاظ، ١٩٩٠م، نسخ عن مكتبة كلية الآداب، بني ملال.

التجيبي ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م

وعن القاسم بن يوسف التجيبي السبتي[١] المتوفى ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م في تأليفه «مستفاد الرحلة والاغتراب» الذي ينعت بأنه كتاب شامخ القدر، فقد كان في صدر ما قاله عن مكة المكرمة أنه قصدها عن طريق الموقع الجغرافي المعروف بالتَّنْعِيم[٢] الآتي الذكر، إلى أن نزلوا ليلة السبت الخامس عشر من رمضان سنة ٦٩٦هـ، بموافقة ليلة السادس من شهر يوليو العجمي الشمسي، على الباب المعروف على عهد التجيبي باسم باب الشبيكة وبباب العمرة أيضاً، وهو بأسفل مكة عند ثنية كُدَى ... ومن هذه الثنية دخل رسول الله ﷺ مكة المشرفة يوم الفتح ...

وقد دخل التجيبي مكة ليلاً ... ولما وصل إلى الحرم الشريف من باب بني شيبة اقتداءً بفعل رسول الله ﷺ قصد الحَجَر وقبّله، وجعل البيت عن يساره، وشرع في الطواف ... ويذكر التجيبي أن بعض الأصحاب في القافلة من المغرب الأقصى كان قد حج قديماً، فغلب عليه (هذه المرة) حال رؤية المنزل، فصاح صيحة عظيمة، فأدهشته صيحة المغربي، وأخذت بمجامع قلبه. فلما أكمل أسبوعه قصد مقام إبراهيم عليه السلام فركع خلفه ركعتي الطواف ودعا الله...

ثم مر بين الساريتين اللتين أقيمتا علماً لطريق رسول الله ﷺ، وخرج من باب الصفا، وكان يعرف قديماً بباب بني مخزوم... ويستمر التجيبي في وصف المسعى مغتنماً الفرصة ليلاحظ أن الميل الأخضر نُحّي عن موضعه القديم... ويؤكد أن المسافة بين الصفاو المروة نحو سبعمئة وثمانين ذراعاً... ويختم بأنه حلق رأسه عند المروة وتحلل من عمرته.

---

(١) التأليف من تحقيق وإعداد الزميل التونسي د. عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس ١٣٩٨/٩٧٥.

(٢) من التنعيم يحرم معظم الحجاج للعمرة، وقد يحرم بعضهم من الجعرانة.

وقد كان نزول التجيبي بدارٍ ملاصقة لباب الصفا، قبل أن ينتقل إلى دار بأجياد، وكان في حائطها القبلي طاق فيه شباك جديد يبصر القاعد خلف الشباك البيت المعظم ويلوح له ويقابل الحجر الأسود... وهنا يأتي بقصيدة في وصف البيت الشريف للعلامة الأديب أبي القاسم خلف الغافقي يقول في أولها :

الله أكبر لاح بيت إلاهي
متسربلاً خلع السنا والجاه
مثل العروس بدا بصفحة خدها
خال لديه شفاء ضم شفاه!

وفي الفصل الخامس يذكر مكة المكرمة والمحفوظ من أسمائها ونبذةً من مشهور فضائلها وفضائل الحرم الشريف، وقد ردد التجيبي المعلومات التي عرفناها عن أسلافه ممن تحدثوا عن الموضوع ... كما يردد الكلام عن حدود الحرم التي تختلف قرباً وبعداً من مكة المعظمة، حد الحرم من طريق اليمن على سبعة أميال، ومن طريق جدة على عشرة أميال، ومن طريق الطائف على أحد عشر ميلاً منها، ومن طريق العراق على سبعة أميال، ومن طريق الجعرانة على تسعة أميال.

وعند حديثه عن فضائل الحرم سنراه يرجع إلى ما يحكيه الأزرقي السالف الذكر عند ابن جبير ...

ويخصص التجيبي فصلاً بكامله للحديث عن مسجد مكة المعظمة، ووصف مكة والمشهور من أسمائها ومن ابتدأ بناءها، وذكر الحجر الأسود، وذكر الملتزم والحِجْر والميزاب والركن اليماني، وفضل الطواف بالكعبة والنظر إليها، وذكر زمزم ومقام إبراهيم، وغير ذلك من المواقع الشريفة التي اشتمل عليها المسجد الحرام ...

وهكذا يتحدث عن ساحة المسجد الحرام كيف كانت قبل الإسلام، وفي عهد النبي ﷺ، وأن زمزم كانت خارج المسجد إلى زمن الخليفة عمر بن الخطاب الذي وسعه واشترى العقار من الذين كانوا يجاورون المسجد ... وقد قام الخليفة عثمان أيضاً بعملية توسيع على نحو ما فعل سلفه ... وكما سيفعل عبدالله بن الزبير.

ثم لما كـان زمن عبـد الملك بن مروان نقّـذ إليـه أسـاطين الرخـام ... وترك في كل أسطوانة خمسين مثقالاً من ذهب، وزاد في علو جدرانه وسقفه بالسياج المزخرف.

ولما كان زمن ابنه الوليد ... قام بعمل أحكم من عمل والده ... وهو أول من عمل الفسيفساء، التي عاين التجيبي بقيةً منها قريباً من باب بني شيبة، كما جعل الوليد للمسجد شرفات[1].

ثم لما حج المهدي أبو عبد الله محمد بن المنصور سنة ستين ومئة اشترى من الناس دوراً كثيرة وزادها فيه... ثم لما حج سنة أربع وستين ومئة أحب أن تكون الكعبة متوسطة في المسـجد الحـرام فأحـضر المهندسين وشاورهم فـقدر ذلك، واشـتريت الدور، وجلبت الأساطين في البحر إلى جدة[2]، ثم جُرَّت على العجل إلى مكة، ووسِّطت الكعبة...

وتوفي المهدي سنة تسع وستين ومئـة، فعُمل الباقي أيام ابنه أبي محـمـد موسى الهادي...

ثم لما كانت أيام المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد أبي العباس أحمد بن الموفق زاد جعفر بن موسى فيه قرب دار زبيدة زيادة حسنة، قال التجيبي: ولم يبلغنا أن أحداً زاد فيه شيئاً بعد ذلك ... وبعد هذا يستمر في النقل عن الأزرقي وينقل عن ابن جبير ... وقد عد السواري الرخامية بنفسه أربعمئة وإحدى وسبعين سارية. وقد نقل التجيبي عن أبي العبـاس بن عبدالرؤوف تفـصيلاً دقيـقـاً عن عدد السواري بما فيها السواري الجصية، وبما فيها سارية رخامية حمراء رآها قرب دار الندوة، ناقلاً عن ابن عبدالرؤوف كلاماً حولها أيام النبي ﷺ، لكنه عقَّب على ذلك بقوله: إنه لم تكن في المسجد أساطين على عهد الرسول ﷺ ...

ويستمر التجيبي في كلامه ليتحدث عن عدد أبواب المسجد الحرام ... معلقاً على ما قيل عن بعض الأبواب ... وخاصة باب بني شيبة الذي يدخل منه الخلفاء بعد رسول

---

(١) لا شك عندي في استعانة الدولة الإسلامية بالخبرة الأجنبية حول الموضوع على نحو ما تم بالنسبة إلى مسجد المدينة المنورة ومسجد دمشق ... رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. التازي، مرجع سابق، ج١، ص٣٠٦، تعليق ١٧٦.

(٢) التعليق السابق.

الله ﷺ . . . ناقلاً بعض الأخبار عن ابن عساكر الدمشقي . . .

ويتحدث عن دار الندوة التي باعها حكيم بن حزام بمئة ألف درهم في زمن معاوية، ولما قيل له: أبعت مكرمة آبائك؟ أجاب حكيم: ذهبت المكارم إلا بالتقوى!!

وفي حديثه عن باب العمرة قال: إن عليه يخرج المعتمرون الآن إلى التنعيم، وبإزائه مدرسة هائلة حافلة، بديعة الشكل مزخرفة البناء والخشب، أمر ببنائها الأجلُّ الهمام ملك اليمن نور الدين عمر الملقب بالمنصور بن علي بن رسول . . . والد الملك شمس الدين الملقب بالمظفر يوسف رحمه الله. وقد وقف عليها أوقافاً جمة للمتفقهين على مذهب الإمام الشافعي[1].

وقد علق على باب إبراهيم بأن عليه قبة عظيمة متقنة الصنعة محكمة البناء، وهو - أي الباب - نسبة إلى أحد عوام المكيين والقادمين عليهم . . . قال: وبمقربة من هذا الباب بئر تنسب إلى إبراهيم أيضاً . . .

ومنها أبواب أجياد التي يقابل أحدها دار أبي جهل بن هشام عدو الإسلام.

ثم باب الصفا الذي ينفتح على خمسة أقواس . . . وهو أكبر الأبواب كلّها، وعليه يخرج إلى المسعى على نحو ما فعل الرسول ﷺ. قال التجيبي: ومن هذا الباب كان أكثر دخولي إلى المسجد الحرام مدة إقامتي بمكة. ثم باب القائد الذي، حسبما بلغه، أحدثت بإزائه ميضأة في أحواز ست وتسعين وستمئة، أمر ببنائها ملك مصر. والله يختص برحمته من يشاء!

ويختم التجيبي بذكر باب العباس وباب علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

ويتحدث عن الكعبة الحرام بمثل ما تحدث به أسلافه، كما يتحدث عن أسمائها المتعددة، ومنها البيت العتيق . . . ويتحدث عن مراحل بنائها، ومن أسهم في البناء عند انهدامه بعد إبراهيم عليه السلام.

وينقل التجيبي بعض معلوماته مباشرة عن تاج الدين أبي الحسن علي الحسيني العراقي بقراءته عليه بدار الحديث النبيهية من ثغر الإسكندرية في شهر ربيع الأول

---

(١) هي المدرسة نفسها التي سيرد ذكرها عند ابن بطوطة تحت اسم (المظفرية).

المبارك من سنة ست وتسعين وستمئة .. مختتماً روايته بذكر الحديث المروي عن السيدة عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: "يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لهدمت البيت حتى أدخل فيه ما أخرجوا منه في الحِجْر، وإنهم عجزوا عن نفقته، وأخرجوا طائفةً منه في الحِجْر، ووضعتهُ على أساس إبراهيم وألزقته بالأرض وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً"(١).

ويتتبع التجيبي الحديث عن تطور بناء الكعبة معتمداً على ما اطلع عليه... وهنا يذكر أنه لما غلب الحجاج بن يوسف على مكة نقض ما يلي الحِجْر من البيت وأعاده إلى البناء الأول على أساس قريش... وسد الباب الذي في ظهره وترك سائره على ما بناه عبدالله بن الزبير... قال: ولما حج أبو جعفر المنصور همَّ بأن يرد البيت على ما بناه ابن الزبير، فشاور الإمام مالكاً، فقال له: أنشدك بالله ألاَّ تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك!

وذكر القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه «عارضة الأحوذي» أن هارون الرشيد همَّ أيضاً به، فصرفه الإمام مالك...

ويعلق التجيبي على هذا بأن مالكاً اقتدى بعبد الله بن عباس الذي كان قد أشار على ابن الزبير ألا يفعل ...

ومن خلال ما يرويه حول الموضوع يكشف لنا عن بعض المجالس العلمية التي كانت تعرف بمكة المكرمة مثل مجلس الإمام فخر الدين أبي عمرو التوزري ... ومجلس الإمام مفتي الحجيج رضي الدين أبي إسحاق بن محمد الطبري ثم المكي الذي كان مجلسه قبالة الحِجْر والميزاب، ومجلس عماد الدين أبي محمد المكي بالحرم الشريف.

وفي حديث التجيبي عن بعض الأعمدة التي يقوم عليها سقف البيت الشريف قال: إنها كانت مغطاة بصفائح الفضة، ثم كشطها الشريف أبو نُمَيّ وتصرَّف في فضتها ... وبقيت منها الآن بقية مسامير الفضة التي كانت تضبط الصفائح، وتوجد في أعلى البيت الشريف ما يسميه "روازق" أربع لدخول الضوء.

---

(١) يعني يلزق بابه بالأرض ولا يبقى عالياً. وهذا الحديث عظيم في باب الاسترشاد بالظروف المحيطة بالتشريعات.

ونقلاً عن الأزرقي يذكر أن أول سيدة عربية كست البيت الحرام بالديباج كانت السيدة نثيلة بنت جناب بن حبيب.

ويتحدث عن باب الكعبة المصفح بصفائح الفضة المذهبة ... الذي له حلقتان من فضة غير مذهبة ... مؤكداً أن هذا الباب يحمل كتابة بالذهب يقرؤها كل أحد يحسن القراءة من المشارقة والمغاربة، هذا نصها على ما سبق القول:

مما أمر بعمله عبدالله وخليفته أبو عبدالله المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين صلى الله عليه وسلم وعلى آبائه الطاهرين وخلد ميراث النبوة لديه، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين سنة خمسين وخمسمئة.

وفي مذكراته عن مكة المكرمة يقول: إن يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر رمضان المعظم من سنة (٦٩٦هـ) أول جمعة بمكة المكرمة، في هذا اليوم قرب سدنة البيت الشريف (بنو شيبة) المنبر حتى ألزقوا أدراجه بالكعبة المعظمة ... ويغتنمها التجيبي فرصة لوصف المنبر بأنه واسع بحيث يمكن أن يصعد على كل درجة منها أربعة أنفس في صف واحد، وأن عدد أدراجه تسعة، وهنا يصف طريقة دخول البيت من لدن زعيم بني شيبة ... يقعد في أسْكُفَّته[١] المباركة. ويخبرنا التجيبي أنه ممن أنعم الله عليهم بالدخول إلى البيت، وليس على أحد بأس أن يصلي في أي نواحي البيت شاء، ولم يفت التجيبي أن ينتقد بعض القائمين على البيت في إلحاحهم على الزائر حتى "يؤدي" لهم أجراً!! ولا يتركونه يتفرغ للانقطاع! هذا إلى مؤاخذات أخرى على بني شيبة على عهده في استغلال سذاجة العوام فيما سموه العروة الوثقى وسُرَّة الدنيا!! وهو يدعو الله أن "يبسط على الشيبيين حتى يغنيهم عن هذا التكسب الشنيع"!

ويتحدث التجيبي عن تخصيص حصة من الزمان لدخول النساء للبيت الشريف ليقمن به، ولكن لفترة أقل من مقام الذكور! والتجيبي يسمي اليمنيين الذين نعتهم ابن جبير بالسرو ينعتهم بالزّيلع (لموقع جغرافي معروف باليمن)، وهو يتحدث عنهم بأحاديث غريبة ربما كانت أغرب مما رواه أسلافه، وخاصة عند دخولهم البيت العتيق.

---

(١) الأسْكُفَة: عتبة الباب ومدخله.

وفي حديثه عن الحجر الأسود نجده ينقل معلومات الأزرقي ... ومن الطريف جداً أن نقرأ في «مستفاد الرحلة» للتجيبي ما سيؤكد له ما يرويه ابن بطوطة من أن بعض المغاربة كانوا من جملة المقاتلين بالكعبة ضد القرامطة؛ حيث يقول التجيبي بالحرف: «وشهد وقعة القرمطي بمكة من أهل الأندلس ثم من أهل قرطبة سعدان بن معاوية، فأصابته في وجهه ضربة سيف شقت خده وعينه، وكان حافظاً للمسائل رحمه الله..»(١).

ويذكر بهذه المناسبة أن تصنيفاً ألف في المناسك في ذلك الزمان الذي اختفى فيه الحجر الأسود، قال مؤلفه فيه: «وليستلم الموضع الذي كان فيه الحجر ...»!

ويفيد التجيبي أيضاً أن المغاربة كانوا حاضرين بمكة أيضاً يوم أُرجع الحجر الأسود إلى موضعه من أهل الأندلس وأهل قرطبة، ويذكر هنا اسم أبي عبدالله محمد بن عبدالملك اللخمي على ما ذكره ابن الفرضي(٢).

ويفيدنا ـ إضافة إلى هذا من أحداث مكة ـ أن رجل سوء ممن كان وصل في قافلة مصر سنة ثلاث عشرة وأربعمئة انتهز فرصة انشغال الناس فانتزع الحجر وولى هارباً، لكن الناس بادروه وقتل مكانه(٣)!

ويتحدث عن تقبيل الحجر الأسود مردداً قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إني لأقبلك وأنا أعلم ما أنت! ولكني رأيت رسول الله يقبلك».

ثم يتحدث عن الملتزم، ويشكر الله على أنه وقف عنده على نحو ما كان يفعله الرسول عليه السلام ...

وينتقل بعد هذا للحديث عن الحطيم؛ ما بين باب الكعبة إلى مقام إبراهيم في قول الإمام مالك حيث ينحطم الناس يتوسلون ويدعون ويلتزمون ...(٤).

وبعد هذا يتفرغ لذكر الحِجْر (بكسر الحاء وتسكين الجيم) والميزاب. وحجر الكعبة

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ج١، ص٣١٤، تعليق رقم ١٢٧.

(٢) ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، ج٢، ص١١٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٩، ص ٣٣٢. ابن العماد: الشذرات ٣، ص ١٩٧.

(٤) تقدّم رأي الإدريسي حول الحطيم.

قريب من نصف دائرة ... وعرض هذا الحِجْر من الشرق إلى الغرب أربع وعشرون ذراعاً ... جدرانه كلها من رخام مجزع قد أحكم إلصاقه بالقضبان الصفر المذهبة، وارتفاع حائطه من نواحيه كلها خمسة أشبار.

وفي حديث عن الميزاب يقول: إنه كان في زمانه من صفر مذهب، وسعته نحو الشبر. يخرج عن الحائط بنحو أربع أذرع، ويقابله في الأرض رخامتان خضراوان يقع عليهما ماؤه عند نزول المطر ...

ويتذكر التجيبي أن رمضان في السنة المذكورة ٦٩٦هـ شاهد نزول مطر مبارك بعد الظهر، فقام ليتعرض للمطر النازل عبر الميزاب. وقد كان رمضان من السنة المذكورة يصادف منتصف شهر يوليو ١٢٩٧م؛ حيث كان التجيبي يقوم بالطواف حول الكعبة وسط أفواج من المعتمرين الداعين والمتوسلين والراجين.

ويتحدث التجيبي كذلك عن الركن اليماني الذي أخذ اسمه من الرجل الذي بناه من أهل اليمن، وكان يعرف بأُبَيٍّ بن سالم... وكان استلام هذا الركن مأثوراً عن الرسول ﷺ وعن الصحابة والتابعين. ومن الطريف أن تستمع إلى قصة يرويها التجيبي عن مصعب بن الزبير أنه أخذ بالركن اليماني وتوسل قائلاً: اللهم إني أسألك بقدرتك على كل شيء ألا تميتني حتى توليني العراق وتزوجني سُكينة بنت الحسين!!

وقد ترجم التجيبي لسكينة التي توفيت بالمدينة في خلافة هشام يوم الخميس لخمس خلون من شهر ربيع الأول من سنة ١١٧هـ.

وقد ذكر عن مقام إبراهيم - من جملة ما ذكر - أنه حجر لونه بين الدكنة والحمرة منقّط بنقط سود، وله رأسان، وأعلاه أوسع قليلاً من أسفله، ووسطه مخروم جداً يضيق عن أسفله، وهو مكسو بغاشية من فضة مذهبة منقوشة، وفي الشق الواحد من الغاشية مكتوب سبحان الله، وفي الثاني: والحمد لله، وفي الثالث: ولا إله إلى إلا الله، وفي الرابع: والله أكبر.

وقد انمحى أثر القدمين المباركين والخلولق، ولم يبق للأصابع أثر، وإنما فيه الآن حفرتان ... وعليه قفل مفتاحه بيد بني شيبة ...

وقد كان السيل العظيم المعروف بسيل أم نهشل قد جرف هذا المقام من موضعه في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أعاده إلى موضعه اعتماداً على إفادات مشيخة مكة.

وخلف هذا المقام صلى الرسول ﷺ ركعتي الطواف يوم الفتح، وفي حجة الوداع كذلك، وهناك يقف اليوم للصلاة المكتوبة إمام أصحاب الإمام الشافعي رضي الدين الطبري السالف الذكر...

وبعد هذا يستمر في الترتيب الذي نعرفه عن صلاة الأئمة باستثناء صلاة المغرب التي يصليها الأئمة الأربعة جميعاً في وقت واحد على ما سنعرفه في رحلة ابن بطوطة.

ويعلق التجيبي على هذه العادات بقوله: وهذا كله من البدع التي حدثت بهذا الحرم الشريف، ولم يكن فيه في زمن السلف الصالح شيء من هذا، وكان الحق أن يجتمع الناس كلهم خلف إمام واحد(١) !!

وينعت التجيبي مذهب الزيدية بنعتٍ فيه قساوة، مؤكداً أن والي مكة الشريف أبا نُمَيّ منهم مع قرابته وحاشيته!...

وبإزاء مقام إبراهيم يكون منبر الخطيب في سائر أيام الجمعة .... إلى آخر ما يرويه الأزرقي...

وقد ساق التجيبي نصاً عن القاضي أبي بكر بن العربي حول زمزم لما كان بمكة في ذي الحجة سنة تسع وثمانين وأربعمئة (ديسمبر ١٠٩٦م)، وهو ما أوردناه سابقاً عند الحديث عن رحلة الإمام ابن العربي.

ويتحدث التجيبي عن بيت زُبيدة الذي بنته على مقربة من قبة زمزم، كما يتحدث عن قبة الشراب أو قبة العباس التي يجاورها بيت كان يلازمه عماد الدين أبو محمد المكي شيخ التجيبي؛ حيث يُسمع فيه الحديث للواردين عليه.

هذا إلى القبة المعروفة بقبة اليهودية ... التي يوجد بها المصحف العتيق المنسوب إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه على ما أخبره به من يعتد به من المكيين والقادمين عليهم ... ويذكر ابن جبير ـ كما أسلفنا ـ أن المصحف بخط زيد بن ثابت.

---

(١) هذا ما سيستقر عليه بظهور المملكة العربية السعودية.

ويذكر التجيبي أنه دخل هذه القبة يوم الجمعة ١٢ شوال سنة ٦٩٦هـ (٣ أغسطس ١٢٩٧م) وعاين المصحف بها ... وتبرك بالقراءة فيه والنظر إليه. وقد أصابه بلل السيل العظيم بعد التسعين وستمئة، أذهب به جملة من رسوم الخط، ومنه أوراق قد جبرت بخط محدث، وجميعه عُرِّي عن الضبط، وفيه أحرف يسيرة معجمة بالنقط، رأى منها الفاء بنقطة واحدة من فوق على عادة أهل المشرق في ذلك إلى الآن، يقول التجيبي(١). كما عاين لفظ (الربوا) هكذا مكتوبة بالواو والألف، ورأى في أول السور عدد آي السورة بالخط القديم. ورأى على ظهر المصحف كتابة بخط محدث، وهي: كتب عام ثمانية عشر لوفاة رسول الله، قال: وخط هذا المصحف يشبه الخط الذي يدعى عندنا الكوفي، وكل قائمة من أوراقه جلد كبش صحيح، قد سويت أطرافه وبقي بكماله ...

إلى آخر التفاصيل التي أوردها التجيبي عن مصحف عثمان هذا ... وهنا يذكرنا التجيبي بالحديث الشريف الذي يذكر أن المسجد الحرام أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها في جميع أقطار الدنيا بالطول والعرض على حد تعبير التجيبي ...

وينهي هذا الفصل بتكملة ذكر منها ما عاينه من مشاهد ومزارات بمكة المكرمة وبخارج مكة المكرمة في موسم سنة ٦٩٦هـ:

* البيت الذي ولد فيه الرسول ﷺ، وقد دخله كما يقول يوم الثلاثاء السادس عشر من شوال سنة ست المذكورة، وشاهد مسقط رأسه في هذا البيت.

* منزل أم المؤمنين خديجة، وهو البيت الذي كان يسكنه النبي ﷺ معها، وفيه ابتنى، وفيه ولدت أولادها منه، ومنه هاجر إلى المدينة ....

* ومنها (قبة الوحي) وموضع متهجده، وقبة مولد السيدة فاطمة الزهراء ... بل ومولد الحسن والحسين على ما ينقله عن ابن جبير الذي لم يسلم من اعتراض التجيبي عليه بحجة أن الحسنين ولدا بالمدينة وليس بمكة!

* دار أبي بكر الصديق، وموضع ميلاد علي بن أبي طالب، ودار الأرقم بن أبي الأرقم ... التي تصيّرت للخيزران من قبل المهدي أمير المؤمنين، وكانت تصيرت لوالده المنصور

(١) مستفاد الرحلة، المصدر السابق، ص٣٢٧.

الذي اشتراها من أولاد الأرقم بن أبي الأرقم ...

* مقبرة المعلاة المعروفة التي تحتضن رفات عدد من الصحابة والتابعين ورجال الفضل، وقد زارها صحبة عدد من الصلحاء المجاورين، ولا بد أن نجد هنا ذكراً لأخبار الحجاج بن يوسف الثقفي وضحاياه من أمثال عبد الله بن الزبير ... إلى جانب آخرين أمثال الفضيل بن عياض الذي نقش اسمه على حجر، وقبر أبي القاسم القشيري وقد كتب اسمه كذلك في لوح حجر ...

ويتخلص التجيبي بعد مقبرة المعلّى إلى ذكر منى التي تبعد عن مكة بنحو أربعة أميال ... وقد زارها يوم السبت ٢٥ من ذي القعدة سنة ٦٩٦هـ صحبة عماد الدين أبي محمد المكي الذي كان دليلهم للوقوف على مشاهدها ... ثم مسجد الخيف الذي يتخذه الناس محل مناظرة ...

وغار (المرسلات) حيث نزلت سورة والمرسلات عرفاً ... وقد زاره التجيبي صحبة عماد الدين كذلك المكي.

وكان من المشاهد مسجد الكبش ... الذي ذكره الأزرقي ... ويذكر أنه هناك نزل الكبش الذي فدى الله تعالى به أحد ولدي إبراهيم ...

ومنها مسجد عند جمْرة العقبة ... وموضع هذه الجمرة مبلط بالحجارة، بلطته زُبيدة ... أنفقت فيه أموالاً عظيمةً وأوسعته لحاج بيت الله، ولها في طريق الحجاز آثار حسنة ومصانع (خزانات الماء) جليلة لم يسبقها أحد إلى مثلها، وسقت أهل مكة بعد أن كانت الراوية بدينار ...! قال لها وكيلها ـ وقد أمرته أن يعمل بعض تلك المصانع: تلزمك يا سيدتي نفقة كثيرة، فقالت: اعمل، ولو كانت ضربة فاس بدينار!!

وعاد التجيبي إلى مكة مع صلاة الظهر من يوم السبت المذكور ٢٥ من ذي القعدة ... ليقف على مسجد في طريق التنعيم حيث المتكأ الذي كان يستريح عنده الرسول عليه السلام، وبمقربة من هذا الموضع آبار الزاهد التي منها بئر عسيلة التي تفضل على ماء النيل!!

ومن هنا يخلص إلى ذكر بعض جبال مكة معتمداً دائماً على الأزرقي في أخبار مكة

... جبل أبي قبيس، اسم لرجل كان يعمره ... وكم فيه من آثار يقصد الناس زيارتها، وجبل ثور الذي يحتضن الغار المبارك المذكور في القرآن الكريم والذي آوى الرسول ومعه أبو بكر الصديق، وبينه وبين مكة نحو أربعة أميال. وقد صعد إليه التجيبي يوم الخميس ١٨ شوال سنة ٦٩٦هـ، وهو عسير الدخول. ثم جبل حراء المشرف على منى، وبينه وبين مكة ثلاثة أميال أيضاً ... وقد صعده التجيبي يوم الاثنين ٢٢ من شوال سنة ٦٩٦هـ ودخل الغار الذي كان النبي ﷺ يتعبد فيه، وهو سهل الدخول ليس كسابقه... ومن المشاهد بها بمقربة من المتكأ جبال أربعة عليها أعلام من الحجارة يقولون: إنها الجبال التي جعل عليها إبراهيم أجزاء الطير، ثم دعاهن ... وبمقربة منها جبل يدعونه بالبكّاء ... وتحته كانت سقاية ابن الجراح ...

وبعد أن ينهي التجيبي حديثه عن معالم مكة ومواقعها الجغرافية يخصص فصولاً مسهبة للهدف الثاني من الحج الذي لا يقل عن الهدف الأول ... ويتعلق الأمر بالتعرف إلى الجانب الثقافي بمكة المكرمة والحياة العلمية بها... أو بالأحرى الحصول على الإجازات العلمية من مشايخ مكة المكرمة التي كانت مجمعاً لرجال الفكر والبحث، وملاذاً لرجال الفضل والخير ...

وهكذا، فعلاوة على ما أسلفناه في تلك اللائحة الطويلة عن "الذين قاموا برحلة حج وأخذوا في مكة المكرمة عن فلان وفلان" نجد التجيبي في رحلته يؤكد أن المجتمع المكي كان حافلاً بجوه العلمي إلى جانب احتفائه بالمناسك، ومن هنا نجد الرحالة المغربي يخصص فصلاً مسهباً يذكر فيه من تيسّر لقاؤه والأخذ عنه بالبلد الأمين ونيل الإجازة منه.

لقد كان من رجال مكة وجيران بيت الله:

أولاً: أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد بن علي بن الحسين بن علي الشافعي المكي المنعوت بالعماد المشهور أبوه بالطبري ... وكان صادق اللهجة، صحيح المذهب، حسن الخلق، نظيف الملبس، له بداخل الحرم الشريف بيت خلف قبة الشراب، يسمع فيه الأحاديث النبوية على ما أشار إليه من معلومات سابقة ... ترجمه ترجمة حافلة، وذكر من سمع منهم، كما اهتم بمروياته جميعها، أي: المواد الدراسية التي كان يلقنها، والتي

كان منها كتاب (المعلم بقواعد مسلم للمازري)...

ولقد ختم ترجمة شيخه بالإفادة بأن هذا الشيخ أجازه بجميع ما تجوز له وعنه روايته غير مرة ...

ثانياً: أبوالحسين يحيى، وتسمى أخيراً بمحمد بن علي بن الحسين بن علي المكي المعروف أبوه بالطبري، وهو أخو شيخه عماد الدين السالف الذكر. وقد لقيه أول مرة في بيت أخيه العماد في شهر ذي الحجة سنة ٦٩٦هـ وكان قبل هذا التاريخ في بعض أودية مكة في مكان يعرف بنخلة، لهم هناك حديقةٌ جيدةٌ فيها نخل وكرم عنب وليمون، وهو فيها أكثر أوقاته، فأجازنا بجميع ما تجوز له روايته وكتب بذلك للتجيبي بخطه ... وقد عدد التجيبي سماعات شيخه.

ثالثاً: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري المحتد، المكي الدار والنشأة والمولد، المنعوت بالرضيّ وبالبرهان أيضاً، وهو مفتي أصحاب الإمام الشافعي بالمسجد الحرام وإمامهم بالمقام، أحد فقهاء مكة، وأحد مفتي الحجيج بمنى وعرفات ... كان وقور المجلس، نظيف الملبس، صبوراً على الجلوس للغرباء، كثير التحمل لجفائهم .. وبعد أن يعدد مشايخ أستاذه يذكر أنه منسوب إلى طبرية مدينة الشام على عهده ...

رابعاً: جار الله ونزيل حرمه الأمين أبو عمرو عثمان بن محمد بن عثمان بن أبي بكر ابن محمد بن داود التوزري المالكي المنعوت بالفخر، أحد المجاورين ونبلاء المحدثين ... مشايخه يزيدون على ألف شيخ ..! وبعد أن يعدد مروياته يذكر أن هذا الشيخ أجازه بجميع ما تجوز له وعنه روايته، وتلفظ بذلك، وكتبه بخط يده ..

خامساً: جار الله أبو الفداء إسماعيل بن إبراهيم بن أبي الحسين المصري المنعوت بالظهر ... درس عليه التجيبي وعلى التوزري مجتمعين ...

وهذا الشيخ كذلك أجاز التجيبي بجميع ما تجوز له روايته، وكتب له بذلك بخط يده.

سادساً: جار الله أبو محمد عبدالله بن عبدالحق بن عبدالله بن عبدالأحد بن علي

القرشي ثم المخزومي، الشافعي مذهباً، الدلاصي مولداً، المنعوت بالعفيف، أحد الأئمة الفضلاء، المشهور بعلم القراءات ... ويخبرنا التجيبي بأن شيخه الدلاصي أجازه بجميع ما تجوز له روايته وتلفظ بذلك وكتب بخطه.

سابعاً: أبو عبدالله محمد بن غالب بن يوسف بن غالب بن محمد بن شعبة الشافعي الأنصاري الأندلسي الجياني المنعوت بالشمس، نزيل مكة، من المشهورين بالفضل والدين ... وقد أجازه هذا الشيخ أيضاً بجميع ما تجوز له وعنه روايته وكتبه له بخطه ... وقد كان كتب للجياني بذلك في مكة المعظمة من ذي قبل.

ويذكر بعد هذه الكوكبة من أعلام مكة المكرمة في أواخر القرن السابع الهجري بعض الشخصيات التي صادفها بمكة من أمثال نجم الدين العجمي ... وأمثال جار الله أبي عبدالله بن المطرف الأندلسي الإشبيلي الذي لقيه التجيبي برباط الموفق بمكة ... وأمثال ابن صدقة الذي لقيه التجيبي في بيت شيخه العماد المكي السالف الذكر.

وبعد أن يجدد الحديث عن أحوال مكة المكرمة في رمضان ... وتوزيع ماء زمزم على الحاضرين في المسجد الحرام عند المغرب، لا فرق بين صغير وكبير وغني وفقير .. لا يفوته أن ينوه - كما فعل الكثير من رحالي المغرب - بطريقة تلاوة القرآن عند المشارقة، والمصريين على الخصوص، لقد أخذت تلك التلاحين بقلبه، ونصب نفسه للدفاع عنها ضد الذين لا يعرفونها!

ويخلص بعد هذا لوصف ليالي القدر، وكيف تصبح أعراساً يحتفل بها أهل مكة المكرمة .. بإحضار الشموع الكبيرة، وبذل الكثير من العطاء من أجل أن تمر على أحسن ما يرام مع الدعاء للمتنفذين ورجال الحكم في البلاد، وعلى رأسهم شريف مكة ...

لقد أعادت إفادات التجيبي عن رمضان إلى ذاكرتي الأيام الجميلة التي جادت بها عليَّ الأقدار في العشر الأواخر من رمضان ...

مانسا موسى ٧٣٨هـ / ١٣٣٨م

هذه رحلة لمْ يدونها صاحبها، أعني إمبراطور دولة مالي: موسى، الذي قام بأداء مناسك الحج سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م، ولكنها رحلة تضافرت على كتابتها مصادر إفريقية مغربية وشرقية وأجنبية كذلك، ونذكر في صدر هؤلاء ابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) في «مسالك الأبصار»، كما نذكر منهم الرحالة المغربي ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ /١٣٧٧م).

ونذكر منهم القلقشندي (ت٨٢١هـ /١٤١٨م) في موسوعته «صبح الأعشى»، ونذكر المؤرخ المعروف ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ /١٤٠٦م) في تاريخه، والمقريزي (ت ٨٤٥هـ /١٤٤١م) في تآليفه[1].

وأخيراً، نذكر تاج الدين السنجاري (ت ١٠٥٧ – ١١٢٥هـ) في كتابه «منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم». ويتعلق الأمر برحلة إمبراطور مالي المانسا موسى صحبة زوجته المفضلة إيناري كونتي إلى الديار المقدسة سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م على ما أسلفنا.

وقبل أن نتحدث عن أصداء رحلة مانسا موسى نشير إلى بعض الرحلات الحجازية الإفريقية التي سبقت رحلة مانسا موسى، ونعني بهذا أولاً مانسا عليّ الذي كان من أعظم ملوك السودان. حج أيام الظاهر بَيْبَرْس، ثم الملك ساكورة أو (سابكارا) كما ينطقون به الذي حج أيام الملك الناصر، وقد لقي مصرعه عند عودته على ما نقرؤه في «صبح الأعشى» للقلقشندي.

وهكذا نقرأ من خلال إفادات عن شاهد عيان سعيد الدكالي المغربي المقيم في

(١) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٦، ص٤١٤ ... دار الكتاب اللبناني، طبعة ١٩٨٣م. لمملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين نصوص جمعها وقدم لها وعلق عليها الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص١٢٢– ١٢٣. كوك: بلاد السودان، ١٩٩٥م، ص ٩١–٩٢.

عاصمة مالي (يناني) خمساً وثلاثين سنة، وعن الأمير أبي الحسن علي بن أمير حاجب الذي كان كثير الاجتماع بالسلطان موسى عندما قدم مصر حاجاً. نقرأ عن الظروف المصاحبة لهذا الحدث التاريخي المهم، الذي كان يعني حج المانسا موسى وزيارته لمكة المكرمة، هذه الزيارة التي أغرت المانسا المذكور بالعودة إلى مكة للمجاورة ولانتظار المصير بها، بيد أن المنية عاجلته قبل أن يُحقق هذا الأمل.

لقد كان المانسا موسى من أصدق المسلمين، فقد بنى المساجد والجوامع والمآذن، وأقام ببلاد السودان الجمع والجماعات والأذان ، وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وبقي بها سلطان المسلمين، وقد تفقه في الدين على حد تعبير ابن فضل الله العمري، ويقول ابن أمير حاجب: إن المانسا موسى كان طوال مقامه بمصر سواء قبل توجهه إلى الحجاز أو عند عودته على نمط واحد في العبادة والتوجه إلى الله عز وجل، كأنه بين يدي الله لكثرة حضوره، وكان هو ومن معه على مثل هذا، مع حسن الزي في الملبس والسكينة والوقار، علاوة على أنه كان كريماً جواداً كثير الصدقة والبر ... وقد خرج من بلاده بمئة وسق من الذهب أنفقها في حجته على القبائل وهو في طريقه عبر الصحاري الموحشة بجوها وقلة أمنها ومائها وما كانت تتطلبه من استعدادات هائلة ليس فقط للأشخاص، ولكن للجمال والمطايا التي تحتاج إلى الأحواض المتنقلة كما نعلم في طريقه إلى مصر، ثم بمصر، ثم من مصر إلى الحجاز عبر البحر الأحمر.. حيث كان ينفق بسخاء في التوجه والعودة حتى احتاج إلى القرض من مصر، فاستدان على ذمته من التجار بتعويضات مغرية جعلها لهم، بحيث حصل لهم من ثلاثمئة دينار سبعمئة دينار ربحاً بعثها إليهم بالوزن الراجح!

لقد أصبح واضعو الخرائط يرسمون السودان مع صورة المانسا موسى وهو يمسك بيده كرة من ذهب، تعبيراً عما كان يمتلكه من مبالغ ضخمة من المال ...

ويقول ابن فضل الله: بلغني أول قدومي مصر وإقامتي بها حدث وصول هذا السلطان موسى حاجاً، ورأيت أهل مصر يلهجون بذكر ما رأوه من سعة الإنفاق، فسألنا الأمير أبا العباس أحمد بن الحاكي المهندار، رحمه الله، فذكر لي ما كان عليه هذا السلطان

من سعة الحال والمروءة والديانة ... وكان شعاره ـ يعني عَلَمَه ـ أصفر في أرض حمراء.

وكان من أطرف ما حكاه الأمير الذي عهد إليه باستقبال المانسا ومرافقيه من لدن السلطان الأعظم الملك الناصر أنه بعد أن قدم إلى الخزينة السلطانية بمصر أحمالاً كثيرة من الذهب المعدني حاول أن يطلعه للقلعة؛ مقر الملك، حيث يجتمع بالسلطان فأبى قائلاً: أنا جئت لأحج لا لشيء آخر، وما أريد أن أخلطه بغيره!!

ويذكر الأمير ما يفيد أن هذا الاحتجاج أو الاعتذار من المانسا كان بسبب ما بلغه من أن عليه أن يقبل الأرض أو اليد على الأقل كما كانت المراسيم المصرية تفرضه آنذاك!

وأمام إلحاح التشريفات السلطانية في إحضار المانسا وافق معتقداً أن "رسالته" بالاعتذار للسبب المذكور قد وصلت ... لكن الذي حصل أنهم أوعزوا إليه في القصر أن يقبل الأرض فأبى إباءً ظاهراً ... وحاولوا أن يفسروا له الوضع، لكنه أجاب: أنا أسجد لله الذي خلقني وفطرني، وسجد لله على أرض الله!!

وكانت أخبار هذا "الصراع" قد وصلت إلى الملك الناصر الذي نراه، كما تقول الأخبار، يقوم له بعض قيام! ولو أنه أكرمه وأجلسه إلى يمينه حيث جرى حديث طويل بين الرجلين. وأعقب ذلك إرسال ملك مصر عدداً من الخلع الكاملة للمانسا ولأصحابه وعدداً من الخيول المسرجة الملجمة له ولأعيان من معه إلى آخر الهدايا التي تعبر عن مدى إدراك الملك الناصر لشخصية هذا الذي ورد من آخر الدنيا يقصد مكة المكرمة مع هذا الحشد الكبير من إفريقية الغربية متجشماً أنواع الأخطار...

ولما آذن أوان الحج بعث الملك الناصر إلى المانسا موسى بعددٍ من المطايا والأزواد، ورسم لأمراء الركب المصاحب له بإكرامه واحترامه، وغادر القاهرة يوم ٢٢ من شوال ...

لقد أطنب ابن فضل الله العمري حول الأثر الذي تركته زيارة المانسا لمصر سواء على الصعيد الاقتصادي، أو الأخلاقي كذلك، لكن الشهادة التي تهمنا أكثر هي الشهادة التي تلقّاها ابن فضل الله العمري من الدليل الرئيس المرافق للمانسا إلى الحجاز ... مهنّا ابن عبدالباقي العجرمي، الذي قال: إن المانسا أفاض على الحجيج وأهل الحرمين سحائب الإحسان، وكان في غاية التجمل وحسن الزي في سفره هو ومن معه، وتصدق بمال كثير.

قال مهنا: وقد نابني منه نحو مئتي مثقال من الذهب، وأعطى رفاقي جمالاً أخرى.

وتتميماً للحديث يقول العمري: إن المانسا كتب لملك مصر بعد وصوله إلى مقر ملكه رسالة بالخط المغربي في ورق عريض ... أرسلها بواسطة بعض خواصه ممن جاء للحج، ومضمونه السلام والوصية بحامله الذي جهزه بخمسة آلاف مثقال من الذهب هدية لملك مصر ...

وقبل أن نسوق إفادة الرحالة ابن بطوطة ننقل ما ذكره تاج الدين السنجاري في كتابه (منائح الكرم) السالف الذكر عن مقام المانسا بمكة المكرمة، وهو يدل كذلك على سمو أخلاق المانسا وكرم نفسه، قال: وفي سنة سبعمئة وأربع وعشرين (١٣٢٤م) حج ملك التكرور موسى، وحضر للحج معه أكثر من خمسة عشر ألفاً من التكاررة..!!

وعلى ذكر حجة المانسا موسى نذكر أن الإمام علي بن عبد القادر الطبري[(١)] صاحب «الأرج المسكي في التاريخ المكي» ذكر أنه وقعت فتنة بين الترك (يعني الأتراك المماليك العاملين في مكة) والتكاررة بالمسجد الحرام وشهرت السيوف بالمسجد...

ومن حسن الحظ أن الملك موسى كان يشرف من شباك على المسجد بالرباط الذي كان يقيم فيه العاهل الإفريقي، هذا الرباط الذي يحمل اسم رباط الخوزي، الذي كان الأمير قرامز بن محمود بن قرامز الأقدري الفارسي وقفه وحبسه على الصوفية والمتجردين سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م على ما كان يظن الفاسي، فعندما شاهد بداية المعركة أمر أصحابه فوراً بالكف عن القتال، وهذا ما أنقذ الموسم من فتنة ماحقة...

* وفي حديث ابن بطوطة عن تومبكتو[(٢)] قال: إن بهذه البلدة يوجد قبر الشاعر المفلق أبي إسحاق الساحلي الغرناطي المعروف بالطويجن الذي كان العاهل الإفريقي قد

---

(١) هذا الكتاب لعلي بن عبد القادر الطبري المتوفى سنة ١٠٧٠هـ / ١٦٦٠م. وانظر ابن كثير في البداية والنهاية ١٤ / ١١٢، والفاسي في شفاء الغرام، طبعة ثانية ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ج١، ص ٦٠٩، والنجم ابن فهد في إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج٣، ص١٧٨، والجزيري في درر الفوائد ص٣٠٠، وانظر كذلك أحمد زيني دحلان: خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن النبي عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا بالتمام، ص ٣٠، المطبعة الخيرية، مصر، ١٣٠٥هـ. مرارة الجنان وعبرة اليقظان.

(٢) رحلة ابن بطوطة. تحقيق د. التازي، نشر أكاديمية المملكة المغربية ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ج ٤، ص٤٣١ وما بعدها.

تعرف إليه وهو بمكة ... كما أن بها قبر سراج الدين ابن الكويك؛ أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية الذي ورد على العاهل المالي المانسا موسى ...

قال ابن بطوطة: وكان السلطان المانسا موسى لما حج نزل بروض لسراج الدين هذا ببركة الحبش خارج مصر، وبها ينزل السلطان، واحتاج (المانسا) إلى مال فتسلفه من سراج الدين، وتسلف منه أمراؤه أيضاً، وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضي المال فأقام بمالي ولم يعد، فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له، فلما وصل تنبكتو أضافه أبو إسحاق الساحلي، فكان من القدر موته تلك الليلة، فتكلم الناس في ذلك واتهموا أنه سم، فقال لهم ولده: إني أكلت معه ذلك الطعام بعينه، فلو كان فيه سم لقتلنا جميعاً، لكنه انقضى أجله. !!

وبلغ الولد إلى مالي حيث اجتمع بالمانسا الذي أعطاه المال المستحق قبل أن ينصرف إلى ديار مصر.

وقد ردد السعدي إفادات ابن بطوطة على أنها حقائق ثابتة[١].

وقد خصص هذا الحدث الكبير بالتاليف عام ١٩٧٥م الأستاذ إبراهيما بابا كاكي السنغالي[٢]، ونحن نقتبس من التاليف الذي يبدو أن الصنعة الأدبية اقتضت منه أن يقوم ببعض الاستطرادات التي نوافقه عليها.!

لقد دخل الإمبراطور البيت الحرام يوم الجمعة خامس ذي الحجة (٢٣ نوفمبر)، وقام بطواف القدوم ... سبعة أشواط، ابتدأها من الحجر الأسود ... وسعى بين الصفا والمروة ... ثم حضر خطبة اليوم السابع (يوم الزينة) التي يلقيها قاضي مكة (رضي الدين الطبري) الذي يفتح بهذا الخطاب موسم الحج ويذكّر الناس بما عليهم من واجبات المناسك..

ثم توجه مانسا إلى منى متبعاً الخطوات نفسها التي سلكها النبي ﷺ، حيث قام بكل ما تفرضه عليه المناسك، منقطعاً إلى الصلاة والعبادة والتوسل بين هذه الحشود

---

(١) انظر الباب الثالث من تاليفه حول تاريخ بلاد السودان ..

(2) Cake, Ibrahim Baba: Kankou Moussa, Ampereur Du Mali. Ed. Neas 1975.

الخاشعة الضارعة إلى رب الأكوان ....

ومن غير أن يتحدث كاكي عن الموقف يوم عرفة الذي كان يصادف الاثنين (٢٦ نوفمبر) ولا عن الخطيب ولا عن المزدلفة ورمي الجمرات؛ لأنها عبادات شخصية بين العبد ومولاه، يعود ليذكر أن الإمبراطور رجع إلى مكة ومعه شيخ سدنة الكعبة الذي كان مالكي المذهب... حيث يتفرغ للعبادة ويتفحص البيت الحرام ... وهنا يذكر أن الكعبة كانت تكتسي رداء أسود يغلفها من سائر الجهات..

وتنص الإفادة على أن باب الكعبة كان «مصفحاً بصفائح الفضة، بديع الصنعة، تعلوه عضادة من الذهب الخالص، وقد نقش على الباب بعض الآيات بالذهب الخالص كذلك»(١).

لقد اعتاد الإمبراطور كانكو موسى أن يجلس في الظلّة على عقبيه يرتدي إحرامه الأبيض حيث وجد نفسه في أعظم بيت مقدس عند المسلمين على وجه الأرض... كان يشعر بحالةٍ روحانيةٍ لم يعشها في حياته ... كان يتوسل ويتلو آيات من القرآن الكريم.

كان الإمبراطور كانكو موسى يقضي وقته في التأمل مستعرضاً حياته الماضية، هل كان يحكم بعدل وحكمة؟ وهل ارتكب ذنباً أو اقترف جرماً بدون علم؟ كم من قوم ظلمهم وهم لا يستحقون ذلك؟ كم من بريء لقي حتفه في الحروب التي أمر بها؟ كيف يمكن التمييز بين ما صدر عنه كإنسان وما صدر عنه كسلطان؟ كيف يمكن له أن يميز بين هذا وذاك؟ كيف يمكنه أن ينسى موت والدته وقد كان هو سبب وفاتها من غير شعور؟ (ماتت والدته من نفاس). تحت ثقل الذكريات ضرب بصدره بيده صائحاً: الله !الله! الله! لماذا مكنتني من الحكم؟ وإذا كان حكمي جائراً فلماذا يسمح لي بأن أبقى على وجه الأرض؟

منذ هذا الوقت، وأول مرة في حياة الإمبراطور، قرر أن يصبح رجلاً عادياً كسائر الناس، بلا سلطة ولا مسؤولية ... كان يشعر باضطراب داخلي كبير، ولم تعد إليه الطمأنينة إلا عندما يأخذ في الصلاة أمام الكعبة...

---

(١) لا ننسى أن ابن بطوطة الذي وصف الباب بعد سنتين فقط من زيارة الإمبراطور قال: إن العضادتين من فضة.

وبهذه المناسبة، يصف كاكي داخل الكعبة التي زارها مانسا موسى، وصفها بأوصاف تقارب ما قرأناه في رحلة ابن بطوطة التي تمت بعد سنتين من حجة الإمبراطور، لقد كان هذا الداخل مفروشاً بالرخام الملون على نحو ما نجده كذلك في الجدران على مقدار قامة الإنسان . . . وأن بعض القطع الرخامية الموشاة بالأخضر والأحمر كانت مفصولة بحواجز من رخام ذي بياض ناصع وصفاء كامل، وفي الأعلى يوجد إفريز يحمل نقوشاً من ذهب على أرض لازوردية (حجر كريم سماوي الزرقة)، وهناك صفائح ذهبية منقوشة تغطي الجانب الأعلى للجدران، ويقوم السقف على الأعمدة الثلاثة من العود القماري (Bois de L'aloes)، وهو مغشى بأثواب من حرير مختلف الألوان. وعلى يسار الداخل للكعبة، حيث موضع الحجر الأسود في الخارج، يوجد صندوقان يحتويان على عدد من المصاحف الرفيعة المهداة للكعبة المشرفة(١)، كما يوجد عن يمين الداخل الباب الذي يحمل (اسم باب الرحمة) والذي يصعد منه إلى سطح الكعبة المشرفة.

وقد نبه شيخ السدنة المانسا موسى، وعلى بعد ثلاث خطوات من المدخل، إلى موضع قبالة الباب كان النبي ﷺ يصلى فيه، وطلب من العاهل أن يصلي معه في الموقع نفسه، حيث قام العاهل بالصلاة متوسلاً إلى الله بحرمة هذا المكان الذي مسته أقدام الرسول ﷺ، لكنّ تأثره كان أقل من تأثره يوم دخل المسجد الحرام وأدى الصلاة وحيداً في الظّلة.

وفي أعقاب اختتامه للمناسك أهدى للمدينة المقدسة عشرة آلاف قطعة ذهبية.

وبعد هذا ذهب بنفسه إلى شريف مكة (الأمير عُطيفة)(٢) الذي استقبله استقبالاً عظيماً وهنأه بمقدمه مع هذا الحشد الكبير من بني قومه الماليين الذين أسعدهم الحظ بأن يقوموا بأداء هذه الفريضة المقدسة.

وهنا أجابه الإمبراطور بأنه يرغب في ازدهار الإسلام ببلده، وأن يعمل على أن يزداد بلده إيماناً بالله ورسوله، وأنه يعتزم بناء عدد من المساجد والمدارس، ولهذا الغرض فإنني - يقول المانسا - أرجو إليكم أن تساعدوني على أن ترسلوا معي بعض الأشراف . . .

---

(١) يمكن أن يكون من بينها المصحف المغربي الذي أهداه العاهل المغربي يوسف بن يعقوب سنة ٧٠٣هـ للمسجد الحرام. د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٧، ص٢١١.

(٢) أحمد السباعي: تاريخ مكة، الطبعة السابعة، ص ٢٦٧.

وتذكر هذه المراجع المكتوبة بالإنجليزية أيضاً أن مانسا لم يتردد في أن يطلب إلى شريف مكة أن يصدر أمره باصطحاب الإمبراطور لثلاثة شرفاء أو أربعة ليعيشوا إلى جانب مملكته للتبرك بهم والاستفادة من علمهم.

فكان جواب الشريف بالرفض التام قائلاً: على الرغم من رغبتي في تحقيق أمنيتك فإنني لا أرضى أن أخاطر بالأشراف في بلادٍ يوجد فيها وثنيون لا يؤمنون بالله...

أجابه الإمبراطور بأن البلاد ولو أن بعض سكانها لا يتوفرون على إيمان كامل ولو أن بعضهم يعبدون الأوثان، ولكن الأمن هو المسيطر في بلاده، ولذلك فإنه لا خوف أبداً على الأشراف؛ لأن الناس هناك كيفما كانت معتقداتهم يتحركون في أطراف البلاد بكل أمان... فإذا مكنتني من تحقيق رغبتي في وجود الأشراف هناك فإني أضمن لهم سلامتهم التامة ... ولا يمسهم أي أذى... يقول المانسا...

وأمام إلحاح الإمبراطور وجدنا أن الشريف يذعن للاستماع إلى مقترح الإمبراطور، ولكن على الطريقة التي تتلخص في أن الشريف لا يأمر أحداً بمصاحبة الإمبراطور، ولكنه يقترح أن يقوم هذا الأخير بتوجيه نداء داخل المسجدالحرام وباقي مساجد مكة المكرمة ليعلن الرغبة، فمن شاء لبَّاها ... وقد تم ذلك بالفعل، حيث وجدنا الإمبراطور يعطي لكل من استجاب لدعوته ألف مثقال ذهباً مع الالتزام التام أن يكونوا محل تكريم وتشريف وأمن وأمان في الإمبراطورية المالية، وهكذا صحبه أربعة أشراف من مكة.

وعلى نحو مقامهم بمكة كان الأمر بالنسبة إلى المدينة ... حيث وجدناه يغرق في العبادة والتبتل والتوسل والتلذذ بسماع الأذان الذي ينطلق من كل صوب ... وكم كان الإمبراطور متأثراً عندما فتحت أمامه أيضاً الروضة الشريفة ودخلها ليجد نفسه أمام قبر الرسول الأكرم ﷺ وإلى جانبه صاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ... لقد شكر الله على أن منحه الفرصة للوصول ... ثم رأيناه يلح على زيارة موقع النخلة التي كان الرسول يقف عندها لإلقاء خطبه ... إلى جانب هذا كان يتتبع ويتطلع لمعرفة أطراف الأرض التي مرّ بها نبي الإسلام ليتبرك بها ... ولا يفوته أن يزور مسجد قباء الذي يعرف عن شهرته، ولكن ليجد نفسه على موعد كل ليلة في المسجد النبوي، حيث يتلو كل واحد ما تيسر له من القرآن على أضواء الشموع التي تجعل من الليالي نهاراً...

لقد كان الإمبراطور في قمة المتعة وهو يعيش هذه الأجواء التي كانت على ما يبدو تشجعه على البقاء أكثر.

ولم يعكر من هذه الأجواء إلا وصول نبأ يحمله رسول خاص من مالي يخبره بأن ملك سُنغاي هاجم بلاده، وأن الحرب قائمة بين الجانبين.

ومن المهم أن نذكر هنا أن الرواية الإفريقية التي ترجمت إلى الفرنسية والإنجليزية تؤكد أن الإمبراطور وحاشيته وجدوا أنفسهم مأخوذين بسيرة أهل مكة من حيث أناقتهم في لباسهم الأبيض وهندامهم الجميل، وسماقة قدِّهم وعيونهم السوداء التي يعلوها الكحل، وبشرتهم اللينة المعطرة، كانت معاملتهم مع الجميع معاملة نموذجية مثالية، كانت الميزة التي لفتت أنظار حاشية الإمبراطور أن أهل مكة كرماء بشكل نادر لا مثيل له، فهم ينزلون الطعام للفقراء والمحتاجين في أثناء معابر الطرق..

وإلى جانب هذا، لاحظت الحاشية المالية الدرجة العالية للأمانة التامة التي يتوفر عليها حتى أطفال مكة الذين لم يخطر لهم على البال أن يخونوا أو يسرقوا ...

لقد قضى الإمبراطور مع كبار قومه كل وقته بالحرمين الشريفين موزعاً بين التلاوة والصلاة والعبادة، إلى جانب التعرف إلى رجال الفكر والعلم والدّين، وكان من بين هؤلاء الشاعر الساحلي المعروف بالطويجن الذي سلف ذكر له.

لقد خطط منذ الآن كيف سيقضي أيامه القابلة - على ما أشرنا - وقرر بعد أداء المناسك أن يرجع إلى بلاده ليرتب أموره ويضع الأسس القوية لبناء أمن بلاده وينصب ابنه على العرش؛ ليعود إلى مكة حيث يقضي ما تبقى له من العمر في العبادة والنسك.

وهكذا أخذ طريق العودة إلى بلاده عبر القاهرة، حيث سيصله رسول آخر يبشره بالانتصار على سنغاي التي سيدخلها الإمبراطور قبل أن يدخل إلى مالي إلى آخر ما تحكيه الرواية الإفريقية(١).

ونذكر بهذه المناسبة أن حفظة الروايات الشفوية يجمعون على القول: إن مانسا اشترى في مكة عدداً من الأراضي والدور لإيواء الحجيج السودانيين(٢).

(1) Shapers Of Africa, Florence T, Polatnich, Cecile Clairval And Alberta L. Saletan Julian Messner New York. P.15-37.

(٢) انتشار الإسلام في ظل حكم مانسا موسى، تاريخ إفريقيا، يونيسكو، ص ١٦٠-١٦١.

وبالنظر إلى اهتمامنا بمصداقية المانسا، وخاصة استنكافه من السجود لملك المشرق هذا السجود الذي لم يعتد سماعه وهو يتعامل مع ملوك المغرب، أحببنا أن نكمل الصورة الجميلة لهذا الملك الإفريقي العظيم الذي أعطى المثل الأسمى في سلوكه وسيرته بهذه الإضافة:

لقد كان ملوك بني مرين في المغرب الأقصى مهتمين بإمبراطورية مالي، إذ نرى تبادل السفارات والهدايا بين ملوك فاس وملوك مالي، وقد فتح (مانسا موسى) ببلاده طائفة من المدارس لتحفيظ القرآن، وهناك جملة من الروايات تتحدث عن إرسال بعثات مالية إلى مدينة فاس للدراسة في جامع القرويين، وكان على رأس تلك البعثات بعض الأمراء من أبناء المانسا(١)، وهو ما يفسر لنا ـ إن كنا بحاجة إلى تفسير ـ ماذا كان وراء ازدهار (جيني) و(تومبكتو) حتى أصبحتا بعد قرن مركزين علميين كبيرين.

ولا بد أن نختم الحديث عن الإمبراطور مانسا موسى بهذه المعلومة المهمة التي ننقل أصولها من المصادر المغربية التي أفادتنا أن مانسا موسى بعث بسفارة حافلة إلى العاهل المغربي بعد عودته من حج بيت الله... كانت تحمل طائفة من الهدايا السنية من مثل التي كان يهادي بها ملوك مصر والشام... لقد كانت سمعة السلطان أبي الحسن مدوية في الآفاق وخاصة عبر إفريقية والأندلس، ومن ثم أصبحت العلاقات بين المملكتين على قدر كبير من الاحترام المتبادل التي بلغت إلى حد تقديم الولاء للمغرب على ما يقوله المؤرخون.

وقد استقبل السلطان أبو الحسن بمدينة فانسا سفارة المانسا موسى التي كان ترجمانها هو الحاج يونس وأعادها مثقلة بالهدايا والتحف(٢) .. ولعل في ترديد نص ابن خلدون ما يعبر عما نقصده من متانة العلاقات بين الجهتين، قال: وكان بين هذا السلطان مانسا موسى وبين ملك المغرب لعهده السلطان أبي الحسن مواصلة ومهاداة، سفرت بينهما الأعلام من رجال الدولتين(٣).

---

(١) الموسوعة الإسلامية (بالفرنسية) ـ مادة Mansa Moussa.

Manssa Mussa, Ency d'islam: D.c. Conard.

(٢) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٧، ص٤٠. التعليق ١، ٣، ٤.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٤١٦، ج ٧، ص ٥٥٤، طبعة دار الكتاب اللبناني.



المانسا موسى ملك مالي (عن الخريطة الكروية لدولسير عام ١٣٣٩م)

الأميرة الوالدة ٧٣٨هـ /١٣٣٨م

(مصحف بخط الملك هدية إلى المدينة)

لقد شهدت هذه السنة رحلة تضافرت على الحديث عنها مختلف المصادر المغربية والمشرقية، بل تولت بعض المراجع الأجنبية ترجمتها إلى لغاتها المختلفة، إذ وجدت فيها حدثاً تاريخياً وحضارياً يستحق الوقوف عنده . . .

ويتعلق الأمر برحلة الأميرة مريم حظية السلطان أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق رأس دولة بني مرين . . .

وكان الذي بعثها في هذه الرحلة الحجازية بعد أن تعذر إرسال والدته بسبب وفاتها، هو السلطان الشهير أبو الحسن بن أبي سعيد عثمان الذي عدّه ابن بطوطة في صدر الملوك السبعة الذين يحكمون العالم في عصره(١)، بعثها لكونها في محل والدته، وقد كانت مربيته فعلاً. وقد صحبت هذا الركب المغربي الجليل سفارة لا تقل أهمية عن موضوع الركب، وكان مما زاد في أهمية هذه الرحلة الأميرية أنها كانت تحمل معها هدية فريدة إلى المسجد النبوي لم يعرف التاريخ مثلها لملكٍ من ملوك الإسلام! فلقد نسخ العاهل المغربي السلطان أبو الحسن ابن أبي سعيد بيمينه نسخة من القرآن برسم الوقف الخالص للمسجد النبوي.

لقد جمع الوراقين لتنميق النسخة وتذهيبها، وأحضر القراء لضبطها وتهذيبها، وصنع للمصحف ربعة (ظرْفاً) من الأبنوس والعاج والصندل من فائق الصنعة، وغشي بصفائح الذهب، ورصع بالجواهر والياقوت، واتخذت له أصونة من الجلد المتين المحكم المرقوم بخطوط الذهب، ومن فوق ذلك غلائف الحرير والديباج وأغشية الكتان..

وقد زود الركب بمبلغ كبير من الأموال التي عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على الذين يتلون في المصحف عبر الدهور والعصور(٢) . . .

---

(١) ملك المغرب، وملك مصر والشام، وملك العراقين، وملك الترك، وملك خوارزم، وملك الهند، وملك الصين. انظر الرحلة ٢، ص٣٨٢.

(٢) محمد المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب، ١٩٩٦م، ص ٢٠٨.

وكانت هذه المناسبة فرصة كذلك لتبادل الرسائل الرفيعة المستوى بين خادم الحرمين الشريفين الملك الناصر والسلطان العظيم أبي الحسن، إلى جانب الهدايا المتبادلة بين ملك المغرب وملك المشرق من عيون التحف وغريب الهدايا وأكرم الطرف. وقد كانت البعثة المغربية للحج المرافقة للأميرة تتكون من أكبر الشخصيات وأوسعها تنوعاً، فقد كانت تشتمل على خلق كبير فيه كبار الرجال، على نحو ما كان يتوفر على طائفةٍ من السيدات الفضليات المرافقات للأميرة..

ولا بد أن نذكر من أولئك الرجال السفير الجليل والخطيب البليغ الشيخ أبا إسحاق إبراهيم ابن الشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي يحيى التازي ...

كما نذكر الحاجب أبا زيان عريف ابن الشيخ أبي زكرياء يحيى السويدي أمير بني زغبة من عرب بني هلال بسجلماسة، والكاتب أبا الفضل وأبا المجد محمد ابن أبي عبدالله محمد بن أبي مدين العثماني الفقيه الكاتب الشاعر...

بهذه المناسبة بعث السلطان أبو الحسن برسالة - كما أشرنا - إلى الملك الناصر تتضمن تأكيد العواطف التي يكنها العاهل المغربي لأخيه خادم الحرمين الشريفين، كما تتضمن تقديم أعضاء البعثة بمن فيها من الخاصة والزعماء والفرسان، وتتضمن بطبيعة الحال التوصية بالوفادة خيراً...

وهذا بعض ما جاء فيها بعد الديباجة:

« .. فإنَّا (أبا الحسن) نحيط علم الإخاء (الناصري) بما كان من عزم المولاة الوالدة على أداء فريضة الحج، فاعترض الحمام دون ذلك المرام، وإن لدينا من نوجب إعظامها ونقيم بها - بحكم البر - مقامها، وعزمها إلى ما أملته مصروف، وهي محل الوالدة المكرمة، وقد شيعناها إلى حج بيت الله الحرام والمثول ما بين زمزم والمقام، والفوز من السلام، على الرسول عليه وآله الصلاة والسلام صاحب الرسالة ومثابة الجلالة ...

وقد أصحبناها من رجال دولتنا وأحظيائها، ووجوه دعوتنا وأوليائنا، من اخترناه لهذه الوجهة الحميدة الأثر من أعيان بني مرين والعرب وأولاد المشايخ، أولي الديانة والتقوى وكل من له أثرة مشهورة.

ومعظم قصدنا من هذه الوجهة المباركة إيصال المصحف العزيز الذي خططناه بيدنا وجعلناه ذخيرة يومنا لغدنا ... إلى سيدنا ومولانا وعصمة ديننا ودنيانا محمد رسول الله ﷺ بطيبة، زادها الله تعظماً وتشريفاً، وأبقى على الأيام فخرها منيفاً...».

ثم تتحدث الرسالة عن المبالغ المالية التي سلمت لمحل الوالدة: «وقد عينا بيد محل الوالدة المذكورة من المال ما تشتري به في تلك البلاد المحوطة من المستغلات ما يكون وقفاً على القراءة فيه مؤبداً عليهم وعلى غيرهم فوائد مجانية».

ويشير الخطاب بعد هذا إلى رسائل شفوية حملها العاهل المغربي لأخيه الملك الناصر: «والإخاء الكريم يتلقى من الرسل المذكورين ما إليهم في هذه الأغراض ألقيناه، ويأمر بإحضارهم لأدائهم ـ بالمشافهة ـ ما لديهم أوْ عيناه، ويوعز بإعانتهم على هذا الغرض المطلوب، وييسر لهم أسباب التوصل إلى الأمل والمرغوب»(١).

وقد تضمنت الرسالة الجوابية الناصرية للعاهل المغربي، علاوةً على تقرير الرسالة المغربية السابقة، الإخبار بما لقيتْه الوفادة المغربية من تكريم وتبجيل منذ حلولها على ملك مصر والشام والحجاز. وتتخلص الرسالة إلى ذكر وصف مقتضب للهدايا الفاخرة التي غمر بها العاهل المغربي أخاه عاهل مصر بما فيها من خيول مسوقة، وبغال مثقلة بكل بديع وطريف من بلاد المغرب... ومنها ما كان من بلاد الصحراء كدَرَق لمطة، وأن الملك الناصر قد اتخذ سائر التدابير اللازمة لتوفير الراحة للواردين، وأنه كتب لسائر العمال والنواب.

ويشير الجواب الناصري للمصحف الفريد الذي انتسخه السلطان أبو الحسن للمسجد النبوي بخط يده ...

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الجواب أخذ طريقه للمغرب قبل التحاق ركب الحاج بالبقاع المقدسة لأداء المناسك، وهو ما يدل على مزيد العناية والاهتمام.

وقد تحدث الناس دهراً على حد تعبير ابن خلدون(٢) بالهدايا الرفيعة والمتنوعة التي

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٨، ص٩٩-١٠٣. الاستقصا: ج٣، ص١٢٧ وما بعدها. د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٧، ص ٢١٠-٢١١.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٧، ٥٥٢. التعريف به ص١١٦٦-١١٦٧.

بعث بها السلطان أبو الحسن صحبة هذه السفارة التي كانت حظية الوالد ضمن ركبها:

خمسمئة من عتاق الخيل المحلاة بسروج الذهب والفضة واللجم الخالصة المموهة والمغشاة، خمسمئة حمل من متاع المغرب وماعونه وأسلحته، ومن نسج الصوف المحكم ثياباً وأكسية وبرانس وعمائم وأزراً معلمة وغير معلمة، ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملوناً وغير ملون ساذجاً ومنمقاً، ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة الصنع بالدباغ المتعارف، وتنسب إلى اللَّمْط، ومن خرثي المغرب وماعونه وما تستطرف صناعته بالمشرق، حتى لقد كان فيها مكيل من حَصَى الجواهر والياقوت(١).

وقد ذكر الإمام ابن مرزوق في كتابه «المسند الصحيح الحسن» مفصِّلاً بعض ما أجمله ابن خلدون، فقال: إن العاهل المغربي بعث للناصر من أحجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمئة وخمسة وعشرين، ومن الزمرد مئة وثمانية وعشرين، ومن الزبَرْجَد مئة وثمانية وعشرين، ومن الجوهر النفيس الملوكي ثلاثمئة وأربعة وستين، وأرسل حللاً كثيرة فيها مذهبة ثلاثة عشر، ومن الأنساق عشرين مذهبة، ومن الخلادي ستة وأربعين، ومن القنوع ستة وعشرين مذهبة، ومن المحررات المختمة ثمانمئة، ومن الرصاق عشرين شقة، ومن الأكسية المحررة أربعة وعشرين، ومن البرانس المحررة ثمانية عشر، ومن المشففات مئة وخمسين، ومن أحاريم الصوف المحررة عشرين، ومن شقف الملف الرفيع ستة عشر، ومن الفضالي المنوعة والفرش والمخاد المنسوق والمحلل ثمانمئة، ومن أوجه اللحف المذهبة عشرين، وحائطين حلة، وحنابل مئة واثني عشر كلها حريرا! وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة، ومن السيوف المحلاة بالذهب المنظم بالجواهر عشرة، والسروج عشرة بركب الذهب كذلك، ومهاميز الذهب، وثلاثة رُكَب فضة، وستة مزججة ومذهبة، ومضمتان من ذهب مما يليق بالملوك، وشاشية حديد بذهب مكلل بالجوهر، ومن لزمات الفضة عشرة، ومن سروج مخروزة بالفضة عشرة، وعشرة أعلام مغشاة مذهبة، وعشر رايات مذهبة. وعشر براقع مذهبة، وعشر أشلة مرقومة، وثلاثون جلداً

(١) ابن خلدون: ج ٧، ٥٥٢-٥٥٣. التعريف ص ١١٦٦-١١٦٧. د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب. ج٧، ص ٢١٤-٢١٥.

شركي، وأربعة آلاف درقة لمط، منها مئتان بنهود الذهب، وثمانمئة بنهود الفضة، وخباء قبة كبيرة من مئة بنيقة، لها أربعة أبواب، وقبة أخرى مضروبة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبة، وهي من حرير أبيض، ومرابطها حرير ملون، وعمودها عاج وآبنوس، وأكبارها من فضة مذهبة.

ولما كان العاهل المغربي يعرف عن شغف الملك الناصر بهواية القنْص بالصقر فقد بعث إليه من جملة الهدايا أربعة وثلاثين من البزاة الأحرار المنتقاة، ومن عتاق الخيل العربي ثلاثمئة وخمسة وثلاثين، ومن البغال الذكور والإناث مئة وعشرين، ومن الجمال سبعمئة.

ووصف المقريزي مؤرخ مصر هذه الهدية بأنها جليلة إلى الغاية، نزل لحملها من الأسطول السلطاني المغربي ثلاثون قطاراً من بغال النقل سوى الجمال، وكان من جملتها أربعمئة فرس، منها مئة حَجْرة، ومئة فحل، ومئتا بغل، وجميعها بسروج ولجم مسقطة بالذهب والفضة، وبعضها بسروجها وركبها ذهب، وكذلك لجمها، وعدتها اثنان وأربعون رأساً، منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر ... وفيها سيف قرابه من ذهب مرصع، وخياطه ذهب مرصع، وفيها مئة كساة، وغير ذلك من القماش الغالي(١).

وبعد هذا، يأتي نص لسان الدين بن الخطيب حول برنامج الهدية، وقد توسع في الموضوع عن سابقيه، حيث نجده يثبت «نسخة العقد الذي يتضمن هدية السلطان أبي الحسن إلى صاحب الديار المصرية صحبة الربعة الكريمة بخطه».

وأخيراً، لعل من الظريف أن نذكر في جملة التقادم (الهدايا) "الإعلامية" ثوراً أصفر فاقع اللون، كامل الخلقة، لكن في وسط ظهره من الجانب الأيمن كتف طالع منه رؤوس أضلاعه، وذلك الكتف بمرفق وذراع وحافر مفرق مثل حافر البقر، فكانوا يطوفون به في القاهرة، ويجبى عليه كما يفعل بالسباع، وعليه جل من حرير أصفر على ما يذكر ذلك ابن إياس في بدائع الزهور(٢).

---

(١) د. التازي: الفاظ الحضارة في الوثائق العربية ذات الطابع الدولي، بحث قدم لمجمع اللغة العربية بالقاهرة (فبراير - مارس ١٩٨٩م).

(٢) ابن إياس، ج١ ق١، صفحة ٤٧٢. يلاحظ ان ابن إياس اخطأ في السنة التي كانت عنده ٧٣٦هـ.

وقد طلب ملك مصر إلى الأميرة أن تملي ما تحتاج إليه، فأجابت: إنها لا يعوزها شيء، وإنما تريد إكرامها وإكرام من معها حيث كانوا، إلى أن يصلوا إلى مكة؛ حيث نجد أن ملك مصر يأمر بتجهيزها اللائق بها، وهكذا استخدم لها السقاؤون والضوئية، وهيأ لها كل ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلاوات والسكر والدقيق والبجماط الذي يحمل اليوم في مصر اسم البقسماط(١).

وطلب الناصر من الحمالة نقل جهازها وأزودتها، وندب للسفر معها متولي الجيزة، وأمره أن يرحل بها في مركبها بمفردها قدام المحمل، ويمتثل لكل ما تأمر به . . .

وكتب لأمير مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة.

وختاماً، أذكر أن هذه الرحلة الحجازية، على أهميتها الدولية والحضارية، لا نجد لها ذكراً فيما نتوفر عليه من مصادر تتصل بتاريخ الحرمين الشريفين، لا نجد لها ذكراً في تاريخ مكة والمدينة، ولو أنها ـ أي: الرحلة ـ تمت في عهد الشريف رميثة بن أبي نُمَيّ الأول الذي استمرت مدة حكمه ردحاً من الزمان.

وهكذا لم تنل هذه الرحلة المغربية ما نالته رحلة الإمبراطور مانْسا موسى، وربما كانوا يرون أن الحديث عنها بمصر يكفي عنه في مكة على الرغم مما عرفناه عن الرحلة من أنها كانت تحمل إلى المدينة مصحفاً مكتوباً بخط العاهل المغربي، وعلى الرغم مما عرفناه عن المبالغ المالية الضخمة المخصصة لاقتناء العقار والأراضي من أجل جعلها وقفاً على القراء هناك.

لقد كان شريف مكة الذي كانت على عهده هذه الرحلة ـ كما قلنا ـ هو الأمير رميثة الذي خلص له الأمر بعد نزاع طويل مع أخيه عُطيفة الذي كان يشارك أخاه في الحكم بين الفترة والأخرى(٢).

---

(١) انظر الذهب المسبوك للمقريزي، تحقيق جمال الدّين الشيال ١٩٥٥م، ص٩٠، تعليق ٤. وانظر كذلك (محيط المحيط).

(٢) يراجع الحديث عن رحلات ابن بطوطة إلى مكة.

الأميرة مريم ٧٤٥هـ / ١٣٤٥م

بعد مصحف ثانٍ لمكة بخط السلطان أبي الحسن عام ٧٤٠هـ مصحف ثالث بخطه كذلك لبيت المقدس ٧٤٥هـ.

وبعد رحلة محل والدة السلطان رحل إلى المشرق عام ٧٤٠هـ / ١٣٤٠م أحد أعيان الكتَّاب يحمل معه مصحفاً ثانياً بخط السلطان أبي الحسن برسم مكة المكرمة، حمله إلى الناصر ملك مصر والشام وخادم الحرمين الشريفين، حمله من تخيره العاهل المغربي من أعيان كتَّابه. ويفيد ابن خلدون أن هذا المصحف الثاني جرى على قانون المصحف الأول، بمعنى أنه انتسخه بيده وجمع الوراقين لتنميق النسخة وتذهيبها كما جمع القراء لضبطها وتهذيبها وإعداد أوْعيتها وتنويعها وتصنيعها على غرار المصحف الأول(١).

بعد هذه الوفادة التي لم نعرف عنها شيئاً أكثر من أنها حملت المصحف الثاني لمكة ... يأتي الحديث الكبير الآخر المتمثل في رحلة أميرة مرينية ثانية هي السيدة مريم أخت السلطان أبي الحسن التي حملت معها المصحف الثالث بخط أخيها، والمهدَى إلى بيت المقدس، أنقذه الله من الرجس!

وقد وقف على هذا المصحف الثالث المقّري هناك، وأسعدني الحظ أنا أيضاً بالوقوف عليه وتصفحه بمناسبة زيارتي للقدس الشريف يوم الأربعاء ٢٨ صفر ١٣٧٩هـ / (٢ سبتمبر ١٩٥٩م)(٢)، ثم حصلتُ على صور لبعض ورقاته التي تحمل اسم السلطان أبي الحسن رحمه الله.

وقد كان في ركب الأميرة هذه السنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٥م الكاتب الأرفع الشيخ أبو المجد

---

(١) نلاحظ أن ابن خلدون التبس عليه أمر المصاحف، فذكر أن المصحف الأول كان هدية لمكة، بينما كان الثاني للمدينة. وعليه اعتمد صاحب الاستقصا، مع أن الرسائل المتبادلة بين المغرب والمشرق كانت صريحة في الموضوع، وأن الأول للمدينة والثاني لمكة.

(٢) د. التازي: القدس والخليل في الرحلات المغربية، نشر الأسيسكو ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ص٥٢.

وأبو الفضل وأبو عبدالله محمد بن أبي عبد الله الحاج محمد بن أبي مدين الذين كان ضمن الوفد الذي كان قد رافق الأميرة "محل الوالدة" عام ٧٣٨هـ / ١٣٣٨م.

لقد كان الركب يحمل الرسالة إلى خادم الحرمين الذي أصبح هذه المرة هو الملك الصالح أبا الفدا إسماعيل ابن الملك الناصر(١). وكان من أهداف الركب تفقد أحوال المصحفين السالفين وأوقافهما...

وهكذا قرأنا في المصادر التاريخية بالمشرق والمغرب عن هذه الرحلة وأهدافها ورجالها، وقد وردت نصوص الرسائل المتعلقة بهذه الرحلة في أكثر من مصدر...

وقد علق ابن خلدون على مهمة ابن أبي مدين الجديدة قائلاً: إنه قضى من وفادته ما حمل، وكان شانه عجيباً في إظهار أبهة سلطانه، والإنفاق على المستضعفين من الحاج في سبيلهم، وإتحاف رجال الدولة التركية (المماليك) بذات يده، والتعفف عما في أيديهم.

وقد عاد ابن أبي مدين بجوابٍ من خادم الحرمين الشريفين الملك الصالح أبي الفداء إسماعيل يفيض بالود والإخاء...

ومن المهم أن نشير إلى بعض ما ورد في الرسالة المرينية التي حملها السفير ابن أبي مدين معه بعد المقدمة التقليدية التي عزّى فيها ملكَ مصر في وفاة والده.

ولقد قصت الرسالة ما كان من بعث السلطان أبي الحسن بالمصحفين الأكرمين اللذين خطهما بيمينه إلى الحرمين الشريفين، وما كان من إذن الملك الناصر للمتوجهين بهما من شراء رباع توقف عليهما، ورسمه المراسيم بمسامحتهما على وجه التأييد، فجرت أحوال القراء فيهما بذلك الخراج المستفاد، ريثما يصلهم من خراج ما وقفه عليهم ملك المغرب ببلاده، على ما رسمه الملك الناصر من عنايةٍ مهمةٍ متصلة، واحترام في تلك الأوقاف، فوائدها به متوفرة متحصلة.

وفي هذه الوجهة أمر أبو الحسن سفيره وحامل رسالته للملك الصالح إسماعيل،

---

(١) ابن خلدون، ج٧، ص٥٥٣، طبعة دار الكتاب اللبناني عام ١٩٨٣م. د. التازي: المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي.

كاتبه أبا المجد ابن كاتبه الشيخ الحاج أبي عبدالله بن أبي مدين بأن يتفقد أحوال تلك الأوقاف بمكة والمدينة، ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد وإسراف، وأن يتخير لها من يرتضي لذلك. وقد بسطت الرسالة المغربية هذه القضية بين يدي الملك الصالح بما يقتضيه كماله من تخليد ذلك البر الجميل، وتشييد ما اشتمل عليه من الشراء الأصيل، والتقدم بالإذن السلطاني في إعانة السفير المغربي على ما يتوخاه من ذلك الشأن من طرق الصواب ...

وقد كان جواب العاهل المصري على نحو ما نسمعه اليوم عندما يتولى حاكم جديد لبلاد ما فيصرح بأن سياسته الخارجية لا تختلف عما كانت عليه في أثناء الحاكم السابق!

ويذكر الجواب المصري عن الرسالة المغربية أن السفير المغربي ابن أبي مدين حضر بين يدي الملك الذي أخبر السفير بأن الأمر يجري في قضية المصحفين بما أمره العاهل المغربي، وأنه رسم لنوابه في توخي أوقافهما طبق الملتمس المغربي. وإلى هذا تطمئن الرسالة الشرقية ملك المغرب بأن وقفه المبرور مرعي الجوانب، آمن من إزالة رسمه أو إدالة حكمه، بل له مزيد الرعاية، وإفادة الحماية، ووفادة الرعاية.

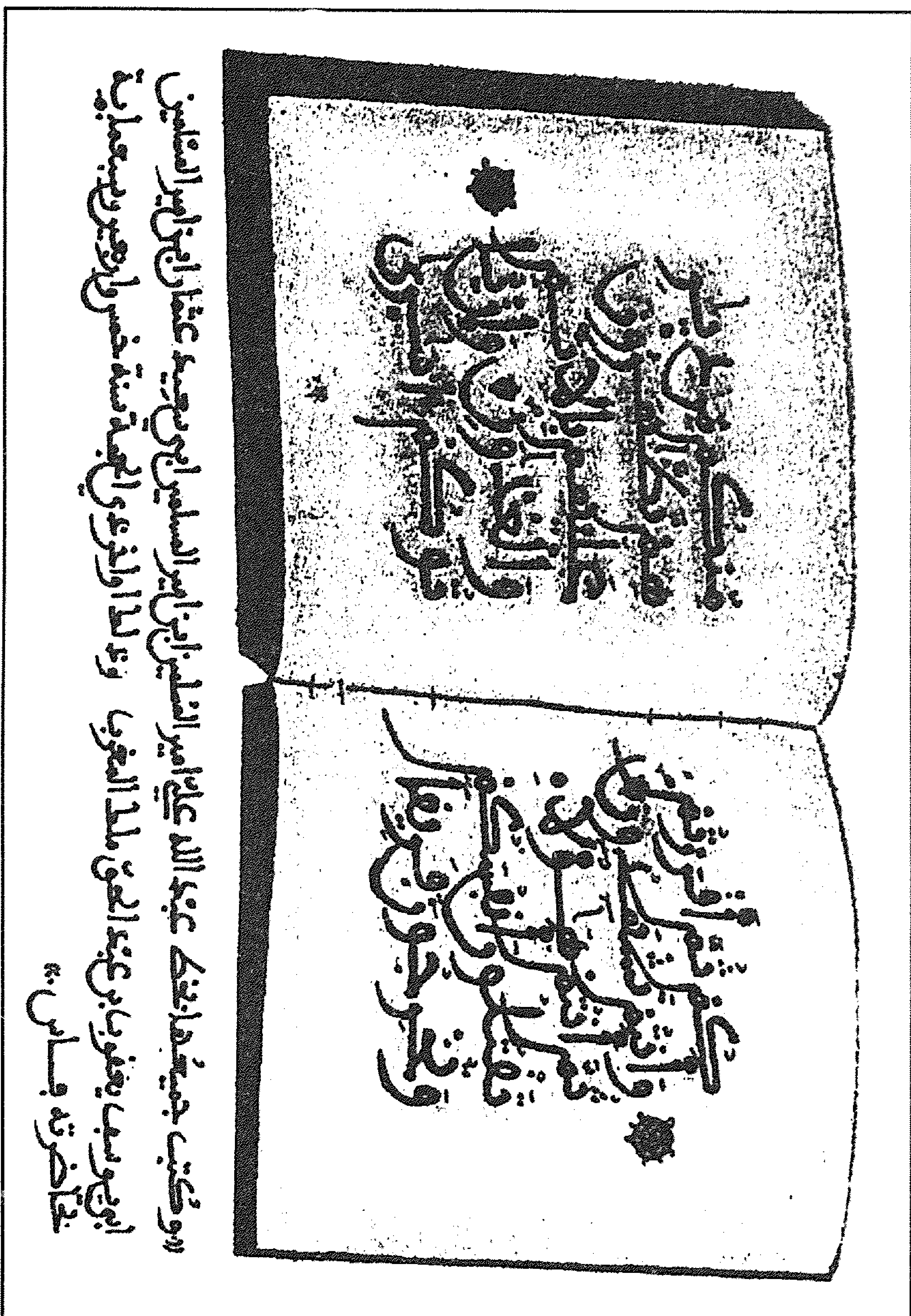
ومن الطريف أن نعرف أن الأميرة مريم كانت تحمل رسالةً خاصة من أخيها إلى ملك مصر ... وتتضمن حسب موجزها الذي احتفظ به "السلوك" رغبة ملك المغرب أن يدعو له الخطباء يوم الجمعة، وأن يكتب لأهل الحرمين الشريفين كذلك...

ويذكر ابن مرزوق في (المسند الصحيح الحسن) أن عَلَم السلطان أبي الحسن وقف على جبل عرفة، وجهر له الخطيب في الموقف بالدعاء، ودعي له على المقام...

ومن المهم أن نختتم الحديث عن رحلة الأميرة مريم بهذه المعلومة المهمة، ويتعلق الأمر بما ذكره معاصرٌ للكاتب ابن أبي مدين هو أبو عبدالله الحضرمي في تأليفه (السلسل العذب) (مخطوط) أن لابن أبي مدين رحلة حجازية "أحكم تصنيفها ووصف فيها عجائب ما رأى"(١).

---

(١) محمد الفاسي: الرحالة المغاربة وآثارهم، مجلة دعوة الحق عدد ديسمبر ١٩٥٨م، ص٢١.



صفحتان من المصحف المخطوط

الوادي آشي ٧٤٩هـ /١٣٤٨م

هذه رحلة لأبي عبدالله محمد بن جابر الوادي آشي التونسي مولداً وقراراً، وقد قام برحلتين إلى المشرق، ولذلك لقب بصاحب الرحلتين، وكانت الأولى في حدود عشرين وسبعمئة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م، وكانت الثانية في حدود أربع وثلاثين وسبعمئة ٧٣٤هـ / ١٣٣٤م. ومن خلال الرحلتين اهتم بالنقل والسماع والرواية عن أعلام القرن الثامن بديار المشرق، وخصوصاً من أعلام الحرمين: مكة المكرمة والمدينة المنورة ... توفي بتونس بالطاعون سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م.

وهذا التأليف ـ ولو أنه لا يحمل عنوان "الرحلة"، ويحمل: برنامج الوادي آشي، بمعنى ذكر شيوخ هذا الرحالة الجليل ـ يعطي فكرة عن المناخ العلمي والنشاط الفكري اللذين كانت تعرفهما مكة المكرمة في القرن الثامن الهجري[١].

وقد ذكر الوادي آشي أنه سمع (رسالة التصوف) للإمام أبي القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري (ت٤٦٥هـ) تجاه الكعبة المعظمة على المقرئ عفيف الدين أبي محمد عبدالله الدلاصي بحق سماعه لها مرتين بمكة المشرفة على أبي اليمن عبدالصمد بن عبدالوهاب بن الحسن بن عساكر بسماعه لها من جده المذكور، عن عمه الحافظ أبي القاسم علي بن عساكر، عن أبي المظفر عبدالمنعم ابن الأستاذ أبي القاسم، عن والده المؤلف مناولةً مقرونةً بالإجازة.

قال أبو اليمن: وبإجازتي من الشيخة أم المؤيد بنت أبي القاسم عبدالرحمن الشعري، عن مشايخها الثلاثة: أبي الفتوح عبدالوهاب بن شاه الشاذن قراءةً وسماعاً منه، وأبي عبدالله محمد بن الفضل الفراوي، وأبي المظفر عبدالمنعم المذكور، عن الأستاذ أبي القاسم، عن مشايخه فيها[٢].

---

(١) نشر هذا البرنامج بتحقيق الأستاذ محمد محفوظ، ونحن نعتمد على هذا التحقيق في طبعته الثالثة، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م.

(٢) برنامج الوادي آشي، تحقيق محمد محفوظ، ص٢٣١.

وقرأ «عوارف المعارف» للإمام الحافظ أبي حفص عمر بن محمد السُّهْرَوَرْدي البكري (ت٦٣٢هـ) من ذرية أبي بكر الصديق، على الشيخ رضي الدين أبي إسحاق الطبري بمكة المكرمة تجاه الركنين المعظمين، حيث بابها وحيث ميزابها، والشريف أبو عبدالله محمد بن محمد الحسني الفاسي يمسك أهل سماعه منها، وحدثني الرضي بها عن ضياء الدين أبي عبدالله محمد بن عمر القسطلاني إمام المالكية بالحرم الشريف سماعاً عليه تجاه الكعبة، قال: سمعتها بقراءتي على المؤلف(١).

وقرأ مختصر مولد الرسول عليه السلام، تأليف أمين الدين أبي اليمن بن عساكر .. قرأه على الشيخ أبي عبدالله محمد بن الحسين الزبيدي، وسمعته على الأستاذ أبي الحسن علي البوذري المسراتي، قراءة للأول عليه بمكة المكرمة، وسماعاً للثاني من لفظه بمكة المشرفة(٢).

وقرأ الأربعين (الأربعين السباعية المخرجة) لأبي المعالي عبدالمنعم بن عبدالله بن محمد الفزاوي، مع الأبيات المتصلة به، قرأها على الخطيب أبي الفضل بن أبي القاسم اللبيدي وولده الأكبر أبي عبدالله محمد، وحدثاني بها عن أمين الدين عبدالرحيم بن أبي جعفر الأنصاري، سماعاً للولد بقراءة والده عن أشياخه الثلاثة: أبي طالب عبدالمحسن بن أبي العميد بن خالد الخفيقي الأبهري سماعاً بمكة المشرفة، وأبي عبدالله محمد بن محمد بن أبي نصر النوقاني سماعاً بقرافة مصر، وأبي عبدالله محمد بن سعيد بن الدبيتي قراءة ببغداد، كلهم عن مؤلفها(٢).

---

(١) برنامج الوادي آشي، تحقيق محمد محفوظ، ص٢٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص٢٣٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨٤-٢٨٥.

المقّري الجد ٧٥٩هـ / ١٣٥٨م

من الشخصيات المرموقة التي قامت بمناسك الحج، وكانت لها رحلة إلى الحجاز، قاضي الجماعة بفاس وكبير علماء المغرب، وهو من الذين تهافتت المصادر المغربية على تتبع خطواته سواء عندما عاش بالمغرب أو كان بالمشرق[١].

كان من الذين صادفوا الوقفة في عرفات يوم الجمعة سنة ٧٤٤هـ/٢٣ إبريل ١٣٤٤م.

ويحكي أنه قبل أن يقصد عرفات حضر المسجد الحرام يوم سابع ذي الحجة حيث قام الخطيب يقول في الناس: إن جمعة وقفتكم هذه السنة هي خاتمة مئة جمعة وقف بها من الجمعة التي وقف فيها رسول الله ﷺ في حجة الوداع آخر عشر من الهجرة، وشاع ذلك في الناس وذاع، وكان الخطيب قد علم ذلك مما تواتر عندهم[٢].

وهو يحكي عن نفسه قائلاً: لقيتُ بمكة إمام الوقت أبا عبدالله محمد بن عبدالرحمن التوزري المعروف بخليل[٣] ... وسألته يوم النحر حين وقفت بالمشعر الحرام عن بطن محسّر لأحرك فيه الجمل، فقال لي: تمالأ الناس على ترك هذه السنة حتى نسي بتركها محلها! والأقرب أنه هذا ... وأشار إلى ما يلي الجابية التي على يسار المار من المشعر إلى منى من الطريق أو ما يجانبها إلى أن يأخذ صاعداً إلى منى ... وما رأيت أعلم بالمناسك منه.

كما لقي بمكة الإمام أبا العباس رضي الدين الشافعي وغير واحد من الزائرين والمجاورين وأهل البلد...

قال: ولقيت بالمدينة أعجوبة الدنيا أبا محمد عبد الوهاب الجبري وغيره..

---

(١) المقري: نفح الطيب، ج٥، ص ٢٠٣-٣٥٠. ابن الخطيب والإحاطة، ص ١٣٦. نيل الابتهاج، ص ٢٤٩. سلوة الأنفاس ج٣، ص٢٧١.

(٢) نفح الطيب، ج٥، ص٢٨٠، نقلاً عن نيل الابتهاج، ص٢٣٢.

(٣) القصد إلى إمام الموسم الذي سيتحدث لنا عنه قريباً الرحالة ابن بطوطة.

البلوي ٧٦٨هـ/١٣٦٧م

ونحن مع خالد بن عيسى البلوي في رحلته «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»(١)، وقد بدأها يوم السبت ١٨صفر سنة ٧٣٦هـ، وفرغ من تأليف رحلته آخر يوم من شهر ربيع الأول سنة ٧٦٨هـ ... عاصر ابن بطوطة وألف رحلته في أثناء سفره، ونقحها بعد عودته فجاءت محكاً لرحلة ابن بطوطة في المنطقة التي تجولا فيها معاً من العالم الإسلامي.

ولقد وصل البلوي إلى مكة المكرمة في ضحوة يوم السبت(٢) الخامس لذي الحجة من سنة ٧٣١هـ(٩ سبتمبر ١٣٣١م) والأصوات تصافح الآذان بالتلبية، وتضج بالرغبات والأدعية.

وحين تبدت لنا الكعبة الغراء في أستارها ـ يقول البلوي ـ وتجلت لنا المليحة في حلل أنوارها:

وضعنا جباهاً في الثرى قد تهللت
أساريرها منها وزاد سرورها
وطفنا بها سبعاً وزمّت ظلالها
على خائفٍ مثلي أتى يستجيرها!

وحين وقع نظري عليها ومثلت لديها أنشدت مرتجلا بلسان الخضوع، وكتبت خجلاً بماء الدموع:

إلهي، هذا البيت بيتك جئتُهُ
وعادة ربّ البيت أن يكرم الضيفا!
فهب لي قِرًى فيه رضاك، وإنني
من النار خوفي فلتؤمّنني الخوفا!

وأخذنا نطوف طواف القدوم .. ونصبر عند تقبيل الحجر على الاصطدام والاضطرام،

(١) تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تاليف خالد بن عيسى البلوي، تقديم وتحقيق الحسن السايح، طبع اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.

(٢) يلاحظ أن اليوم الخامس كان يصادف الاثنين في جداول كاطنوز ١٩٥٤م.

و« المنهل العذب كثير الزحام.. ونستلذ المقام بين الأركان والمقام، ونشرب من ماء زمزم ما يروي الأوام، واللسان يردد لنجم الدين مهلل بن محمد الدمياطي:

يروق لي منظر البــيت العــتــيق إذا
بدا لطرفي في الإصــبـــاح والطَّفَلِ
كــأنّ حلّتــه الســوداء قــد نسـجت
من حــبّــة القلبِ أو من أسـود المقلِ!

وعلى نحو ما سلكه أسلافه نجد أن البلويّ يقوم بوصف البيت المكرم متحدثاً عن أركانه الأربعة محدداً بالأذرع مسافة ما بين الحجر الأسود والركن اليماني: تسع وعشرون ذراعاً، بينما سائر الجوانب ثمان وعشرون بسب انصباب السطح إلى الميزاب ... وكما قال من سبقه، فإن أول الأركان هو الركن الذي فيه الحجر الأسود، يليه الركن العراقي، ثم الركن الشامي، ثم الركن اليماني قبل أن يعود الطائف إلى الركن الأسود حيث يتم الشوط الأول من الأسبوع...

ويتحدث بدوره عن باب البيت المكرم الذي يقع بين ركن الحجر الأسود والركن العراقي، وقال: إنه من فضة مذهبة الصنعة يستوقف الأبصار... وفي حديثه عن ارتفاع الحجر الأسود عن الأرض يردد التعبير السائر: «الطويل يتطامن لتقبيله، والقصير يتطاول له» ... ولما وصف الحجر الأسود ذكر أن في وسطه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة تلوح كأنها شامة بيضاء، إلى آخر الوصف الذي أبرز فيه ما قيل عن الركن اليماني.

وقد أحسن البلوي عندما اهتم ـ كابن جبير ـ بالمنقوشات التي تعتبر خير موثق للأحداث، وهكذا نجده يذكر أن ظاهر البيت كله من الجوانب الأربعة مكسو ستوراً من الحرير الأكحل، وفي أعلاها رسم بالحرير الأبيض: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾.. الآية. واسم الخليفة الإمام العباسي الآمر بإقامتها ...

ويتحدث عن مواد بناء البيت العتيق بالحجارة الكبار الصمّ... له خمسة مضاوٍ عليها زجاج عراقي بديع النقش، وفيه باب يسمى باب الرحمة، يصعد منه بواسطة الأدراج إلى

سطح البيت الكريم. ومرة أخرى تلفت نظره معاينة البيت: «فلا تُبصر الأعين إلا دامعة، ولا تسمع إلا ألسنة إلى الله داعية ضارعة، لا يمل النظر إليه ولا يسأم الطواف به...»

والبلوي ينقل بدوره عن «أخبار مكة» للأزرقي أن الطيور لا تنزل على سطح البيت إلا لمرض يصيبها مما أسلفنا التعليق عليه ...

وبعد أن يتحدث عن الممر الذي يطوف فيه النساء، يذكر أنه جدد ترصيعه، ونمّق تنميقاً بديعاً، وهو يحمل تواريخ مرسومة، ومنها ما نصه: «أمر بعمارة المطاف الشريف سيدنا ومولانا الإمام الأعظم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين ... وذلك في سنة إحدى وثلاثين وستمئة».

وهو يحدد موقع (الحِجْر) بأنه من الركن العراقي إلى الركن الشامي يقابل الصفح الذي فيه الميزاب، وفي ارتفاع جدار الحِجْر ستة أشبار إلى آخر وصفه لهذه البقعة المقصودة التي يحتضن صحنها، بمقربة من جدار البيت، قبر إسماعيل عليه السلام...

ويصف الميزاب والمادة المكونة له ... ثم يصف مقام إبراهيم بما عرفناه من النصوص السالفة ... قائلاً: وبإزاء المقام الكريم منبران كبيران حسنان، فيهما ضروب من قطع الخشب الملون المتخير المتنقى، والجديد منها منقوش من جميع جهاته، وتاجه مذهب بأبدع نقش، منقوش عليه برسم الذهب ما نصه: «مما عمل برسم الحرم الشريف في شهور سنة ثلاث وثلاثين وسبعمئة».

وفي حديث عن زمزم قال: إن ماءها يذهب بالحمى والصداع.. وإنه يأتي عليها زمان تكون فيه أعذب من النيل والفرات... وقبة زمزم تقابل الركن الأسود إلى آخر الوصف.

وبظاهر جدار القبة المباركة مكتوب بالخط الرائق المذهب ما نصه: «دعا الله لمن أسس هذه السنة الحسنة من هذا الحرم الشريف في سنة ثمان وعشرين وسبعمئة».

وقد قال عند حديثه عن "قبة الشراب" التي تلي قبة بئر زمزم: إنها يليها قبة أخرى. وهما على عهد البلوي مخزنان لأوقاف البيت الكريم من مصاحف[1] وكتب وشمع

---

(١) لا ندري هل كان مع المصاحف المصحف الذي أهداه العاهل المغربي يوسف إلى مكة سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٤م قبل المصحف الذي سيكتبه بيده أبو الحسن ويبعثه مع ركب الحاج إلى مكة سنة ٧٤٠هـ / ١٣٤٠م قبل أن يبعث بثالث بخطه كذلك إلى بيت المقدس سنة ٧٤٦هـ. د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٧، ص ٣٠٣-٣١١.

وغير ذلك.

ثم كان الحديث عن ذرع المسجد الحرام برمته على ما هو معروف بسواريه الرخامية والجصية.

وتخلّص بعد هذا لتأكيد أن للحرم الشريف أربعة أئمة، ولكل واحد منهم صلاته في حطيم له، يقول البلوي: إنه مصنوع من الخشب البديع النجارة، فالمالكية تصلّي في حطيمها قبالة الركن اليماني، والشافعية في حطيمها خلف المقام، والحنفية في حطيمها قبالة الميزاب، والحنابلة تقابل في حطيمها بين الحجر الأسود والركن اليماني ...

وتحدق بهذه المواضع كلها مشاعل توقد في صحاف من حديد فوق خشب مركوزة، فيتقد الحرم الشريف كله نوراً، وتوضع بين أيدي الأئمة في محاريبهم ...

ويتحدث البلوي عن الصوامع التسع، وعن الأبواب التي تبلغ نيفاً وأربعين باباً ... يعدّها عداً اقتداء بالأسلاف ... غير مهمل الميل الذي يرمل الساعي عنده ... وقد نقش عنده: «أمر بعمارة هذا الميل عبدالله وخليفته أبو محمد المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أعز الله نصره سنة ثلاثة وسبعين وخمسمئة ...».

وكان مما سجله البلوي في عهده أنه كان بين الصفا والمروة مسيل هو اليوم سوق حافلة بجميع أنواع الفواكه وغيرها من الحبوب والمبيعات وغيرها ... مضيفاً إلى هذا أن الطريق إلى مكة ذاتها ملتقى الصادر والوارد؛ فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر ... من البُرّ إلى الدُّرّ على ما ردد السابقون ... من الذخائر النفيسة كالجوهر والياقوت وسائر الأحجار، ومن الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعقاقير الهندية ... ومجلوبات الحبشة إلى الأمتعة العراقية واليمانية إلى السلع الخراسانية، وكذا البضائع المغربية إلى ما لا ينحصر ولا ينضبط ..

ويتحدث عن أبواب مكة: باب المعلى القريب من المقبرة، ثم باب المسفلة، ثم باب الزاهر أو باب العمرة الذي يتوجه منه إلى التنعيم أقرب ميقات المعتمرين..

وفي أثناء حديث مشابه لما عرفناه عند التّجيبي عن مشاهد مكة ومعالمها يسجل أنه كان هناك نقش على قبة السيدة خديجة أم المؤمنين هذا نصه: «تقرب إلى الله بعمارة

هذا الموضع الشريف المنسوب إلى خديجة، ومسكن الرسول ومهبط الوحي، العبد الفقير إلى رحمة الله مولانا السلطان ابن السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي خادم الحرمين الشريفين .. وذلك بتاريخ شهر صفر سنة ست وثمانين وستمئة».

إلى آخر ما يرويه عن الموضع الذي ولد فيه الرسول ... وقد نقش فيه: «هذا ما أمر بعمله عبدالله وخليفته الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد أمير المؤمنين ... في سنة ست وسبعين وخمسمئة».

وفي سفح جبل أبي قبيس مسجد محتفل البناء كتب عليه: هذا المسجد كان مولد علي بن أبي طالب، وفيه تربى رسول الله، وكان داراً لأبي طالب عم النبي ﷺ...

وقد ذكر من مشاهد مكة المكرمة دار أبي بكر الصديق، قال: وهي اليوم دار سكة الأمير، مما يعني أنه كانت هناك دور لضرب العملة ...

وعلى ما هو مألوف لدى الرحّالين المغاربة الذين بلغوا الحرمين الشريفين فإنهم كانوا إلى جانب اهتمامهم بالمعالم التاريخية والمشاهد التراثية كانوا يهتمون بوصف الحالة العلمية، ومن هنا رأينا البلوي ـ وقبل أن يكمل الحديث عن مناسك حجه ـ يخصص طائفة من الورقات للحديث عن الذين تعرف إليهم من أهل العلم والفكر ممن كانوا قبساً له في طريقه لاستكمال معارفه. وهكذا يخص بالذكر من أعيان هؤلاء:

* فارس المنابر وإمام الأئمة ومقتدى فرق الأمة أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن عمر المكي المالكي المشهور بخليل، الذي كانت الأعناق متعلقة إليه، والركبان منثالة عليه، ماثلة بين يديه، سامعون لأمره، متصرفون عن إذن من قوله وفعله ... أكلته الأيام بشغف الزهادة، وهو على ذلك من أصبر الخلق على إلحاح السائلين واختلاف القاصدين ... والمهم أن نذكر أن الشيخ خليلاً هذا أجاز البلوي بجميع ما يحمله ويرويه إجازة تامة مطلقة عامة.

والجدير بالذكر هنا أن هذه الشخصية هي التي نعتها المقّرى سابقاً بإمام الوقت، وهي التي تحملّ أيام زيارة ابن بطوطة لمكة المكرمة سنة ٧٢٦هـ لقب (إمام الموسم) الذي يعني أنه المرجع الأول والأخير في كل ما يتعلق بموسم الحج، سواء من الناحية الأدبية أو المادية(١).

(١) رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. التازي، ج١، ص٣٨٧-٣٨٨.

وكان من أولئك الرجال أيضا أبو العباس أحمد بن إبراهيم الشافعي، شيخ علم وذكاء، حسن الشارة، مستحسن الإشارة، دراية تعضدها رواية وسماع، وينعقد عليها اتفاق وإجماع ... وأسانيده مكتوبة في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ... لقيه البلوي بحرم مكة تجاه الكعبة المعظمة فسمع منه كثيراً من حديث رسول الله ﷺ.

والمهم أن نذكر أن البلوي في تتميم الحديث عن مناسك الحج يذكر أنه خرج في اليوم الثامن من ذي الحجة، يعني يوم التروية، إلى منى، ويصف هنا ازدحام الخلائق التي كانت الأرض تموج بهم ... ولا يفوته أن يصف الهوادج التي تسيل في أباطح مكة وشعابها، وعن الإبل التي زينت بأنواع التزيين(١) فتراها تتهادى تهادي العرائس في الكلل، وترفل في قلائد الذهب وأستار الديباج في الحلي والحلل، فلا تبصر إلا سجفاً تسحب على وجه الأرض، وتشبه في وشيها وشي الروض، خلائق تملأ في الطول والعرض.

ويصف منى التي عاين فيها ليلة من أعذب ليالي الدنيا ... حيث عادت الأرض ثريًّا بما يوقد فيها من الشمع والمشاعل .... ويتحدث عن منى كمدينة عظيمة الآثار إلا أنها درست إلا منارة حسنة محدثة النزول تحف بجانبي الطريق.

وهنا يذكر مسجد البيعة التي عقدها العباس للنبي ﷺ، ثم إلى عرفات، وما أدراك ما عرفات! التي يجب ألا تختلط ببطن عُرَنة الذي أمر الرسول ﷺ بتجنبه...

وهنا نجد الحديث عن جبل الرحمة الذي يحتوي أعلاه على قبة تنسب إلى أم سلمة... وفي أسفل هذا الجبل دار عتيقة البنيان في أعلاها غرف لها طيقان ... وهنا صهاريج للماء وجباب ... وهنا مسجد يخطب الخطيب فيه يوم الوقفة التي صادفت هذا العام يوم الأربعاء، ولقد كان الخطيب هو إمام الموسم نفسه الذي تقدم الحديث عنه.

وبعد أن يصف الوقفة وما يصحبها من توسلات وتضرعات يسقط قرص الشمس فيدفع ويشير الإمام إلى الانصراف بدفع الناس بالنفر دفعاً ... وترتج الأرض وترتجف الجبال ... ورعدت الطبول، وخفقت البنود، وخرجت من بين العلمين تلك الجنود إلى

(١) الوصف يذكر فيما يقوم به الهنود لتزيين الأفيال وتجميلها عند المناسبات الكبرى ...

أن وصلوا إلى المزدلفة بين العشائين ... وقد اتقد هذا المشعر الحرام بالمشاعل من الشمع المسرج ... حتى « يخيل للناظر أن كواكب السماء كلها نزلت به » على حد تعبير الحجاج السابقين واللاحقين.

وهنا يتحدث البلوي عن تنافس الخراسانيين وسواهم من أهل العراق والشام على إنارة المكان، فيا لها من ليالٍ مشرقة! وكذلك فإن هذه الفئات تتنافس في نصب القباب والخيام والأروقة والسرادقات ...

وكما سمعنا في المغرب عما نسميه بالبربرية (أفراك)؛ المدينة المتحركة التي يتخذها الملوك المغاربة من الخيام من مختلف الأحجام المؤدية لشتى الأغراض، وعليها جوامير ذات تفافيح مذهبة، قرأنا للبلوي وصفاً أعظم وأشمل للسرادقات التي كانت تنصب على هيئات عظيمة غير معروفة لديه، فترى أحدهم من الأمراء والكبراء قد أحدق به سرادق كالسور، نسيج كتان وكأنه حديقة بستان، وزخرفة بنيان، وفي داخله القباب المضروبة، وهي كلها سواد في بياض، مشرقة ملونة كأنها أزهار رياض، ولهذا السرادق أبواب مرتفعة كأنها أبواب القصور المشيدة، يدخل منها إلى دهاليز وتعاريج ثم يفضي منها إلى المنطقة التي تحتوي على القباب، فكأن أحدهم ساكن في مدينة قد أحدق بها سور وتنتقل بانتقاله، وتنزل بنزوله. قال البلوي: وهي من الأبهات الملوكية التي لم تعهد عند ملوك المغرب[1]، هذا إلى قباب بديعة المنظر عجيبة الشكل قد قامت كأنها التيجان المنصوبة أو الأخبية المضروبة، وتنقش أحسن النقش، وتملأ بأبهى الفرش ...

ويعود البلوي إلى الحديث عن ظاهرة الهوادج التي يقعد فيها الراكب مستريحاً أيّ مستراح، وبإزائه معادله أو معادلته في مثل ذلك من الشقة الأخرى، والقبة مضروبة عليهما، فيسار بهما وهما نائمان لا يشعران، فعندما يصلان إلى المرحلة التي يحطان بها ويضرب بها سرادقهما ينزلان للحين إن كانا من أهل الترف والتنعيم فيدخل بهما إلى السرادق وهما راكبان، وينصب لهما كرسي ينزلان عليه فينتقلان إلى ظل فيه المنزل

(١) يبدو أن البلوي لم يطلع على ما أهداه السلطان أبو الحسن إلى ملك مصر السالف الذكر عند ذكر حج الأميرات.

دون شر فيح يلحقهما، ولا خطفة شمس تصيبهما، وناهيك من هذا الترفيه، وهذا المحمل النبيه، فهؤلاء لا يلقون في أسفارهم وإن بعدت مشقة ولا نصباً، ولا يجدون على طول الحل والترحال تعباً!

وكأن الحديث عن هذه الفئة من الحجاج استهواه، ونسي الحديث عن الطبقات الأخرى التي ترى في التعب والكد والجهد مكسباً أكثر للأجر والثواب، فعاد لينوه بالذين يحمّلون أنفسهم مشقة المشي على الأقدام، وهنا يورد من الآثار ما يشجع الماشين، ويقوّي من عزمهم على الاقتداء بالسابقين . . .

ويعود ليخبرنا بأن الناس قضوا ليلهم بالمشعر الحرام (المزدلفة) في هذه الليلة العاشرة من ذي الحجة، فلما صلّوا الصبح غذوا منه إلى منى . . . إلى آخر ما يعرضه عن شعيرة الحج.

ويقيم البلوي بمنى إلى أن يخرج منها بعد رمي الجمرة الأخيرة وصلاة الظهر من يوم الأحد رابع يوم النحر ١٣ ذي الحجة فينزل بخارج مكة . . . وهنا أحرم مجدداً للقيام بمناسك العمرة من التنعيم (مسجد عائشة) بعد صلاة المغرب. ومن هنا أتى مكة حيث دخل الحرم الشريف للطواف والسعي إلى أن قضى ذلك في النصف الأخير من ليلة يوم الاثنين خامس عيد الأضحى. وودع المسجد الحرام وانصرف بعد أداء فريضة الحج والعمرة في اتجاه المدينة المنورة.

ابن بطوطة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م

- أربع رحلات وسبع حجات

لا أعتقد أن رحالة من الذين قصدوا الحجاز استطاع أن يكتب مثل ما كتبه ابن بطوطة عن مكة المكرمة كماً وكيفاً، شكلاً ومضموناً، فقد ظلت مكة المكرمة شاخصة في مذكراته عند كل منعرج من تحركاته حتى أرج الحجاز ... ويكفي أن له أربع رحلات إلى مكة، وسبع حجات، وأنه صام فيها ثلاث رمضانات، وهذا ما لم يتيسر لغيره، وهو ما ضرب به ابن بطوطة الرقم القياسي.

لقد تحدث عن مكة كمدينة، وتحدث عن المسجد الحرام بها، وعن الكعبة، وعن الميزاب، وعن الحجر الأسود، وعن المقام، وعن الحجر، وعن المطاف، وعن بئر زمزم، وعن القباب، وعن أبواب المسجد، وعن المشاهد التي تحيط به، وعن الصفا والمروة، وعن المقبرة، وعن المشاهد التي توجد خارج مكة، وعن الجبال، وعن الأمراء الذين كانوا يحكمون مكة عند مقامه بها، وعن فضائل أهل مكة، وعن القاضي، وعن الخطيب، وعن إمام الموسم، وعن الشخصيات النابهة بها، وعن المجاورين، وعن العادات المتبعة في رعاية الكعبة، وعادة أهل مكة في صلواتهم بها ومواضع أئمتهم في المسجد، وصلاة الجمعة، والعادة عند ظهور هلال شهر رجب، والزيارات، وليلة النصف من شعبان بمكة، ورمضان، وشهر شوال، وإحرام الكعبة، والاحتفالات المتبعة، وإسهام الحجاج في كسوة الكعبة، وما حدث بمكة من فتن.

وكل هذا الاستيعاب في الحديث عن مكة لم يكن بمناسبة حجته الأولى سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م؛ لأن الفترة كانت ضيقة، فقد دخل مكة في آخر ذي القعدة، وخرج منها في العشرين من ذي الحجة. كما لم يتم ذلك الحديث في حجته السادسة؛ لأن الفترة كانت أيضاً قصيرة.

وإنما أخذ الرحالة وقته عند مقامه بمكة مجاوراً طوال ثلاث سنوات: ٧٢٨ و٧٢٩

و ٧٣٠هـ، وأيضاً بمناسبة حجته السابعة والأخيرة عندما صام رمضان بها للمرة الثالثة.

ومن هنا يمكننا أن نلاحظ أن الرحالة لم يكن حريصاً عند التاريخ لمشاهداته على التدقيق حول هل كان هذا الحديث أو ذاك تم سنة ٧٢٦هـ، أو سنة ٧٤٩هـ، ولكن المهم عنده كان هو أن ينقل إلى القارئ ما يتعلق بمكة وما يتعلق بأمرائها منذ القيام بحجته الأولى، وهي صياغة إنما نعتب فيها على الناسخ ابن جزي الذي لم يكن له من الوقت ما يمحص فيه بين ما جرى عند الحجة الأولى أو الحجة السابعة!

وتوقياً لهذا التداخل، فقد رأينا ألاّ تبقى الرحلة واحدة، ولكنها تقسم أربع رحلات على ما كان واقعها، فنذكر بعض مذكراته عن الرحلة الأولى، وبعض مذكراته عن الرحلة الثانية التي استمرت ـ كما قلنا ـ ثلاث سنوات، ثم الرحلة الثالثة، ثم الرحلة الرابعة.

الرحلة الأولى ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م

في حجته الأولى موسم ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م، كان يريد أن يسلك الطريق نفسها التي سلكها قبله ابن جبير، أي أنه يمر عبر البحر الأحمر إلى الحجاز، لكنه صادف ظروف حرب شبّت بين دولة المماليك والبجاة، وهذا ما عطل الطريق البحري وأرغم ابن بطوطة على أن يعود أدراجه إلى سلوك طريق «درب الشام» كما كانوا يقولون.

وهكذا انتظر ببلاد الشام وصول موعد الموسم فوجدناه يصل إلى مكة المكرمة نحو ٢٠ ذي القعدة من سنة ٧٢٦هـ / ١٨ أكتوبر ١٣٢٦م.

ويهمنا أن نعرف انطباعه ـ كسائر الحجاج ـ وقد وجد نفسه أول مرة في مكة في المسجد الحرام وأمام الكعبة التي نستقبلها كل يوم.

لقد نعت مكة بأوصاف ثلاثة فهي حرم الله ... ومبدأ انطلاقة خليله إبراهيم، ومبعث صفيه عليه الصلاة والسلام.

وقد دخل المسجد الحرام ـ على ما هي السنة ـ من باب بني شيبة، باب السلام.

وقال عن الكعبة: إنها كالعروس تتجلى على منصة الجلال، وترفل في بردة الجمال، محفوفة بوفود الرحمن، موصلة إلى جنة الرضوان... وبعد أن يلخص الحديث عن طواف القدوم، واستلام الحجر الكريم، وأداء الركعتين بمقام إبراهيم، والتعلق بأستار

الكعبة .. وبعد شرب ماء زمزم، والسعي بين الصفا والمروة... بعد ذلك يعود لانطباعاته عن الكعبة قائلاً: إن من عجائب صنع الله أنه طبع القلوب على النزوح إلى هذه المشاهد المنيفة والمعاهد الشريفة، وجعل حبها متمكناً في القلوب... حكمة من الله بالغة... يهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق... وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها... فإذا جمع شمله بها تلقاها مسروراً مستبشراً كأن لم يكابد محنة ولا نصباً..! إنشاء في هذا القبيل يقتبسه من العبدري، ولو أنه لم يذكره باسمه على نحو ما كان يذكر ابن جبير.

إنه لأمر إلهي وصنع رباني، لا تشوبه شبهة، ولا يطرقه تمويه. وهنا يردد ابن بطوطة تلك الجملة الفريدة الدالة التي أشرنا إليها ونحن نعيش مع مذكرات العبدري، تلك الجملة التي حيرت كل الذين حاولوا ترجمتها إلى اللغات الأخرى! قال: إنها تقوّي بصيرة المستبصر، وتسدد فكرة المتفكر ... بمعنى أن الواقف أمام هذه المشاهد لا يخلو إما أن يكون من الذين أنعم الله عليه بنور البصيرة فهو يزداد إيماناً، وإما أن يكون من "المتفلسفين" الذين يزعزعهم الزيغ والمروق، فهؤلاء عند وقوفهم أمام هذه السيول من البشر المتحركة ليل نهار، هؤلاء الصنف من الناس يشعرون وكأن شحنة عظيمة تأخذهم، فترجع بهم إلى طريق السداد والصواب..

لقد أنعم الله على من رزقه الوصول إلى تلك الأرجاء - يقول ابن بطوطة - وحق له أن يشكر على ما خوله، ويديم الحمد على ما أولاه، فبذلك يعرف الله ...

وبعد هذه المشاعر ... يقدم وصفاً لمدينة مكة المكرمة التي يقول: إنها كبيرة متصلة البنيان ... تحف بها الجبال، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها، وهنا يقدم وصفاً لتلك الجبال المطلة على المدينة بمواقعها وأسمائها ... ثم يذكر أبواب المدينة كذلك.

ولا يفوت الرحالة المغربي أن يلتفت لذكر ما أنعم الله به على هذه البقعة الشريفة من خيرات تجلب إليها من كل مكان لا فرق بين قريبه وبعيده...

ويعود إلى المسجد الحرام ليذكر أنه يقع وسط المدينة، وأنه متسع الأرجاء، ويحاول أن يقدم مساحته بالأذرع ناقلاً ذلك عن الأزرقي الذي يظل دليلاً معتمداً لدى الرحالة.

ومرة أخرى يعرب عن عجزه أمام وصف الكعبة العظيمة ومنظرها البديع ومرآها الجميل ... متخلصاً لوصف المسجد الحرام عندما كانت بلاطاته لا تتجاوز الثلاث ... وعندما كانت سواريه تترواح بين أربعمئة وسبعين أو تسعين ... ويتحدث عن المساطب المتناثرة بالمسجد.

ويخصص ابن بطوطة ـ علاوة على هذا ـ فصلاً لمبنى الكعبة الماثلة وسط المسجد، فيحاول أن يقدم إلينا مقاييس لها بالأذرع والأشبار من جميع جهاتها ... كما يذكر عن مواد بنائها المحكم الذي لا تغيره الأيام، ولا تؤثر فيه الأزمان ... ويتحدث عن بابها العظيم مذكراً أن المكان بين الباب والحجر الأسود هو المسمى بالملتزم، ثم يتحدث عن ارتفاع الباب عن الأرض، وسعته وطوله، وأنه مصفح بصفائح الفضة ...

وعلى نحو حديث ابن جبير عن الكرسي المتحرك المعدّ لدخول الكعبة، على نحو ذلك يردد ابن بطوطة الحديث مؤكداً دور بني شيبة إلى الآن في رعاية هذا البيت العتيق..

وعلى نحو ما قاله سابقوه فإن الحَمَام ـ حسب ملاحظته ـ لا ينزل على سطح الكعبة، ولا يعلوها في الطيران ...

وبعد حديث عن الميزاب يتحدث عن الحجر الأسود، ويؤكد معلومة طريفة رددتها مصادر تاريخ المغرب قبل ابن بطوطة، ويتعلق الأمر بإسهام جماعة من المغاربة في مقاومة القرامطة الذين جرؤوا على العدوان على الحجر الأسود[1]. والحديث عن التزاحم على الحجر الأسود وعلى باب الكعبة يردده ابن بطوطة، ولكن بصفة أقل حدة من سابقيه: ابن جبير والعبدري.

ويأخذ مقام إبراهيم من الوصف حظه في حديث ابن بطوطة على نحو أسلافه... وكذلك ناحية الحجر؛ حجر إسماعيل عليه السلام.

ويخصص ابن بطوطة حيزاً لماء زمزم، وهو يقول: إن داخل قبتها مفروش بالرخام الأبيض، وينقل عن الناس ما ذكروه من أن ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة، لكنه لم يعلق على ذلك بما علق عليه سابقه العبدري من التشكك في ذلك..!

(١) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٤، ص١٤٤-١٤٥، رقم الإيداع القانوني ٢٥، ١٩٨٦، مطابع فضالة ـ المحمدية ـ رحلة ابن بطوطة، تقديم وتحقيق د. عبدالهادي التازي، المجلد الأول ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص ٣١٤-٣٧٣، رقم الإيداع القانوني ٣٢١-١٩٩٧.

كما يخصص ابن بطوطة فصلاً لأبواب المسجد الحرام ... وما يحتف به من المشاهد الشريفة قبل أن يعدد الصوامع المجاورة.

الرحلة الثانية ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م

حجاته الثانية والثالثة والرابعة والخامسة

لقد أتى ابن بطوطة في رحلته الأولى إلى مكة من غربها، أما في رحلته الثانية هذه فقد أتاها من الشمال، من العراق، من الكوفة حيث وصلتُ - يقول الرحالة - مكة زادها الله شرفاً وتعظيماً، وطفتُ بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم، وكنت ضعيفاً بحيث كنت أؤدي الصلاة المكتوبة قاعداً، فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكباً على فرس أمير الركب (العراقي) وهو البهلوان محمد الحويج ...

وبهذه المناسبة - مناسبة عودته إلى مكة مع العراقيين سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م - يذكر أن فعل العراقيين مع المجاورين والفقراء كان على نحو ما حكاه عند حجته الأولى، فقد أكثروا من الصدقة لدرجة أن سوم سعر الذهب بمكة نزل!! على نحو ما قيل عند حجة إمبراطور مالي مانسا موسى.

وشهد ابن بطوطة بأن اسم سلطان العراق أبي سعيد بهادور ذكر سنة ٧٢٧هـ على منبر مكة وعلى قبة زمزم اعترافاً بأريحيته.

ويفيد ابن بطوطة أنه كان يوجد في وقته بين الصفا والمروة رباط يسكنه المجاورون عوض دار العباس التي كانت هناك، وقد بنى هذا الرباط الملك الناصر ملك مصر، وبنى أيضاً دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين (وسبعمئة) ... وعليها ربْع يسكنه خدمها، وقد نولى بناء ذلك الأمير غلام الدين بن هلال الدولة الشيزري، وكان السلطان ندبه لعمارة المسجد الحرام سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م.

قال: ووقفنا تلك السنة يوم الاثنين[١] (٢٦ أكتوبر عام ١٣٢٧م)، فلما نزلنا منى أخذت في الراحة والاستقلال من مرضي، ولما انقضى الحج أقمت مجاوراً بمكة تلك السنة، وكان بها الأمير علاء الدين، فشيد الدواوين مقيماً لعمارة دار الوضوء بظاهر

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص١٤٩.

العطارين من جهة باب بني شيبة...

ويخبرنا ابن بطوطة أنه ورد على مكة المكرمة في تلك السنة عدد من المصريين بقصد المجاورة، منهم جماعة من كبراء كبرائهم، فيهم تاج الدين بن الكُويك، ونور الدين القاضي، وزين الدين بن الأصيل، وابن الخليلي، وناصر الدين الأسيوطي..

ويخبرنا بأنه سكن تلك السنة بالمدرسة المظفرية، وأن الله عافاه من مرضه فكان في أنعم عيش، وتفرغ للطواف والعبادة والاعتمار.

وأتى في تلك السنة كذلك (٧٢٨هـ) حجاج الصعيد، وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الأصفوني، والأخوان علاء الدين وسراج الدين ابنا القاضي الصالح نجم الدين البالسي قاضي مصر.

قال: وفي منتصف ذي القعدة وصل الأمير سيف الدين يلملك، ووصل معه في صحبته جماعة من أهل طنجة بلدي، وكان منهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن القاضي ابن أبي العباس ابن القاضي أبي القاسم الجُراوي، والفقيه ابن عطاء الله، والفقيه الحضري إلى آخر اللائحة الطويلة ... وعلاوة على هذه الأعداد من المغرب يخبر الرحالة أنه وصل في تلك السنة أيضاً سيف الدين تقزدمور من الخاصكية، وهذا ما يؤكده ابن حَجَر في الدرر الكامنة، وكذا سائر المصادر الشرقية مما يؤيد مصداقية معلومات ابن بطوطة ...

وقد وصل أيضاً في هذه السنة الأمير موسى بن قرمان، والقاضي فخر الدين ناظر الجيش كاتب المماليك، والتاج إسحاق، وكذا الست حَدَق مربية الملك الناصر، وكانت لهم صدقات جميمة بالحرم الشريف.

وقد حرص ابن بطوطة على أن يخبرنا ـ كما هي عادة الحجاج ـ بأن وقفتهم في هذه السنة ٧٢٨هـ كانت يوم الجمعة[1] ...

ويستمر ابن بطوطة مجاوراً، ويخبرنا بأن هذه السنة الجديدة ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م وصل إلى مكة أحمد ابن الأمير رُميثة، ومبارك ابن الأمير عُطيفة من العراق صحبة الأمير محمد الحويج، والشيخ زاد الحرباوي، والشيخ دانيال، وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص١٥٢.

وأهل مكة من قِبل سلطان العراق أبي سعيد الذي سمعنا اسمه يذكر في الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ... وقد دعوا له بأعلى قبة زمزم، وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد(١) علي بن داود بن يوسف المظفر (المتوفى سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م).

ويفيدنا ابن بطوطة أن الأمير عُطيفة ابن الأمير أبي نُمَي بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحَسني(٢) (وكان يشرك أحياناً في حكم مكة أخاه رميثة) لم يوافق على ذلك وبعث شقيقه منصوراً ليعلم الملك الناصر بذلك، فأمر رميثة برده فرد، فبعثه عطيفة ثانية على طريق جدة حتى أعلم الملك الناصر بذلك.

ويخبرنا ابن بطوطة أن الوقفة كانت سنة تسع وعشرين وسبعمئة يوم الثلاثاء (٣ أكتوبر ١٣٢٩م).

ويبدو أن ابن بطوطة استطاب المقام بهذه الديار فقرر أن يجاور أيضاً طوال عام ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م، حيث أتيحت له الفرصة أن يقف على عددٍ من المعالم والمشاهد ويتعرف أكثر أحوال المدينة ورجالها وعاداتها وطبيعة الحياة في المسجد الحرام كذلك.

وهكذا، ففيما يتصل بحكم الأميرين المشتركين معاً في حكم مكة، يذكر أن الأمير رميثة هو الأكبر سناً، لكن الخطيب يوم الجمعة يقدم اسم عطيفة في الدعاء له بمكة المكرمة لعدله، قال: ولرميثة من الأولاد أحمد وعجلان ...

« ... إن الطبول تضرب على باب دار كل واحد منهما عند صلاة المغرب في كل يوم ... » يقول ابن بطوطة، الذي يخص أهل مكة بحديثٍ عن فضائلهم وأخلاقهم... كان على عكس سلفه العبدري يشيد بمكارمهم من غير تحفظ ولا تصنيع ... فهو يؤكد أنهم يلتفتون إلى الفقراء والمنقطعين والمجاورين ... وينفقون على الأيتام والصغار ... هذا إلى أناقةٍ في اللباس والهندام، وهم يستعملون الطيب ويكتحلون ويحرصون على

---

(١) يذكر ابن بطوطة هنا اسم نور الدين، والذي وجدناه عند الزركلي ما ترى، وما كان حديثا يفترى!

(٢) يشير ابن بطوطة إلى الطبقة الرابعة من الحكام الأشراف للحرمين بعد طبقة الموسويين والسليمانيين والهواشم ... وحديثه عن الشراكة في الحكم بمناسبة حجته الأولى صحيح، لكن حديثة عن عجلان سابق لأوانه، فإن عجلان إنما كان أميراً لمكة عند عودة ابن بطوطة سنة ٧٤٩هـ، وهكذا نجد أن الرحالة المغربي يدمج هنا معلومات لاحقة، وتلك عادته في عدد من الإفادات التي كان يقحمها في غير مكانها.

نظافة أسنانهم ...

وسمح ابن بطوطة لنفسه بكشف بعض الحالات التي قد يرى بعض الناس في الحديث عنها حرجاً أو حياء ... قال: "ونساء مكة فائقات الحسن، بارعات الجمال وذوات صلاح وعفاف، وهنّ مولعات بكثرة التطيب، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً! وهن - يقول ابن بطوطة - يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زي، وتغلب على الحرم رائحةُ طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عميقاً! وهذا ما يذكرني بقول امرئ القيس:

إذا قامتا تضوع المسك منهما
نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل!

ولعمري إنها ظاهرة تعبر وحدها عن قمة اعتناء السيدة بمظهرها وحرصها على الاحتفاظ بجانبٍ كبير مما يندرج - على ما أرى - في الأثر المروي: «إن لنفسك عليك حقاً»!!

ويتحدث ابن بطوطة عن الأطر المتنفذة المُشرفة على تسيير الحياة بمكة المكرمة، وأهمها إطار قاضي مكة، وخطيبها، وكذا إمام الموسم الذي يعدّ الركن الأساسي في حياة الموسم إلى جانب العلماء والصلحاء، ويسمي قاضي مكة على عهده نجم الدين محمد ابن الإمام محيي الدين الطبري[1] الذي يمطره ابن بطوطة بجميل الصفات الإنسانية الرفيعة، وخاصة إطعام الطعام في المواسم، ولا سيما بمناسبة مولد الرسول ... وكان سلطان مصر الملك الناصر يعظمه، وعلى يديه كانت توزع نفقات الأمراء ... وقد أمسى ولده شهاب الدين قاضياً بمكة ...

وبعد ذكر القاضي يأتي دور خطيب مكة بمقام إبراهيم حيث الموضع المخصص للخطبة، وقد كان الخطيب يحمل اسم بهاء الدين محمد بن عبد الله الطبري المترجم في الدرر الكامنة لابن حجر ... كان أحد الخطباء الذين ليس لهم في المعمور مثال بلاغةً وحسن بيان ... ينشئ في كل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد ...

---

(١) رحلة ابن بطوطة: تحقيق د. التازي، ج١، ص٣٨٧- تعليق ١٨٧.

لكن الجدير بالذكر أكثر هو الإطار الجديد الذي نسمعه إلى جانب القاضي والخطيب، هو إمام الموسم، الذي يعهد إليه بعلاج كل القضايا المهمة التي تطرح في الموسم على ما قدمنا، وقد كان بالمصادفة أيام هذا الرحالة هو إمام المالكية بالحرم الشريف الشيخ أبو عبدالله محمد بن أبي زيد عبد الرحمن المشتهر بخليل، أصله من بلاد الجريد من إفريقية، من أسرة بني حيون الأندلسيين ... كان إمام الموسم هذا كريم النفس حسن الأخلاق كثير الشفقة لا يرد من سأله خائباً ... تلك كانت صفة المسؤول الأول عن الموسم؛ موسم الحج ...

ويتناول ابن بطوطة جانباً آخر من جوانب أهل مكة: ذلك أنهم كانوا لا يتناولون الطعام في اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر، يتخلل ذلك في سائر النهار تناول بعض حبات من التمر، قال: ولذلك صحت أبدانهم، وقلّت بينهم الأمراض والعاهات ..!

وكان من أعلام مكة المكرمة على ذلك العهد إمام الشافعية شهاب الدين بن البرهان، ومنهم إمام الحنفية شهاب الدين أحمد بن علي ... يطعم المجاورين وأبناء السبيل ... ومنهم إمام الحنابلة المحدث محمد بن عثمان البغدادي وهو نائب القاضي ...

ومن أعلام مكة المكرمة الذين لفتوا نظر ابن بطوطة الفقيه زين الدين الطبري شقيق نجم الدين السالف الذكر، من المجاورين، ومنهم الفقيه محمد بن فهد القرطبي .. ومنهم العدل محمد بن البرهان ...

وبالمناسبة يستمر في ذكر بعض المجاورين من الذين كان لهم حضور بمكة من أمثال الإمام العالم عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليمني الشافعي الشهير باليافعي ... وأمثال القاضي العابد نجم الدين الأصفوني ... وأمثال الشيخ شمس الدين محمد الحلبي وأمثال أبي بكر الشيرازي المعروف بالصامت؛ لأنه يقتصر على العبادة ولا يتكلم! وأمثال خضر العجمي الصائم ... وبرهان الدين العجمي الواعظ، وأمثال المقرئ برهان الدين إبراهيم المصري، وأمثال الثريّ عز الدين الواسطي الذي يوزع ما يرد عليه من أموال من بلاده على الضعفاء، يتولى حملها بنفسه إلى عناوينهم، وأمثال الفقيه المغربي أبي الحسن علي بن رزق الله الأنجري الذي كانت له صلة بوالد ابن بطوطة كلما زار مدينة

طنجة، وكان الأستاذ الأنجري يعطي دروساً بالمدرسة المظفرية على أن يعود لسكناه برباط ربيع الذي كان يتوفر على بئر عذبةٍ لا نظير لها بمكة. هذا الرباط الذي يزوّده أهل الطائف بمختلف الفواكه ... وأمثال أبي العباس الغماري الذي سكن كذلك رباط ربيع ... وأمثال أبي يعقوب يوسف من بادية سبتة وقد أصبح شيخاً للرباط المذكور ... وأمثال أبي الحسن علي بن فرغوس التلمساني وسعيد الهندي شيخ رباط كلالة ...

وابن بطوطة وهو بمكة المكرمة هذه المرة يتحدث عن رجالها، كلّ وانشغالاته واهتماماته، ويجد الفرصة أحياناً مناسبة للاستطراد بذكر حقائق تاريخية قد تكون من الأهمية بمكان على نحو ما نراه وهو يتحدث عن الشيخ سعيد الهندي الذي قصد ملك الهند محمد بن تغلق فأعطاه مالاً عظيماً قدم به مكة المكرمة؛ حيث طلب إليه الأمير عطيفة تسليمه ذلك المال، وهذا ما دفع بالشيخ سعيد إلى العودة إلى الهند حيث قام بأدوارٍ جدّ مهمة حول العلاقات الهندية العربية ...

وأخيراً يذكر ابن بطوطة من رجال مكة حسن المغربي خديم نجم الدين الأصبهاني الذي كان يلقب بالمجنون، ويظن ابن بطوطة أنه أصلاً ينتمي إلى مدينة آسفي ...

وبعد هذا يتصدى الرحالة المغربي لتسجيل عادات أهل مكة في عدد من عاداتهم سواء فيما يتصل بالعبادات أو المعاملات، وهكذا يذكر مركز الإمام الشافعي كأول الأئمة إيثاراً وتقدماً من قِبَل أولي الأمر ... إلا أن مما يلاحظ أن الدعاء للخلافة العباسية المعروفة أيام ابن جبير لم يعد هو أيام ابن بطوطة؛ لأن أولي الأمر بالأمس غيرهم اليوم..!

ويذكر ابنُ بطوطة أن صلاة إمام الشافعية تكون خلف مقام إبراهيم في حطيم له هناك بديع.

ويقدم الرحالة المغربي تعريفاً لمصطلح الحطيم بصياغةٍ جديدة غير الصياغة التي أتى بها ابن جبير في عصره. لقد كان ابن جبير وصف حطيم الشافعية بأنه «سياج من خشب عظام، بائنة الارتفاع، موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الأعواد الوثيقة، فيتصل منها فضاء يكاد يمسك نصف الحرم عرضاً، ووصلت بالحطيم المذكور، ثم عرضت بينها ألواح طوال مدت على الأذرع المذكورة، وعلت طبقات أخرى حتى

استكملت ثلاث طبقات، فكانت الطبقة العليا منها خشباً مستطيلة مغروزة كلها مسامير محددة الأطراف لاصقاً بعضها ببعض كظهر الشَّيْهَم (القنفذ)، نصبت عليها الشموع، والطبقات تحتها ألواح مثقوبة ثقباً متصلاً وضعت فيها زجاجات المصابيح، ذات الأنابيب المنبعثة من أسافلها ».

تلك كانت صياغة ابن جبير، لكن صياغة ابن بطوطة كانت أكثر تطوراً وحداثةً عندما قال: « إن الحطيم خشبتان موصول ما بينهما بأذرع شبه السلّم تقابلها خشبتان على صفتهما، وقد عقد الكل على أرجل مجصصة، وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد تعلق فيها قناديل زجاج . . . »

« وبعد صلاة الإمام الشافعي في حطيمه يُصلي إمام المالكية في محراب بالركن اليماني، ويصلي إمام الحنابلة معه في وقتٍ واحد مقابلاً ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ثم يصلى إمام الحنفية قبالة الميزاب في حطيم له هناك . . . »

هكذا ترتيبهم في الصلوات الأربع، قال ابن بطوطة ملاحظاً ما لم يلاحظه الرحّالون قبله: « وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقتٍ واحد، كل إمام يصلي بطائفته، ويدخل على الناس في ذلك سهو وتخليط، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي أو سجد الحنفي بسجود الحنبلي، وتراهم مُصيخين كلُّ أحد إلى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لئلاً يدخل عليه السهو !! »

أما عن عادة أهل مكة المكرمة في خطبة صلاة الجمعة في عهد ابن بطوطة الذي نؤكد مرة أخرى أنه زار مكة في عهد حكم المماليك، وليس في عهد حكم العباسيين، فإن عادتهم يوم الجمعة أن يلصق المنبر إلى صفح الكعبة الشريفة، فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي، ويكون الخطيب لابساً السواد من كساء ملك مصر الملك الناصر . . . في يده الفرقعة، وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول ينفضه في الهواء فيسمع له صوت عالٍ يسمعه مَن بداخل الحرم وخارجه، فيكون إعلاماً بخروج الخطيب.

ولا يزال ماشياً حتى يقترب من المنبر فيقبل الحجر الأسود ثم يقصد المنبر، والمؤذن بين يديه لابس السواد، وعلى عاتقه السيف، وتركز الرايتان عن جانبي المنبر، فإذا صعد أول

درج قلده المؤذن السيف، فيضرب بنصل السيف ضربة في الدرج يسمع بها الحاضرون، ثم يضرب في الثاني ضربة، ثم في الثالث أخرى، فإذا استوى في عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة ووقف داعياً بدعاء خفي مستقبلاً الكعبة ...

ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله، ويرد الناس عليه، ثم يقعد، ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في حين واحد، فإذا فرغ الأذان خطب الخطيب خطبته التي يرضى فيها عن الخلفاء الأربعة، وعن سائر الصحابة، وعن عمي رسول الله (حمزة والعباس) وسبْطيه (الحسن والحسين)، وأمهما فاطمة الزهراء، وخديجة جدتهما ...

أما عن عادة أهل مكة في استقبال شهور العام، فإن أمير مكة يأتي في أول يوم من الشهر ... يحتف به قواده وهو لابس البياض، فيصلي عند المقام ركعتين، ثم يقبل الحجر الأسود ويشرع في طواف الأسبوع ... فعندما يكمل الشوط الأول ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين من أعلى قبة زمزم بالدعاء له والتهنئة بمطلع الشهر ... ويفعل به هكذا في الأشواط السبعة... فإذا فرغ منها ركع ركعتين عند الملتزم (ما بين باب البيت العتيق والركن الأسود)، ثم ركع خلف المقام أيضاً ركعتين ثم ينصرف.

ويستمر هذا التقليد عند مطلع كل شهر إلا عند شهر رجب الذي نجد له تقليداً متميزاً؛ حيث يستقبل الشهر بضرب الطبول وعزف البوقات[1]، ويخرج أمير المدينة راكباً مع أهل مكة فرساناً ورجالاً على ترتيب عجيب، يلعبون بالأسلحة بين يدي الأميرين اللذين يصحبهما أولادهما وقوادهما ... يسيرون حتى ينتهوا إلى ميقات التنعيم، ثم يأخذون في الرجوع إلى المسجد الحرام، فيطوف الأمير بالبيت والمؤذن من أعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط، فإذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم وعند المقام. وخرج إلى السعي فيسعى راكباً ... إنه يوم عيد من الأعياد يلبسون فيه أحسن الثياب.

لقد شاهدتهم ـ يقول ابن بطوطة ـ في ليلة السابع والعشرين من رجب وشوارع مكة قد غصت بالهوادج إلى ميقات التنعيم ... والنيران مشعلة بجنبي الطريق، والشمع

---

(١) يلاحظ أن أدوات الموسيقى كانت حاضرةً في المواسم الدينية على ما سنرى متجلياً أكثر في العصور اللاحقة.

والمشاعل أمام الهوادج ... والجبال تجيب بصداها إهلال الملبين ... فإذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا إلى السعي بين الصفا والمروة ... والمسعى متقد السرج غاص بالناس، والساعيات في هوادجهن ... وهم ينعتون هذه العمرة بالأكمية على نحو ما قرأناه عند ابن جبير؛ لأنهم يحرمون من أكمةٍ أمام مسجد عائشة بالتنعيم السالف الذكر.

وأهل الجهات الموالية لمكة المكرمة جميعهم يبادرون إلى حضور عمرة رجب، ويجلبون من خيرات بلادهم ... «ولولا أهل هذه الجهات لكان أهل مكة في شظف من العيش»! يقول الرحالة المغربي ...

وبعد رجب تأتي ليلة النصف من شعبان فيكثر أهل مكة من أعمال البر ... من طواف وصلاة، جماعات وأفذاذاً، يصلون مئة ركعة يقرؤون في كل ركعةٍ بأم القرآن وسورة الإخلاص يكررونها عشراً ...

أما عن عادة أهل مكة في رمضان فإن الاحتفالات تبتدئ في المسجد الحرام، من تجديد الحصر - على ما أسلفنا - وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرم نوراً، ويسطع بهجة وإشراقاً. وتتوزع الأئمة فرقاً: وهم الشافعية والحنفية والحنبلية والزيدية.

وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء ... ولا تبقى ناحية من الحرم إلا وفيها قارئ يصلي بجماعته ... وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الأعين، والشافعية أكثر الأئمة اجتهاداً...

وإذا كان وقت السحور يتولى المؤذنون التَّسحير في الصوامع؛ أي مؤانسة الذين يتناولون سحورهم وتنبيههم لوقت السحر ... وقد نصبت القناديل في أعلى المنارات ليكون إطفاؤها دليلا على انتهاء وقت السحور ...

وفي كل ليلةِ وترٍ من ليالي العشر الأواخر يختمون القرآن ... على يد أحد أبناء الأكابر من أهل مكة على نحو ما قرأناه عند ابن جبير ... وأعظم تلك الليالي عندهم ليلة سبع وعشرين، واحتفالهم فيها أعظم من احتفالهم بسائر الليالي ... وتقام إزاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم القائم في الحرم.

ويتقدم الإمام فيصلي فريضة العشاء الأخير، ثم يبتدئ بسورة القدر التي يكون إليها

انتهاء قراءة الأئمة في الليلة التي قبلها، وفي تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيماً لختمة المقام؛ مقام إبراهيم ... فيختم الإمام في تسليمتين، ثم يقوم خطيباً ... فإذا فرغ من ذلك عاد الأئمة إلى صلاتهم ...

ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين في المحراب المالكي الذي نصبت الأعواد بإزائه على شكل دائرة محراب، كما وضحه ابن جبير ... لكن ابن بطوطة يقول: إن ذلك تم «في منظر مختصر، وعن المباهاة منزه موقر ...»

ولو عاش ابن بطوطة اليوم وشاهد مآدب الإفطار التي تشمل الخاص والعام، داخل المسجد الحرام، في نظام وانتظام، وبما يعلو من صفاء ووئام، لكانت صياغته للكلام على غير هذا المرام ..!

ويكون شأن أهل مكة في شوال ـ وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات ـ شأن الشهور المعتبرة، كالأعياد: إيقاد المشاعل وإسراج المصابيح في الصوامع في سائر الجهات، وفي سطح الحرم وفي سطح المسجد الذي بأعلى جبل قبيس ... ويتسابق الناس إلى الحرم لصلاة العيد في مكة لا يوجد على ظهر الدنيا أفضل منه ..

وبنو شيبة أول من يبكّر للمسجد ... فيفتحون باب الكعبة، إلى أن يأتي أمير مكة فيستقبلونه ويطوف بالبيت أسبوعاً (أي سبعةً)... والمؤذن فوق قبة زمزم يدعو له ولأخيه ... ويأتي الخطيب فيصلي خلف المقام، ثم يصعد المنبر ويخطب خطبته، فإذا فرغ أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام ... ثم يخرجون إلى مقبرة باب المعلى للترحم على أرواح الجم الغفير ممن تحتضنهم المقبرة من رجال الفضل والخير ...

ولا يبقى بعد هذا اليوم إلا اليوم السابع والعشرون من ذي القعدة الذي تشمر فيه أستار الكعبة من جهاتها الأربع صوناً لها من الأيدى أن تنهبها، ويسمون ذلك إحرام الكعبة، وهو يوم مشهود، ولا تفتح فيه الكعبة من ذلك اليوم حتى تنقضي الوقفة بعرفة.

ويستمر ابن بطوطة في ذكر عادات أهل مكة عند استقبال الشهور، فيذكر أنهم عند استقبال شهر ذي الحجة تضرب الطبول في أوقات الصلوات بكرةً وعشية؛ إشعاراً بالموسم المبارك، ولا تزال الطبول تضرب كذلك إلى يوم الصعود لعرفات، فإذا كان اليوم السابع

من ذي الحجة خطب الخطيب إثر صلاة الظهر يعلم الناس فيها مناسكهم وما هم مقبلون عليه يوم الوقفة، فإذا كان اليوم الثامن يبكر الناس بالصعود إلى منى على ما هو معروف.

وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في إيقاد الشموع، ولكن التفوق يرجع دائماً إلى أهل الشام، فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح إلى عرفات فيمرون في طريقهم بوادي محسر الذي يعدّ الحد بين مزدلفة ومنى... ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين وفيه جبيل صغير هو الذي يطلق عليه المشعر الحرام، وحول المزدلفة مصانع وخزانات للماء مما بنته زبيدة زوجة أمير المؤمنين هاورن الرشيد.

ويصف ابن بطوطة عرفات(١) بمثل ما وصفها به ابن جبير منبهاً للتحفظ من بطن عُرَنة الذي أمر النبي ﷺ بالارتفاع عنه.

وأخيراً، وبعد موسم الحج والوقوف بعرفة سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م الذي لم يعين اسم يومه، والذي نرجح أنه صادف يوم السبت أو الأحد (٢٣ سبتمبر ١٣٣٠م...)، بعد ذلك يخبرنا بحادثة خطيرةٍ عاشها بُعَيد الوقفة وقد أوشك الموسم على النهاية، ويتعلق الأمر بما ذكر عن أن تجاراً من أهل اليمن تعرضوا لسرقة، فشكوا أمرهم إلى إيدمور ... فقال إيدمور لمبارك ابن الأمير عطيفة: أحضر هؤلاء السراق! فقال الأمير: إنه لا يعرفهم، فكيف يأتي بهم؟!

وأضاف هذا الأمير قوله: إن أهل اليمن تحت حكمنا، ولا حكم لك عليهم! فلو تعرض أهل مصر والشام للسرقة حق لك أن تطلب مساعدتي!

وهنا شتمه إيدمور بأقبح الشتائم ... وضربه على صدره وأسقطه أرضاً، ووقعت عمامته عن رأسه! وغضب عبيد الأمير ... وركب إيدمور يريد عسكره فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده ..! ووقعت الفتنة بالحرم وكان به الأمير أحمد ابن عم الملك الناصر.

ورمى الترك بالنشاب فقتلوا امرأة، قيل: إنها كانت تحرض أهل مكة على القتال، وركب من بالركب من الأتراك وأميرهم كذلك، فخرج إليهم القاضي والأئمة المجاورون

(١) لا بد أن ننبه هنا على خطأ وقع فيه ناسخ رحلة ابن بطوطة عندما ذكر أن لعرفة ثلاثة أسماء. إن الأسماء هي للمزدلفة التي تحمل هذا الاسم كما تحمل اسم الجمع، والمشعر الحرام... فعندما كان الناسخ ينقل من ابن جبير كان متسرعاً. قال ابن جبير: وتسمى المزدلفة المشعر الحرام، وتسمى جمعاً، فلها ثلاثة أسماء.

وفوق رؤوسهم المصاحف، وحاولوا الصلح...

ودخل الحجاج مكة فأخذوا ما لهم بها بعد موسم الحج ووقوف عرفة، وانصرفوا إلى مصر. وبلغ الخبر الملك الناصر فشق عليه الأمر، وبعث العساكر إلى مكة المكرمة، ففرّ الأمير عطيفة وابنه مبارك، وخرج أخوه رميثة وأولاده إلى وادي نخلة، فلما وصل العسكر إلى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولاده يطلب له الأمان ولأولاده، فأمنوا، وأتى رميثة، وكفنه بيده، إلى الأمير فخلع عليه، وسلمت إليه مكة المكرمة وعاد العسكر إلى مصر، وكان الناصر حليماً فاضلاً كما تدل عليه هذه الحادثة...

وهكذا نرى أن معظم إفادات ابن بطوطة عن مكة المكرمة كان الفضل يرجع فيها إلى رحلته الثانية وإقامته مجاوراً بمكة، حيث حج أربع حجات متوالية ...

الرحلة الثالثة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م

لقد أتى ابن بطوطة هذه المرة ليس من غربها، ولا من شمالها، ولكن من شرقها، عندما وجدته ظروف الرحلة في اليمامة التي تحمل اسم حَجْر (بفتح الحاء وتسكين الجيم)، كما يضبطها ابن بطوطة، وهي اليوم الرياض العاصمة الرسمية للمملكة العربية السعودية.

فمنها انطلق صحبة أميرها طفيل بن غانم، وذلك سنة اثنتين وثلاثين وسبعمئة[(١)] (أغسطس ١٣٣٢م) حيث وصل إلى مكة المشرفة ...

وقد سجل ابن بطوطة في مذكراته لهذه السنة أن الملك الناصر سلطان مصر حج هذه السنة في جملة من أمرائه، وهي كما يقول آخر حجةٍ حجها الناصر، فقد أجزل الإحسان لأهل الحرمين الشريفين وللمجاورين ...

ولم يتردد ابن بطوطة في الاستطراد بذكر الحادثة التي روتها تواريخ مصر، والتي تقول: إن الناصر قام بقتل الأمير أحمد الذي يذكر أنه ولده، وقتل كبير أمرائه بكتمور الساقي أيضاً[(٢)] ... ويرسمه تقي الدين المقريزي هكذا: أيدمر.

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ج ٢، ص٢٤٨.

(٢) المقريزي: الذهب المسبوك في ذكرى من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، مصر ١٩٥٥م، ص٩٩-١٠٦، ج ٣، ص٢٤٩.

وإذا كان المقريزي قد تستر على أسباب هذا التصرف الذي تم في يوم شديد الحرارة، على حد تعبير ابن بطوطة، فإن ابن بطوطة وهو أقرب للحدث من المقريزي يذكر قصة مثيرةً ورهيبة ينبغي العودة إليها في المجلد الثاني من الرحلة[١] ...

لقد كانت رحلة ابن بطوطة هذه المرة قصيرةً وسريعة؛ ولذلك فإننا لا نتوفر على معلومات أكثر مما عرفناه عن مقامه في أثناء مجاورته بمكة المكرمة ...

الرحلة الرابعة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م

يأتي ابن بطوطة هذه المرة الرابعة والأخيرة لأداء حجته السابعة عبر البحر الأحمر التي كان يحلم بها أول مرة سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م التي تعذرت بسبب الحرب القائمة بين الأتراك المماليك والبجاة على ما عرفناه من الرحلة.

لقد سافر من القاهرة إلى بلاد الصعيد، إلى عيذاب، وركب البحر ليصل إلى جدة، ومنها إلى مكة التي وصلها في الثاني والعشرين من شعبان سنة تسع وأربعين وسبعمئة / ١٦نوفمبر ١٣٤٨م)[٢] ...

لقد وجد أن أمير مكة هذه المرة هو الأمير عجلان[٣] بن رميثة الذي كان والده تنازل له عن مكة شراكة مع أخيه ثقبة قبل أن يقوم الملك الصالح إسماعيل ملك مصر بإفراد عجلان بالحكم بمكة، ثم شرك معه إخوته ثقبة وسنداً ومغامساً!

لقد كان من حظ الشريف عجلان أن يذكر في الجزء الأول من الرحلة عندما استطرد ابن بطوطة بقوله وهو يذكر أبناء الشريف أبي نُمَيّ: «وعجلان هذا أمير مكة في هذا العهد» يعني في سنة ٧٤٩هـ عندما كان ابن بطوطة في طريق العودة، وبهذا نتأكد من استرواح ابن بطوطة أو الناسخ ابن جزي الذي لم يرتب الرحلة حسب تسلسلها التاريخي.

لقد نزل ابن بطوطة في هذه المرة بجوار إمام المالكية الولي الفاضل أبي عبدالله محمد

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٢٤٩ – ٢٥٠.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ج ٥، ص٣٢٤.

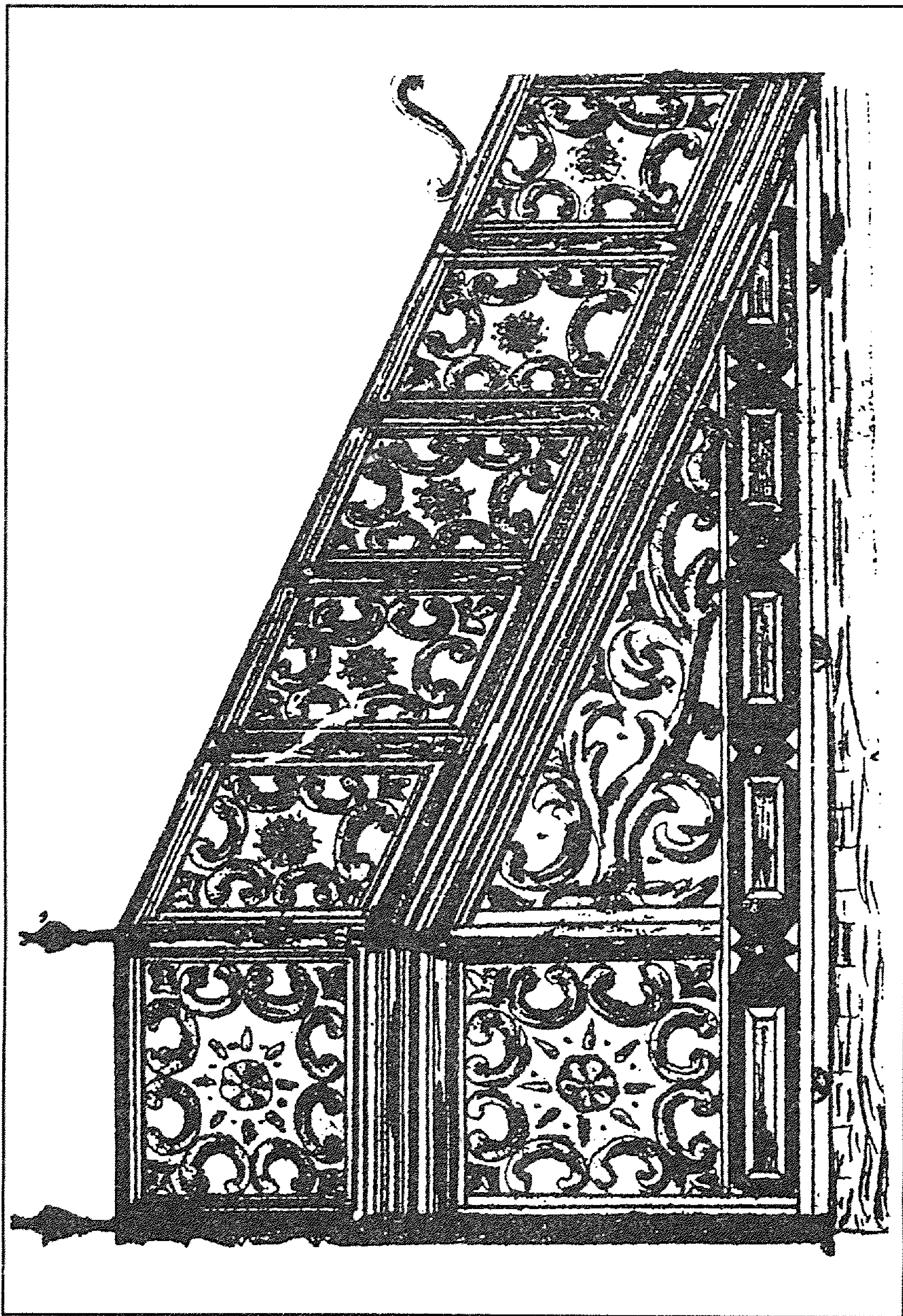
(٣) راجع التعليق عند الحديث عن الأشراف الحسنيين أبناء قتادة، وانظر رحلات ابن بطوطة، ج١، ص٣٤٤.

ابن عبد الرحمن المدعو بخليل الذي تحدث عنه في المرة الأولى على أنه إمام الموسم، فصام رمضان بمكة، وكان يعتمر كل يوم على مذهب الشافعي كما يقول، ويخبرنا أنه لقي بمكة ممن كان يعهده من أشياخها شهاب الدين أحمد بن علي السنجري الحسيني إمام الحنفية، وشهاب الدين الطبري الذي عوض والده في القضاء محمد بن محيي الدين، وأبا محمد عبدالله بن سعد بن علي بن سليمان اليافعي الشافعي، ونجم الدين الأصفوني السالف الذكر عند الحديث عن المقام الأول لابن بطوطة بمكة المكرمة، وكذا أحمد بن قاسم بن عبدالرحمن العمري الحرازي . . .

ويبدو أن ابن بطوطة كان يعيش في زحمة وقتٍ وهو في طريقه إلى بلاده المغرب؛ ولذلك فإن وقته لم يسمح بتعيين يوم وقفته على عرفات، واقتصر على القول: إنه حج تلك السنة التي هي سنة تسع وأربعين وسبعمئة دون أن يعطينا معلومات أكثر عن مكة المكرمة.



ابن بطوطة



المنبر الخشبي لخطيب الجمعة في المسجد الحرام

ابن مرزوق ٧٨١هـ / ١٣٧٩م

رافق الخطيب ابن مرزوق نحو سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م والده الشيخ أحمد في سفره إلى الحجاز لأداء فريضة الحج؛ حيث تعرف في هذه الرحلة عدداً من أعيان العلماء بالمشرق، وقد تولى هو نفسه ذكرهم في تأليفه «عجالة المستوفي المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز»(١). ونحن نقتصر هنا على ذكر من أخذ عنهم بمكة، وهم:

شرف الدين أبو عبدالله عيسى بن عبد الله الحجي المكي، هكذا في الإحاطة، وزين الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر الطبري المكي، وشرف الدين خضر بن عبدالرحمن العجمي، وحيدر بن عبدالله المقرئ، وبرهان الدين إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم الآبلي المصري، ومصلح الدين الحسن بن عبدالله العجمي، وأبو الصفاء خليل بن محمد بن عبدالله بن أسعد الشافعي، وفخر الدين عثمان ابن أبي بكر النويري المالكي، وشهاب الدين أحمد بن الحرازي اليمني، ونجم الدين محمد بن جمال الدين بن عبدالله بن المحب الطبري، وجلال الدين أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن براجين القشيري التلمساني، وشرف الدين عيسى بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب، وفاطمة بنت محمد بن أبي بكر بن أيوب (أخت المذكور قبلها)، وفاطمة بنت محمد بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري المكية، وأبو الربيع سليمان بن يحيى بن سلمان المراكشي السفاح، وعز الدين أبو عمر عبدالعزيز بن محمد ابن جماعة الكناني.

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج٣، ص١٠٥، ١٠٦. تحقيق عبدالله عنان، القاهرة ١٩٧٥م. انظر مقدمة المسند الصحيح الحسن، تحرير الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر ١٩٨١م، ص٣٣، ٣٦، ٤٩، ٥٠.

ابن خلدون ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م

ونحن نتحدث عن الذين رحلوا إلى الحجاز، ودخلوا المسجد الحرام، وعبروا عن شعورهم إزاء تلك المشاهد، نرى من المفيد أن نشير إلى ابن خلدون الذي تحدث في مذكراته عن قضاء الفريضة ... وخروجه لهذا الغرض في منتصف رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمئة إلى مرسى الطور؛ حيث ركب البحر من هناك عاشر الفطر ووصل إلى الينبع لشهر، فوافي المحمل ورافقهم من هنالك إلى مكة ودخلها ثاني ذي الحجة (١٤ ديسمبر ١٣٨٧م) فقضى الفريضة في تلك السنة (حيث صادف الوقفة يوم الجمعة) ثم عاد إلى الينبع فأقام به خمسين ليلة حتى تهيأ له ركوب البحر[١] ...

ويتساءل الناس وخاصةً من أمثال الذين يعرفون عن باع ابن خلدون في تسجيل مذكراته: لماذا اختزل الحديث عن مكة المكرمة والبيت الحرام ؟! ونحن نجد الجواب عن هذا "الاختزال" فيما كتبه قبل هذا التاريخ سنة ٧٧٩هـ، أي بأكثر من عشر سنوات، في مقدمته الشهيرة لكتابه الموسوعة (العبِرَ) بما كتبه عن هذه البقاع المقدسة.

قال: « ... وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط به، وكفى من ذلك أن جعله مهبطاً للوحي والملائكة ومكاناً للعبادة، وفرض شعائر الحج ومناسكه، وأوجب لحرمه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والإجلال ما لم يوجبه لغيره، فمنع كل من خالف دين الإسلام من دخول ذلك الحرم، وأوجب على داخله أن يتجرد من المخيط إلا إزاراً يستره، وحمى العائذ به والراتع في مسارحه في مأمن من مواقع الآفات، فلا يرام فيه خائف، ولا يصاد له وحش، ولا يحتطب له شجر ... »

قال: وحدُّ الحرم الذي يختص بهذه الحرمة من طريق المدينة ثلاثة أميال إلى التنعيم، ومن طريق العراق سبعة أميال إلى الثنية من جبل المنقطع، ومن طريق الطائف سبعة أميال إلى بطن نمرة، ومن طريق جدة سبعة أميال إلى منقطع العشائر.

(١) تاريخ ابن خلدون: العبر، طبعة دار الكتاب اللبناني ١٩٨٣م، ج١٤، ص١٠٧٥.

بهذه العبارات العميقة الدالة يقدم ابن خلدون البلد الحرام ...

وهو إلى هذا يذكر أسماء البيت الحرام، ويشرح الفرق بين مكة وبكّة ... قبل أن يذكر أن الأمم منذ عهد الجاهلية كانت تعظمه، وكانت الملوك من أمثال كِسرى وغيره تبعث إليه بالأموال والذخائر.... وقد وجد رسول الله ﷺ حين افتتح مكة، في الجُبّ الذي كان فيها، سبعين ألف أوقية من الذهب، مما كان الملوك يهدون للبيت، فيها ألف ألف دينار مكررة مرتين بمئة قنطار وزناً ... إلى آخر الحديث الذي نقل بعضه عن الأزرقي مضيفاً إليه ما نقله عن البخاري بسنده إلى أبي وائل الذي كان يروي عن شيبة بن عثمان.

وليس هذا فحسب، ولكن ابن خلدون الذي لم يفصّل الحديث عند حجته سنة ٧٨٩هـ عاد في مقدمة تاريخه ليذكر ما اعتدنا أن نقرأه عند سائر الرحالين عن المساجد الثلاثة التي تعدّ أفضل بقاع الأرض: مكة والمدينة وبيت المقدس... تعدّ قرة عين المسلمين، ومهوى أفئدتهم، وعظمة دينهم. وهو يقول عن البيت الحرام الذي بمكة: إنه بيت إبراهيم، أمره الله ببنيانه وأن يؤذّن في الناس بالحج إليه، فبناه هو وابنه إسماعيل، وسكن إسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم إلى أن قبضهما الله ودفنا بالحِجر (بكسر الحاء وتسكين الجيم)...

ويعود ابن خلدون لتتبع آثار مكة المكرمة، فيتحدث عن أوليتها منذ عهد آدم قبل أن يهدمها الطوفان بعد ذلك، وقبل أن يبعث الله إبراهيم، وكان من شأنه وشأن زوجته سارة وغيرتها من هاجر ما هو معروف، وأوحى الله إليه أن يترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بالفلاة، فوضعهما في مكان البيت وسار عنهما، وكيف جعل الله لهما من اللطف في نبع ماء زمزم ...

واتخذ إسماعيلُ بموضع الكعبة بيتاً ياوي إليه، وأدار عليه سياجاً، وجعل عليه زرباً ... وجاء إبراهيم مراتٍ لزيارته من الشام أمر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب، فبناه واستعان في ذلك البناء بإسماعيل، ودعا الناس إلى حجه. واستمر الناس يهرعون إليه من كل أفق من جميع أهل الخليقة ممن دنا أو نأى ...

ثم أصاب البيت سيل، وتهدم فأعادوا بناءه ... وصادف الحال أن انكسرت سفينة

بساحل جدة الميناء الرئيس لمكة، فاشتروا خشبها واستعملوه للسقف ... وكانت جدرانه فوق القامة فجعلوها ثماني عشرة ذراعاً، وكان الباب لاصقاً بالأرض فجعلوه فوق القامة لئلاً تدخله السيول ...

وبقي البيت على هذا البناء إلى أن تحصن عبدالله بن الزبير بمكة حين دعا لنفسه، وزحفت إليه جيوش يزيد بن معاوية ... ورمي البيت سنة أربع وستين بالنفط فأصابه حريق ... وأعاد بناء البيت على أحسن ما كان ... بعد أن اختلفت عليه الصحابة في بنائه، واحتج عليهم بقول رسول الله ﷺ لعائشة: «لولا أن قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على قواعد إبراهيم»... وهكذا جعل فرشها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب.

ثم جاء الحجاج لحصار ابن الزبير أيام عبد الملك، ورمى على الكعبة بالمنجنيقات إلى أن تصدَّعت حيطانها، ثم لما ظفر بابن الزبير شاور عبد الملك فيما كان بناه، فأمره بهدمه ورد البيت على قواعد قريش كما هو اليوم، يعني ابن خلدون عندما زارها لأداء الفريضة ... فكل البناء الذي فيه اليوم مزيج من بناء ابن الزبير وبناء الحجاج ... لُحمة ظاهرة بين البناءين ...

وبعد أن يُسهم ابن خلدون في مناقشة ما يقوله الفقهاء في أمر الطواف بناءً على تلك التغيرات يعود إلى ذكر مساحة البيت الحرام ... وتطور الزيادات فيه عندما كثر الناس ... إلى زيادة المنصور وابنه المهدي إلى أن استقرت على ما هي عليه في عهدنا، يقول ابن خلدون.

أتينا بمعظم هذه الإفادات لنؤكد القول بأن ما ترك ابن خلدون ذكره وهو يقوم بالرحلة إلى الحج سبق أن قاله في المقدمة بما لا مزيد عليه، ومن ثمَّت ساغ لنا تسجيل هذه الرحلة أداء للأمانة وحرصاً على جمع النظائر والأشباه.

القلصادي ٨٩١هـ / ١٤٨٦م

هذا عالم آخر من علماء المغرب الكبار أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي، المعروف عند الناس جميعاً بأنه عالم رياضي؛ لأنه متضلع من علم الحساب(١)...

ويهمنا في هذه المناسبة ملاحقة الرجل وهو يقوم بأداء مناسك الحج بمكة المكرمة التي وصلها في الثلث الأول من ليلة الجمعة ٢٩من رمضان سنة ٨٥١هـ / ٨ ديسمبر ١٤٤٧م.

ومعنى هذا أنه من الحُجَّاج الذين اتفق لهم أن أدّوا مناسكهم في الفصل الذي نعدّه فصل شتاء بالنسبة إلينا في المغرب.

وقد دخل المسجد الحرامَ من باب إبراهيم عليه السلام (٢): «وحين أشرفنا على الكعبة الشريفة - يقول القلصادي - رأينا ما يدهش الناظر، ويحير الفكر والخاطر، بما خصها الله به من الهيبة والتعظيم ...».

وكسائر الذين كتبوا مذكراتهم حول الحج يصف القلصادي طوافه وصلاته خلف مقام إبراهيم؛ مستقر الأمن والأمان، قبل أن يخرج للسعي، وقد استطرد هنا بذكر بعض أصحابه الأندلسيين من أهل بسطة الذين صادفهم هناك ... ولم يُخْفِ سروره الكبير بوجوده في هذه البقعة الشريفة التي كان الوقت يمر فيها بسرعة، كما يلاحظ القلصادي.

وفي اليوم الموالي ينتقل إلى التنعيم ليقوم بأداء العمرة من مسجد عائشة، وكان من

(١) نشرت هذه الرحلة بدراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، ونشرتها الشركة التونسية للتوزيع عام ١٩٧٨م. سعاد الناصر: رحلة القلصادي الحجازية، مجلة الفيصل السعودية، العدد ٣١٣، ص٥.

(٢) يضيف القلصادي إلى اسم إبراهيم قوله: (عليه السلام)، مما يقتضي أن الباب منسوب إلى نبي الله إبراهيم. وهو سهو من الشيخ القلصادي رحمه الله. والمعروف عند الذين تحدثوا عن هذا الباب أنهم ذكروا أن إبراهيم المنسوب إليه الباب كان خياطاً يجلس عند الباب، وأن من نسبه إلى إبراهيم الخليل من أمثال ابن جبير في رحلته السابقة الذكر كانوا ساهين وقد كان الباب يحمل قديماً اسم باب الخياطين أو باب الحناطين على الخلاف في ذلك. انظر رحلة القلصادي، ص١٣٢، تعليق ٢١١. ورحلة ابن جبير، ص ٧٤.

الأصحاب الذين سر برؤيتهم الشيخ قاسم بن الحسن التلمساني الذي أصبح من المجاورين بمكة المكرمة، والذي خص القلصادي ببيته في المكان المعروف برباط الموفق الذي يفيد محمد أبو الأجفان أن القصد بالموفق: علي بن عبد الوهاب الإسكندري الذي وقفه سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٧م) على مكة المكرمة ...

ولقد تذكَّر مع الشيخ قاسم أزماناً سلفت بتلمسان مع أشياخه ... كما أنه اجتمع بالفقيه الصدر أبي الفضل قاسم بن أبي حديد القسنطيني الذي أحلته الأقدار أيضاً بمقام الأمن والجوار، ونزح إلى طلب العلم هنا، وفاق النظراء من أهل زمانه ...

كما تعرف إلى الشيخ المرابط أحمد الزواوي ... وصديقه ورفيقه عيسى الزواوي، وكأنه كان على موعد مع هؤلاء الرفاق، وهذه منقبة من مناقب مكة المكرمة.

والطريف في حياة القلصادي بمكة المكرمة أنه قام هناك بشرح فرائض ابن الحاجب ... كما روى عن بعض المشايخ الموجودين هناك من أمثال العلامة الراوية المصنف شرف الدين أبي الفتح محمد ابن قاضي القضاة زين الدين المراغي المدني، وكتب أسانيده على كتب الحديث، بل إنه أجازه في ذلك وكتب له بخطه ...

وكما قرأنا عن الرحالين السابقين قام القلصادي بزيارة بعض المواقع التي اعتاد الحجاج أن يقصدوها لما لها من ذكرى في وجدانهم، وكانوا يقيمون بعيداً عنها ... وهكذا زار جبل ثور... وغار المائدة، وغار حراء، ومسجد البيعة، ومسجد الخيف، وغار المرسلات، وموضع الكبش ... والجعرانة التي كان النبي ﷺ أحرم منها على ما هو معروف.

كما زار بمكة موضع ميلاد النبي، وعليّ، وفاطمة، وقبة الوحي، ودار أبي بكر ... وكأنَّ بيده رحلة التجيبي «مستودع العلامة» يتتبع خطاها ...

وعند تفرغه لوصف أداء مناسك الحج تشعر بأنك مع فقيه مالكي يطبق جميع ما دونه المالكية حول الحج، وقد أحرم بحج الفريضة يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة من سنة إحدى وخمسين وثمانمئة (١٤ فبراير ١٤٤٨م).

ويستمر في طريقه فيذكر منى، ثم المزدلفة (المشعر الحرام)، ويصل إلى عرفات، والحج ـ كما نعلم ـ عرفات، وهنا يذكر أنه أقام بها إلى الغروب قبل أن ينصرف إلى

المزدلفة، هذا الانصراف الذي يعطيه الفقهاء مصطلح (الدفع) على نحو ما يعطون مصطلح (النفر) للانصراف من منى، يعني مغادرتها بعد إنهاء النسك.

وهنا يتردد الحديث عن الحصيات المطلوبة للرمي ... قبل أن يحلق الحاج رأسه ويقصد المسجد الحرام بمكة ليطوف طواف الإفاضة، ويسعى بين الصفا والمروة ...

ثم يرجع إلى منى لإنهاء عملية رمي الجمرات.

وعند نهاية هذه المرحلة يشد الرحال، ويرجع إلى مكة، فيدخل مكة ويطوف طواف الوداع.

ابن الصباح - القرن التاسع الهجري

لم يكن القلصادي آخر أندلسي قام بمناسك الحج، فقد أتى بعده أندلسي من المدجنين الذين أخذت اللغة العربية تغيب عنهم! وأخذوا يشعرون بأنهم في طريقهم إلى أن يتركوا دينهم الذي اعتنقه أجدادهم بالأمس! وهكذا نجد هذه الرحلة الغريبة العجيبة التي تتميز بأسلوبٍ خاص بها.

إنها رحلة طويلة لا نعرف عن صاحبها إلا أنه الحاج عبدالله الصباح الذي يؤكد أنه يمني الأصل من ذرية أبرهة بن الصباح الذي نقرأ عنه في تاريخ مكة ... يوجد أصل الرحلة بدار المكتبة الوطنية بتونس تحت رقم ٢٢٨٥، وهي من ثلاث وسبعين ومائتي ورقة، وتوجد لها صورة بالخزانة العامة بالرباط رقم ١٨٧٤ .

ولم نتمكن من معرفة تاريخها بالضبط على الرغم من تتبعنا لغضون الرحلة عبر المراحل التي قطعها الرحالة انطلاقاً من حديثه عن الأندلس وملك بني الأحمر، ومروراً بسبتة وفاس ومراكش أيام مرين، وتلمسان أيام بني عبدالواد، وتونس أيام الحفصيين، ومصر أيام بقية المماليك.

كان يقول عن غرناطة ردّها الله دار إسلام(١) ... وهو يسأل الله أن يرزق الصَّبر للذين بقوا بالأندلس مما يذكرنا بالنصيحة التي قدمها المغراوي (ت٩٢٩هـ / ١٥٢٣م)(٢)، لكن الرحالة ابن الصباح يتحدث عن شخصيات لقيها، وعن إفادات سمعها ترجع إلى ما قبل هذا التاريخ ... ومن هنا كنت أعتقد أن نص الرحلة الذي يتحدث أحياناً عن ابن الصباح بقوله: رحمه الله، مكتوب من طرف موريسكي ثانٍ؛ ولهذا فإني أعتقد أن الرحلة التي بين أيدينا عملت فيها يدان اثنتان: أولاهما يد الرحالة ابن الصباح الذي يبدو أنه قام بالرحلة في القرن التاسع الهجري، ثم أتى بعده موريسكي

(١) سلمت غرناطة بمقتضى الاتفاق يوم ثاني يناير ١٤٩٢م / ٢ ربيع الأول ٨٩٧هـ.

د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٧، ص٣٢١ (يراجع آخر تعليق في هذا البحث).

(٢) المغراوي وفكره التربوي، تحقيق د. التازي، نشر مكتب التربية العربية لدول الخليج ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٨، ص١٣٠، رقم الإيداع القانوني ٢٥/١٩٨٦.

نسخ الرحلة... وتصرف فيها حسبما تجدد في القرن العاشر الهجري من أحداث.

وبعد هذا، فإننا نلاحظ أن أسلوب الرحلة كان هو الأسلوب الذي يوجد في أغلب المخطوطات الموريسكية الألخميادية[1]. هذا وسنلاحظ أيضاً من خلال قراءة بعض المقاطع التي تتعلق بمكة بعض التجاوزات اللغوية والنحوية التي لا تخفى على القارئ، إلا أن الرحلة ذات فائدة كبرى سواء على صعيد الفائدة التاريخية أو الفائدة الاجتماعية، ونفضل أن نأتي بنصها كما هو حرصاً على تبليغ الصورة كما هي...

وهكذا، فبعد أن يتحدث ابن الصباح عن مروره بينبع للتزود بما يحتاج إليه من هذه السوق التي يوجد فيها حتى "لبن الطير" على حد تعبيره، وبعد أن يتحدث عن آلاف من المشاعل الكبرى التي تضيء الليل في وجه القاصدين قويهم وضعيفهم، غنيهم وفقيرهم، وبعد أن يصف وسائل النقل والاتصال، بما فيها الهوادج التي توفر الراحة للمسافرين وكأنهم في عرس يعيشون في بيوتهم أكلاً وشرباً ومناماً على نحو ما قرأناه في رحلة البلوي سالفة الذكر، وبعد الحديث عن رابغ والإشارة إلى الفرق بين حج الإفْراد والتمتع والقران، ثم إلى التجرد من المخيط من الثياب وارتداء لباس الإحرام والتزام النطق بالتلبية المطلوبة ...

بعد كل هذا يتحدث عن وصوله إلى مكة في فصل شديد الحرارة لم نصل إلى تاريخه بالضبط، وكأن التاريخ لا يهم ابن الصباح! وهو يقول بعد كل هذا وبأسلوبه التلقائي البسيط:

قال المؤلف: والله لقد أحرمت بالإفراد وكشفت رأسي، ما كان إلا ثلث النهار ورأسي قد انتفخ من شدة الحرور كأنه قِدر الغَرب من متاع[2] الحمَّام حتى غطيت رأسي وفديته!

(١) الحسين بوزينب: تقييم للكتابات الأعجمية الموريسكية، مجلة دار النيابة، السنة ٢، العدد السادس ١٩٨٥م، طنجة اللغة الموريسكية المسماة بالعجمية ضمن أعمال البحث اللساني والسيميائي، الدار البيضاء، ١٩٨١م.
القيمة الحقيقية للرموز الخطية في الأدب الأعجمي ضمن أعمال الأدب الإلخاميات الموريسكية، تونس، ١٩٨٦م.
الدين واللغة من خلال المكتوبات العجمية الموريسكية، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الثاني للدراسات الموريسكية، تونس، ١٩٨٣م.
محمد رزوق: مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب للحجري الأندلسي أفوقاي، كلية الآداب، الدار البيضاء، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(٢) متاع في الاصطلاح المغربي تعني ديالك أو تبعك، والغرب: القُب.

ثم نرحلوا (كذا!) إلى بطن مرة على بعد مكة بثلاثة مراحل، ندخلوا (كذا) مكة، شرفها الله، فمنهم الركب الأول يدخلها أولاً ليأتي من مهل[١] في الجحفة، والغير الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس إلى اليوم السابع يوم التروية، يوم الطلوع إلى منى.

قال ابن الصباح: كل ما ذكرنا من مراحل برية الحجاز طروق (كذا) في وادي بين جبالٍ سود عالية مع السحاب حجارة بلا شجر ولا خضرة، الشجر الذي فيها بلا ورق! ومن شدة الحر جبال مكة والحجاز مسيرة شهرين سود مثل الحريق، تقول[٢] الدخان جرى عليها والنار، بلاد حارة الشتاء والصيف كله فيها سواء، ودليل ذلك قوله عليه السلام: «من صبر على حرّ مكة وجوع المدينة ضمنت له على الله الجنة».

وبمثل الشعور الذي هيمن على الرحالين السابقين من أمثال العبدري وابن بطوطة وهما يجدان أنفسهما في مكة المكرمة، في المسجد الحرام أمام الكعبة، على الرغم من كل المخاطر والأهوال التي تعترض سبل القاصدين إلى ذرية إبراهيم الذين تهوي إليهم أفئدة الناس، بمثل ذلك الشعور يعبر هذا الموريسكي الذي نراه يستحضر نعمة الله عليه بتمكينه من جوار هذا البيت الشامخ المنيف الذي كان منبع الخير والفضيلة بالنسبة إلى الطائفين والركّع السجود.

قال ابن الصباح: «والله لقد دخلت مكة، شرفها الله، ونحن نطوف بالكعبة الشريفة، وهلَّ علينا الهلال[٣] ونحن طائفون بالكعبة الشريفة، فلله الحمد كثيراً كما هو أهله، والحمد لله الذي سلمنا الله من تلك المفاوز والقفار المهلكة والجبال الوحشة، كم من حاج ينتظرونه أهله (كذا) وهو قد مات على عطش! وكم من سلكها ولم يبلغ حجه، وكم من أنفق ماله ولم ينلْه منها شيئاً (كذا)، وكم من سلطان يتمنى النظر في تلك الكعبة الشريفة ولم يرها! وكم من أمير ووزير يريد المشي ولا يُحمل، وكم من يريد وصلها بالمال ولا يصل لها، وكم من مذنب يريد أن يطهر ذنوبه بالوقوف على عرفة ولا

---

(١) يلاحظ مهل عوض محل؛ لأن الأجانب لا ينطقون الحاء يبدّلونها هاء.

(٢) تقول بالدارجة الأندلسية المغربية تعني كأن أو مثل أو شبه.

(٣) لم نتمكن - كما أسلفنا - من التاريخ الذي تمت فيه الرحلة.

يُعطى، وكم من يتمنى الوصول إليها ولا يصل، وكم من واصل إلى نصف الطريق ولم يبلغ، وكم من بلغ إلى يومٍ منها ولم يبلغ! وكم من زعيم بماله ورجاله ولم يصل، وكم من غني زعيم بغناه ولم ينفعه غناه! وكم من فقير آيس يبلغ! وكم من حقير حقر لفقره وبلغ مراده! وكم من أموال اكتسبت وجمعت بالقناطير المقنطرة ولم يبلغ صاحبها الموضع الشريف! وكم من قليل بلغ بالعناية من عند الله ولم يحتج إلى مال ولا إلى زاد، ولا إلى ركوب إلا حملته العناية، ومن قال: ذلك الموضع لا يبلغ إلا بالمال والجمال والزاد والرواحل فقد نكر (كذا) نعمة الله وعنايته! بل الحامل هو الله سبحانه!».

قال المؤلف: بلغنا مكة والكعبة المشرفة وسلمنا عليها من باب بني شيبة المبارك علينا وعلى كل من رآه، ورأينا الكعبة وبكينا، ولذلك تسمى ببكة؛ لأنها تبكي من نظر إليها، ولو كان قلبه مثل الحجر يبكي بلا خلاف، فنحن لله الحمد وصلنا بعناية الله وجاوزنا بالحلال من بقية مال والدينا إذ كان مالاً حلالاً، وصلنا إلى هذا المقام، وجاورنا وبلغنا المراد من الله سبحانه وتعالى، واطهرنا من الذنوب السالفة، خرجنا إلى أبينا ودعونا كما وجب علينا... وأنه علينا نعم لا تحصى، فلله الحمد كثيراً والشكر ما دامت أرواحنا في أجسامنا، والروح والنفس تتمنى إلى يوم يبعثون يوم البعث، ويدخلون (كذا) المؤمنون الجنة، ونتوسل بسيد الأولين والآخرين، بنبينا وشفيعنا محمد العربي القرشي الهاشمي العدناني، خير ولد إبراهيم الخليل وإسماعيل الصادق، وصاحب الوعد الجميل ﷺ ما دام الداعون يدعون بالخير إلى محمد وآل محمد بالصلاة والتسليم إلى يوم الحشر والدين صلاة تفوح مسكاً وتعبق عبقاً بريح طيبة الجنة والرضوان، ما دامت الدقائق والساعات والأيام والجمع والشهور والسنون والأيام المباركة من الأعوام والدهور بعدد الشهور والحساب من جري الأيام، حتى يصير الناس فريق في الجنة وفريق في السعير صلاة متصلة برضاء الرب الكريم والمولى العظيم، إلى أن يحضروا سر حضرة القدس في الكرامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، آمين، نحن وجميع كافة المسلمين، ويشفع بعضنا في بعض، ويسلم بعضنا على بعض في دار السلام وجنات النعيم، والحمد لله رب العالمين.

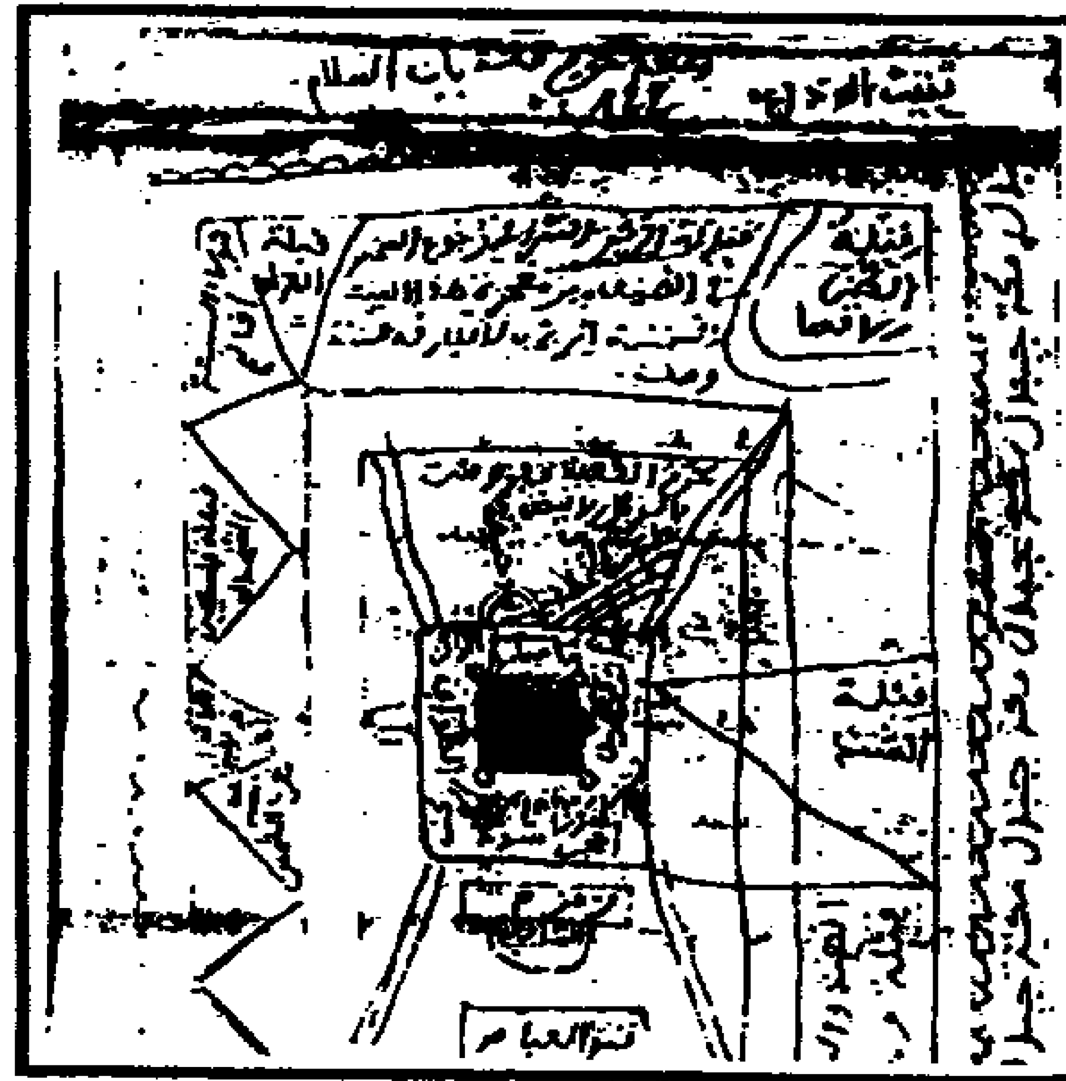
قال المؤلف رحمه الله: لما جاورت مدينة مكة المكرمة والكعبة الشريفة بيت الله الذي قامت عليه السماوات والأرض على وجه الماء قبل الأرض، وبعد ذلك من تحته دحيت الأرض، ومن تحته خلقَ الله التربة الذي (كذا) خلق الله آدمَ منها، ومن تلك التربة خلق الله جميع ألوان التراب، وعلى هذه البيت الشريفة (كذا) دوران الفلك والشمس والقمر والنجوم والبروج المزينات التي تسير فيها الشمس وهي خوبة الأرض وعجائبها لا تنحصر، ولكن ذكرنا منها الاختصار.

وهذه صفات عرفة والمزدلفة والمشعر الحرام، أعاد الله علينا وعلى المسلمين جميعاً من بركاتهم (كذا).

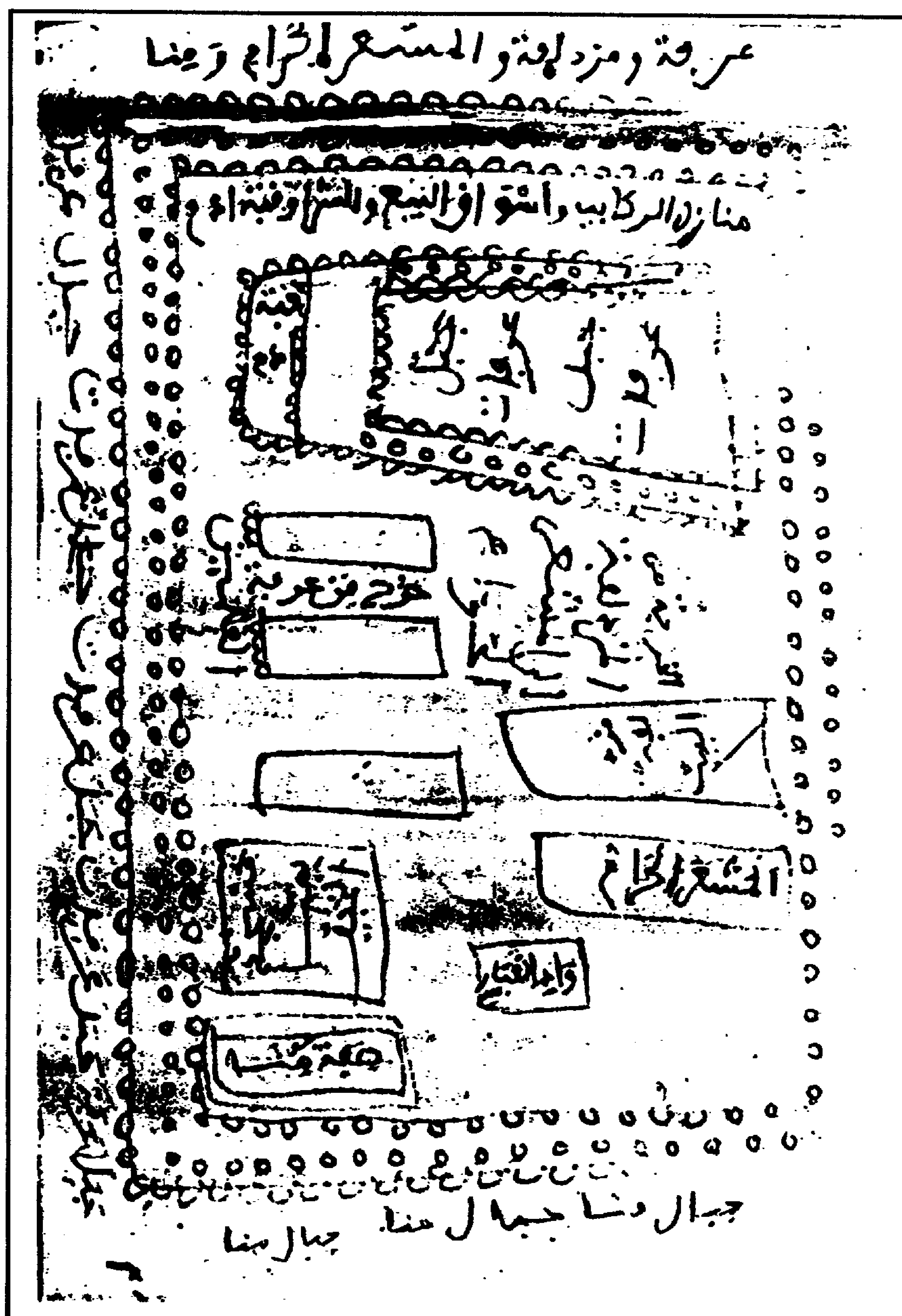
وقد كان ابن الصباح يُعنى بالرسوم التي تقرب الصورة للذين لم يسعفهم الحظ بالوصول إلى هذا الفضاء المليء بالكثير من المعاني والدلالات التي تظل بعيدة كل البعد عن الذين لم يدركوا الوصول إلى الكعبة فظلوا شاردين تائهين.

ونفضِّل أن ننقل تلك الرسوم على ما هي في المخطوطة في ورقتها الثانية والعشرين بعد المائة حرف (أ) وحرف (باء)، ويلاحظ أن تنقيط الحروف يخضع للمصطلح المغربي.

والطريف في رسم الكعبة تضمينه اتجاه مختلف البلدان إلى أركانها الأربعة، وهو الصنيع الذي يذكرنا في الرسم الذي وضعه الصفاقسي في نفس القرن (٩٥٨ هـ / ١٥٥١م) والذي نصحبه مع رسم الكعبة وعرفات.



رسم للكعبة في المخطوطة حرف (أ)



رسم للمشاعر المقدسة في المخطوطة حرف (ب)

قال عبدالله بن الصباح: صوّرنا هذا البلد الأمين والكعبة الشريفة وحرمها المبارك ومناسكها المشهورة الشريفة كما تراها أيها القارئ والمستمع،.فوجب علينا أن نذكر وننشر مفاخر هذا الذي صورناه، ونذكر فضائل هذه الجزيرة: الكعبة الشريفة، وما أخصها (كذا) الله على سائر البيوت في الأرض، وأعطى قاصدها من الجزاء، ومُجاورها بالكفاءة (كذا)، وما أعطى الله لهذا الحرم من الوفادة وأهله من الكفا ... ولو نصف طول عمر نوح ما نبلغ ربع ولا ثمن الثمن من معجزاته الكرام...

ويستمر في حديثه عن مكة وما جاورها إلى أن يعدد المواقع الستة عشرة التي نعتها بالمناسك: جبل عرفة، المزدلفة، المشعر الحرام، الجمرات، منى، الكعبة، الحجر الأسود، الركن اليماني، الملتزم، حِجْر إسماعيل، مقام إبراهيم، بئر زمزم، الصفا، المروة، المسعى، التنعيم.

وفي معرض حديثه عن الحجر الأسود ردد قولة عمر بن الخطاب: والله إني لأعلم أنك حجر لا ينفع ولا يضر، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبّلك ما قبّلتك. قال المؤلف رحمه الله: شاهدت في وسطه قدر الدرهم من البياض، وهو مطوق بطوق من فضة بيضاء طوّقه بها عبدالله بن الزبير، فهو اليوم يضيء ليلة الظلمة مثل نجمة الزهرة.

وفي معرض حديثه عن فضائل زمزم قال: «ولقد مرضت في هذا الحَرَم أول مجاورتي، وحلفت أن طوال ما يقضي الله لي بمجاورتي لا أشرب ماءً غير ماء زمزم، فدخل يدي ونحل جسمي حتى لم يبق إلا الجلد على العظم، فحبسني ربي مالوماً ستة وأربعين يوماً حتى أشفاني (كذا) الله، وطابت نفسي بالماء والهواء، وصرت نشربه غدوة وعشية وكل ساعة ... يخرج من البئر سخوناً كأنه اللبن.

ولما أراد ابن الصباح توديع (مكة) شربه بنية حفظ القرآن، قال: فحفظته ... وشربته لتوقي العطش وسافرت في البراري أزماناً ... وماتوا ... وإنا لم نر بأساً...

وفي حديثه عن كسوة الكعبة قال: إنها إلى بني شيبة من ذرية طلحة وعثمان الذين نزلت فيهم الآية في مفاتيح الكعبة لما أخذه العباس منهم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا...**﴾.

وابن الصباح يتخذ الذراع والقدم والأصابع هي معيار تحديد المسافات، وهكذا حدد الكعبة على هذا الأساس منبّهاً على انه يقصد أذرع وأقدام وأصابع الرجال المتوسطين! وبهذه المناسبة يعود إلى ما وقف عليه مما طرز على كساء الكعبة، وإلى ما يوجد على وجه الباب المبارك، والوجه الثاني والثالث، وكذا الوجه الرابع الذي يحمل اسم سلطان ذلك الزمان والعام الذي كسا البيت...

ويتأكد أن ابن الصباح كان من المحظوظين الذين دخلوا الكعبة؛ ولهذا نجده يقدم وصفاً لها قائلاً: قال المؤلف الأصبحي: ارتفعت (الكعبة) من الأرض قدر طول الرجل، نطلع سبعة دروج من ألواح تنقل وترد، وباب الكعبة الشريفة متوسطة فيما بين مطلع الشمس في الشتاء والصيف، بابها من عود اليبانوز (الأبينوس)، ملبس بالنحاس الصيني، مُذهب بماء الذهب، مُغلق سائر الأيام إلا يوم الجمعة المباركة، يفتحونه بنو شيبة خدام البيت الحرام، يدخلونه الرجال، يركعون فيه ... وداخله مفروش بالمرمر الملون، والحيطان بانواع البلاط وألوان المرمر، عليها من داخل البيت حلة حمراء مرصعة من الحرير الأحمر، مرصعة بالذهب الملون. وأنواع فيها من الذهب على صورة سنبلة الصنوبر، وسقفها باللوح والمسمار، والسطح المبارك بجص الجير والرمل المحمّر، في السطح أربعة مضاوي (ثُقب لإدخال الضوء) مثل مضاوي الحمّام، قدْر كل واحد الأفل الأكبر، تعمل ضوءاً للبيت مثل النهار...

ويتحدث بعد هذا عن حبال أستار الكعبة وتوثيقها في رأس الحائط.

ثم يصف ابن الصباح الميزاب (في صفحة ١٣٢) من المخطوط بأنه من عود الأبينوس، وهو ملبس بالنحاس الصيني، مذهب بماء الذهب الأحمر. ويصب في مرمرة خضراء في حِجْر إسماعيل مثل قطر نهر الكوثر عند نزول المطر ...

ويذكر أن طوله قدر ذراع بذراع الشرفاء الطويل... وهو يحكي أنه عندما تمطر السماء ترى المجاورين يقفون تحته يتبركون من الماء النازل من سطح البيت رجاء تطهيرهم من الذنوب.

ويؤكد مرة أخرى أنه عاجز عن وصف فضائل البيت ... وهنا يروي حديث ابن عباس عن أن الصلاة في هذا المسجد تعدل مئة ألف صلاة في غيره ... وأنه كان يقول

أيضاً: إنه كما تضاعف فيه الحسنات تضاعف فيه السيئات، ومن هنا كان ابن عباس يفضل الا يسكن مكة ويختار المقام بالطائف؛ حيث يوجد قبره اليوم وعليه مقام عظيم.

ويخلص بعد هذا للحديث مرة أخرى عن تعداد المناسك الستة عشرة السالفة الذكر.

وبما أنه قضى السنة مجاوراً، فقد عاش في مكة أيام رمضان، وما أدراك ما رمضان بمكة! وهكذا يتحدث عن التراويح وختم القرآن في ليلة القدر.

ولم يتأخر ابن الصباح هو الآخر عن كيل الحرم الشريف طولاً وعرضاً بالخطوات، كما عدد سواري الحرم ... وأبوابه ...

ويتحدث ابن الصباح عن ظاهرة لا نزال نشهدها إلى اليوم، تلك إقبال بعض الحجاج على شراء أكفانهم التي يبللونها بماء زمزم محتفظين بها إلى وقت الحاجة ...

ومن طيبة أخلاقه أنه، وقد قضى كما قلنا عاماً بكامله في مكة المكرمة، وعلى نحو ما قام به وهو في طريقه إلى مكة من مدح الجهات التي مر بها ... الأندلس، سبتة، مراكش، فاس، تلمسان، تونس، مصر ... على نحو ذلك خصَّص جانباً من مذكراته لأهل مكة رجالاً ونساء الذين قال عنهم: وأكثرهم ـ جزاهم الله عنا خيراً ـ رجالاً ونساء، ما أحسنهم وجوهاً! وأحسنهم كلاماً! وما أضبطهم عادة وسيرة حسنة، ومن سيرتهم الحسنة أنه لا يدخل أحدٌ منهم الطواف إلا بشيء يتصدق به ويزكيه بعد طوافه، وكذلك نساؤهم، وطوافهم (يعني طوافهن) عند غروب الشمس بين المغرب والعشاء الآخرة، يدخلون (كذا) الطواف بأثواب حسان، الغالب عليها الأزرق ... مزينين (كذا) بالحلي والخلاخل من الفضة ومقابيس الذهب هم وأولادهم الصغار ...

وابن الصباح يشكر الله على أنه قام بهذه الحجة من مال حلال ـ على ما سلف ـ ميراث الأبوين المرحومين ... وأنه وقف على عرفة وقفتين، واعتمر إحدى عشرة عمرة ... ودخل الكعبة على عدد الجمعات في السنة، يدخل الرجال ثم النساء حيث يركع كل واحد بما يشاء ... كل جمعة آليت على نفسي الطهور في زمزم والدخول إلى داخل الكعبة نصلي داخلها كل جمعة عشرة (كذا) ركعات، ثمانية وأربعين جمعة (كذا)، وآليت على نفسي الطواف في يوم وليلة اثنان وثلاثون أسبوعاً (كذا)، في كل أسبوع

سبعة أشواط، ولكل طواف ركعتان خلف مقام إبراهيم الخليل...

وسيراً على النهج الذي سلكه - قبل أن يصل إلى مكة - من وصفه الأقاليم التي مر بها قام بتقديم وصف للإقليم المبارك الذي أطيب بلده مكة:

هي موضع بلا زرع ولا حرث إلا ما يجلب إليها من بلاد بعيدة على مسيرة ثلاثة أيام، وأكثر عيشها من التمر والإبل والنخل ... وبعد أن يبرز أهمية الإقليم كسرة للأرض كلها، وينعت الحرم بأنه يشبه العروس تتجلى في حليها... يتخلص لتاريخ مكة مذكراً بدور الأشراف في القيام بشأنها والسهر عليها ذاكراً اسم الشريف أحمد بن عجلان (ت ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م)[١] مشيداً بالحشد الكبير من الأشراف الشجعان العربان أهل مكة الأبطال الأشداء الكرماء الفصحاء ...

ويخصص ابن الصباح حيّزاً لمدينة الطائف (مرقد عبدالله بن عباس) الكثيرة المياه والشجر والفواكه التي تمد مكة بخيراتها على مرّ الفصول...

ويتحدث عن بجيلة وزهران ... أقوام صالحين لا يعلمون عدداً ولا حساباً ولا الشر ولا الخير، لباسهم جلود المعز المدبوغ يدبغونه بالعروق الطبية، له رائحة طيبة ... وحبالهم من حلفة المسَد ... يسوقونها إلى مكة للآبار والدلو ولخروج الماء من الآبار؛ لأن مكة ما لها ماء إلا من الآبار، كل بئر طوله وعمقه أربعة وعشرون قامة! رطلهم ست أواق، وكيلهم موافق، ودرهمهم فضة، وصرفهم فضة وذهب وفلوس، عيشهم الغالب لحوم الجمال، وإدامهم أكثره السمن، والغالب عليهم تمْر العجوة يخزنونه ويدسونه مثل دسّ التين، له حلاوة مثل العسل ... فارحون بأوطانهم، وكذلك جميع البلاد والأوطان في عيون أهلها جنة!!

وبعض حديثه عن اليمن والعلاقة بينها وبين مكة في الخلقة والسحنة والفكر والفصاحة والعفة واللين والشفقة على الغريب ... وابن الصباح يميز بين اليمنيين والمكيين في طبيعة سرعة الغضب، إذ ينسب إلى هؤلاء أنهم يغضبون بخلاف أهل اليمن! وهو يعلل ذلك بأن أهل مكة من ذرية إسماعيل آل عدنان، وأهل اليمن من

(١) هل نفهم من هذا أن الرحلة تمت في أيام عجلان (٧٧٧-٧٨٨)؛ أي في القرن الثامن الهجري؟ وقد علمنا أن ابن الصباح كان يقول عن غرناطة: ردّها الله دار إسلام، وهذا إنما سلّمت غرناطة عام ٨٨٧هـ / ١٤٢٢م (يراجع التعليق الأول في هذا البحث..).

حمير آل قحطان، فأهل اليمن من العرب العاربة، وأهل مكة من العرب المستعربة، وأهل اليمن أخوال أهل مكة . . .

وقد تخلص ابن الصبّاح بعد هذا إلى التعريف بأصوله اليمنية الأولى . . . إنه من آل الصبّاح، جاء أجداده من بلدة سبأ المتصلة ببلاد مأرب . . . فيهم ملوك بني صالح الأصبحيون الكرام اثنان من الإخوة محمد وأحمد ملوك الزمان . . . بلاد الصبّاح منها أبرهة بن الصباح صاحب الفيل والفارس المشهور بالفروسية والشجاعة في جميع الكتب إلى اليوم.

وبعد الكثير من الإشادة بالملك الصبّاحي يقول: لكن أيام السعادة مكتوبة مؤجلة مختومة في اللوح المحفوظ مخطوطة!!

وهنا يتخلص إلى ذكر أخباره مع الملك الحبشي التي انتهت بقيادة الجيوش الحبشية ومن معها من عرب اليمن إلى مكة التي كان فيها آل عبدالمطلب، حيث كانت مصارعهم وانتصر أهل مكة.

قال ابن الصبّاح: وهؤلاء الصبّاحيون أو الأصباحيون هم اليوم ملوك تهامة ومشايخ عرب البادية والجبال، كلهم من ذرية قيسوم بن أبرهة بن الصباح . . . انتشروا في المشرق والأندلس والمغرب . . .

ونختم إفادات ابن الصباح عن مكة المكرمة وما يتصل بها بما استطرد به من ذكرها في أماكن أخرى . . . وهكذا فبمناسبة حديث له (صفحة ٢٥) عن الأواني الصينية الرفيعة قال: إنه رآها بحرم مكة بأغلى ثمن . . . وإنه سأل أهل مكة عن سبب غلاها، القطعة الواحدة منها بخمسين درهماً، وهناك ما يبلغ الدينار . . إلخ. فأجابوه: إن من خصائص هذه الصحون أنها تقاوم السموم، فإذا وضعت مادة سامة فيها تكسرت لحالها! ولذلك كانت أثمانها عالية وهي بين لون أخضر أو سماوي.

وفي معرض حديثٍ عن الصرامة في الحكم وهو يتحدث عن صرامة العثمانيين قال: إنه ليلة خروجه من جبل عرفة والتحاقه بمنى لم يذق للنوم طعماً لكثرة اللصوص والجبالصة، وهو يرمي الجمرات أيضاً حيث كان مهدداً بالسراق . . قال: فتجب الغلظة إذن في الأحكام مع هؤلاء الظلام، يعني على نحو الحال عند العثمانيين الذين أخذوا في فرض هيمنتهم على المنطقة.

132 ب

وأربعون للمصلين وعشرون للقاعدين الشا
هدين البيت ولو ترى أيها القارئ والمستمع
حين تمطر السحاب وتقطر الميزاب ترى جميع
المجاورين يقعون تحت الميزاب يغتسلون
من تلك الماء المبارك المنزل من سماء
البيت رجاء أن تغسل تلك الرحمة المنزلة
فيغتسلون الحجاج منها رجاء لتطهير
الذنوب قال المؤلف الأصبحي لو نصف فضايل
هذا البيت طول العمر ما نبلغ وصفه وكيف
يبلغ وصف هذا الحرم الشريف وهذه
الكعبة الشريفة والصلاة فيه بمائة ألف
صلاة في الفضل والجزاء قال ابن عباس رضي
الله عنه الصلاة في هذا المسجد بثلاث

إحدى صفحات مخطوطة رحلة ابن الصباح

ابن أبي مَحَلّي ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م

هذا هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي مَحَلّي الفيلالي العباسي المتوفى سنة ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م في أعقاب تمرده على الأمير المولى زيدان ابن السلطان أحمد المنصور الذهبي بطل معركة وادي المخازن التي صُرع فيها إمبراطور البرتغال سنة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م. لقد كان من المتأثرين بما سماه من تأليفه «الحذيفية» الموعود بها، أي أنه سيكون المهدي!! (صفحة ٧٢) كانوا يرمزون لوفاته بقولهم: ولد طيشاً ومات كبشاً.

له رحلة تحمل ثلاثة عناوين: "الإصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النّفريت" أو "عذراء الوسائل وهودج الرسائل في مرج الأرج ونفحة الفرج" أو "الرسالة".

والتأليف المذكور عبارة عن (فهرسة) عرض في بابها الأول شيوخه في التصوف، بينما ذكر في الباب الثاني - وهو المهم - أساتذته في العلوم بالمغرب ومصر وكذا بالحجاز، مضيفاً إلى ذلك ارتساماته عن طريقة تدريس بعض الشيوخ ونصوص مراسلاتهم له مع نص إجازة له من شيخه أبي القاسم بن محمد بن عبد الجبار الفجيجي، ثم تناول في الباب الثالث ترجمته الذاتية أو "نسبةُ الجثماني" كما يعبر، مع ارتساماته عن رحلتيه إلى مصر والحجاز وما أثار خلالهما من المناقشات في موضوع نظرة الإسلام إلى تناول عشبة "التبغ" طابة، أو الدخان كما نسميه بالمغرب.

فرغ من جمع تأليفه أواسط شوال سنة ١٠١٦هـ / ١٦٦٧م، وقد أشار العباس بن إبراهيم إلى رحلتيه للحجاز، وكان من طريف ما روى عنه وهو يطوف بالكعبة أنه سُمع وهو يقول: «يا رب، إنك قلت وقولك الحق: ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾، فاجعل لي يا رب دولةً بينهم»، قالوا: «ولم يسأل الله حسن الخاتمة، فرُزق الدولة وآل الأمر إلى ما أبرمته يد القدرة»!!

والتأليف مخطوط في ثلاث نسخ بالخزانة الملكية، أهمها واحدة تحمل رقم ١٠٠، وهي موجودة ضمن مجموع من الورقة رقم ١ ب إلى ورقة ١٤٦ ب[1]، وقد تحدث

(١) المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م، ج ١، ص١٤٩، رقم ٣٤٨.

انظر العباس بن إبراهيم: الإعلام، ج ٢، ص٢٨٦ فما بعد. محمد الفاسي: الرحالة المغاربة وآثارهم، مجلة دعوة الحق، عدد ديسمبر ١٩٦٨م. فهارس الخزانة الحسنية، طبعة جديدة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٧١-٧٢.

ابن سودة عن نسخة رابعة توجد بدار الكتب المصرية تحمل رقم ٤٣١[1]، وقفت عليها بل حصلت على نسخة منها، وهي تحتوي على ٥٢٨ صفحة، وتحمل الورقة الأولى هذه الكلمات: مؤلف الكتاب هو الإمام الثبت الحجة أحمد ابن أبي عبدالله محمد بن أبي اليسع بن أبي محلي العباسي السجلماسي رحمه الله...

وكتب على يسار الورقة: تحت نظر الفقير محمد مرتضى الحسيني غفر له سنة ١١٩١هـ بمصر .. وعلى وسط الورقة بحروف بارزة: (وقف لله تعالى) ثم رقم ٤٣١ - أدب.

والمخطوطة هنا بمصر تحمل عنوان: «عذراء الوسائل وهودج الرسائل». ومعلوم أن المؤلف كان يعنون كتابه حيناً بالإصليت ... وحيناً ثانياً بالعذراء، وثالثاً بالرسالة على ما أسلفناه[2].

ومن خصائص مخطوطة القاهرة أنها مكتوبة بأكثر من خط! فهناك الخطوط المشرقية، وهناك المغربية كذلك، ومن بين الخطوط بياض يشعرك بأن الخطاط تغير ... مع ملاحظة أن الخط المشرقي كان أجمل ... والمغربي كان أصح، ولا خروم بها، وتكتفي - عند الترقيم - بما اصطلح عليه بكلمة "الرقاص" التي توجد أسفل الصفحة.

وإن إلقاء نظرة عابرة على هذه الفهرسة أو على الأصح على الجانب المخصص منها للرحلة الحجازية ليعطي فكرةً بأن ابن أبي محلي قام بحجتين اثنتين، لقي فيهما عدداً من الفضلاء منهم شيوخه المشارقة ... وهو ينعت حجته الأولى بأنها كانت مع من وصفهم بهذا النعت: "الصعاليك" الذين يعتمدون على نفوسهم في أخذ الطريق، وقد سمحت لنفسي أن أنعت رحلته الثانية برحلة "السكاكيك" المترفين. والظاهرة البارزة في رحلتي ابن أبي محلي أنهما غير مرتبتين في الذكر، فقد يذكر في البداية ما كنا

(١) ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج٢، ص ٣٦٨ - ٣٦٩. وقد قُدِّم التاليف كرسالة جامعية من لدن الباحث عبد المجيد القدوري لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، يونيو ١٨٨٤م، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

(٢) نغتنم هذه الفرصة لنجدد الشكر لاهتمام دار الكتب المصرية بإرضاء طلبنا بالسرعة الممكنة، ونخص بالشكر الدكتور صلاح فضل مدير المؤسسة، والأستاذ محمد سيد غندور رئيس الإدارة المركزية.

نتوقع ذكره في النهاية، فهو إذن لا يسلك الأساليب نفسها التي عهدناها في الرحلات السابقة واللاحقة، ولكنها أسلوب خاص وأداء خاص.

« ... ففارقته (الشيخ سالم السنهوري المصري) متوجهاً للحج في الراجبية من بحر سويس، إذْ ركبته وبقيت على ظهره نحواً من أربعة عشر يوماً، ثم أرسينا بالينبوع فوردتُ المدينة المشرفة قبل مكة في الحجة الأولى، وبها صُمْتُ رمضان كله، ثم في الفطر توجهت لمكة وأقمت بها شهراً قبل مجيء الحاج على نحو ما أذكره إن شاء الله في الباب الثالث أو غيره(١) ...

وكنت حين الأخذ عنه في الحجة الأولى(٢) عام واحد بل اثنين بعد الألف رث الهيئة في غاية الضيعة قد لا يعبأ بي الناظر إلا بعد سبر حاضر، عن الحقيقة حاشر ... وقد تركت فيهم من نظمي(٣) ... فندموا على إهمالي، فلما عدت الثانية عام ثلاثة عشر وألف أو أربعة عشر برسم الحج أيضاً في نفر يسير وركب غير كبير ... فما شعرنا إلا والإمام السنهوري راكب على حماره ... يتلقانا ويهنئنا ...

وبعد هذا يتحدث ابن أبي محلي عمن أخذ عنهم في الحجة الأولى بمكة، فيقول، وهذا مما بتر فيما طبعه د. القدوري، قال: ومنهم أيضاً شيخ من عجم بخارى لقيته بمكة شرفها الله تعالى وهو يقرئ في النحو والحديث، فلازمته حتى أحس بي مدة إقامتي قبل الحج بمكة، وقد تقدمتُ فسألته أن يعبر لي عما يقرؤون في الحديث باللسان العربي(٤)، فأجاب رحمه الله، وكان أول ما يقرر المسألة من (نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر) لابن حجر رضي الله عنه بلغة قومه العَجَم الحضور ثم يعيدها لي أنا خصوصاً بلسان عربي مبين حتى ختمتها عليه أيده الله.

---

(١) مخطوطة القاهرة، الورقة: رقم ٢٦٧ – ٢٦٨.

(٢) هنا بتر مخل بالمعنى عند د. القدوري يتعلق بالتاريخ.

(٣) كان من هذا النظم قصيدة دالية طويلة الذيل من ١١٦ بيتاً يقول في أولها:

فمن حامل العذراء في الهودج الخرد ... إلى سيد الأشراف والعالم المهدي

مخطوطة مصر الورقة ٧ و ٣٠٠، ومخطوطة الخزانة الحسنية، ص ٢–٣.

(٤) بتر عظيم وقع في طبعة د. القدوري، فاختلط أصحاب فجيج بالمغرب الأقصى بأصحاب بخارى في الشرق الأقصى!!

وقيدت ذلك عنه يوم الأحد التاسع عشر من ذي القعدة عام اثنين بعد الألف بمكة تجاه الكعبة بالحرم الشريف (٦ أغسطس ١٥٩٤م)، واسمه ـ رضي الله عنه ـ الشيخ محمد يوسف (وليس ابن يوسف)، هكذا علمُه مركب من اسمين، لكنه من غير واو عطف، فاعلمه، وهو الذي ذكر لي ذلك حين سألته عن اسمه، فهو إذن محمد يوسف ابن سيف الله البدخشي بالعراق ومن بخارى كما عرفني به.

وقال ابن أبي محلّي معرفاً بالموقع الجغرافي: وبَدَخْش[١] ناحيَة منها، وهي بباء مفتوحة موحدة ثم دال مهملة مفتوحة تليها خاء معجمة ساكنة آخرها شين معجمة، تكسر لياء النسب، وإلا فهي ساكنة، كذا عرفني رحمه الله. ويضيف إلى هذا:

قلت: ومن غريب ما سمعته منه أنه قال: بقرب بلده ناحية ليلُها مقدار ما بين العصر والغروب فقط أو أقل، وكل زمانهم نهار إلا يسيراً، وإن أهل بلده يسافرون لتلك الناحية، وإنه لا شك في ذلك، والله على كل شيء قدير.

قال ابن أبي محلي معلقاً على ذلك: ولا أتهمه لعقله وعمله ورزانته فيما أرى[٢].

قال ابن أبي محلي: وكذلك حدثني عن إمام الحرم يومئذٍ ونحن جميعاً نصلي خلفه غير مرة، اسمه الشيخ إبراهيم الحنفي، وكذلك البدخشي المذكور أيضاً حنفي المذهب، عن شيخ هندي كان مجاوراً معهم بمكة قبل قدومنا عليها، من مشايخ الصوفية الأعزاء ثم عاد إلى الهند ...

ويستمر في الحديث عن كرامات الأولياء... إلى أن يحكي عن أحجارٍ كانت في حوزته وسرقت منه بمكة، وكانت معه أمانة لبعض الصعاليك من مصر ...

ويقع زميلنا د. القدوري في بتر آخر لا يقل إخلالاً عن الأول، وذلك عندما عاد ابن أبي محلّي إلى الحرمين في المرة الثانية .. ونفضل أن نأتي بالنص الكامل لهذا البتر لمساعدة الذين يرغبون في ترميم نسخهم، قال في الصفحة ٣١٠ من مخطوطة دار

(١) بدخش أو بدخسان بخراسان، وهي مشهورة بالياقوت المنسوب إليها. انظر رحلة ابن بطوطة، ج ٣، ص٥٩، تعليق ٨٦.

(٢) رحلة ابن بطوطة. تحقيق د. التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سنة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ج ٢، ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩، تعليق ٥٢-٥٣، رقم الإيداع القانوني ٣٢١/١٩٩٧.

الكتب المصرية، بعد خمسة أسطر من كلمة «والله أعلم»[1].

«... وكذا أيضاً اجتمعت بالحرمين الشريفين في الحجتين بالفقيه النحوي المتكلم المالكي الشيخ خالد الإفريقي المغربي، وتذاكرت معه تجاه الكعبة في شيء من أمر الصوفية، إذ له ميل مع تحقيق فنه لسبيلهم، وربما أفادني بحكمةٍ من قبيلهم رضي الله عنهم، وعن كل محب في دليلهم ...»

ويأتي ابن أبي محلي بعد هذا بفصْل قال عنه: وبه ختام مقالتي عن المغاربة والمشارقة من شيوخي في العلم الظاهر كالذيل لهذا الباب ...

وفي هذا الفصل أيضاً عودة إلى الحديث عن حكم الشجرة القريبة العهد بالحدوث بل الظهور وهي تَبَغ[2] بمثناة فوقية وموحدة ثم غين معجمة مفتوحات ... وهنا حديث جديد عن اهتمامه بموضوع الدخان ... إلى أن يصل إلى كلمة: ولا جازفت في مساق الأدلة من نقول الجلة التي اقتصر عليها محقق الإصليت الخريت ....

هنا ورقة من مخطوطة دار الكتب المصرية

---

(١) تراجع صفحة ١٤٦ من مطبوع د. القدوري عند قوله: والله أعلم.

(٢) زهر العريش في تحريم الحشيش لبدر الدين الزركشي. تحقيق: د. السيد أحمد فرج. رحلة ابن بطوطة، تحقيق: د. التازي، ج ٢، ص ٢٥٧، ج ٣، ص ٣٤١.

خاص وقتادة ونحوهم من أهل الصدر الأول فقط وعلى هذا النمط إذ نحو كلام ذي النون رضي الله
عنه والله أعلم فبهذا الاعتبار يجوز مع شرطه لأربابه كلام الخالص ومن منع من ذلك
فلظنه اختلال شرطه أو سد الذريعة عما أداه إليه نظره من ورعه كما أنكر على الإمام
المحاسبي الرد على المبتدعة بأدلة المتكلمين وكذا أحمد بن حنبل يعتقد من الصوفية
الأكابر الشيخ بشر الحافي رضي الله عنهما كاعتقاد الإمام الشافعي شيبان الراعي وأبي
حنيفة الإمام بن أدهم رضي الله عنهم وما منهم إلا له مقام معلوم نفع الله بهم الإسلام
وكذا أيضا اجتمعت بالحرمين الشريفين في الحجاز بالفقيه النحوي المتكلم المالكي الشيخ
خالد الأفريقي المغربي وتذاكرت معه تجاه الكعبة في شأن أهل الصوفية إذ له ميل
مع تحقيق فنه لسبيلهم وربما أفادني بحكاية من قبلهم رضي الله عنهم وعن كل محب
في دليلهم وأما الشيخ أحمد السنهوري المالكي المصري فلا شك أنه مشهور بعلمه في الأزهر
ولكني قط ما لقيته وإن كنت معه بالجامع الأزهر وكل في ناحية منه إلا أنه كأنني عند
الوداع الثاني مع تلميذ أو على لسانه أعني الشيخ علي الأجهوري أيده الله فيصل
وبه ختام مقالتي المغاربة والمشارقة من شيوخي في العلم الظاهر كالذيل من هذا
الباب لما فيه من سؤال عام يتوجه بعد سببه الخاص لكل من تأمل اللجوء عنه من ذوي
الألباب وهو سؤال المضطر الحامل كما يعلم الله تعالى حاضره بل فاقته إلى ما يجيبه
به كل عالم محقق ناقل عاقل وذلك في حكم تبغ قريبة العهد بالحدوث شبيلا الظهور
وهي تبغ المشاب فوقية وموحرة ثم غبن معهم مفتوحات واسمها مشهور وقد اختلف
فيها الطالب والمطلوب ما بين محرم ومحلل ومتوقف حيران الجهل أو التعارض
النقلين عنده وما وقف على الترجيح فاستقل مكانه ولم يملك البيان والأجوبة
وقد تشخصت فيها سؤالا وافيا بالغرض إلى شيخ المذهب وإمام الحديث الشيخ
سالم السنهوري رحمه الله من قولنا في القفول من مصر للغرب وبلغ ومكث

ابن أبي محلي ٩٩ - ١٤٣ - ١٦١

إحدى صفحات مخطوطة دار الكتب المصرية لابن أبي محلّي

ابن عاشر الأندلسي ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م

هذه جولة شعرية ارتأينا أن نقترحها على القارئ ضمن الرحلات إلى مكة؛ لأنها تعدّ أصدق دليل للحاج الذي لا يهمه أن يتتبع تحركات شريف مكة، وإنما يهمه أن يؤدي المناسك المطلوبة.

ويتمتع صاحبها بشعبية كبيرة عند المغاربة الذي يحفظون الأرجوزة عن ظهر قلب، ونحن نعلم ما للأرجوزة من دور في تحصيل المعلومات والمرويات.

ويتعلق الأمر بشيخ الجماعة بفاس ونواحيها عبد الواحد بن عاشر الأنصاري الأندلسي الفاسي المتوفى سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م[١]. هذا العالم الجليل عندما حج سنة ١٠٠٨هـ كان يصادف صيف عام ١٦٠٠م، فكر منذ وصوله إلى رابغ في أن يحمل قلمه ليحرر بالشعر جميع ما يتعلق بالحج، ثم ليرسم طريق الحاج بأسلوب بسيط ومركز أجمل فيه كل ما قاله سابقوه، لدرجة أن آباءنا يحكون أن "المطوفين" تضايقوا من منهجه الواضح والسهل، فكانوا لا يرتاحون منه لكونه مضايقاً لأرزاقهم! ... وقد حدث أنه لما وجد نفسه في البيت الحرام عرض عليه المطوف خدمته - وهو لا يعرف أنه ابن عاشر - فاعتذر للمطوف اعتماداً على ما يعرفه جيداً عن المسالك والمناسك، فأقسم عليه المطوف قائلاً: والله لو كنت أنت ابن عاشر لما كان لك غنى عن المطوِّف!!

ولهذا نرى من المفيد ليس فقط عرض الأرجوزة، ولكن أن نحض على العودة إليها.

وهكذا، فبعد أن تحدث عن مركز الحج كفريضة مرة من العمر استعرض أركان الحج كالإحرام والسعي ووقوف عرفة والطواف، كما استعرض أركانه كطواف القدوم والمشي فيها ونزول المزدلفة، ويذكر المواقيت بالنسبة إلى الواردين من مختلف جهات العالم ...

---

(١) السلوة ٢، ص٢٧٤-٢٧٦. ميارة: مختصر الدر الثمين والمورد المعين، طبع وزارة الأوقاف، المغرب، بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.

بعد هذا يرسم الطريق للحجاج...

قال ابن عاشر في كتابه «المرشد المعين على الضروري في علوم الدين»:

وإن ترد ترتيب حجك اسمعا
بيانه، والذهن منك استجمعا
إن جئت رابغا تنظف واغتسلْ
كواجب وبالشروع يتصلْ
والبس ردا وأزرة نعلين
واستصحب الهدي وركعتين
بالكافرون ثم الاخلاص هما
فإن ركبت أو مشيت أحرما
بنية تصحب قولاً أو عملْ
كمشي او تلبية مما اتصلْ
وجددْنها كلما تجددتْ
حال، وإن صليت، ثم إن دنتْ
مكة فاغتسل بذي طوى بلا
دلك، ومن كَدا[1] الثنية ادخلا
إذا وصلت للبيوت فاتركا
تلبية وكل شغل واسلكا
للبيت من باب السلام واستلمْ
الحجر الأسود[2] كبر وأتمّ
سبعة أشواط به وقد يسرْ
مكبّراً مقبّلاً ذاك الحجرْ

(١) أصله كَداء بالمد: مدخل، بينما كُدى (بضم الكاف والقصر) توجد عند الخروج من مكة.

(٢) صادفت سنة حج ابن عاشر أعمال الترميم الكبرى التي شملت الكعبة والحجر الأسود الذي تعرض إلى انفلاقه إلى شظايا على ما هو مبسوط عند السنجاري، ج٤، ص٩٠، حيث نقرأ عن جهود الشريف عبدالله بن حسن بن أبي نمي، وعن موقف العلماء من الموضوع. السباعي، تاريخ مكة، ص٤٧٥.

مـتى تحاذه فـذا اليـمـاني
لكن ذا باليـد خـذ بيـاني
إن لم تصل للحجر المس باليـدِ
وضع على الفم وكـبـر تقـتـدِ
وارمل ثلاثاً، وامش بعدُ أربعـاً
خلف المقام ركـعـتين أوقـعـا
وادعُ بما شئت لدى الملتزمِ
والحجر الأسود بعدُ استلمِ
واخرج إلى الصفا فقف مستقبلا
عليـه، ثم كـبِّـرن وهلّلا
واسعَ لمروة فقف مثل الصفا
وخب في بطن المسيل ذا اقتفا
أربع وقفات بكل منهما
تقف، وللأشواط سبعاً تمما
وادع بما شئت بسعي وطوافْ
وبالصفا ومروة مع اعترافْ
ويجب الطهران والستر على
من طاف، ندبها بسعي اجتلى
وعد فلبٌ لمصلى عرفةْ
وخطبة السابع تأتي للصفةْ
وثامن الشهر اخرجنّ لمنى
بعرفات تاسعاً نزولنا
واغتسلنْ قرب الزوال واحضرا
الخطبتين، واجمعنّ واقصرا

ظهريك، ثم الجبل اصعد راكبا
على وضوء، ثم كن مواظبا
على الدعا مهللاً مبتهلا
مصلياً على النبي مستقبلا
هنيهة بعد غروبها تقفْ
وانفر لمزدلفة وتنصرفْ
في المازمين العلمين نكبْ
واقصر بها واجمع عشا لمغربْ
واحطط وبت بها وأحي ليلتكْ
وصل صبحك وغلس رحلتكْ
قف وادعُ بالمشعر للإسفارِ
وأسرعنْ في بطن وادي النارِ
وسر كما تكون للعقبةِ
فارم لديها بحجار سبعةِ
من أسفل تساق من مزدلفةْ
كالفول، وانحر هدياً إن بعرفةْ
أوقفته واحلق وسر للبيتِ
فطف وصلّ مثل ذاك النعتِ
وارجع فصلّ الظهر في منى وبتْ
إثر زوال غده ارمِ لا تفتْ
ثلاث جمرات بسبع حصياتْ
لكل جمرة، وقف للدعواتْ
طويلاً إثر الأولين أخّرا
عقبة، وكلّ رميٍ كبّرا

وافعل كذاك ثالث النحر، وزدْ

إن شئت رابعاً، وتم ما قصدْ

وبعد هذا الوصف الدقيق لمسيرة الحاج منذ ابتدائه في أداء واجبه إلى أن ينهي أعماله يذكر ما يمنعه لباس الإحرام على الحاج من صيد وقتل لبعض الحيوانات ... وكذا ما يمنعه الحج من مخيط وطيب ... ثم يتخلص لذكر العمرة ليقول: إنها تنطلق من التنعيم، وإنها كالحج في برنامجها، ولا ينسى أن يطلب إلى الحاج أن يصحب بعض الهدايا من هذه البقاع المقدسة إلى أقاربه وإلى من يعيشون من حواليهم ...

المقَّري الحفيد ١٠٤١هـ / ١٦٣٢م

هذا المقري صاحب (نفح الطيب) الذي له رحلة حجازية كذلك، أحمد بن محمد بن أحمد المقَّري الذي قام من أعقاب مشكل سياسي بالمغرب، قام باستئذان العاهل المغربي للقيام بمناسك الحج، وتلك عادة كبار المغاربة إذا أرادوا أن يتخلصوا من وظائفهم السياسية يطلبون الإذن لهم بالذهاب إلى الحج، ويظلون هناك حتى تتضح لهم الرؤية!!

وهكذا فبعد تفويت مدينة العرائش من لدن أمير المغرب إلى الإسبان، وطلب السلطان من العلماء أن يقولوا: هل من حق الأمير المأمون أن يفدي أولاده بالعرائش أم لا؟ هنا قام عدد من العلماء المغاربة بالهجرة إلى الخارج، وكان منهم المقري الحفيد هذا.

وهنا وجدناه بالمشرق يزور الحرمين الشريفين مكة والمدينة في موسم ١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م.

وهكذا شمرت ـ يقول المقري الحفيد ـ عن ساعد العزم بعد المقام بمصر مدة قليلة، إلى المهم الأعظم والمقصد الأكبر [1] الذي هو سر المطالب الجليلة، وهو رؤية الحرمين الشريفين والعلمين المنيفين زادهما الله تنويهاً، وبلغ النفوس ببركة من شرفا به مآرب لم تزل تنويهاً ... إلى أن بلغت جدة ... فحين حصل القرب، واكتحلت العين بإثمد تلك التربة ترنمت بقول من قال محرضاً على الوخد والإرقال:

بدا لك الحق فاقطع ظهر بيداء
واهجر مقالة أحباب وأعداء
واقصد على عزمة أرض الحجاز تجد
بعداً عن السخط في نزل الأوداء
وقل إذا نلت من أم القرى أرباً
وهو الوصول بإسرار وإبداء

---

(١) المقَّري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ج١، ص٣٩.

يا مكة الله قد مكنت لي حرماً
مؤمناً لست أشكو فيه من داء
فمذ رأى النازح المسكين مسكنه
في قطرك الرحب لم ينكت بأرزاء
شوق الفؤاد إلى مغناك متصل
شوق الرياض إلى طل وأنداء

ثم أنشدت، عندما بدت أعلام البيت الحرام، قول بعض من غلب عليه الشوق والغرام، وقد بلغ من أمانيه الموجبة بشائره وتهانيه المرام:

وافى الحجيج إلى البيت العتيق وقد
سجا الدجى فرأوا نوراً به بزغا
عجوا عجيجاً وقالوا: الله أكبر ما
للجو مؤتلقاً بالنور قد صبغا
قال الدليل: ألا هاتوا بشارتكم
فمن نوى كعبة الرحمن قد بلغا
نادوا على العيس بالأشواق وانتخبوا
وحن كل فؤاد نحوها وصغا
وكل من ذم فعلاً نال محمدة
في مكة ومحا ما قد جنى وبغى

ولما وقع بصري على البيت الشريف كدت أغيب عن الوجود، واستشعرت قول العارف بالله الشبلي[1] لما وفد إلى حضرة الجود:

قلت للقلب إذ تراءى لعيني
رسم دار لهم فهاج اشتياقي

(١) الشبلي: أبو بكر دلف بن حجر بن جحدر صاحب الجنيد (٣٣٤)، ناسك عمل للعباسيين ثم تزهد وسلك طريق المتصوفة (انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢: ٣٩، وحلية الأولياء ١٠: ٣٦٦). وقد أورد في تاج المفرق (٩٣ظ) ثلاثة من أبيات الشبلي دون نسبة.

هذه دارهم وأنت محب
ما احتباس الدموع في الآماق
والمغاني للصب فيها معانٍ
فهي تدعى مصارع العشاق
حل عقد الدموع واحلل رباها
واهجر الصبر وارع حق الفراق

ثم أكملت العمرة، ودعوت الله أن أكون ممن عمر بطاعة ربه عمره، وذلك أوائل ذي القعدة من عام ثمانية وعشرين وألف من الهجرة السنية، وأقمت هناك منتظراً وقت الحج الشريف، ومتفيئاً ذلك الظل الوريف، ومقتطفاً ثمار القرب الجنية، إلى أن جاء الأوان، فأحرمت بالحج من غير توان، وحين حللت مما به أحرمت، نويت الإقامة هنالك وأبرمت، فحال من دون ذلك حائل، وكنت حريًّا بأن أنشد قول القائل:

هذي أباطح مكة حولي وما
جمعت مشاعرها من الحرمات
أدعو لي لبيك تلبية امرئ
يرجو الخلاص بها من الأزمات
نلت المنى بمنى لأني لم أخف
بالخيف من ذنب أحال سماتي
وعرفت في عرفات أني ناشق
للعفو عرفاً عاطر النسمات

وأن أتمثل في المطاف، إذ حفتني الألطاف، بقول من ربعه بالتقوى مشيد، البغدادي الشهير بابن رشيد:

على ربعهم لله بيت مبارك
إليه قلوب الناس تهوي وتهواه
يطوف به الجاني فيغفر ذنبه
ويسقط عنه جرمه وخطاياه

وكم لذة أو فرحة لطوافه
فلله ما أحلى الطواف وأهناه

ثم قصدنا بعد قضاء تلك الأوطار، لطيبة الشريفة التي لها الفضل على الأقطار، واستشعرت قول من أنشد وطير عزمه عن أوكاره قد طار:

حمدت مرادي إذ بلغت مرادي
بأم القرى مستمسكاً بعمادي
ومذ رويت من ماء زمزم غلتي
فلست بمحتاج لماء ثماد

فلله سبحانه الحمد على نعمه التي جلت، ومننه التي نزلت بها النفوس مواطن التشريف وحلت:

من يهده الرحمن خير هداية
يحلل بمكة كي يتاح المقصدا
وإذا قضى من حجه الفرض انثنى
يشفي برؤية طيبة داء الصدى

وكان حظي في هذا الحال تذكر قول بعض الوشاحين من الأندلسيين الذي كان لهم ارتحال إلى تلك المعاهد والمشاهد الزاهرة التي تشد إليها الرحال، وهنا أتى المقّري بموشحة طويلة الذيل أتبعها بقول أبي جعفر الرعيني الغرناطي:

يا راحلاً يبغي زيارة طيبة
نلت المنى بزيارة الأخيار
حي العقيق إذا وصلت وصفْ لنا
وادي منى يا طيب الأخبار
وإذا وقفت لدى المعرّف داعياً
زال العنا وظفرت بالأوطار

وأتبع هذا بقول بعض من حيده بمحاسن طيبة حال ... وتلت هذا قطعة شعرية طالما رددها الزوار:

قل لعينيك تهملان سروراً
طالما أسعداك يوم الفراق!!
هذه دارهم وأنت محبّ
ما بقاء الدموع في الآماق!

وجاءت بعد هذا أبيات اقتبسها الطيبون والطيبات من الحجاج والحاجات:

إذا لم تطب في طيبة عند طيب
به طيبة طابت فأين تطيب؟!
وإن لم يجب في أرضها ربنا الدعا
ففي أي أرض للدعاء يجيب
أيا ساكني أكناف طيبة كلكلم
إلى القلب من أجل الحبيب حبيب!

ويتذكر المقّري هنا كل ما في كنانته عن مدينة الرسول، فيقدم لنا قول عالم الأندلس عبدالملك السلمي المشهور بابن حبيب:

لله در عصابة صاحبتها
نحو المدينة تقطع الفلوات
حتى أتينا القبر قبر محمد
خص الإله محمداً بصلاة

كما يقدم لنا قول كمال الدين ناظر قوص الذي كان بنى قبة على الضريح النبوي:

أنخ، هذه، والحمد لله، يثرب
فبشراك، قد نلت الذي كنت تطلب!

ويكشف عما أفصح به وقد سلم على الرسول ﷺ:

إليك أفرّ من زللي
فرار الخائف الخجل

وكان مزار قبرك بالمدينة منتهى أملي

إلى آخر القصيدة الجميلة التي أردفها بأخرى مخمسة ينسيك أولها آخرها! إلى أن يختم بهذه الأبيات التي يقول في آخرها:

ليس بالعيش في البلاد انتفاع

أطيب العيش ما يكون بطيبهْ!

ولم تكن هذه الزيارة آخر عهد للمقّري بالحرمين مكة والمدينة؛ فقد عاد إلى مكة عام تسعة وعشرين وألف خمس مرات: وحصلت لي بالمجاورة فيها المسرات، وأمليت فيها على قصد التبرك دروساً عديدة، والله يجعل أيام العمرة بالعودة إليها مديدة، ووفدت على طيبة العظيمة سيما مناهجها السديدة سبع مرار، وأطفأت بالعود إليها ما بالإكبار الحرار، واستضاءت تلك الأنوار وألفت بحضرته ﷺ ما منَّ الله به عليَّ في ذلك الجوار ... وكان عودي من الحجة الخامسة بصفر سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة.

القيسي (ابن مليح) ١٠٤٨هـ / ١٦٣٩م

هذه رحلة حجازية تحمل عنواناً طويلاً على هذا النحو (أُنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب) لمؤلفها أبي عبدالله محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج الملقب بابن مليح[1]...

وهي رحلة لها طعم آخر بما احتوته من معلومات مهمة عن تعلق المغاربة بالحرمين الشريفين، ومدى سعيهم من أجل الحصول على رضى تلك البقاع ومن تحتضنهم تلك البقاع... وقد تمت أيام السلطان الوليد بن زيدان بن المنصور أحمد الذهبي ... الوليد الذي بعث بهدية فريدة للحرمين بواسطة القائد جوهر على ما سنرى، وقصدت تلك البقاع عن طريق الصحراء، عبر واحة سيوة إلى مصر. وكما اعتدنا فإننا سنقتصر على ما في الرحلة مما يتصل بوجود ابن مليح في أم القرى ... وكل الصيد في جوف الفراء.

تتحدث الرحلة عن ميقات أهل مصر والمغرب: رابغ، قبيل محطة الجحفة التي يحرم منها الحجاج... وبعد حديث عن فرائض الحج وسننه يتحدث عن المناسك: المنسك الأول: التجرد من المخيط... الثاني: الإحرام. وبعد هذا يخبرنا ابن مليح بأنه دخل إلى مكة (ذو الحجة ١٠٤٢هـ / يونيو ١٦٣٢م) من موقع كَداء، والأصوات ـ كما قال البلوي ـ تصافح المسامع بالتلبية... لقد قطعوا ربا مكة ربوة ربوة... وتبدت لنا ـ يقول ابن مليح ـ الكعبة الغراء في أستارها، وتجلت لنا المليحة بأنوارها، وهي تقول بلسان حالها:

إليَّ إليَّ يا عشاق حسني
فهذا الوقت وقت لا يضاهى
فكأس الوصل لي قد دار صرفاً
وشمس جمالها أبدت سناها

(١) هذه الرحلة حققها وقدم لها وعلق عليها محمد الفاسي (وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي)، سلسلة الرحلات ٥، حجازية ٢، مطبعة فاس ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م. ونظراً لجهلنا تاريخ وفاة ابن مليح فقد أخذنا هذا التاريخ الذي يتأخر عن وفاة الوليد بن زيدان (١٠٤٥هـ / ١٦٣٦م) بنحو سنوات، وكان ابن مليح يترحّم عليه.

فأين يصاب مثل عروس حسنى
وما في الكون معشوق سواها
وقد سعدت عيون قد رأتها
وقد شقيت عيون لا تراها!

فسبحان من شرف الكعبة البيت الحرام بالإجلال والإعظام واصطفاها، وجعل حماها مباحاً رحباً لمن حام حول حماها، وحرماً آمناً لمن دخل إليه ووفى ما عليه حين وافاها، هذا كله والتلبية تتجدد عند كل صعود وهبوط.

ويطوف ابنُ مليح طواف القدوم ابتداء من الحجر الأسعد ... ثم أداء الركعتين خلف مقام إبراهيم ... ثم إلى المسعى بين الصفا والمروة صابرين على اصطلاء الازدحام "والمنهل العذب كثير الزحام" كما قال السابقون، ونشرب من ماء زمزم ما يذهب الأورام، ويريح الآلام ويقوم مقام الطعام.

ويقدم لنا ابن مليح معلوماتٍ عن بناء الكعبة وارتفاعها ناقلاً عن صاحب كتاب «الروض الأنف» ... ثم يتحدث عن أركان البيت الحرام بما عرفناه عند الآخرين ابتداء بالركن الأسود مروراً بالركن العراقي والشامي واليماني ...

وعند الحديث عن مقدار ارتفاع الحجر الأسود عن الأرض يردد العبارة التي أصبحت معهودة عند الجميع: "الطويل يتماطى لتقبيله، والقصير يتطاول له"، وهو كذلك يتحدث عن الشامة البيضاء في الحجر الأسود إلى آخر ما عرفنا في نصوص الرحلات السابقة.

وبعد وقوف عرفة يقضي ابن مليح ليلة الاثنين العاشر من ذي الحجة ١٠٤٢هـ / ٢٨ يونيو ١٦٣٢م) بالمشعر الحرام: المزدلفة، على أن يقصد منى في اليوم الموالي لإتمام الشعائر المطلوبة.

ويحث كسابقيه على أن يحذر الحاج ترك النزول بالمحصب (بين مكة ومنى) والصلاة فيه؛ لأن النبي ﷺ فعل ذلك ... مؤكداً على حقيقة يجب أن يجعلها الحجاج أمام أعينهم، هذه الحقيقة تتجلى في أن أفعال الحج غالبها تعبدي.

وقد قصد ابن مليح مسجد عائشة حتى يقوم بالعمرة ... ويعود إلى مقامه بمكة ليقيم عشرة أيام للأخذ بوسائل السفر ...

ويشير ابن مليح لأحداث داخلية عرفتها المنطقة مذكراً بانشغال الجيش بقتال العدو الباغي الصائل على الحرم الشريف(١).

ولو أن الحديث عن مكة لكننا لا نهمل حدثاً تميزت هذه الرحلة بذكره، ويتعلق الأمر بالهدية الفريدة التي بعث بها العاهل المغربي السلطان بن السلطان بن السلطان الوليد بن زيدان.

لقد كانت الهدية تتكون من حسكتين (شمعدانين) من عسْجد مركبتين على يواقيت من زبرجد، وزن كل واحدة منهما أربعة أرطال من ذهب، إلى حسكتين من فضة خالصة، وزن كل واحدة منهما عشرة أرطال، وصندوقان مملوءان بشمع العنبر، الذي مثله لم يبصر، وعشرة آلاف من الذهب المطبوع...

وكانت الهدية مصحوبة برسالة وقصيدة موجهة إلى صاحب الضريح، وقد جرت عادة الملوك المغاربة على ذلك من قديم، وكأنهم يخاطبون مخلوقاً حيًّا... يعتذرون له عن عدم الحضور بأنفسهم معتذرين بأنهم يقومون على الدفاع عن حوزة الإسلام في بلادهم.

وقد فتح باب الروضة ودخل القائد جوهر حتى وضع جميع ذلك بداخل الروضة، ووضع الرسالة والقصيدة بعد فض ختامها، وقراءتها بمرأى ومسمع من الحاضرين من أهل البدو والحضر، وانتشر بذكر مقصدها ما انتشر ... ودفع المال لحراس الروضة وسدنتها، وفي كل ليلة يركب شمع العنبر في تلك الحسك التي لم يهد مثلها مملوك ولا ملك، وتوقد من المغرب إلى الصباح، ونورها مشرقٌ على الربا والبطاح، ونشرها عابق فائح يستنشده الغادي والرائح ...

ومما نقش في دائرة حسكة الذهب هذان البيتان بخط أخضر من ذهب أصفر في غاية ما يكون من الجمال:

متع لحاظك في محاسن منظري
لترى عجائب مثلها لم يُعهدِ
قمر على غصن الزبرجد جاثم
ينبيك عن حب الوليد لأحمدِ!!

(١) بالعودة إلى تاريخ الحرم نجد أن البلاد كانت تعيش فعلاً ظروفاً صعبة. انظر (منائح الكرم) ج٤، ص ١٤٥.

الحجري الأندلسي ١٠٥١هـ / ١٦٤١م

هذه شخصية أندلسية غريبة: أبو العباس أحمد بن قاسم بن أحمد ابن الفقيه قاسم ابن الشيخ الحجري الأندلسي الشهير بأفوقاي ... ولد في قرية الحجر الأحمر بظاهر غرناطة نحو سنة ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م، نشأ بإشبيلية مسلماً في الباطن، مسيحيًّا في الظاهر... تعلم ما تيسر من القرآن واللغة العربية والشريعة الإسلامية من أفراد أسرته ... كما أتقن الإسبانية والبرتغالية... وعرف الإنجيل والتوراة والديانة المسيحية واليهودية، وإلى جانب هذا كان أفوقاي عارفاً بالتنجيم والفلك والجغرافيا، كتب لنفسه ترجمة مفصلة في كتابه: «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب» الذي لا نملك حالياً نسخة منه... ومن حسن حظنا أن نجد نقولاً عن الكتاب المذكور في مصادر مغربية ... وقد كتب له مختصراً بعنوان «ناصر الدين على القوم الكافرين»(١).

وله كتاب آخر يحمل عنوان: «العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع»، وهو ترجمة لتأليف استراتيجي من عمل الرايس إبراهيم بن محمد بن غانم بن زكرياء الأندلسي(٢) في المدفعية لإبراهيم غانم، ترجمه بعنوان: «كتاب العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع»، ثم نقله عن الإسبانية إلى العربية(٣).

تحدث أفوقاي عن نفسه منذ أن كان في الأندلس إلى أن خرج متنكراً في ربيع سنة ١٠٠٧هـ / ١٥٩٩م على ظهر سفينة تحمل المؤن إلى حامية البريجة، ومن البريجة انتقل

---

(١) نشرت هذا الكتاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء، بتحقيق د. محمد رزوق عام ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٢) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ٨٧، وحسب رحلة حجازية مغربية لمؤلف مجهول (ستأتي) فإن هناك نسخة توجد بدار الكتب المصرية. المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج٢، رقم ٣٦٩.

(3) Clelia Sarnelli Cerqua: Alhag Ari Studio Maghrebin Lll Napoli 1968. P. 43. Juan Penelie Sur Les Moricos Andalous En Tunisie, Tunis 1973 P. 258-263. P. Harvey: The Morisco Who Was Muley Zaidan Interpreter In Miscelanea De Estudios Arabes Y Hevraicas, Granada T Vii, 1959. P. 57-97, Etc.

إلى أزمور القريبة، حيث توجه إلى مراكش عاصمة المغرب على عهد الدولة السعدية آنذاك... وانخرط في سلك الكتاب كمترجم ببلاد السلطان أحمد المنصور الذهبي ثم للسلطان زيدان، ثم ابنيه عبد الملك والوليد، وبحكم وظيفته تمكن أفوقاي من زيارة فرنسا وهولاندا كسفير للسلطان زيدان ... وفي هذه المناسبة تعرف إلى بعض رجال الفكر والعلم، نذكر منهم كوليوس Colius المستشرق الهولاندي المعروف الذي سبق له أن قام بزيارة للمغرب ضمن بعثة دبلوماسية هولاندية(١) ...

ويذكر أن أفوقاي لما زار هولاندا أقام في منزل إيربينيوس Erpenius الذي كانت له مع أفوقاي مناظرات ومكاتبات، وقد كان على نحو كوليوس أستاذاً للغة العربية في جامعة ليدن، وهو الذي أنشأ بداره مطبعة كتاب عربية تطورت فيما بعد لتصبح دار بريل Brill الشهيرة إلى الآن، وفيها طبع كتاب الآجرّومية في قواعد اللغة العربية باللاتينية الذي ألفه إيربينيوس بمساعدة أفوقاي.

والمهم بعد هذا، أن نذكر أن أفوقاي قام سنة ١٠٤٦هـ / ١٦٣٦م برحلة إلى الحجاز لأداء مناسك الحج.

وفي طريق العودة إلى المغرب عرج على مصر؛ حيث اجتمع بعدد من رجالاتها نذكر منهم شيخ المالكية بالأزهر الشريف علي الأجهوري الذي طلب منه أن يسجل مذكراته عن مغامراته ومحاوراته للقسيسين والرهبان، فكان كتابه بعنوان (ناصر الدين) السالف الذكر.

ويحيط الغموض بالمرحلة الأخيرة من حياته ... ولا نعرف عنه إلا أنه أتم ترجمة (كتاب العز والمنافع) بتونس سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م، وإلا أنه نسخ بخطه كتاب (ناصر الدين) بتونس كذلك سنة ١٠٥١هـ / ١٦٤١م.

ثم لا ندري سنة وفاته، ولا المكان الذي أدركته الوفاة فيه... لقد كانت الحالة الداخلية أواخر الدولة السعدية على حال من الاضطراب والفوضى مما كان سبباً في اختفاء عدد من المعالم والرموز(٢).

(١) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المدن بالإمامة على المستضعفين، تحقيق: د. عبد الهادي التازي، طبعة ثالثة، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٩م، ص ٣١-٣٢.

(٢) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٨، ص ١٤، ٧٩، ١٦١، ١٧٦، ١٧٧. محمد حجي: أفوقاي معلمة المغرب، ج٢، ص ٥٦٤-٥٦٧.

أما عن إشارات أفوقاي للحرمين الشريفين في كتابه (ناصر الدين) فإننا لا نجد إلا بعض إفادات، نذكر منها أنه عند الحديث عن معلومة عن الرَّق (بفتح الراء)، ذكر أن النبي ﷺ، بعد افتتاح مكة المشرفة وهي قبلة المسلمين، خرج منها ولم يعد إليها إلا في حجة الوداع... كما نذكر - وهذا مهم - أنه يحكي عن كتب ضاعت له في طريق الحج في شوال سنة ١٠٤٦هـ.

كما نذكر منها أنه عند حديثه عن قبر نبي الإسلام عليه السلام قال: إنه - أي القبر - في المدينة التي تبعد عن مكة عشرة أيام.

ونذكر منها تزييفه للمقولة التي تدعي أن قبر النبي عليه السلام يوجد داخل الكعبة البيت العتيق.

وأخيراً يحكي أن رجلاً أندلسيًّا بمكة المكرمة ذكر له أنه خدم سلطانيين مسلمين هناك(١).

(١) ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق محمد رزوق، ص ٣٠، ٥٦، ٧٩، ٩٧. محمد حجي: أفوقاي معلمة المغرب، مادة (أفوقاي). محمد الفاسي: الرحالة المغاربة وآثارهم، مجلة دعوة الحق، عدد ديسمبر ١٩٥٨م.

العياشي ١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م

هذا أبو سالم عبدالله بن محمد بن أبي بكر العياشي المتوفى سنة ١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م، وهو من أعيان علماء المغرب من الذين تركوا لهم بصمات بارزة في التاريخ المغربي، وقد حج ثلاث مرات، أعوام ١٠٥٩هـ - ١٠٦٤هـ -١٠٧٢هـ. وعن الحجة الثالثة ألّف رحلته، وقصد أن تكون - إلى جانبها الموضوعي - ديوان علم، وبذلك طالت حتى استوعبت سفرين ... وتعرف بالرحلة الكبرى، وتحمل عنواناً هو «ماء الموائد»، وله رحلة تعرف بالرحلة الصغرى، وربما حملت عنوان: «التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الظروف إليه في طريق الحجاز» ...

وهذه الرحلة المغربية كتبها لتلميذه أحمد بن سعيد المجيلدي وهو في بدء طريقه للحج سنة ١٠٦٨هـ / ١٦٥٨م، حيث زوده بإرشاد عن الأمتعة التي يصحبها معه، وعن طريق الحج ومنازله وعرّفه بمراكز المياه الصالحة، وبالمشتريات النافعة مع الأعلام الذين يأخذ عنهم والمزارات التي يقصدها ... وقد ترجمها إلى اللغة الفرنسية الأستاذ محمد الأخضر.

ولهذه الرحلة مخطوطات بالخزانة العامة بالرباط: الأولى تحت رقم ٤٣ /ك، والثانية رقم د ٢٧٩٣، والثالثة رقم د ٢٨٣٩، وهناك نسخة رابعة بمكتبة مؤسسة علال الفاسي تحت رقم ٤٦٧ ع ١٨٢[(١)].

أما الرحلة الكبرى فهي منشورة بالمطبعة بفاس سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٨-٩٩م، وقد أعادت نشرها في الرباط بالأوفسيت سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر.

---

(١) المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج١، ص١٨٧، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م، رقم ٤٨٨ - ٤٨٩.
عبدالرحمن بن العربي الحريشي، الفهرس الموجز بمخطوطات مؤسسة علال الفاسي، ج١، ص٢٦٩.
د. أحمد العراقي: الأدب المغربي من خلال تواصلاته، الإيداع القانوني ٢٧٩ / ٢٠٠١، ص٩٩.

وقد اجتذبت الرحلة العياشية اهتمام الأستاذ الفرنسي باربْرُوجِير BARBRUGGER فترجم قسماً منها إلى الفرنسية نشر في مجلة جزائرية...

وتعد رحلة العياشي "ماء الموائد" من أهم الرحلات المغربية وأكثرها انتشاراً؛ لأنها أكثر مادة وتنوعاً، وقد طفق الرحالون من اللاحقين ينقلون عنها من دون أن يرجعوا إلى مصادر أخرى أحياناً. ومن هنا نرى أن الاهتمام بها يعدّ اهتماماً بجلّ الرحلات التي تلتها... لقد فضل أبو سالم عبدالله العياشي أن يقصد مكة أولاً قبل المدينة، ثم يقوم بزيارة المدينة ليجاور فيها قبل أن يعود إلى مكة مرةً ثانية، وبهذا كان له من الوقت ما يكفي ليستوعب الموضوع..

وقد عرفنا من خلال الرحلات الماضية أن المغاربة عموماً لا يتصورون أن يقوموا بفريضة الحج دون أن يفكروا في زيارة قبر الرسول، يعدّون ذلك داخلاً في واجبهم، وعلى نحو ما يقولون: "حجة وزيارة"، بمعنى أن الحجة كاملة ...

ولنبق مع العياشي بهذه المناسبة، في مكة عند الزيارة التي قام بها في ذي الحجة من سنة ١٠٧٢هـ (يوليو عام ١٦٦٢م). لقد وصل مكة آتياً من ينبع عشية يوم السبت خامس يوم من الشهر المذكور، أول يوم من السمائم (١٢ يوليو الفلاحي / ٢٥ يوليو)، وكان العياشي يشتكي من شدة الحر ... عند الطواف في النهار!

ويسجل العياشي أن الركب المصري دخل مكة قبله في اليوم الرابع، والركب الشامي في اليوم السادس ... ملاحظاً أن أهل هذا الركب عانوا من قطاع الطرق "الحرامية" شدة، حتى أشرفوا على الهلاك! ودفعوا للأعراب مالاً كثيراً نحو مئة الف بعدما انتهب من ركبهم كثير وقتل أناس ... وقد وصل بعد هذا الركبُ العراقي في اليوم الثامن ...

لقد اضطر أصحاب العياشي إلى النزول وسط المقبرة بالحُجون... لم يجدوا مكاناً غير ذلك، والأركب قد ملأت خيامُهم السهل والوعر... قبل أن يكتروا منزلاً بقرب باب إبراهيم من صاحبه الشيخ محمد الغدامسي باثني عشر ريالاً تاركين الخباء والربل بالحجون.

وأتى إلى المسجد وقد حان الغروب، وكادت تطير من الفرح القلوب، فدخلنا فرحين مستبشرين من باب السلام، وشاهدنا البيت العتيق الذي تزيح أنواره كل ظلام، وقد

تدلت أستاره وأشرقت أنواره، وقد شمَّر البرقع عن أسافله، حتى لا يكاد الطائف يناله بأنامله، يفعلون ذلك به في أول ما تقدم الوفود، ولا يطلقون الأستار حتى تعود ... وهنا جادت قريحة العياشي بأبيات في المعنى ظلت بدورها مرجعاً لمعظم الكتاب من الحجاج:

فكأنه لما بدا متشمّراً
والزائرين به جميعاً أحدقوا
ملك همام ناهضٌ للقاء من
قد زاره ولهم إليه تشوّق
فتبادر الغلمان رفع ذيوله
حتى إذا رجعوا جميعاً أطلقوا

ولما وقعت عليه أبصارنا، وافتضح ما أكنَّته من الشوق إليه أسرارنا، اقشعرت جلودنا من هيبته، وذهلت العقول من عظمته، فلم نزد على أن بسملْنا وسلمنا وهللنا ...

إلى أن يقبّل العياشي الحجر الأسود، ولم يبال بما ناله من الازدحام «والمورد العذب كثير الزحام»، ويطوف ويقف بالملتزم ويشرب من ماء زمزم ... وخرج لقضاء شعيرة السعي من باب الصفا ... ثم أتى المروة في زحام كثير في السعي؛ لأن المسعى من أسواق البلد العظيمة فيتضرَّر الساعي بذلك كثيراً...!

وهكذا يرفع العياشي عقيرته بالشكوى من وجود هذا السوق في المسعى، قائلاً: «ولو قيضَ الله الأمراء لمنع الناس من التسوق فيه أيام الموسم لكان في ذلك نفع كثير»، وسنلاحظ أن هذه الشكوى ظلت حديث الحجاج !!

وقد لقي العياشي في مكة المكرمة شيخه العلامة أبا مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري المغربي المجاور الذي خصص له من رحلته حيزاً كبيراً كان يستحقه، ولم ينفك ذاكراً له مشيداً به، ويذكر العياشي أنه من وطن الثعالبة، من عمالة الجزائر بإفريقية، وهم ينتسبون إلى الإمام جعفر بن أبي طالب...

وعلى ذكر شيخه أبي مهدي عيسى نجد من المفيد أن نذكر هنا اسماً لامعاً وجسراً

مهمًّا من الجسور التي ربطت بين المغرب والحجاز ممن حظي من العياشي كذلك بترجمة واسعة له عريضة، على الرغم من أنه «كان على طرفي نقيض» من شيخه أبي مهدي. إنه الشيخ ابن سليمان الروداني الآتي الذكر ... كلاهما صالح الحال ديانةً ووفور علم !!

لقد أجمل العياشي الحديث عنه في ثلاثة أسطر شرحها فيما بعد متوقعاً المصير الذي كان ينتظر العلامة الروداني، قال العياشي:

ربما عاب كلّ منهما على الآخر ترك ما عاب عليه فعله، وقد قلتُ للروداني ذات يوم: إن سيدي عيسى يقول: ما أحسن فلاناً لو أنه كف عن غرْبه (جدته) شيئاً وألان جانبه للخلق، فقال لي: وأنا أقول ما أحسنه وأعلمه لو انقبض عنهم شيئاً وترك مداهنتهم في الحق ...!

ويتطوع العياشي بشرح هذه الجمل والأصداء تصله بالمصير المحزن الذي كان ينتظر العلامة الكبير الروداني(1) ...

ولا بد أن يعود العياشي إلى الاهتمام ببعض العفش الذي تركه في الحُجُون، ليذكر أنه على الرغم من أنهم تركوا معه بعض الأصحاب لحراسته فإنه يتعرض لهجوم السراق بالليل!! إن هؤلاء السراق يعظم أذاهم في أيام الموسم لقلة الحكم بتهاون الحكام وإرخاء العنان للسراق في ذلك، وقد قيل: إنهم أي الحكام يأخذون من السراق جُعلاً على ذلك في أيام الموسم! فإذا أتى إليهم سارق أدخلوه الحبس على أعين الناس فإذا جن الليل أخرجوه!!! وأما في غير الموسم فإن الحكم في تلك البلاد تام، ولا يوجد مثله في بلد من البلاد، وقد علمنا أن العياشي أمسى من المجاورين.

والحكام يعتلون في أيام الموسم باختلاط الناس من جميع الآفاق، وتعدّد الحكام والرؤساء؛ إذ لكل ركْب حاكم! ويقولون: لو أطلقنا اليد للحكومة على كل سارق ربما وقعنا في بعض خدام أمراء الأركاب، فيؤدي ذلك إلى الهرج أيام الموسم.

(1) كان مما رواه العياشي مما بلغه الروداني من الورع أنه - أي الروداني - ترك أكل ثمار المدينة بالجملة، وذلك لفساد معاملة ملاك الحوائط للعمال، فإن رب الحائط يعامل المساقي على أوسق معلومة في كل سنة يدفعها له، وهذا فاشٍ عندهم، وقل من يعامل المساقي بالجزء المشاع السائغ شرعاً. العياشي ٢، ص٣٨. أحمد بناصر ٩٠.

ويعلق العياشي على هذه الحجج بأنها ضعيفة، وأنها لا تبرر انعدام الأمن في أقدس مكان نعته القرآن بأنه مثابة الخائفين ومأمن القاصدين . . .

وفي اليوم الثامن رحلوا إلى منى حيث نزلوا على مقربةٍ من مسجد الخيف في سفح جبل ثبير، وهناك قضوا ليلهم على ما هو. ويتأكد يوماً عن يوم أن العياشي فقيه متضلع، وأنه مالكيّ ملتزم، لذلك فإنه يعلق على كل النوازل الفقهية التي تمر من حواليه، ولا يترك شاذة ولا فاذة إلا أعطى فيها رأيه دون ملل بروح علمية موضوعية أمينة. . .

ومن الطريف أن نجده يستأنس بابن رُشَيد والعبدري ومن بعدهما. . . ويتجلى من خلال هذا أن العياشي كان يعتمد على بعضِ الرحالين الذين سبقوه لزيارة تلك البقاع.

وارتحل إلى عرفات يوم الأربعاء حيث وقفوا على إبلهم في يوم شديد الحرارة (٢٦ يوليو ١٦٦٢م) انتهى بنزول أمطارٍ كسرت سَوْرَة الحرّ . . . وأعقبها نسيم بارد، لكن العياشي يؤكد أنه لم يسمع حرفاً واحداً من خطبة الإمام على نحو ما سنقرؤه في بعض الرحلات اللاحقة، وهو الأمر الذي يجعلنا نحمد الله اليوم على ظهور المكبرات والشاشات!!

ويتحرك العياشي من هذا الموضع إلى ذاك من عرفات رجاء بركة الواقفين، واستمر على ذلك حتى غابت الشمس ونفر في أخريات الناس. . . ومرةً أخرى يحكي أنه لما غاب القمر، وهو بالمزدلفة، أخذ السراق يرمونه بالأحجار من الجبل القريب منهم. . . لكن الله كفاهم شرور هؤلاء اللصوص. . . ثم إلى مكة حيث يقوم بالمناسك إلى أن يهيّئ الله لهم من يحلق لهم بطريقة شرعية. وهنا يلاحظ أن الحلاقين يكثر عليهم الزحام، فلا يستوعبون الرأس بالحلق ولا يحسنونه. . . إنهم ـ طلباً للتفرغ للآخرين، واستكثاراً في الأجرة ـ لا يكملون عملهم. . . وكانت هذه ملاحظة من سيأتي بعد العياشي!

وقد تمكنوا من دخول البيت الحرام قبل أن يغلق، إنهم يفتحونه هذا اليوم لتعليق الكسوة الجديدة، ولا ينصب سلّم للدخول، وإنما يدخل من تكلف للصعود بمعين أو بخفة أعضاء، على نحو ما سيقوله الآخرون بعد العياشي. وكانت فرصة له ليصف داخل البيت الحرام بما اعتدنا أن نقرأه في المؤلفات الجارية . . . وقد أورد رسماً للبيت في الرحلة مما يؤكد الحس العلمي عند العياشي.

ويقول العياشي: إن إمعان النظر في داخل البيت الحرام يعتبر من قلة الأدب. وهو ما قاله بعض من قبله ويردده بعض من بعده . . .

وبعد العودة إلى منى والمبيت بها . . . يخبرنا بأنه من الغد عمرت الأسواق، وكثرت الأنفاق، وتزاحم الناس على الشراء رجاء بركة ذلك المكان . . .

وبعد الفراغ من الرمي زار منزل أبناء شيخه تاج الدين، فصادف عندهم شيخه أبا مهدي عيسى الثعالبي السالف الذكر، حيث مكث عندهم برهة من الزمان حتى حضر الطعام.

ولأهل مكة، وخصوصاً الأكابر من أهل الوظائف كالعلماء والأمراء والتجار، منازل في منى ينزلونها أيام الموسم . . . قال: منزل شيخنا تاج الدين المالكي هنا من أحسن المنازل . . . وبينما نحن جالسون في مصطبته إذ مرّ أمير مكة الشريف زيد في موكبه، وله شارة حسنة، ومعه طائفة من الأشراف والجند، كان ذاهباً لرمي الجمار، قد ظلل رأسه بمظلة كبيرة من حرير وكانها قبة خباء، يحملها فارس بجانبه ويساره وهو في ظلها، والناس يحيونه عن اليمين والشمال، فالعوام يقولون في تحيتهم: نصرك الله يا زيد! والخواص يقولون: السلام عليكم، وهو يرد على كل من حيّاه من وضيع وشريف، ولا يهمل أحداً، ويشير برأسه إلى كل من حيّاه؛ وذلك لشدة تواضعه . . . ويصفه بانه رجل أسمر اللون، أبيض اللحية، سمح الوجه . . . أثنى عليه شيخنا أبو مهدي . . . وهو من أحسن أمراء عصره سياسة وحسن تدبير، ولم تزل الإمارة في أسلافه منذ أعصار متطاولة، وأسلافه هم المشهورون بآل أبي نُمَيّ، وهو بطن في أبي حسن، وإخوانهم بنو حسين لهم إمرة المدينة. وولاية الحجاز الآن بأطرافه، من أطراف اليمن إلى أقصى نجد مما يلي البصرة، ثم إلى خيبر مما يلي ناحية الشام، ثم إلى ينبع، كلها للأمير زيد بن محسن وأسلافه، وليس لبني حسين في ولاية المدينة في هذا الزمان إلا الاسم فقط، وبعض تصرف من تحت يد الأمير زيد، وكان هذا الأمير فيما مضى على معتقد أهل بيته، كاعتقاد الزيدية(١)، ثم رجع إلى معتقد أهل السنة، وتمذهب بمذهب الإمام أبي حنيفة.

---

(١) أحمد السباعي: تاريخ مكة، طبعة سابعة، ورقم الإيداع ١٣٣٩/ ١٤، ص ٣٧٢. مع شكري للأستاذة هالة صالح التوني التي أهدت إليّ هذا التاليف.

لقد أسهب العياشي في تقديم الأمير زيد بن محسن إلى قراء رحلته، ولا سيما أهل المغرب، وهذا ما يؤكد نظريتنا المتلخصة في أن كتابه «تاريخ الحجاز» لا سبيل إليه إلا بالعودة إلى المصادر المغربية[1] ... وعلى الخصوص الرحلات، وها نحن مع الأمير زيد أحد أفراد أسرة أبي نُمي الذي قضى في ولاية مكة أكثر من ثلاثين سنة، ويروي عنه أخباراً غريبة وطريفة لم نقرأها في مصدرٍ من المصادر الأخرى ...

ولم يفت العياشي أن يتحدث بدوره وهو في منى عن تنافس أهل الشام ومصر في إيقاد المصابيح واتّخاذ الخيام ...والإكثار من الرمي بالمدافع والبنادق والمحارق المرتفعة في الجو ... وكان السلطان زيد يشاركهم على نحْو ما يفعلون.

لقد قضى العياشي وصحبه ليلة من أرغد عيش بارد، وأصفى سرور وارد، لولا تشويش السرّاق علينا برمي الأحجار بعد القمر! إلا أن ذلك إلى جانب ما حصل له من النعيم ليس بضرر على حد قوله ... إن ليالي منى غرر في أوجه الزمان، ومواسم فرح وسرور لأهل الإيمان ... وقد تحركت شاعرية العياشي بنظم لامية في منى:

كل المنى بمنى إذا
ما جئتها تكفي النقم
أكرم به من منزل
فإليه تجتمع الأمم
فيه تشابهت السما
والأرض في داجي الظلم
هذا بأنجمه أضا
وذاك بالسمع اضطرم
حيث القباب البيض تلـ
مع مثل نار على علم !!!

وأخذ الناس في الرحيل ما بين متعجلٍ ومتأخر ...وقد أثنى على صديقه القديم أمير

---

(١) عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

الركب المغربي محمد بن محمد الحفيان الذي كان يلبي الحاجات والرغبات إلى صاحب الفقيه القاضي أحمد الخطيب المراكشي...

وهنا لقي الشيخ سليمان بن الشيخ عبد العزيز الحبشي من مدينة الأحساء، وعقد معه عقد أخوةٍ في الله ... ويقوم العياشي بوصف مسجد الخيف وصحنه وتجديده ومنقوشاته.

وكفقيه عالم، على ما أسلفنا، فإنه لا يفتأ معلقاً، وهكذا نراه يعقب على ما روي عن الشيعة بأن نهر الجنة خاص بهم! يعقب أن النهر لهم ولغيرهم من المسلمين!! ويفتخر العياشي بأنه نزل المحصب وصلى فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وانتقد الحجاج الذين لا يعرفون هذا الموقع القريب من مكة، والذي كان مستراحاً لرسول الله ﷺ.

ونزل بالشبيكة ليلة الاثنين ١٤ من ذي الحجة؛ حيث كان ينزل الركب المغربي، إلى أن دخل مكة حيث قام بأداء العمرة، وأحرم لها هذه المرة من التنعيم لتعذر الجعرانة من شدة الحر (٣١ يوليو ١٦٦٢م).

وقد اجتمع العياشي يوم الأربعاء بالشيخ جمال الدين الهندي، بالمدرسة الداودية، جمعه به شيخه وصاحبه الشيخ علي باحاج اليمني بعدما كان سأله العياشي عمَّن هو اليوم في الحرمين أفضل في هذه الطائفة النقشبندية ... دلّني عليه وعلى رجل آخر من أصحاب الشيخ تاج الدين، إلا أن الشيخ جمال الدين أكثر منه عبادة وزهداً « لا مال ولا أهل ». ويخبرنا العياشي أنه أخذ عن الشيخ جمال الدين طريق السادة النقشبنديين ظهْرَ يوم الأربعاء المذكور، واعداً القراء بأنه قد يستحدث عن هذه الطريقة الغريبة في المغرب الأقصى. وكان من بين ما سجله العياشي مما أثار فضول الأطباء أنه أصابته الحمى بمكة المكرمة في هذه الأيام الشديدة الحر والهواء المختنق، وأشد ما يكون الحر بالحجاز في برج السنبلة والميزان (٢٤ أغسطس)، أصابته الحمى فاحتجم، فعافاه الله منها...

ويفي العياشي بوعده فيذكر أنه تلقى الذكر على طريق السادة النقشبندية وألبس الخرق الثمانية ... لقد كان العياشي يستعد للاعتكاف والمجاورة ...

وهكذا نسجل للتاريخ وجود الطريقة النقشبندية في المغرب عن طريق الرحالة العياشي الذي ربطها بالطريقة الشاذلية ... حيث يستفيض هنا حديثه حول هذا الموضوع الذي يسلمه إلى موضوعات أخرى...

ويعود العياشي مرة أخرى ليعتذر عن عدم استيعاب الأماكن الفاضلة التي تزار بمكة، لشدة الحر ... واعداً أنه سيذكرها عند قيامه بالمجاورة ... ومع هذا فإنه يعطي رأيه حول الدار التي يقال: إن النبي ﷺ ولد فيها، والتي اتخذت مزاراً يجتمع إليها الوفود ... وكذا عن مكان مولد فاطمة في دار خديجة ... مختتماً كلامه بما علم من اختلاف الأئمة، في القديم والحديث، حول مثل هذه الآثار والمشاهد التي لم يرد بها خبر صحيح بمكة والمدينة والقدس، مردداً أيضاً ما ورد عن عبدالله بن عمر أنه ارتحل إلى المسجد الأقصى، فلما دخله لم يزد على أن صلى ركعتين ودعا ورجع من يومه، ولم يقف إلى الصخرة ولا إلى غيرها من الآثار والمشاهد مع كثرتها، فلم يتضح من الحديث إلا إتيانه للصلاة به. وهكذا نجد العياشي مرة أخرى لا يستسلم للمرويات ما لم يكن لها سندٌ في المصادر الموثوقة ...

لقد أخذ الحجاج المغاربة في الرحيل من مكة المكرمة يوم الأحد ٢٠ من ذي الحجة، ويسجل العياشي أن أخاه عبدالرحمن تعب في الطريق من شدّة الحرّ (خامس أغسطس)، وكان أخوه هذا هو السبب في قرار العياشي بأن يبقى هناك للمجاورة ...

ويعود أبو سالم العياشي بعد المجاورة في المدينة إلى مكة في شهر الصيام، وهكذا خرج من المدينة ضحى يوم الثلاثاء، وهنا أخذ مرة أخرى ينوه بمكة وما تشتمل عليه من مشاهدة البيت والطواف به وأداء المناسك من حج وعمرة وغير ذلك ... وأن الأعمال تضاعف بحرم مكة زيادة على حرم المدينة...

لقد ودعه الأحباب حتى ذي الحُلَيفة ... وهاله ركوب الشقدف الذي كان وهبه إياه شيخ الأغوات بالمدينة المنورة؛ لأنه لم يكن يعهد هذا النوع من المركوب ..! محمل كبير ما رأيته! - يقول العياشي - إلا في أرض الحجاز، ذو شقين، يوضع كلّ واحد على جنب البعير، ويقرن بينهما بحبالٍ وثيقةٍ على ظهر البعير، ولا بد للراكب في الشقّ من

معادل له في الجهة الأخرى مقارناً له في الوزن، ثم يوصل بين الشقين من أعلى بحبال يظلل عليها بغطاء يقي من الحر والبرد، وهو من أشهى المراكب وأهناها، لا سيما لمن له فرش وثيرة ووسادة يتكئ عليها من الجانبين، فإنه لا يكاد يحس بأن الإبل تسير به، وقد رأينا مَن اعتاد الركوب فيه ينام من أول الليل إلى آخره، ولا يستيقظ إلا بإناخة الجمل عند النزول وقد لا يستيقظ!

كان يعادله في الشقدف أخوه عبدالرحمن، ويشرف على المسير مكاري كما هو معلوم ... إن ظاهرة الهوادج والشقادف ووسائل النقل في الحجاز تحتاج وحدها إلى تدوين ...

ويلاحظ العياشي ـ كما أسلفنا ـ أن ما يكون معتاداً أيام الموسم من السرقة والنهب والحرابة يختفي في غير الموسم الذي يجتمع فيه الناس والأوباش من كل مكان!!

لقد دخل مكة المكرمة هذه المرة ليلة الأحد ٢٩ من شعبان (٨ أبريل)، ولقد أناخوا في سوق باب إبراهيم أمام رباط الموفق المعد للمغاربة، وهنا بادر إلى دخول المسجد والطواف والسعي بين المروتين ...

ومن المهم أن نأتي هنا على وصف لشاهد عيان للسيل العظيم الذي أتى على مكة المكرمة في ذلك التاريخ ...

ويتعلق الأمر بما أخبر به العياشي مما جرى في شعبان سنة ١٠٧٣هـ (مارس عام ١٦٦٣م)، ونفضل أن نأتي بالنص الكامل لأبي سالم العياشي؛ وذلك لكون المصادر المشرقية لم تستوفِ الحديث عن الموضوع كما يجب الاستيفاء[١].

«لقد خرّب السيل غالب أسواق مكة ـ يقول العياشي ـ وهدّ دوراً كثيرةً، وأتلف أموالاً عظيمة، ومات فيه أناس، وهدم دور بعض أرباب الدولة على ما قالوا، ودخل المسجد الحرام، وكان أكثر دخوله من باب الصفا والأبواب الموالية له التي تلي دار الإمارة، وذلك أن السيل المنحدر من أعلى مكة لما قابل دار الإمارة لقيه سيل آخر مثله في العظمة

---

(١) السنجاري: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، دراسة وتحقيق الدكتورة ماجدة فيصل زكرياء، ج٤، ص٢٢٧، جامعة أم القرى ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م. وقد حدد السنجاري يوم السبت ٧ شعبان تاريخاً للحدث. الرحلة العياشية ج١، ص٩٥.

نازل من الوادي الذي وراء جبل الحَزْوَرَة، وخرج قريباً من دار الإمارة، فالتقى السيلان هنالك، وتصادفا وحصر كل منهما الآخر! فانكفأ الماء راجعاً، وقد غفل الناس عن إغلاق الأبواب فدخل المسجد حتى امتلأ المسجد كله، وارتفع الماء فيه إلى أن ذهب بقناديل المطاف كلها! وما في المسجد من دواريق وبُسُط، وارتفع على قبة المقام، وعلى سطح زمزم الأدنى، وارتفع في البيت سبعة عشر شبراً على ما قال لي من شبَّر ذلك، وبلغ حلق الباب، وملأ كل البيت وخزانة في المسجد، وكان ذلك كله على ما زعموا ساعة زمنية أو أقل!

وأخبرني صاحبنا الحاج أحمد العجين الطرابلسي - وهو عندي ثقة - أنه كان في المقام بعد صلاة الظهر وأخذ المصحف يقرأ، فقرأ عشرة أحزاب بعد صلاة الظهر، فتكلَّم الرعد، وأنزلت السماء عَزَالِيَهَا ... وانهمر المطر كأفواه القرب، فما جاء وقت العصر حتى امتلأ المسجد ماءً ولا قلع المطر، ولم يقدر أحد على الوصول إلى البيت بقية ذلك اليوم والليل كله وفي الغد إلى الضحى، ولم يهتد أحد من الناس لموضع البلاليع التي في المسجد المعدة لخروج الماء، حتى جاء السلطان زيد بنفسه ودلَّهم على أماكنها. فغاص الناس إلى مجالها حتى فتحوها وخار الماء ونقص. وطاف بعض الناس بالبيت عوماً ممن يحسن السباحة! وكان ذلك أمراً مهولاً لم يعهد الناس مثله منذ أزمان(1).

وقد أخبرني من شاهد السيل الذي وقع سنة تسع وثلاثين وألف (١٠٣٩هـ) أنه لم يبلغ ما بلغ هذا السيل(2)، ولكن الله سلم فيه البيت لوثاقة البنيان وكونه قريب العهد. إلا أنه (أي هذا السيل) زلزل الرخام الذي فرش به البيت من الداخل، وحرّكه حركة باينت بعضه من بعض، فلما غاض الماء بقي المسجد كله ممتلئا تراباً وطيناً، ولم يمكن

---

(١) الرحلة، طبعة حجرية، ج٢، ص٩٥.

(٢) ينبغي أن نعود إلى السنجاري في كتابه (منائح الكرم ..) السالف الذكر، لنقرأ عن أيام الشريف مسعود بن إدريس بن حسن التي حصل فيها ذلك السيل الذي أحدث ارتباكاً كبيراً بين أهل مكة بسبب سقوط بعض أركان الكعبة؛ حيث تولى الشريف مسعود بنفسه أمر العمليات بعد أن رفع الميزاب وجمع ما وجدوا من القناديل الذهبية ... حيث وقع استفتاء العلماء عن عمارة ما وَهِيَ من الكعبة، وألفت التآليف حول الموضوع أيام السلطان مراد خان، وستروا المنهدم من البيت الحرام بالأخشاب والأخصاف، وألبست الكعبة ثوباً من الدولعي الأخضر فوق ذلك الخشب والخصف، وصار الناس يطوفون به على هذه الحالة ... انظر منائح الكرم، ج٤، ص٦٤ وما بعدها.

للناس الصلاة فيه ولا الطواف إلا بمشقة!

وأمر السلطان بإغلاق الحوانيت، واجتمع أهل مكة كلهم واجتهدوا في إخراج ما أمكن من التراب والأحجار والطين، وعمل فيه الناس كافةً حتى السلطان بنفسه وأولاده وأقاربه.

ويخبرنا العياشي أن السلطان الخاقان الأعظم(١) بعث في هذه السنة مئة ألف دينار ذهباً ـ على ما قالوا ـ لتجديد ما يحتاج إلى التجديد من معالم الحرمين، وكان المقدم لذلك نائب جدة، فصرفت جملة من ذلك المال في تنظيف المسجد والمسعى وما احتيج إلى التنظيف من مشارب الماء التي ملأها السيل، وكان يخدم في المسجد كلّ يوم ما يقرب من مائة وخمسين رجلا بالكراء، وأدركنا المسجد ـ يقول العياشي ـ لم ينظف منه إلا المطاف وأماكن قليلة حوله ... حتى نظف المسجد كله، ودام العمل على ذلك إلى انتهاء رمضاء وأكثر شوال، وفعلوا مثل ذلك بما بين المرْوَتين ... وأخذوا بعدذلك في تجديد الصباغات الرائقة والنقوش الرفيعة التي محق السيل أثرها في المقام وقبة زمزم وقباب مقامات الأئمة وغير ذلك على أرفع مما كان، وزيدت في المسجد أشياء عجيبة، وصبغت أعمدة الحديد الدائرة بالمطاف كلّها بصبغ أحمر قانٍ، مصقولة، ووضع على كل عمود هلال مذهب أبلغ تذهيب، وزيدت في مصابيح المسجد والمسعى ثلاثمئة مصباح، إلى آخر المعلومات الدقيقة التي أوردها العياشي والتي تسهم ـ كما هو معلوم ـ في التأريخ لهذا المسجد العظيم.

وقد حرص العياشي على ذكر بعض المعالم التي أتلفها السيل، فذكر منها خزانة الكتب التي كانت بالمسجد وتعود إلى شيخه أبي مهدي عيسى الثعالبي.

وكانت المكتبة تحتوي على نحو ثمانين سفراً، فيها من نفائس الكتب وغرائبها التي لا تكاد توجد في غيرها ... والتي كان منها ما هو ملك شيخه أبي مهدي عيسى السالف الذكر، ومنها ما هو من كُتُب الوقف على ما سيأتي ذكره بعد قليل.

ويلاحظ العياشي أن السيل المذكور بما صحبه من دمار كان من جهة أخرى سبباً في خصبٍ كثير، حيث رخصت الأسعار، وغزرت المياه فوق العادة، حتى زمزم قد زال ما

---

(١) القصد إلى السلطان محمد خان الرابع.

فيها من الطعم وغزر ماؤها وارتفع حتى كاد يتناول باليد! وانكسرت صولة الحرّ في هذه السنة بمكة وبشعابها وبالمسجد وأفنيته لنداوة الأرض.

وبعد هذا ينتقل العياشي إلى الحديث عن اقتراب أيام موسم الحج، فيتحدث عن البيت الذي حصل عليه من لدن صاحبه القديم الشيخ محمد الغدامسي حول باب الصفا، أقام فيه إلى أن خرج من مكة بعد أن كان يقيم في بيوت أخرى يذكر منها بيت الشيخ عبدالرحمن أخي المُلاَّ إبراهيم، وكان برباط السلطان قَايتبَاي المشرف على الصفا، وهو رباط مليح واسع، فيه بيوت كثيرة جيدة جامعة لمرافق السكنى(1)...

ويعقد العياشي بعد هذا فصلاً خاصاً لشهود رمضان بمكة، وما أدراك ما رمضان بمكة(2)! مهملاً ما أورده ابن بطوطة حول الموضوع مما يؤكد أنه لم يقف على تلك الرحلة!

قال: ولما دخل رمضان شمَّر الناس عن ساق الجد والاجتهاد في العبادة، ونصبت الأسواق طوال الليل ـ كما هو شأن أهل المشرق في ليالي رمضان ـ فلا تكاد ترى بالمسجد ليلاً إلا طائفاً أو تالياً أو مصلياً، وأخذ الناس من أهل مكة والمجاورين(3) في الاعتمار لا سيما ليلة الجمعة، فلا تكاد الطريق تنقطع طوال الليل من التنعيم إلى مكة ركباناً ومشاةً، رجالاً ونساءً وصبياناً، وعبيداً وإماءً ....

واجتهد أهل الثروة من أهل مكة فكان لكل واحد منهم مصباح كبير بين يديه، وخصفة (لَبْدة) يجلس عليها كل ليلة، ويأتي بنفر يقرؤون عنده من القرآن أجزاء على المناوبة إلى أن تذهب حصة من الليل ... ويسقيهم من الأشربة اللذيذة ... ويطيبهم ... فإذا كانت ليلة الختم احتفل بها أكثر ... حتى تكون ليلة العيد فيعطي كل واحد

(1) يبدو لي حسب وصف العياشي أن هذا المكان هو الذي أصبح اليوم معروفاً بالإقامة الملكية التي تستضيف كبار الشخصيات والتي نزلناها مراراً...

(2) د. التازي: عائد من أول بيت وضع للناس، جريدة العلم المغربي، عدد 12 شوال 1421هـ/7 يناير 2001م.

(3) يلاحظ أن حضور الآفاقيين للعمرة لم يكن موجوداً على خلاف الحال اليوم عندما كثرت الاتصالات وأصبحنا نجد أن عدد المعتمرين ربما وصل إلى عدد الحجاج!!

(4) لا يزال الحال إلى اليوم مستمراً على هذا التقليد كما وقفت عليه... انظر مقالي السابق بعنوان: عائد من أول بيت وضع للناس.

من القراء كسوة ودراهم(٤) ...

ويُبالغ في تنظيف مقامات الأئمة الأربعة، التي نجد لها في كل مقام إماماً يصلي بصلاته جماعة كبيرة من أهل مذهبه ... ويوتى بشموع كبار هائلة ترفع على حسَك عظيمة رائقة ...

ويحضر الختم من في المسجد، ويخلع على الإمام بعد الفراغ خلعة من عند السلطان، ويعطى فتوحاً زائداً على الخلعة، وأول من يختم الشافعية ليلة إحدى وعشرين، والمالكية ليلة خمس وعشرين، والحنفية ليلة سبع وعشرين...

والعادة أنه كلما فتحت الكعبة يوماً للرجال فُتحت في غده لدخول النساء، ولا يقرب ساحة البيت يوم دخول النساء أحد من الرجال كفعل النساء يوم دخول الرجال.

ولما كان يوم الأربعاء يوم الفطر بكر الناس لأخذ مواضعهم للصلاة في المسجد ... وخطب الإمام خطبة بليغة وأطالها... ولما وصل إلى ذكر شريف مكة والدعاء له قام أحد أصحاب الأمير وخلع عليه الخلعة وهو يخطب ...

ويلاحظ العياشي أنه بمجرد عملية الخلع هذه تتابع الناس أفواجاً للخروج من غير أن ينتظروا فراغ الخطبة ولا كذلك دعاء الخطيب! لقد كان قصدهم فقط هو مشاهدة الخلع على الخطيب!!

وقد قصد العياشي شيخه المعروف أبا مهدي في منزله للتهنئة، وكذا لتلقي الحديث بالسماع في يوم الفطر، وهذا ما حققه؛ إذ نقرأ سنده بذلك في الرحلة قبل أن يعود إلى بيته ليكتشف أن شيخه عبدالرحمن المكناسي المقيم بالطائف أوصى أصحابه بمكة أن يتفقدوا أبا سالم العياشي في يوم العيد بطعام فاخر ...

وبعد هذا يقوم الرحّالة، كما كان وعد به، بذكر الأماكن التي ينبغي أن تزار بمكة المعظمة ونواحيها في انتظار موسم الحج بهذه السنة.

وهنا نراه يذكر غار جبل ثور الذي زاره الأربعاء ثامن شوال ووصفه على نحو ما وصفه سابقوه الذين كانوا يجمعون على أنه الغار الذي اختفى فيه الرسول ﷺ مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ثم زار مدينة جدة، لأنه كان يتوفر على رغبة قوية في معرفة أرض الحجاز ورؤية ما بها غير الحرمين الشريفين على حد قوله، وهناك في جدة زار المكان الذي يحتضن قبر أمنا حواء على ما يقول الإخباريون، ابن خلّكان مثلاً[1] ..! وقد رحل إليها بعد عصر اليوم العاشر من شوال الذي كان يوم جمعة على ظهر حمار من حمير الحجاز التي لم ير أسرع ولا أوطأ مركباً منها !! وهم يتغالبون في ثمن الحمير، فقد بلغ الحمار مئة دينار ذهباً. !! ونحن في المغرب نضرب المثل بحمير جدة في السرعة وخفة الحركة ..[2]

والطريف أن العياشي يحدد المسافة بين جدة بعدد المقاهي المنتشرة على طول الطريق، فيقول: إنها ثمانية، ويقول عن جدة: إنها تمتد على ساحل البحر الأحمر المزود بالمدافع ... وفي مرساها سفن كثيرة مختلفة الأحجام، وغالبها معمول بالشريط (النباتي) من المسد، ليس فيها مسمار[3] ... وأسواق البلد ممتدة مع جانب البحر، وغالبها أخصاص واسعة ... وقد اتخذوا في القهاوي أَسِرّةً منسوجة بشريط المسد بطريقة محكمة، ويتحدث عن المسجد الكبير بجدة فيصفه بانه من أجمل المساجد، وأن فيه أعمدة من السياج تخالها رخاماً أحمر، قيل إنها جلبت من كنيسة بالحبشة عندما افتتحها المسلمون ... وهناك في جدة تعرَّف إلى مفتي الشافعية الشيخ عبد القادر، قال: وليس عنده من العلم والرواية ما يرغب في أخذه، لكنه لقي مفتي الحنفية الشيخ مصطفى الذي كان ـ على العكس من الأول ـ ذا مشاركةٍ في العلوم... كما تحدث عن أديب من أدباء المدينة يعرف بالشيخ محمد مخبر... وقد أقام بجدة ثلاثة أيام ينتظر سفن مصر علّها تحمل إليه أخبار بلاده المغرب...

وقد عاد إلى مكة بعد صلاة الظهر من الثلاثاء ليصلوا مع أذان الصبح لليوم الموالي الأربعاء الخامس عشر من شوال.

ولا ينسى العياشي تتبع الحديث عن آثار السيل الذي وصفه آنفاً، وبخاصة ما يتصل

---

(١) وفيات الأعيان: ج٥، ص٣٨٩، تحقيق د. إحسان عباس، دار الكتاب، بيروت ١٩٧٢م.

(٢) ينطق المغاربة بكلمة حمار مصغرة فيقولون: (حُمَير) جدّة.

(٣) التجربة تدل على أن ماء البحر يأكل من المسامير عكس النبات الذي يزداد قوة مع الماء ... تراجع رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. التازي. ج٤، ص١٢١.

(٤) لم نكن نعرف عن هذا التصميم القديم لسقف البيت العتيق الذي تحدث عنه ابن خلدون كما أسلفنا.

بالبيت العتيق، وهنا يذكر أنه لما عاد من جدة في التاريخ المذكور وجد العمال قد شرعوا في تجديد السقف الأعلى للبيت، وذلك أن للبيت سقفين بينهما مقدار ذراعين[٤] ونصف أو ثلاث؛ صيانة للبيت عن وصول شيء من التغير بنزول ماء أو غيره، فإن احتاج أحد السقفين إلى تبديل كان الآخر عوناً له.

ولقد ظهر ـ بعد ذلك السيلِ ـ شبه أثر قطر، فكشف عن ذلك فوجد في بعض خشبات السقف الأعلى مآكل بسبب الأرضة (السوسة) لطول العهد، فاقتضى نظر الخاصة تجديد السقف كله، فشرعوا في ذلك يوم الاثنين الثالث عشر من شوال على ما يذكره العياشي بتفصيل دقيق بما في ذلك الآلات والسلاليم التي ساعدت على وصول المواد إلى السطح من جهة الحِجْر، وبما في ذلك جلب خشب الساج من جدة ... شاهد عيان يحكي أنه هو ذاته أسهم في عمليات سطح البيت العتيق بمساعدة الحاج سليمان وهو من الصعيد المصري[١].

وقد كان من المزارات التي وصلها العياشي في مكة الجبل المشرف على المحصب يمين الذاهب من مكة إلى منى.

ومن المزارات غار حراء المشهور أمره، والذي نزلت فيه أول سورة من القرآن الكريم ﴿**اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...**﴾، وهو على ثلاثة أميال من مكة، وقد زاره في إحدى ليالي ذي القعدة...

ومن المزارات (الجِعرانة) موضع بين مكة والطائف، بينها وبين مكة ثمانية عشر ميلاً، ومنها كانت عمرة النبي ﷺ في ذي القعدة، وهي التي اعتمرتُ منها في حجتي الأولى[٢]، ولو أن أهل مكة يعتمرون اليوم من التنعيم ... ويذكر من المزارات التي زارها جوار مكة مدينة الطائف التي تحتوي بدورها على مزارات كثيرة ... في صدرها ضريح عبدالله بن عباس ترجمان القرآن، وهو يوجد إلى جانب المسجد الأعظم، قصدها ليلة الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة ... ويستغرب العياشي تغير أحوال الطقس عند

(١) نفتقد مثل هذه التدقيقات عند السنجاري في كتابه (منائح الكرم)، تحقيق الدكتورة ماجدة، مصدر سالف الذكر.

(٢) د. التازي: التحليق إلى البيت العتيق ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م، نشر دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٢هـ، ص٩٩.

الجبل ونزول درجة الحرارة؛ حيث شعر بالبرد بعد أن كان يشكو أول النهار من شدة الحر!! وقدَّم مدينة الطائف على أنها قصور تحيط بها جنات من نخيل قليل وأعناب كثيرة وفواكه مما يشتهون ... وتحدث عن المسجد الأعظم الذي ذكرناه ... وهناك على باب المسجد التقى أستاذ المجودين الشيخ عبدالعزيز بن حسن بن عيسى التواتي، تلميذ الشيخ عبدالواحد بن عاشر، تعرفه بواسطة السيد عمر المدني من متفقهة المدينة، وقد اغتنم العياشي هذه الفرصة فسمع من الشيخ التواتي المسلسل بسورة الصف؛ حيث سلم التواتي نص الإجازة للعياشي بضريح عبدالله بن عباس الملاصق للمسجد، كما قلنا.

كما لقي العياشي السيد عبدالرحمن المكناسي الذي كان يسكن بأعلى البلد. وكان العياشي تعرفه بمكة[1] .. وبهذه المناسبة حرر العياشي مذكرةً له حول هذا اللقاء تحمل تاريخ عشية الجمعة الثاني والعشرين من ذي قعدة الحرام سنة ثلاث وسبعين وألف ...

وبعد أن يعدد العياشي مزارات الطائف الذي يعدّ عند الشافعية كحَرَم مكة، تلك المزارات التي يذكر في صدرها قبر ترجمان القرآن وحبر الأمة سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ... يذكر أنه عاد إلى مكة محرماً بعمرة من قرن الثعالب[2] الذي هو ميقات أهل نجد؛ حيث وجد مكة قد غصَّت بالوفود التي ترد عليها من كل فج عميق .

وفي انتظار الحديث عن موسم الحج يذكر لنا بعض من لقيه من أهل مكة أيام المجاورة ... وفي صدر هؤلاء مفتي الشافعية وإمام المقام وشيخه زين العابدين الطبري الحسيني ... كما يذكر شيخه المعروف الذي استفاد منه معظم علمه ومروياته أبا محمد عيسى ابن محمد الثعالبي الجعفري الذي أعطاه النصيب الأوفر من الحديث راوياً عن كتابه «كنز الرواة»، مبرراً ذلك التكرار بالرغبة في تكثير الفائدة ...!

وإلى جانب هذا ذكر بعض من أخذوا عنه هو كأبي علي حسن العجيمي المكي الحنفي، وكذا الفقيه قاضي المالكية بمكة الشيخ أحمد تاج الدين المالكي إمام مقام المالكية.

---

(١) د. التازي: الطائف في مذكرات الرحالة المغربي أبي سالم عبدالله العياشي ... بعد أن زرتها يوم الجمعة ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٠م. وقد نشر في صحيفة سعودية غاب عني اسمها وزمانها ومكانها.

(٢) هو قرن المنازل.

وبعد هذا يعود العياشي إلى الكتب، فيخصص فصلاً للحديث عما عثر عليه بمكة من كتب غريبة... ويذكر من ذلك رحلة الشيخ المحدث محمد بن رُشيد السبتي السالف الذكر، رأى فيها عدة أجزاء بمكتبة شيخه أبي مهدي عيسى، وكانت في وقف المغاربة برباط الموفق وعليها خط ابن رُشَيد وخط تلميذه عبدالمهيمن الحضرمي إلى آخر ما ينتقيه من رحلة ابن رُشَيد.

ومما رآه بمكة كتاب «إتحاف الورى بأخبار أم القرى» للشيخ نجم الدين عمر بن فهد، الذي يذكر أنه انتقى منه أشياء، منها: وفي سنة إحدى وستين ومئة أمر المهدي بشراء جميع ما كان من الدور بين المسجد والمسعى لإدخاله في المسجد ... ودخل في ذلك دار خيرة بنت سباع الخزاعية ... ومنها جملة ملابس سليمان بن عبد الملك لما حج على سبعمئة بعير، وقيل: تسعمئة ...

ويعود إلى ذكر المزارات فيذكر دار الأرقم، و(المودّع) الذي يذكر أن النبي عليه السلام ودّع منه أهل مكة لما أراد الخروج إلى المدينة بعد حجة الوداع، وقريب منه رباط ينسب إلى الشيخ الجيلاني، ومنها جبل أبي قبيس ومقابر الحُجُون وقبة الشريف أبي طالب، غير غافل عن التعليق والتعقيب حول مصادر هذه المرويات على ما أسلفنا(١).

وأخيراً يعود أبو سالم العياشي إلى الحديث عن مكة عندما استهل شهر ذي الحجة.

لقد تهيأ أهل مكة للخروج ... خرج غالب أهلها حتى العواتق وذوات الخدور على حد تعبيره، وبالغوا في انتقاء الفرش والمواكب المزينة ولذيذ الأطعمة كما هي عادتهم ... وخروج غالبهم إلى عرفات في اليوم السادس، ويقيمون بها السابع والثامن، وتكون لهم بها سوق عظيمة حافلة لا يرى مثلها على ما سبقت الإشارة إليه.

وقد أحرم بعض الناس من أول الشهر، وغالب الأفاقين من قبل ذلك بقوا على إحرامهم

(١) من المهم أن نقرأ تعليق العياشي على قبة أبي طالب السامية العالية: إن عوام الناس يظنون أن القصد إلى عم رسول الله ﷺ، فسألت أهل العلم بمكة، فاخبروني أنه أمير من أمراء مكة المتأخرين من أشرافها من آل أبي نُمَيّ اسمه أبو طالب. قالوا: وكان في حياته شجاعاً مقداماً ... دوخ بلاد الحجاز .. وأهل الحجاز يؤرخون بموته فيقولون: كان هذا في زمن أبي طالب ... ولو أنه لم يعمر طويلاً. السنجاري: منائح الكرم، تحقيق د. ماجدة فيصل زكرياء، ج٣، ص ٥٠٥ وما بعدها، ج٥، ص ١٥.

لأنهم أحرموا بالحج، وغالب الناس إنما يحرمون يوم خروجهم...

أما العياشي فقد أحرم ليلة الجمعة السابع من الشهر قارناً، ونوى الاعتكاف في تلك الليلة ويومها، فجمع ـ كما يقول ـ بين حج واعتكاف وصوم ...

وأقام بمكة إلى ضحى اليوم الثامن، حيث خرج من مكة صحبة أصحابه راجلين وجعلها حجة "صعْلوكية" ـ كما قال ـ من دون دواب، يحملون زادهم على ظهورهم لتمكن شراء المحتاج إليه في كل مكان ...[1]

ووصلوا إلى منى ظهراً ونزلوا بمسجد الخيف مختلطين بالفقراء، وقضى بالمسجد ليلةً مباركة، فلما كان الغد خرجوا قرب بزوغ الشمس ذاهبين إلى عرفات، ولم يصلوا إلى نمرة حتى اشتد الحر ... «ووجدنا الماء كثيراً في أبواب المسجد. سبَّله بعض أرباب الدولة، يبعث روايا حتى إذا فرغت بعث بغيرها، لا يمنع منها شارب ولا متطهر ... إلى أن صلى الناس وذهبوا إلى الموقف ... وكان شيخنا أبو مهدي نازلاً في رواق مظلل لبعض أصحابنا التونسيين...»، وهناك اجتمع بالشيخ وروى عنه مرة أخرى ....

ولما زالت الشمس وجمعنا الظهرين ذهبنا إلى الموقف في حرٍّ شديد ما رأيته طوال عمري ـ يقول العياشي ـ وبلغ مني الجَهد غاية، وتذكرت حرّ القيامة ...! وكنت أنظر يميناً وشمالاً، وتحملت أشد ما يكون من التعب ومعاناة الحر الشديد، لا سيما بعد أن دخلنا مزدحم الناس وانضغاطهم، وامتزاج حرارة أنفاس الحيوانات بحرارة الشمس، وثوران غبار الأقدام على الرؤوس حتى لا يكاد الإنسان يشك أنها نار لظى!! (١٥ يوليو ١٦٦٣م)، إلى أن وصلنا إلى موقف النبي ﷺ، وما كنا نعرفه قبل هذه السنة، وبعث معنا شيخنا أبو مهدي رجلاً دلنا عليه، وهو تحت موقف الإمام اليوم في أصل الجبل على صخرات مفترشة، وبني على تلك الصخرات محوط شبه مسجد، فوقفت به ساعة فغلبت، ثم جلست إلى أن فات وقت العصر وقضيت الوظيف المعهود من الدعاء والاستغفار والتكبير والتهليل والصلاة على النبي عليه السلام.

وقد خرج العياشي عن مزدحم الناس وحاول أن يحصل على هدْي؛ لأنه كان يتمتع

(١) الرحلة ٢، ٢٩٣.

بالحج والعمرة مقترنين على ما أشرنا .. فلم يستطع وتأخر إلى أن قام بذلك في مكة، ولم يزل بقية يومه يدعو ويكبر ... ولما كان قرب الاصفرار نفرت محامل الأمراء والجند وذهب معهم حُطمة الناس، وتلك عادتهم لا ينتظرون الغروب في الموقف! وما نفرنا نحن إلا بعد الغروب وإقبال الليل ... فلم نصل إلى مزدلفة حتى قاسينا من التعب ما لا مزيد عليه، وجمعنا العشائين، وصعدنا إلى جبل قزح وبتنا عليه تنحياً عن مواطئ الأقدام... وبتنا حتى أصبحنا ووقفنا بالمشعر الحرام، ثم سرنا رويداً نجر الأقدام على الأرض جراً، فما وصلنا مسجد الخيف حتى اشتد الحر وخفت أن أجلس للاستراحة فاغلب عن رمي جمرة العقبة، فذهبت على ما بي حتى رميت الجمرة فرجعت(١) ...

ويبدو أن العياشي أخذ ينهار مع توالي التعب في هذا الحر الشديد (١٦ يوليو)؛ حيث نجده يقول بلغة العصر الحاضر: إنه تعرض لضرْبة شمس!!

لقد قال بأسلوبه الخاص: رجعتُ من رمي العقبة، فبمجرد جلوسي ثار عليَّ قيء وتدويخ، حتى كدت أن يغشى عليَّ، فبقيت طيلة يومين لا أنتفع بنفسي..! ويئست من طواف الإفاضة في تلك الأيام وحلقت رأسي، وأخرت الإفاضة إلى أن رجعنا من منى.

ولما شعر العياشي ببعض الراحة خرج لزيارة بعض الأماكن التي تزار بمنى، ويذكر المسجد أولاً؛ لأنه منزل رسول الله ﷺ وهو في القبة التي توجد وسط الصحن، والتي يصفها العياشي بأنها مثمنة الشكل ....

ثم (غار المرسلات) المذكور عند الرحالين السابقين، ومسجد النحر الذي دله عليه شيخه أبو مهدي، ومسجد العقبة ... وذهبنا وصلينا الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالمحصب، فدخلنا مكة بعد العشاء حيث وجدنا المسجد الحرام غاصاً بأهله لا تكاد تجد فيه مجلس رجل واحد... وقد أخر الطواف والسعي إلى آخر الليل عندما خف الزحام.

ولما قضينا تفثنا - يقول العياشي - وفرغنا من نسكنا أخذنا في الأهبة للرحيل ... وعزمنا على الخروج مع القوافل التي تذهب إلى المدينة قبل خروج الأركاب ...

ولم يتردد العياشي في الحملة على المكاري الذي تعاقد معه قائلاً: «واكترينا من عند

---

(١) الرحلة ٢، ٢٨٣.

أناس من عرب الحجاز ليس لهم دين ولا مروءة، كلما عقدنا معهم عقداً حلُّوه، ولَكَمْ أبرمنا أمراً نقضوه طلباً للزيادة في الكراء بعد شدّ الأحمال على الجمال!!».

ولقد كان خروجه من مكة المكرمة ليلة الثلاثاء الثامن عشر من شهر ذي الحجة، وكان قد طاف طواف الوداع وقت العصر من أمس الاثنين ... ومر بمنزل شيخه أبي مهدي فودعه ... ورافقه صاحبه أبو علي حسن العجيمي إلى ذي طوى عندما التحق هناك بالرواحل.

كانت لحظات الوداع جد مؤثرة كما يحكي ذلك أبو سالم...

وإلى جانب هذا يحكي أن الرفقة لم يكن بها أحد من أبناء جنسه! فضاقت عليه الأرض بما رحبت، لا سيما مع القلق الذي كان يعانيه من المكارين الذين قالوا له: إن أمتعتكم ثقيلة، فإما أن تزيدوا في الكراء وإما أن نطرح لكم أمتعتكم أرضاً، حيث اضطر العياشي إلى الزيادة، وهكذا أصبح ثمن الكراء من مكة إلى المدينة أزيد مما اكترى الناس به من مكة إلى مصر!!

كنا نتمنى أن نستوعب جميع ما أورده العياشي - كما قلنا - ظل لازمة الرحلات اللاحقة لولا أنه مطبوع على الحجر في أيدي الناس، ولو أن الطبعة في حاجة إلى قراءة جديدة مزودة بتحقيق وفهارس شاملة.

ابن سليمان الروداني ١٠٩٤هـ / ١٦٨٣م

هذا السيد الجليل القدر العالم الكبير محمد بن سليمان الروداني ينتسب إلى تارودانت قاعدة بلاد السوس الأقصى جنوب المغرب، لم يخلف رحلة مكتوبة بالحروف، لكنه خلفها مكتوبة بالرسوم المتحركة كما نقول بمصطلح اليوم! لم يخلف رحلة مكتوبة بالحروف، ولكن فرض اسمه على محرري معظم الرحلات الحجازية المغربية التي ذكرته باعتزاز كبير على طول عقود متتابعة، بل فرض اسمه على سائر المؤلفات التي تعالج تاريخ مكة المكرمة في القرن الثاني عشر الهجري، كان عليها أن تخصص له حيزاً مهما في مؤلفاتها: فهو حاضر في التاريخ المعماري بمكة؛ فهو الباني وهو المؤثث للحرم، وهو حاضر في تاريخها العلمي؛ فهو شيخ الأشراف والمشايخ، وحاضر في التاريخ الاجتماعي؛ فقد وقف في وجه المستفيدين مما ليس لهم الحق في الاستفادة منه!! وهو حاضر في التاريخ السياسي، كان ناظر الحرمين الشريفين؛ فهو الموجه والمنظر، بمعنى أنه كان لفترة من الزمان كل شيء بمكة، إنه كان في نظرنا خميرة للحركات الإصلاحية التي ستعود بالناس إلى نهج السلف الصالح...

وقد تحدث عنه تلميذه اللامع علي بن تاج الدين السنجاري في تأليفه الجامع (منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم)[(١)].

ولأننا نرى الشيخ الروداني رائداً كبيراً من رواد التاريخ الإسلامي، وجسراً قوياً من الجسور التي ربطت المغرب بالمشرق وبالحجاز بصفة خاصة، وبالحرمين الشريفين بصفة أخص، فقد رأينا من واجبنا أن نستعرض بعض ما ورد عن بدايته في بعض المصادر المغربية قبل أنَ نرجع إلى المصادر الحجازية.

لقد نعته الإمام أبو سالم العياشي السالف الذكر في رحلته «ماء الموائد» (١٠٩٠هـ/ ١٦٧٩م)، وقد اجتمع به وخبره عن قرب ... نعته بحكيم الإسلام وأحد العلماء

(١) إعداد الدكتور جميل عبد الله محمد المصري وآخرين، جامعة أم القرى، مكة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

الأعلام، المتوقد فطنة، والمتوهج ذكاء، والممتلئ حكمة وإيماناً، لم يرشح له وعاء! ولا حل له أحد وكاء! توغل في أقطار الأرض وجال، وبلغ على حداثة سنه مبلغاً عجز عنه فحول الرجال من المتقنين لعلوم كثيرة، والمتحلين بحلي من محاسن الأوصاف أثيرة، ودخل مدينة فاس بقصد تعلم العلوم الرسمية، ولا سيما علم الحكمة من هيئة وتنجيم وحساب ومنطق وما شاكل ذلك .. وانتقل إلى مراكش، وانتفع بعلمائها[1] ...

ولم يزل ينتقل في البلاد إلى أن وصل إلى البلاد المشرقية عبر الجزائر التي أخذ أيضاً من رجالها وأصفيائها ... وانتهت سياحته إلى المدينة المشرفة، لم يخرج عنها إلا إلى مكة المكرمة ... ثم دخل البلاد الإفريقية، ثم ركب البحر إلى إستانبول حيث وقعت له وقائع مع بعض "علمائها" المنتحلين لنفسهم ما ليس لهم! فشعر بالصدمة، والتجأ إلى التحنث والابتعاد عن مثل هؤلاء الانتهازيين الوصوليين والمشعوذين.

وانتقل إلى مصر فقصد الصعيد ليقيم هناك بعض الوقت، حيث كانت له مراسلات مع شيخ المالكية بمصر الإمام الأجهوري حول لباس الصوف الوارد من بلاد الروم ...

وينتقل الروداني إلى الحجاز، ويقوم بأداء فريضة الحج قبل أن يختار المدينة موطناً له، حيث لزم الصمت وانقطع عن الناس في أغلب الأوقات إلا ما كان يتعاطى له أحياناً من الدرس مع بعض الخواص في بيته المشرف على الحرم الشريف ...

وبما نعرفه عن الإمام أبي سالم من تفتُّح على الناس وحسن سلوك معهم، كان يعاتب الروداني على تجهمه للخلق، وعدم معرفته لأهل زمانه! وضيق حوصلته!! فكان الروداني لا يتردد في مصارحته بما يعتقد أنه الصواب ...

كان لا يدري مداراة الورى

ومداراة الورى أمر مهم!!

ويسمح أبو سالم لنفسه ليقوم بمقارنة بين ابن سليمان الروداني الصلب وبين الشيخ أبي مهدي عيسى الثعالبي الجزائري، وكانا على طرفي نقيض على حد تعبير أبي سالم

---

(1) رحلة أبي سالم العياشي: طبعة حجرية ٢، ص ٣٠. القادري، نشر المثاني، طبعة الرباط ٢، ص ٣١٤ وما بعدها. د. التازي، تاريخ القرويين، ج ٣، ص ٧٩٤.

الذي يخلص إلى القول: كلٌّ على هدًى، إلا أن النفس إلى ما عليه أبو مهدي أميل!!

لقد كان العياشي لقيه بالمدينة، عندما قرر المجاورة أوائل سنة ١٠٧٣هـ / أغسطس ١٦٦٢م، حيث هيأ له الروداني، لما علم أنه ينزل بجواره، مكاناً ينزل فيه، وهو محل خزانة كتب، وهي وقف للسلطان قايتباي مشرف على الحرم، قبل أن ينتقل العياشي إلى منزل آخر على أن يظل كثير التردد على صديقه ابن سليمان...

وهنا سنعرف أكثر عن أفكار الروداني وعن أسباب اعتزاله عن الناس وانزوائه عنهم، كما نعرف عن سر نفور بعض الناس منه وتحاشيهم سماع أفكاره ...

لقد كان الرجل يرى ما لا يريد أن يراه، ويسمع ما لا يرضى أن يسمعه، ومن هنا كان ظاهرة غريبة عن المجتمع الذي يعيش فيه ومن حوله ...

كان الروداني ذا ورع تام ما رأيته في عصرنا لأحد، يقول الإمام أبو سالم عبد الله العياشي: كان لا يقبل من أحد عطاء إلا إذا علم وجوه مكاسبه! وقد انتهى به الورع إلى ترك أكل ثمار المدينة بالجملة لفساد معاملة أرباب الحوائط لعمالهم في الغالب، فإن رب الحائط يعامل المساقي على أوسق معلومة في كل سنة يدفعها له، وهذا فاشٍ عندهم، قلَّ من يعامل المساقي بالجزء المشاع شرعاً ...

ومن ورعه أنه لا يتقوت إلا من كسب يده، وكانت له يد صناع يحسن غالب الحرف المهمة، لا سيما الرقيقة العمل الرائقة الصنع كالطرز العجيب، والصياغة المتقنة، وتسفير الكتب والخرازة!

وله يد طولى في عمل الأسطرلابات وغيرها من الآلات التوقيتية، كالأرباع والدوائر والأنصاف والمكانات (المنجانات).

وكان يجبر قوارير الزجاج المتصدعة بحسن احتيال ولطف تدبر إلى ألاَّ يكاد صدعها يبين!

وأجل ما اخترعه «الأدلة الجامعة النافعة في علمي التوقيت والهيئة»، ولم يسبق إلى مثلها، ولا حادى أحد على شكلها، بل ابتكرها بفكره الفائق، وصنعه الرائق، وهي كورة مستديرة الشكل، منعمة الصقل، مغشاة ببياض الوجه المموَّه بدهن الكتَّان،

يحسبها الناظر بيضة من عسجد لإشراقها، مسطرة كلها دوائر ورسوم، قد ركبت عليها أخرى مجوفة منقسمة نصفين، فيها تخاريم وتجاويف لدوائر البروج، وغيرها مستديرة كالتي تحتها، مصقلة مصبوغة بلون أخضر، فيكون لها ولما يبدو تحتها منظر رائق، ومخبر فائق، وهي التي تغني عن كل آلة تستعمل في فني التوقيت والهياة، مع سهولة المدرك، لكون الأشياء فيها محسوبة، والدوائر المتوهمة في الهيئة، والتقاطع الذي بينهما مشاهد فيها، وتخدم لسائر البلاد على اختلاف أعراضها وأطوالها.

وحاصل القول فيها أن الوصف لا يكاد يحيط بها، ولا يعلم قدرها ومزيتها إلا من شاهدها وكانت له معرفة بالعلمين، فيرى ما يذهل الفكر ويحير النظر، ويعلم أن من اهتدى لاستخراج ذلك للعيان بعد أن كانت القرائح الجيدة تحير في تصوره ذهناً قد أُيِّد بنور الهدى وإلهام رباني.

قال العياشي: وقد ألف واضعها رسالة في وصفها وكيفية العمل بها في سائر المطالب التي تدرك بغيرها وزيادة ... ويورد العياشي أول هذه الرسالة بما فيه من ذكر غالب رسومها والأشكال المثبتة فيها ... ست صفحات كاملة حول تقديم هذه الرسالة العلمية الرائعة تحتاج إلى درس عميق...

كانت هذه فذلكة من معاصر مغربي عايش الشيخ ابن سليمان في الحرمين، ذلك هو أبو سالم العياشي، الذي ودع الحجاز وظل مشغولاً بأخبار صديقه الروداني خائفاً عليه، لا سيما وقد عرف عن عميق علمه ومشاركته الواسعة، كما عرف عن صلابة عوده وقوة شكيمته، إن مثل هؤلاء الناس قليلة سلامتهم ... وذكاء المرء محسوب عليه، كما يقولون. فماذا عما يقوله تلميذه أبو الحسن علي بن تاج الدين السنجاري المتوفى بعد العياشي بخمس وثلاثين سنة فقط؟

لقد ذكر السنجاري شيخه الروداني أكثر من خمسين مرة في موسوعته (منائح الكرم) ... وعلى الرغم من أن التلميذ كان يخالف شيخه في بعض القرارات الصارمة التي كان اتخذها الروداني فيما يتصل بالحالة الاجتماعية في مكة، إلا أن التلميذ كان يجل شيخه ويكبره ويعدّه صانعاً لتاريخ الحرمين طوال بضع سنوات، وقد خصص له

ترجمة واسعة، وكان يدعو له عندما يذكره بقوله: «رحمة الله عليه، وجعله مقرباً لديه».

وباختصار شديد سنحاول تتبع حضور "الشيخ محمد المغربي"، لإثبات فعاليات رحلته الحجازية وإيجابيتها التي - كما قلنا - لم تكن مكتوبة، ولكنها منقوشة في كل ذاكرة وفي كل مذكرة، وسنعرف من خلال هذا الحضور دور المجاورين أو الأفاقيين في صنع تاريخ الحرمين الشريفين على مختلف الصعد ...

ونبدأ بمبادرته، وقد اجتاحت مكة موجة من شدة الغلاء سنة ١٠٧٩هـ / ١٦٧٠م فضربت الفقراء في الصميم، فوجدنا الشيخ يتحرك للقيام بمبادرة إنسانية ذكية، فيكلم الشيخ أبا مهدي عيسى الثعالبي مسند مكة، ولو أنه كان معه على طرفي نقيض كما أسلفنا، كما يكلم الرجل الصالح عبد الرحمن الزناتي، وكل الثلاثة مغاربة؛ ليقوموا بفتح اكتتاب من أجل إعداد وجبات للفقراء ابتدأ من يوم خامس جمادى الآخرة / ١٠ نوفمبر صباحاً ومساءً.

وكتبوا للشريف سعد بن محسن بن الحسين بن حسن بن أبي نُمَي وسائر أعيان البلاد ... وكان هذا أول ظهور للشيخ بمكة المكرمة.

وقد شهدت سنة ١٠٧٩هـ كذلك، وبالضبط يوم سادس ذي الحجة، عملاً علمياً فريداً من نوعه قام به الشيخ ابن سليمان، ذلك أنه وضع المزولة التي صنعها في المسجد الحرام بعد أن بنى لها قوائم طول قامة الرجل، بحيث يقف الإنسان ويرى رسومها حيال الركن الشرقي على ممشى باب السلام(١)، ظلت المزولة قائمة ردحاً من الزمان على ما سنرى(٢).

وقد صادف أن حج أخو الوزير الأعظم محمد بن أحمد بن إبراهيم الكبرلي في موسم سنة ١٠٨٠هـ / مايو ١٦٧٠م، وكان وزيراً للسلطان محمد خان ... فاجتمع بالشريف سعد، ونزل في دار مولانا الشيخ محمد بن سليمان لصحبة سابقة بينهما ...

وكان للشيخ محمد بن سليمان صهر من الأروام يقال له محمد الفصيحي، كان الشريف سعد سمع عنه كلاماً تحققه فيه فبطش به على الرغم من تشفع الشيخ ابن سليمان.

---

(١) انظر تفصيل الحديث عن هذه المزولة عند العصامي: سمط النجوم العوالي ج٤، ص٥٠٥، وقد ذكر أنها ركبت يوم الاثنين ١١ ذي القعدة.

(٢) السباعي، ص ٣٨١.

ولما حج أخو الوزير المذكور اجتمع بالشيخ ابن سليمان، وسأله السفر معه إلى الروم، ومثل ابن سليمان لا يعدم من يرغب في صحبته، ويضمن له كل ما يروم!!

وقد وجد الشيخ محمد بن سليمان عند ذلك للمقال مكاناً فسيحاً، وأبدى للملك حسرته على ما يقع ! فعند ذلك أمر الوزير الأعظم بإخراج أمر سلطاني إلى صاحب مصر أحمد باشا بتجهيز ثلاثة آلاف عسكري من مصر إلى مكة، وكتب إلى حسين باشا صاحب حلب أن يحج هذا العام بألفي عسكري وينظر في أمر الحرمين، ولا يبرم أمراً دون إشارة الشيخ محمد بن سليمان ... وهنا أمر الشيخ الروداني بالحج وإصلاح البلد وتولية من يرى فيه الصلاح...

وفي اليوم السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٠٨٢هـ / ١٢ مارس ١٦٧٢م، وردت كتب من المدينة من الشيخ محمد بن سليمان إلى مولانا الشريف سعد، ومضمونها التعريف بوصوله صحبة حسين باشا، وأنه من المحبين لكم فقابلوه بما يليق؛ فإنه عين الوزير الأعظم.

وترددت المراسيل حول مراسيم الاستقبال، ولما كان اليوم السادس من ذي الحجة ورد الشيخ محمد بن سليمان مكة وصحبته الوفد الذي كان بعث به الشريف لاستطلاع سر حضور العساكر المصرية !!

فاجتمعوا بمولانا الشريف، حفظه الله، وسألهم عما فهموه من حسين باشا، فأخبروه بأنهم رأوا منه غاية الكمال، وأنهم عندما سألوه عن العساكر المصرية أجابهم بأنه إنما أمر بالخروج مع الركب الشامي وحفظه من العرب.

ولما كان اليوم السابع من ذي الحجة ورد مكة، ونزل بالزاهر إلى الليل، ودخل الطواف ليلة ثمان بعد أن أرسل له الشريف هدية سنية على نحو ما فعل أخوه الشريف أحمد.

وخرج مولانا الشريف، أعزه الله، للقائد تلك الليلة بعد صلاة المغرب، فالتقيا بالمعلاة وتصافحا على خيولهما، وقبَّل الباشا المذكور يد مولانا الشريف، وأظهر الفرح بلقائه، وأبدى من الخضوع ما تقر به العين، وهو مضمر ما أضمر شمر للحسين!

وحج الشريف في هذه الطريق بقوة جاش وعدم إيحاش، لكنه رأى القتال في هذا الشهر الشريف مما يضر بأهل التعريف، كما يقول السنجاري، الذي أضاف أن الشريف،

صحبة أخيه، غادر مكة ليلة الاثنين الثالث عشر من ذي الحجة ...

وهكذا وجدنا أن الباشا حسين يجتمع مع كبار مساعديه في منزل الشيخ محمد بن سليمان بمنى؛ حيث تم استدعاء الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبي نُمَي.

لقد اختفى إذن ذوو زيد من الساحة السياسية ليظهر ذوو بركات ... لقد كانت المنافسات مستعرة على الدوام بين الفريقين ! ولم يتردد السنجاري في القول بأن الشيخ محمد بن سليمان كان وراء المنهج المذكور لإنتاج الفعل المقدور!

وفي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي الحجة اجتمع الشريف بركات وكبراء العسكر وحسين باشا في منزل الشيخ محمد بن سليمان الذي أظهر بيديه أمراً سلطانياً يتضمن نظره في أمر الحرمين وإصلاحهما والتصرف في أحوالهما، فأذعن له بذلك مولانا الشريف بركات، ومكّنه من الزمام وفق التصريف ...

وهنا أخذ الشيخ ابن سليمان في تنفيذ مشاريعه، حيث نجده على ما يحكيه السنجاري يقوم بسلسة من الإجراءات التي أغضبت المستفيدين؛ لقد أصدر ابن سليمان يوم الاثنين الرابع من المحرم سنة ١٠٨٣هـ / ٢ مايو ١٦٧٢م[١] أمراً يتضمن إخراج من كان في الخلاوي (المساكين) الموقوفة، لقد انتزعها ممن له بيت يأويه وعياله، كخلاوي قايتباي والشرابية ونحو ذلك من الربط.

قال السباعي: «كان الشيخ ابن سليمان يرى أن هذه الخلاوي ما بنيت إلا لتأوي المجاورين من طلبة العلم ممن ليست لهم بيوت يأوون إليها، وأن غلالها ما ربطت إلا لتعول هذا النفر الذي ليس له عمل إلا طلب العلم، وأنها إذا كانت قد آلت بتقادم السنين إلى ورثة لهم بيوت يسكنونها مع عائلاتهم ولهم طرق للكسب يستطيعون بها أن يستغنوا عن الخلاوي ومربوطاتها، فإن من الحق أن تنتزع منهم لتوجه للمجاورين الفقراء يستفيدون منها»[٢].

وتدخلت بعض الشخصيات وأظهروا فتاوي بأيديهم، فما أجدى ذلك عند الشيخ

---

(١) زيني دحلان، خلاصة الكلام، ص٩٠.

(٢) تاريخ مكة، ص ٣٨٠ - ٣٨١.

ابن سليمان!

وقد أدلى أبناء الملامكي بما في أيديهم من أوقاف السلطان قايتباي في الكتب، وأن إقامتهم في المدرسة لذلك، فابقوا في المدرسة أياماً، لكنهم أخرجوا بعد ذلك!

وأمر الشيخ بقراءة أجزاء ربعة السلطان قايتباي، وأمر بقراءة البخاري، وأخذ الوقفية عنده، وجعل تدريس الحديث للشيخ عبدالله العباسي الطاهر الطاشكندي، وأخذ مدرسة الشرابية من يد الشيخ أحمد الحكيم، وكانت بيده أوامر لآبائه تقضي له بالسكنى فيها، وأعطاها لأحد المجاوين وهو مصطفى أفندي الديار بكري، فسكن بها ودرس بالمدرسة، وأمر أن تكرى جميع الأوقاف بأجرة المثل: لقد كان مدخول وقف قايتباي ستمئة حرف (نوع عملة) فارتقى إلى أربعة آلاف قرش وستمئة!!

وأخرج الشيخ إبراهيم زاده من وقف الدوري، وظهر أنه من عمائر السلطان جقمق، وأنه كان موضع دشيشة للفقراء، وأخذ ما بأيدي الناس من حب السلطان جقمق الوارد لأهالي مكة، وحب السلطان خان الواصل من مصر إلى أهالي مكة كذلك، وحب السلطان قايتباي ومال المصرية، وعمر بذلك تكية في محل وقف الدوري المذكور، وطبخ فيها شربة للفقراء بالحب المذكور!

وعمر عدة أوقاف بمكة كانت خربة قد استولت عليها الأيدي، قال السنجاري: ونعم ما فعل في ذلك!

ونصب الشيخ علي العصامي مدرساً شافعياً في مدرسة قايتباي، ونصب شيخنا - يقول السنجاري - الشيخ محمد المغربي الغدامسي مدرساً مالكياً، وعين مدرسها الحنفي قاضياً شرعياً، وجعل مدرس الحديث، عِوَض الحنبلي، الشيخ عبدالله العباسي الطاشكندي السالف الذكر.

وصرف على الدشيشة المذكورة من كرى جقمق وقايتباي ومال الحرمين، ومن الأوقاف الباقية ومعالم ذلك، وما للمدرسين والطلبة مذكور في تاريخ العلامة القطبي[1].

---

(١) يعني كتابه إعلام الأعلام ببناء المسجد الحرام. وانظر أعمال ابن سليمان في (خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام) للشيخ زيني دحلان، طبعة مصر ١٣٠٥، ص٩٢-٩٣.

وكان من أخبار نشاط الشيخ ابن سليمان أنه قام يوم السبت التاسع من جمادى الآخرة من العام المذكور ١٠٨٣هـ بزيارة مطعم الدشيشة المخصصة للفقراء في التكية التي عمرها الشيخ المذكور من الأوقاف بعد صلاة العصر ومعه كبار العسكر وبعض تلامذته، وغرف بنفسه من الشربة وشرب منها وسقى من معه، وفُرِّقت بعد ذلك على الفقراء بعد أن قرأ الفاتحة للسلطان جقمق. وتعليقاً على هذه المبادرة التي لم ترق للسنجاري قال: وما أحسن ما قال المختار الشاعر المكي، ولم يدرك هذا الوقت المبكي:

وظائف الناس قد صارت مفرقة
ما بين عبد ومعتوق وأفّاق
وأهل مكة قد خارت نجومهم
فما يرى كوكب يبدو بآفاق!

ويبدو أن الشيخ الروداني كان غير مبالٍ بما يقوله مخالفوه! كما لم يكن متساهلاً إزاء من يحاولون التشويش عليه، ومن هنا نراه يعزل في شعبان من السنة نفسها الشيخ محمد بن محمد المنوفي من التدريس بالمرادية؛ لأنه صدر منه كلام في حق الشيخ..!

وقد رأى أن العين بعرفة تحتاج إلى عمارة فاقترح على (الأبواب السلطانية) مطلبه، مما جعل تلك (الأبواب) تبعث له بالمهندس الذي يساعد على بناء العمارة، حيث نجد الشيخ ابن سليمان يشرف على أعمالها باهتمام إلى جانب الشريف بركات، وما فتئت الرسل تترى بين ابن سليمان والأبواب السلطانية على ما يذكره السنجاري في أحداث أواخر هذه السنة ١٠٩٣هـ، وكان موسم الحج مناسبة لاستضافة كبار الشخصيات الواردة من الأبواب وتعزيز الصلات بها ...

واستمر الشيخ ابن سليمان معززاً من لدن الشريف يفاتح الأبواب في طلب المزيد من المال لدعم مشروعه الرائد حول الدشيشة وحول تعمير رباطات جديدة تكون في صحائف مولانا الوزير ...

وقد حدث ليلة الثلاثاء خامس وعشرين شعبان ١٠٨٤هـ أن نزل مطر بالليل، فقام جماعة من العسكر بهدم الساعة مع قوائمها التي كان بناها الشيخ محمد بن سليمان

منذ سنة ١٠٧٩هـ، ويقال: إنهم وجدوا فيها أعمالاً، وأنهوا ذلك إلى القاضي الذي قال لهم: لعل بانيها أن يتكلم في هدمها، فلم يتكلم الشيخ في هدمها...

ولعل لتنصيب المرشدي نائباً عن القاضي المذكور، وبإشارة من محمد بن سليمان، علاقة بهدم الساعة!!

وبمرور الأيام يتأكد للناس أن الشيخ ابن سليمان يكون دائماً وراء العزل والتنصيب حتى بالنسبة لمساعدي الشريف بركات! بل وحتى وراء رفض بعض قرارات مصر بعزل نائب حرم مكة وتنصيب آخر!!

لقد كان ابن سليمان الروداني يقدر جيداً مسؤوليته كناظر للحرمين الشريفين، ولهذا فإنه يستعمل حقه في التصرف حسبما يراه على نحو ما شاهدناه وهو يقوم بعمليات تنظيف الحجون وإصلاح مدرج منى واقفاً على ذلك بنفسه من غير اعتماد على مساعد..!

وبمناسبة موسم حج سنة ١٠٨٦هـ دخل مكة يوم رابع ذي الحجة ابن أخي الوزير الكبرلي الذي استقبله الشريف بركات، وأقام بالمدرسة الداودية عند الشيخ محمد بن سليمان قبل أن يدركه أجله بمنى ثالث أيام التشريق، حيث وجدنا الشيخ ابن سليمان يقوم بالواجب ويحضر مراسم جنازته في مكة إلى جانب الشريف بركات، وهو الحدث الذي كان وراء إرسال الشريف بركات نجله سعيداً إلى الأبواب السلطانية لتعزية الوزير الأعظم في ابن أخيه... حيث كان للشيخ ابن سليمان رأيه في اختيار الوفد المرافق للشريف.

وفي أوائل ربيع الأول سنة ١٠٨٧هـ قام الشيخ ابن سليمان باستئجار بيت بجانب المدرسة الداودية، ولم يلبث أن هدمه ليشيد مكانه عمارة ملوكية، ويزخرفها بأنواع النقوش، ويواصل بين تلك الأماكن إلى باب إبراهيم. لكن الذي أثار السنجاري حقاً هو أنه في أحداث نهاية ربيع الثاني من هذا العام ١٠٨٧هـ يروي أن الشيخ محمد شرع في هدم قبور المعلاة وبنى مقبرة خاصة جعلها أربعة جدارات وفصلها تفصيل الشطرنج، وجعل لها بابين(١)، فهتك بذلك - يقول السنجاري - حرمة الأموات! وهنا يروي شعراً لبعضهم:

---

(١) لعلها السلمانية المعروفة بهذا الاسم إلى اليوم. السباعي، ص ٣٨٢.

تكـفـل ابـن سـلـيـــمـــان أذيـة مـن
قـــد وحَّـــد الله ممن حل بالحـــرم
فـحين عـم الأذى الأحـيـاء منه غـدا
مـفـتّـشـاً لأولي التـوحـيـد في الرم!
طريقـــة من شـــقـــاء مـــا تناقلهـــا
أهل التـواريخ من عـرب ومن عـجم!!

فهل شعر ابن سليمان بمقالات هؤلاء الناس؟ نعم، لكنه يعرف ما يفعل..!!

ولقد روت الأخبار أن أحمد باشا عم الوزير الأعظم محمد باشا الكبرلي دخل مكة في الخامس من شعبان من السنة نفسها ١٠٨٧هـ، فاجتمع بالشيخ محمد بن سليمان بعد أن طاف وسعى على ما كانت عليه العادة مع أعيان الأبواب السلطانية.

وبمناسبة زيارة رسول من سلطان الهند من (الأوزبيك)؛ عابد خان، أتى بمال يهديه لأهل مكة، بعث الرسول هذا بنجله إلى ناظر الحرمين الشيخ ابن سليمان، فلم يستقبل الشيخ ذلك الولد، لعله كان ينتظر قدوم والده الذي رأيناه يغضب ويمتنع عن زيارة الشيخ ابن سليمان!

ولغياب الشريف بركات في ينبع، فقد أمر الشيخ الشريف مولانا إبراهيم أخا الشريف بركات بأن يتسلم هدية الهند من رسولها، لكن هذا رفض إلا أن يسلمها لصاحب مكة ...! وهذا ما سنرى أنه يتحقق بعد عودة الشريف بركات إلى مكة، بل سينتهي الأمر بعناق الشيخ سليمان لعابد خان!!

وقد كا مما حدث في أثناء غيبة الشريف نازلة فقهية تبدو غريبة، لكنها ليست غريبة! فقد توفي الشيخ محمد الزرعة الذي خلف ولداً له، حيث نجد أن الشيخ ابن سليمان يأمر بضبط مخلف محمد الزرعة، فبلغ المخلف سبعة عشر ألف دينار، فذكروا له ذلك، كما ذكروا أن الميت أوصى لحفيد له من ابن آخر كان قد مات بأربعة آلاف، فقال الشيخ: «إن هذا الابن لم يترك مالاً، وقد استغرقت الزكاة ماله، وصار لبيت المال»!

وأمر الشيخ ابن سليمان مولانا السيد إبراهيم وهو نائب الشريف وأخوه[1]... بأخذ المال، لكن هذا لم يوافق، مما حمل الشيخ ابن سليمان على جعل النيابة إلى أخيه عمرو، فتحقق للشيخ ابن سليمان ما أراد!!

عند ذلك أمر الشيخ ولد محمد الزرعة أن يحضر عند القاضي، ويقر بأنه ليست له أهلية التصرف في هذا المال، وأنه أقام على نفسه وكيلاً مفوضاً في حفظ ماله والتصرف فيه إلى آخر النازلة.

ويذكر السنجاري من مشاهد يوم الخميس العشرين من شوال من السنة حفل اختتام الشيخ عبد المالك المغربي المجاور بمكة سنن أبي داود تحت مدرسة الداودية، وحضر الختم الشيخ محمد بن سليمان والشريف بركات معه، كانت المرة الأولى التي يحضر فيها صاحب مكة ختماً بالحرم المكي.

وفي مقابلة هذا الحضور الكبير لدرس حي من دروس الحديث الشريف، قام الشيخ بمبادرة غير مسبوقة، تلك أنه منع إقامة موسم للشيخ الشهير عبد الله العيدروس، وقد كان الناس تعودوا تنظيم مهرجان بالمناسبة يحضرها الرجال والنساء يوم ثاني ذي القعدة محتجاً بأنها من المناكر الظاهرة!!

ومن المصادفة أن تحمل الأخبار في هذا اليوم وفاة الوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلي، الذي كان السند الأول للشيخ ابن سليمان في الأبواب السلطانية.

لقد كان وقع وفاة الوزير عظيماً على الشيخ ابن سليمان الذي أمر بقراءة الرباع بعد صلاة العصر، ونزل بنفسه مع الشريف بركات إلى الحرم الشريف.

ويعلق السنجاري الذي نعلم عن نزعته الصوفية، يعلق على حدث الوفاة وحزن الشيخ ابن سليمان قائلاً: «لقد عد الناس ذلك من كرامات السيد العيدروس، وابتدأ من اليوم ظهور الاختلال في أمر الشيخ»!!!

وبالفعل فقد ورد الأمر في موسم هذا العام سنة ١٠٨٧هـ / فبراير ١٦٧٧م من الوزير مصطفى برفع يد الشيخ عن تعاطي أمور الحرمين، فنجده يغلق بابه ويترك مخالطة الدولة.

---

(١) سنرى أن السيد إبراهيم هذا يدركه أجله فجأة وأخوه الشريف عند الشيخ ابن سليمان. السنجاري، ص١٤-٤٤٠.

يقول علي السنجاري: «خمس سنوات في قمة الحكم بالحرمين الشريفين، مما جعل من الشيخ معلمة كبرى في دار الإسلام، ولو أنها تسببت له في خلق خصوم وأعداء من الذين تضررت مصالحهم الشخصية أو مسوا في نفوذهم».

«لقد اضطرب أمر الشيخ محمد بن سليمان - يقول تلميذه السنجاري - فقصد الطائف يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الثاني ١٠٨٧هـ، وحصل للناس بخروجه فسحة، حتى أنشده بعضهم في ذلك قوله مؤرخاً:

اليـــــــوم مكـة جنـة
لما نأى عنهـــا الوبيـل
إن قيل عام خروجه
أرخ فقل غمٌّ أزيل!!»

ويبدو أن العلاقة بين الشريف بركات وبين الشيخ ابن سليمان احتفظت حتى الآن بحرارتها؛ إذ نرى الشريف يقوم بزيارة الطائف، ويعين بها وزيراً جديداً برأي الشيخ محمد بن سليمان.

ويقول السنجاري:

«وفي يوم الخميس السادس عشر من شعبان ركب الشيخ محمد بن سليمان من الطائف قاصداً المدينة، وجاء الخبر إلى مكة بنزوله في الوادي (مر الظهران)، فخرج لوداعه الوزير ابن حميدان وبعض تلاميذه وحفدته، فاجتمعوا به في الوادي، وتحرك من هناك ولم يدخل مكة». ولم يفت السنجاري أن يذكر بعض الشعر الذي قيل عن لجوء شيخه ابن سليمان إلى المدينة خوفاً على نفسه!!

ويتأكد أن الشيخ كان على صلة بالأخبار المتجددة حوله، وهو الأمر الذي يفسره ورود الخبر يوم الأربعاء الثالث والعشرين بإخراج الشيخ من مكة ومنعه من المقام بالمدينة، وأن الأمر صدر بإخراجه من الحرمين معاً!!

وفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من شعبان دخل الشيخ ابن سليمان مكة صحبة محمد أغاطرة أفندي، وظهر أن الدفتردار شفع في الشيخ في أن يدخل مكة ويكف عن مخالطة الدولة!

وخرج لاستقباله في الوادي الوزير عثمان حميدان وابن عمه إبراهيم وبعض تلامذة الشيخ ممن له به تعلق، وجلس للناس يوم الاثنين.

وقد استمرت قضية الشيخ ابن سليمان بعد وفاة الشريف بركات وتنصيب نجله سعيد في خامس ربيع الآخر من سنة ١٠٩٣هـ / ١٣ مارس ١٦٨٢م على ما كانت، حيث نجد مولانا السيد أحمد بن غالب، يصحبه بعض الأشراف، يدخل مكة ويطوف ويسعى وينزل على مولانا الشريف سعيد فيعزيه في والده، ثم يستقبل السيد أحمد الذي ظهر أنه جاء بحل أمر ابن سليمان!

يقول السنجاري:

«لقد تبين أن الأغا الوارد من جهة الروم الذي خرج صحبة السيد أحمد المذكور أظهر أمراً سلطانياً يتضمن إخراج الشيخ محمد بن سليمان من مكة والحرمين!

وأبلغ الشيخ بورود الأمر السلطاني بخروجه إلى بيت المقدس، فامتنع الشيخ عن الخروج إلا بعد الحج، وبعث الشريف سعيد ابن عمه عارضاً عليه إعطاءه كل ما يريد. ولكن الشيخ امتنع قائلاً: إن الأمر السلطاني ورد بأن أخرج وأنا خارج إذا جاء الموسم... وليس في الأمر أني أخرج يوم وصول هذا الأمر وتسجيله عند القاضي!!

وجاؤوا إلى دار الشيخ وهموا بكسر الباب، والشيخ واقف في الطاقة يستغيث بالناس وينادي بأعلى صوته:

يا أهل الله! يا مسلمين! أطلب شريعة محمد بن عبد الله، إن كان الأمر السلطاني بقتلي فامضوه، وإن كان بإخراجي فانا خارج إذا جاء الحج!

وعبثاً كان تدخل الشيخ البشبيشي لدى القاضي...»

قال السنجاري: «إن العامة المتجمعين أخذوا يصرخون بسب الشيخ، بينما أحدهم يسب الشريف سعيد ووالده بركات بأنواع السب!!

واستطاع مولانا السيد ثقبة بن قتادة أن ينفذ إلى الشيخ ابن سليمان ويؤمنه ويفتح باب الدار طالباً إليه أن يخرج معه في جواره إلى بيته في (خليص) في انتظار موسم الحج!».

وهكذا خرج الشيخ ابن سليمان من مكة صحبة إدريس بن صالح المغربي إلى الشام

متوجهاً إلى الأبواب بموجب الأمر السلطاني تاركاً أهله وأولاده بعد أن وزّع طريفه وتلاده!!

قال السنجاري: «ومما رسخ من المسامع أن الدنيا يجمعها غير آكلها، ويأكلها غير جامعها»!

ويخبرنا السنجاري أن الأخبار وردت بوفاة الشيخ محمد بن سليمان بالشام يوم الحادي عشر من ذي القعدة من سنة أربع وتسعين وألف، ويتساءل عن موته: هل كان فجاة، أو أنه مات مسموماً، أو منتحراً؟

ويخبرنا السنجاري أن الوزير أحمد باشا عم الوزير أحمد باشا الكبرلي رثى الشيخ بقصيدة، غير أنه لم يقف عليها وهو يحرر كتابه (منائح الكرم) الذي ختم فيه الحديث عن شيخه الروداني الذي قدر عليه أن يدخل في هذه الدائرة من المحن السائرة، ويصفه بالإمام الجليل الذي تقصر عن وصفه العبارة، وتحدو بذكره السيارة.

وبعد أن يعدد السنجاري مشايخه بالمغرب والمشرق.. ويشير لمقامه بالحرمين الذي انتهى إلى ما عرفنا، يتحدث عن مؤلفات هذا العلامة الكبير، وخاصة رسالته حول الأسطرلاب والكرة مما سبق الكلام عنه نقلاً عن الإمام أبي سالم العياشي.

قال السنجاري: وكان بيني وبينه ألفة تامة قبل أن يقصد إلى بلاد الروم، ولما عاد تركته خوف الإبراق والإرعاد سامحنا الله وإياه، آمين.

تلك نبذة من حياة الشيخ ابن سليمان الروداني الذي أختم هذا الحديث عنه بما ذكره أبو سالم العياشي الذي ظل مشغولاً بمصيره حتى بعد أن ودع المدينة، قال أبو سالم:

«... وقد بلغني بعد انفصالي من المدينة بأزمان أنه ـ حرس الله مهجته ـ قد أوذي، وكثرت القالة في شأنه، وأدى ذلك إلى خروجه من المدينة إلى مكة، وأطلق الحسدة فيه ألسنتهم، وكنت شممت بعض ذلك من بعض الناس ونحن هنالك، إلا أني ما كنت أظن أنه يبلغ ما بلغ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وديانته ومكانته من العلم تحميه إن شاء الله منهم، لا سيما وهو غير منازع لهم في دنياهم، ولا راغب في خططهم التي يتنافسون فيها، إلا أن داء الحسد قديم، ودواؤه من بين سائر الأدواء عديم! والله يهدي من شاء إلى صراط مستقيم!!».

من العلوم الغريبة وهذا رأيت بالمدينة المشرفة كتابا عندنا في المغرب وقع بيد بعض
الأولياء من شمس المغرب ونكتة من الشعبان في النوم اللامي المنسوب للشيخ محيي
الدين ورأيت له فيه قلما ابتكره يكتب له الأشكال المتعددة لما يريد إخفاءه وهذه
صورته [illegible]
ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و لا ي ومنهم
حكيم الإسلام وأحد العلماء الأعلام المتفرد بكنهه والمتوحد ذكاء في تيه حكمة
وإيمانا ولم يدع له ريبا ولا حاجة إلا أحرزها الذي توغل في أفكار الأذهان
وبلغ على حداثة سنه فبلغها عجز عنه فحول الرجال المتبحرين في علوم كثيرة والمتحلي
بحلى من قصار من الأزهاد والأبدال سيدي محمد بن سليمان الروداني كان من أهل السوس في
مغرب بالجنس فمن نشأته نشأ ببلده بين والديه بمدينة تارودانت فاعترت
بلاد السوس من الأقصى فلما بلغ مبلغ الرجال تاقت نفسه إلى تعلم العلم فخرج بإزاء من
أبويه فدخل بلاد درعة واشتغل عند من كان بها من علمائها وما إلى علمها بها سيدي محمد بن ناصر
الدرعي رضي الله عنه فاقتبس من علومه مدة ثم خرج من بلده إلى ... في أقصى
المغرب ودخل سجلماسة وغيرها من البلاد القبلية ثم وصل إلى مراكش ودخل الزاوية
تادلا ثم إلى فاس وتلمسان ... ثم سافر إلى الجزائر ... العربي النكيني في معرفة
أدب وعلا مكة المعروف العلامة سيدي محمد بن عبد الله معقل الإدريسي رضي الله عنه وكان
ذكر له ... من تعلم العلوم الرسمية سيما علم الحكمة من منطق وتنجيم وحساب
وهندسة وما شاكل ذلك فقد كانت له اليد الطولى في ذلك شديد البحث ...
بعضها بلم يكن في بلاد المغرب من يشفي غليله في ذلك فلما دخل ... ولقي العلامة
بالله سيدي محمد بن عبد الله ... من تعلم ... هذه العلوم وغيرها من العلوم
الرسمية ومنعه من لقاء علماء أرض ... والرجوع إلى الزاوية والأخذ عنها ...
فرجع إلى الزاوية حتى ... فلم ... في السفر ... إلى ... الكبير ...
مدة وانتفع بعلمها بها ... محمد بن سعيد ... وغيرهما ولم يزل ينتقل في
البلاد إلى أن وصل البلاد المشرقية ... وانتفع به ...
... سعيد بن إبراهيم ... وأخبرني أنه لقي منه ... رجلا من ...
... لا يتكلم ... فلا ... أن يوم

إحدى صفحات مخطوطة للعياشي يتحدث فيها عن الروداني

اليوسي ١١٠٢هـ / ١٦٩١م

هذه رحلة للعالم الكبير أبي علي الحسن بن مسعود بن محمد اليدراسني اليوسي المتوفى بأيت يوسي سنة ١١٠٢هـ / ١٦٩١م، ويصف فيها حجته سنة ١١٠١هـ / ١٦٩٠م لبيت الله الحرام، جمعها ولده أبو عبد الله محمد العياشي الذي بقيد الحياة المتوفى سنة ١١١٩هـ / ١٧٠٨م من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط، رقم ك ١٤١٨ ضمن مجموع مع خ. م ٢٣٤٣ في جزء من حجم صغير يشتمل على أربع وخمسين صفحة(١).

لكنه لم يذكر بها أحداً ممن لقيهم من العلماء ورجال الفضل، قائلاً في تقديمها: «إنما قيدته لنفسي ومن هو من أبناء جنسي».

وتبتدئ المخطوطة بقوله: «الحمد لله العلي الكبير، المدبر القدير، السميع البصير، مالك الملك، ومجري الفلك...».

وآخره: «وبلغنا الدار بتامزازيت يوم الأحد الثامن والعشرين من شوال، والحمد لله ذي العزة والقدرة والجود والإفضال، والصلاة والسلام على النبي»(٢).

وقد ترجم لليوسي محمد بن الطيب القادري في «نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني»(٣)، وقال: إنه ينتسب إلى جد جليل القدر في العائلة يحمل اسم يوسف، ولكنهم في عرفهم يحذفون الفاء، فعوَض أن يقولوا: اليوسفي قالوا: اليوسي.

---

(١) المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج١، رقم ٤٩١، ١٨٨، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م. هذا وقد أصدرت مجلة المناهل المغربية عدداً خاصاً بالإمام اليوسي يضم عدداً من البحوث المهمة التي تبرز شخصية اليوسي، العدد ١٥، شعبان ١٣٩٩هـ / يوليو ١٩٥٧م.

(٢) المخطوطة بالخزانة الحسنية تحت رقم ٢٣٤٣، والخزانة العامة في مجموع رقم ١١٨، كما أسلفنا.

(٣) منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط ١٤٩٧هـ / ١٩٨٦م، ج ٣، ص٢٥-٤٩.

ليفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، تعريب عبدالقادر الخلادي، الرباط ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ص ١٨٩-١٩٠-١٩١، التعليق ٣٢.

د. التازي: ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة فضالة، المحمدية ١٩٧٦م، ص٣٧، تعليق ٣.

كانت له أمنية تصحبه منذ صغره، أن يحج بيت الله... وقد حقق الله أمله قبل أن يدركه أجله في التاريخ الذي ذكرناه.

لكن الذي لم يتحدث عنه مترجموه، وهم كثير، هو أن حجته هذه اقترنت بمرافقة ركب الأمير المعتصم ابن السلطان المولى إسماعيل، الذي كانت تصحبه شقيقته ست الملك على ما نقرأ في المصادر المغربية(١).

وليس المهم هذا فقط، ولكن المهم أن نعرف أن ركب الحاج هذا زوده السلطان المولى إسماعيل بأموال طائلة ضخمة هدية للحرمين الشريفين، وخاصة مكة المكرمة، وسنجد في حجج الوقف التي ترجع إلى أيام السلطان المولى إسماعيل ١٠٨٢ - ١١٣٩هـ / ١٦٧١ - ١٧٢٦م ما كان يبعث به سنوياً إلى بقية أهل الحجاز في ينبع والطائف وبدر ورابغ، إلخ... علاوة على ما يخصص به العلماء والفقراء واليتامى والضعفاء.

وفي شارع القطانيين من فاس - وهو شارع تجاري مهم - فندق كبير يحمل اسم (تربيعة مكة)، ويحتوي على ثلاث طبقات، يخصص ريعه كذلك لمكة المكرمة، هذا إلى عدد بلغ زهاء ثلاثمئة وعشرين من أنواع العقار الموقوف على الحرم المكي. وهي؛ أي تلك العقارات، مفصلة في حجج الوقف المعروفة في المغرب تحت اسم (الحوالات الحبسية) ابتداءً من دولة بني مرين ودولة بني وطاس ودولة السعديين إلى الدولة العلوية، وبالذات عهد السلطان المولى إسماعيل الذي كان وراء رحلة الشيخ اليوسي(٢) صحبة الأميرين؛ المعتصم وأخته ست الملك.

وقد نقلت المصادر المغربية أن السلطان المولى إسماعيل بعث إلى الروضة النبوية ياقوتة عظيمة الجرم، وصفها أحد الرحالين بأنه ما رأى مثلها في الصفاء والكبر، زنتها رطل وست أواقٍ، وقد جعلت في شباك من الذهب مرصع بالياقوت، وصنعت لها

---

(١) المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل الشريف، لمؤرخ الدولة مولاي عبدالرحمن بن زيدان، تقديم وتحقيق: د. عبدالهادي التازي، طبعة ثانية، الدار البيضاء ١٩٩٣م، ص١٦٥-٣٩٣.

(٢) د. عبدالهادي التازي: توظيف الوقف لخدمة السياسة الخارجية في المغرب، نشر ضمن كتاب بعنوان «الوقف في العالم الإسلامي...» من لدن المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٥م، ص٧٨. ابن الحاج: تاريخ العلويين، مخطوط بالخزانة الحسنية، ج ٧، ص ٣٨. سلوة الأنفاس، ج٢، ص١٧.

سلسلة لتعليقها، وجعلت في صندوق من الذهب سترة لها، وقد قومت بأربعة وعشرين قنطاراً من المال، في كل قنطار ألف مثقال من الدراهم الرائجة(١).

لقد كانت الصرة المغربية المرصودة إلى الحرمين تعني ميزانية ضخمة تستفيد منها جميع المؤسسات في الحجاز، ولا بد أن نرجع إلى "الحوالة المغربية" التي سبقت الإشارة إليها لنعرف منها حتى أسماء الأسر والشخصيات الفاعلة في المنطقة كلها بتفصيل دقيق وتوزيع جغرافي محكم، مع المبالغ التي تصل بانتظام وكل سنة إلى كل أسرة أسرة وفرد فرد، وعلى سبيل المثال أذكر أن الحوالة الإسماعيلية تنص بالنسبة إلى مكة مثلاً على ذكر الأشراف من ذوي زيد، وذوي عبد المنعم، وذوي الحارث والشنابرة، وذوي عبد الله، وذوي إبراهيم من آل بركات، وذوي موسى من آل بركات، وذوي حراز، وذوي الفضل، وذوي جود الله، وذوي الحرائر، وذوي منديل، وذوي ثقبة، وذوي عمرو وآل حسين، والحسنيين بمكة من أهل باعلوي، وأهل بيت المرغني، وأهل بيت السقاف، والمساوة الذين بمكة، والمهادلة، وذوي سرور، وبيت الخطاب، وبيت السيد عيدروس، والكريشات، وأشراف الطائف.

وأذكر أن هذه الحوالة الإسماعيلية تنص على الأشراف الذين بالمدينة المنورة: أهل بيت باعلوي، والمرغيني، والمهادلة، وذوي سرور، وبيت السيد عيدروس، والموهبين، والسماهدة، وبيت الكوامي، والمساوة، وبني حسين، وبني الجامجي، وبني الجودي، والأزبك، والبرزنجيين، والبخاريين، وأصحاب الحيد، وشرفاء سجلماسة، وبيت الأنصاري. هذا إلى المخصصات المرسلة إلى أهل ينبع التي ينتسب إليها جدود العاهل المغربي، والعيايشة ذكوراً وإناثاً(٢)، والكرون والحاميد، وبيت الكردي، وذوي إبراهيم والوشيات، وذوي جبريل، والبكيشات، وذوي هجر، وذوي عقيل، وذوي زارع، وأهل بن علي، والكريشات، وذوي حسين، وذوي هنشل، وذوي هاشم، والعمور، وذوي سليمان.

هذا إلى أهل بدر: بيت الرديني، وذوي عبيد، والمهادلة، وأهل الخريبة، وذوي

---

(١) ابن زيدان: الإتحاف، ج ٣، ص ٧٣، مصدر سابق. المنوني: ركب الحاج المغربي، ص ٢٦-٢٧.

(٢) وقفت في (ينبع) عند زيارتي لها على بعض هذه الأسر التي لا تزال حاضرة هناك.

مسيب، وذوي الفضل، وأهل رابغ، وأهل خليص، وذوي إبراهيم بالصفراء، وذوي نُمَي، وذوي الحسينية، وأهل عين العلجة الموسويين.

إلى كل هذا تخصص "الحوالات الحبسية" قسطاً من هباتها إلى الجهات التالية: إلى المؤذنين، ومؤدبي الصبيان بمكة، ولجميع الرواقات المذهبية بالبيت الحرام، ولبيت الشيبي، ولبيت ابن سليمان الروداني بمكة.

وإلى هذا نضيف من سمتهم "الحوالة" بأهل الرسائل: الحاج بو سالم، والشيخ محمد الخوجة، وعبد الله حجي، وعبد الرحمن المدني، والطالب أحمد بن مغلب.

وختاماً تذكر الحوالة حفاري المقابر الذين كان لهم نصيب في الأوقاف المغربية.

لقد تعمدنا ذكر كل تلك المواقع الجغرافية، وكل تلك الأعلام بأسمائها، لنقول: إن ركب الحاج الذي كان يرافقه الإمام اليوسي بمن صحبه من شخصيات كان نموذجاً من الأركب المبكرة التي تمت رحلته في فجر عهد العلويين الذي تميز بكثرة الرحلات إلى الحجاز مما سيمر بنا كلاً وبعضاً.

وإلى جانب كل ذلك البذل للحرمين نجد آن السلطان المولى إسماعيل يبعث رسائل إلى الأمراء المتولين الحكم في مكة المكرمة يوصيهم فيها بالاتحاد ونبذ الخلافات فيما بينهم؛ احتراماً للمقام العظيم الذي عهد إليهم بخدمته!!

ومن بين هذا نجد رسالته التاريخية التي بعثها سنة ١١٠٤هـ/ ١٦٩٢م إلى الشريف سعد بن زيد، التي تحتفظ بنصها كذلك المصادر المغربية(١).

وبعد هذه الإفادات التي تؤكد الجسر الدائم الذي كان يربط بين المغرب وبين الحرمين الشريفين، نقرأ معكم ملخصاً لبعض الورقات مما استطعنا أن نتبينه من مخطوطة الخزانة الحسنية والخزانة العامة، وخاصة من الرحلة ما يتصل بحضور الشيخ اليوسي بمكة المكرمة، مع العلم أن كثيراً من الرحلات اللاحقة كانت تردد ما قاله اليوسي في قصيدته الرائية التي قالها عند وداع وفد الله لبيت الله، وهي من مائة واثني عشر بيتاً، وفيها يقول في جملة ما يقول:

---

(١) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٩، ص ٥٤، رقم الإيداع القانوني: ٢٥ / ١٩٨٦، مطابع المحمدية، فضالة، المغرب.

أحـجـاج بيت الله سـيـروا وأبشـروا
بما لـم ينـلْـه رائـح ومـبـكِّـرُ
ووافـيـتـم البـيـت الحـرام وطفـتـم
فـمـسلم منكم به ومكبِّـرُ
وصليـتـم خلف المقـام وعـدتم
لياقـوتة فـيـهـا الكتـاب مـدَّخـر

قال ولده وهو يتحدث عن والده الذي كان يمزج بين وصف المناسك وبين الأحكام الشرعية المطلوبة من الحاج... قال: لقد سأل الناس كثيراً سيدي الوالد عما يوجد في لباس الإحرام من الخياطة الضرورية لحفظ نسيجه من الانتثار، فكان يجيبهم أن لا بأس بذلك للمضطر.

تحدث عما يتبع الإحرام وعن الصَّرورة (بالصاد)، الذي لم يحج قبل.

وعلى العادة في الدخول إلى المسجد الحرام كان من باب بني شيبة، وهو باب السلام... ثم إلى الحديث عن الحجر الأسود... والملتزم والشاذروان، وأن الذي قال: إن به ثلاثاً وأربعين حلقة، فتجد أن العامة عند طوافهم يدخلون أيديهم فيها معتقدين أن فعل ذلك من الواجبات! وعند باب الكعبة أيضاً حلق تراهم يتعلقون بها ويسمونها «العروة الوثقى»، قال: ولكل امرئ ما نوى.

وبعد أن يلاحظ ارتفاع الباب على نحو من سبقوه، يذكر الصفا والمروة بما نعهده، قال: «ولم يتمكن لنا طواف القدوم إلى أن صلينا المغرب لكثرة الحر (أوائل سبتمبر ١٦٩٠م).

وأصبحنا مقيمين يوم الاثنين، وهو يوم الزينة (٧ ذي الحجة / ١١ سبتمبر) ويوم الثلاثاء، وهو يوم التروية... ورحلنا ضحًى ونزلنا بمنى عند الزوال... وتوصيك الرحلة باصطحاب الماء معك من منزلك بمكة؛ فإنه لا يوجد ماء حلو بمنى!!».

ولا بد أن تذكر الرحلة مسجد نمرة وصلاة الظهر والعصر قصراً وجمعاً... ولا بأس عند الإمام اليوسي من الجواب عن النوازل الفقهية ولو في زحمة الوقفة التي كانت تصادف يوم الأربعاء (١٣ سبتمبر).

إذا كـان شكر نعـمـة الله نعـمـة
عليَّ له في مـثـلهـا يجب الشكر

ويحرص الإمام على مساعدة الحجاج بتقديم بعض التنبيهات عند الخروج من عرفات في اتجاه المزدلفة والمناسك الباقية.

وتذكر رحلة اليوسي أن ميزاب الكعبة الموجود عند زيارته هو لمكة من مبادرات السلطان أحمد بن محمود ابن السلطان مراد أحد ملوك عثمان، قال: وهو من فضة مموهة بالذهب، وضعه سنة اثنتين وعشرين وألف ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م، بعد أن أخذ الميزاب العتيق، قال: وهو الآن في خزائنهم بالقسطنطينية الكبيرة يتبركون به... ويوصي بالدعاء لدى الملتزم، ويتحدث كذلك عن الحطيم وزمزم.

ولا ينسى الإمام اليوسي أن يرفع عقيرته بالشكوى من المطوفين الذين لا يتركون له مجالاً للتأمل والتدبر وهو يقوم بالطواف! لقد كان يقاسي منهم العناء، يعترضون طريقه ويملون عليه قول ما يحفظون! إنهم يرغمونك على أن تنطق بما يرددون ولو أنه خطأ! وكان يشتري منهم تركه لحاله، ولكن هيهات! قال: والحاصل أنه لا ينجو منهم أحد!!

وتنقل مخطوطة اليوسي عن الشيخ مظفر الاستنباطي أن أهل مكة أهل أنفة وكبر وحسد... وأنهم يبغضون الغريب:

لا تنكرن لأهل مكة قسوة
والبيت فيهم والحطيم وزمزمُ
آذوا رسول الله وهو نبيّهم
حتى حمته أهل طيبة منهمُ

ومع هذا فلهم حرمة، يقول اليوسي، ويجب علينا تعظيمهم وعدم أذاهم؛ فإنهم جوار بيت الله، في كلام من هذا القبيل.

وعلى عكس هذا يسدي الثناء العطر على أهل المدينة المنورة.

ويختم اليوسي بالحديث عن العمرة التي قام بها من التنعيم ليلة الأربعاء السادسة عشرة من الشهر (٢٠ سبتمبر)... ثم يخبرنا أنه اتجه نحو طيبة مردداً بيت أبي الطيب المتنبي:

ولما رأينا رسم من لم يدع لنا
فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لُبَّا
نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة
لمن بان عنه أن نلم به ركبا

إحدى صفحات مخطوطة رحلة اليوسي

الرافعي الأندلسي التطواني ١١١٠هـ / ١٦٩٨م

هذه رحلة كاملة لأبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي الرافعي الأندلسي التطواني... المولود نحو سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م، والمعروف عنه أنه كان حياً عام ١١١٠هـ / ١٦٩٨م حسبما يؤخذ من تقاريظ ديوانه[١]، وهي تحمل عنوان «المعارج المرقية في الرحلة المشرقية».

ولقد قام بهذه الرحلة عام ١٠٩٦هـ / ١٦٨٥م، حيث جمعته الصداقة في مكة وفي منى مع شيخ الطريقة الناصرية أبي العباس أحمد بن ناصر الآتي الذكر...

وقد كان يهمنا من نصوص الرحلة ما يتصل بانطباعات الرافعي وهو يجد نفسه في مكة المكرمة، في المسجد الحرام، وأمام البيت العتيق، وفي منى والمزدلفة وعرفات...

لقد وصل الركب المغربي إلى مكة في رابع ذي الحجة (فاتح نوفمبر) بعد أن قطع من المراحل أربعاً وثلاثين، سردها المؤلف في منظومة استهلها بقوله:

خرجنا بركب الغرب من مصر ضحوة

نؤم الحجاز والدليل بنا يحدو

وقد وصف مدينة مكة المكرمة وما فيها من معاهد وأماكن وآثار، وأثبت نصوص الدعوات التي تقال في مختلف المناسبات والمواقف، وكل ذلك بشعور فياض وعواطف متأججة.

كالعادة إلى منى وعرفة فكان المؤلف في ركاب الشيخ أحمد بن ناصر، وكانوا يلازمون قراءة كتاب «دلائل الخيرات» للإمام الجزولي[٢].

وقد تحدث عن الأركاب التي شاهدها: الشامي والمصري والبغدادي والبصري.

---

(١) محمد داود: تاريخ تطوان، طبع ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م، ج١، ص ٣٩٠-٤٠٩. ونحن نشكر بهذه المناسبة كريمته الأستاذة حسناء القائمة على مكتبة الشيخ داود التي تفضلت علينا بنسخة مصورة للرحلة.

(٢) د. التازي: ترجمة الجزولي ضمن الكتاب الذهبي الذي صدر في فيينا بالنمسا حول نسخة مغربية فريدة لدلائل الخيرات.

Al Gazuli: commertar Von Tarui Al Samman, Graz-Amaut, 1987.

وبالنظر إلى أهمية إفادات الرحالين فإننا ننتقي هنا بعض مضامينها، خصوصاً أنها من أوائل الرحلات في عهد العلويين، معتمدين على المخطوطة الأصلية التي توجد كما أشرنا بمكتبة الشيخ محمد داود بتطوان.

لقد دخل مدينة مكة المكرمة من باب المعلى، وهو خاضع ذليل للملأ الأعلى. كنت - يقول الرافعي - راغباً وصاغياً وسائلاً وراجياً... كنت شاهدت عند الدخول إلى مكة عموداً من نور صاعداً من ناحية الكعبة يبرق بنور، كان دخولنا يوم الجمعة عند الغروب، فحططنا الرحل عند باب المعلى، وما مسنا تعب ولا لغوب.

وقد بادر إلى الطواف بالبيت العتيق... وكان دخوله من باب السلام... وسار إلى السعي بين الصفا والمروة، تارة يرمل وتارة يهرول... كان يقوده عند الطواف شاب من أبناء الأشراف... كان بوجهه سماح، فجعلنا ننقاد خلفه متأدبين؛ لأن الله خص أهل مكة بهذه الفضيلة.

وباكروا من الغد أيضاً بالطواف بالكعبة... وصلى بمقام إبراهيم الخليل... وما زال يقبِّل الحجر الأسود في كل شوط... كما كان يستلم الركن اليماني، ويعتنق الملتزم، وقد صلى داخل الحجر، وإن كان في الصلاة داخله خلاف! وصلى في كل مقام ترجى بركته، ولو أن البيت كله فاضل... ولم يزل يتردد إلى المسجد الحرام يسعى مع كل قوم، ويطوف مع خير رفيق، شاكراً لله أن منَّ عليه برؤية الكعبة المشرفة وسط هذا الحرم الشريف وكأنها حوراء جليت في أعلى الفراديس..!

وبعد أن يعد أبواب المسجد يذكر أنه شاهد على باب العباس نقشاً في الحائط وقد كتب فيه بخط فائق الحسن: محمد - أبو بكر - عمر - عثمان - علي. وقال: للبيت سبع صومعات... وأكثر هذا البيت محصب سوى طرقات وسط المسجد مفروشة بالرخام... وباب الكعبة عالٍ عن الأرض بثمانية أشبار وأربعة أصابع، وعرضه ثمانية أشبار، ذو حسن وجمال ونور ساطع، كأنه البدر... والملتزم بجانب الباب... والحجر الأسود، ياله من حجر حاز الفخار..!

ويتحدث عن حجر إسماعيل وحكم الصلاة فيه على رأي المذاهب، وقد سأل شيخ

الحرم وإمام المالكية به العلامة سيدي أحمد الغدامسي عن أحوال الكعبة، فأعطاه معلومات عن علو جدارها وطولها وعرضها، كما سأله: هل الصلاة أفضل في هذا البيت الشريف من الطواف؟ قال: وتدور على الكعبة من كل الجهات أعمدة كالسواري من النحاس، على رؤوسها جوامير مذهبة ما لها في المثل قياس..!

وتفيض سجية المؤلف فيخاطب الكعبة بقصيدة ميمية يقول في أولها:

أيا كعبة الله جُزْتِ العلا
وسُدْتِ وصُلْتِ على كل سام
أيا كعبة الله أنت الشفا
لكل عليل عراه السقام

ويصف مقام إبراهيم الذي كان عليه شباك من النحاس من الجهات الأربع... وداخل الشباك يوجد الحجر الذي صعد عليه أبونا إبراهيم ونادى بالحج... ويصف المنبر الخالص الرخام الذي له قدر وافتخار... وأما قبة زمزم فهي قبة مهندسة البناء... وقد كان يروح إلى زمزم كل حين فيشرب من مائه ويصب على جسده... وخلف زمزم مخزن الكعبة الشريفة تقابله سقاية الحجاج. ويتحدث عن مصلى الأئمة الأربعة، وينقل عن الإمام محمد بن مزين في تأليفه أن قبلة أهل المغرب والأندلس وإفريقية وما والاها إلى الحجر إلا أنها أخذت قليلاً من الركن الشمالي، وقبلة أهل الكوفة وبغداد وأصبهان وخراسان وما والاها إلى الركن العراقي بين الباب والحجر، وقبلة أهل البصرة وما والاها باب الكعبة، وقبلة أهل اليمن الركن اليماني، وقبلة أهل الهند والصين الحجر الأسود...

وأما الصفا والمروة فهما خارجتان عن البيت، وبينهما سوق عظيم... إلى آخر الوصف الذي يشبه ما أورده مَنْ قبله من الحجاج.

قال: فلما كان اليوم السابع من ذي الحجة صعد منبر الكعبة رجل شريف، وهو محرم، له حظ من العلم منيف، حنفي المذهب، ذهب فيه أحسن مذهب، مؤتزر بفوطتين قطنيتين، فخطب خطبة واحدة بليغة وجيزة، فكل عالم كان في المسجد أقرَّ له بالفضل.

وفي اليوم الثامن رحلوا عند الضحى... إلى أن وافوا منى قبل الزوال... وباتوا بها،

وعند الصباح رحلوا إلى عرفات، فجازوا على «المشعر الحرام» الذي يصفه بأنه مسجد بلا سقف، مرتفعة جدرانه من ثلاث جهات، له صومعة ومحراب حسن ومنزلة حسناء... وعند حديثه عن المحسر، قال: إنه المكان الذي نزل فيه العذاب على أصحاب الفيل، وجعل كيدهم في تضليل.

وبعد حديث عن العلمين الفاصلين بين الحل والحرم يصل إلى جامع النمرة الذي له أربعة أبواب... أكثره بلا سقف... له صومعة في أحد جوانبه، حيث جلسوا لقراءة «دلائل الخيرات».

وما زالوا واقفين بسفح الجبل في موضع يقعد فيه أوحد الزمان سيدي محمد ناصر أبيه تبركاً بفعله، والله يصطفي من يشاء ويجتبيه، حتى كان قريباً من العصر قصدوا مع الشيخ إلى تحت الجبل الذي يخطب فيه الإمام، وهو موضع وقف به أو مر به نبينا عليه السلام... هناك تنسكب العبرات... ويكثر الأنين والزفرات، والتأسف والحسرات، عما اقترفه العبد من الزلات... وهناك سألنا الله صلاح الأهل والأنجال.

ولم نزل نرغب إلى المولى ونبتهل إلى المغرب، وأتم الإمام الخطبة، وكان على ما بلغنا فصيحاً معرباً... لقد صادفت الوقفة يوم الأربعاء سنة ست وتسعين وألف. قال: ولي من العمر ست وخمسون سنة.

ثم نفروا إلى المزدلفة، فصلوا خلف الشيخ (ابن ناصر) فريضة المغرب والعشاء جمعاً في أمم مختلفة، وباتوا بإزاء الشيخ، وصلوا خلفه صلاة الصبح، قبل أن يقصدوا الجمرات... ثم حلقوا ونحروا، لكنهم عجزوا عن المسير إلى مكة... لعدم التيسير. وهنا تذكر قول ابن جبير؛ حيث قال:

هنيئاً لمن حج بيت الهدى
وحط عن النفس أوزارها

وهنا أيضاً جادت قريحته بقصيدة بائية من أربعة وعشرين بيتاً، وقد وصف مسجد منى الذي يحمل اسم مسجد الخيف ومسجد علي... وهو يقول عن سوق منى: إنه سوق عظيم، فيه كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين... من كل الفواكه والأرزاق...

وكم من أمتعة فاخرة وتحف تبقى القلوب والأعين من حسنها باهرة.

ولا يغفل الحديث عن المشاعل والمصابيح التي توقد في منى... والمدافع والبارود الذي يتصاعد في الجو بصنعة يفعلونها حتى يعود الليل كالنهار..! والناس في إقبال وإدبار، فكم من أمير وافى الجبل بعساكره... ولو رأيت سلطان مكة شرفها الله لوحدت الله إعظاماً وإجلالاً على ما منحه الله تعالى.

لقد عاينت ـ يقول الرافعي ـ أمامه من الرايات أزيد من خمسين، وعشر نشاشات، ومظلاً قائماً على رأسه لا أستطيع له تبيين، كل راكب خلفه فرس أو جواد بدراعة على كل اللباس في غاية الرقة، ورمح من خيزران لا يحد ولا يقاس، أما الطبول والغوائط والمزامير والبنود فشيء لا يحد.

ويتحدث الرافعي عن كيفية رمي الجمرات... وتكون مناسبة لذكر المشايخ الذين كانوا حاضرين معه من أمثال العلامة سيدي أحمد الشريف عالم المدينة المشرفة... وسيدي أحمد الغدامسي إمام مكة شيخ الحرم السالف الذكر، والفقيه سيدي أحمد أشتوك، والعالم سيدي أحمد بن إبراهيم... إلى أن ركبوا النوق وتوجهوا إلى مكة... حيث دخلوا البيت الحرام العتيق؛ ليحكي مرة أخرى عن الطواف... وعن الركعتين خلف مقام إبراهيم... ثم يقوم بسُنَّة العمرة من التنعيم؛ حيث مسجد عائشة، قبل أن يعود إلى البيت الحرام لينعم برؤية ومشاهدة بيت الله صباحاً ومساءً.

وقد تحدث الرافعي عن دخوله رباط الإمام عثمان... شاهد فيه أربعة أرحية تطحن... صغاراً بجانب الحائط مبنية... ومازلت أتردد ـ يقول الرافعي ـ إلى الشيخ سيدي أحمد بن ناصر الدرعي ذي القدر السامي والجناب المرعي في كل حين من الأحيان، وطفت خلفه على الكعبة مراراً... وكان نزول الشيخ بغرفة من غرف المسجد الحرام مجاوراً إلى باب السلام.

وفي يوم الأحد الموفي عشرين من الشهر فتح باب الكعبة صباحاً... حيث كان أمراء الأركاب يفدون... فقد كان الرافعي ينتظر تحقيق هذا الرجاء، كيف لا وهو باب الله الأعظم، وفوز ونجاة ومغنم، كيف لا ومكة المشرفة تاج على هام الزمان... كيف لا وهي

أم القرى أسواقها معمورة، وخاناتها بالمتاجر مغمورة، طيبة الهواء، عذبة الماء.

وما زال بمكة فرحاً مسروراً يكرع من مائها العذب شراباً طهوراً، يتناول غرفة بكأس كان مزاجها كافوراً.

ويقترب وقت الرحيل فتقوى مشاعره ويلجأ إلى الشعر ليجد فيه متنفسه:

أزف الرحيل بمكة وحماها
ودنا الترحل والغرام تناهى
كيف السلو - سادتي - عن حضرة
شرف الإله بيتها واجتباها؟!

وعزم على المسير لعدم التيسير.. لقلة ذات اليد وخشية الإرهاق... والإنسان ضعيف اليقين، ولم يبلغ درجات التمكين.. فأسرعنا إلى كراء الجمال... واكترينا من بعض الصعايدة أباعر للمسير وخلصناه (يعني أدِّينا له)، فما كان إلا أن هرب لنا بجعل من المال! وتركنا في حسرة والفؤاد أضناه، وغامرنا من البؤس والكدر ما لم أجد له وصفاً مدى الدهر:

رفعت أموري لرب رحيم
رحيم مجير بحالي عليم!
عليم بما نالني من أسى
سريع الإجابة بر كريم

وبعد أن اكتروا جمالاً أخرى قصدوا البيت مودعين... ثم خرجوا من باب الشبيكة مرتحلين... وكان ارتحالنا من مكة يوم الاثنين بعد غروب الحادي والعشرين من ذي الحجة.

وما نفعل بل اختصر على العرض وعزمنا إلى رحالنا راجين للأجر والثواب
على أننا ثم بتنا تلك الليلة بمنى في أرغد عيش وسرور ومناه ومسى
ليلة النحر المتقدم ذكرها فيا لها من ليلة طلع فيها نجم السعود
وبزغ بدر مناه وبدا هلال اليمن والهناء واستبان ضوءه بآفاق جميعنا
فيما بقي بينا منا وأجللها وكعبة للسرور ما أكملناه ثم أتنا بالغد بعد
الزوال رمينا بها في الجمار وأخذنا في المسير ولما ارتحلنا وركبنا
الشوق موجهين للحرم مكة شرفها الله مخبرين بالتجهيز والثناء على
الله فبلغنا مكة وبادرنا إلى الكعبة شرفها الله ودخلنا
البيت العتيق من باب بني شيبة فطفنا به طواف الإفاضة وفاضت
علينا نعم الله الجليلة بأجمعه ابتهلنا بتقبيل الحجر ونوينا الفرض وطفنا
بالكعبة سبعا مكملين الفرض الحجي [illegible] فعلينا النصح والطواف
والمشي وعند تقبيل الحجر كبرنا وفي حالة الطواف دعونا الله
ومما طلبناه كما أوصينا [illegible] في ثلاثة أشواط وأربعة منها
مشينا وهم بالثلاثة الأول [illegible] ومازلنا نكرر [illegible] اغفر
وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم ربنا آتنا في الدنيا
حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار بلفظ العظيم الجود
يا حليم يا غفار ومازلنا ندعوا ونبتهل في كل الطواف وعند الركن
اليماني والحجر الأسود وأتانا رجاؤنا والخشوع ثم صلينا ركعتي الطواف
خلف مقام أبينا إبراهيم الخليل وسألنا الله التوبة والمغفرة وبكون
لنا خير كفيل وكما سألناه المغفرة لآبائنا وأمهاتنا وصلاح أهلينا
وأولادنا وجملة إخواننا وأقاربنا وأشياخنا وأسلافنا [illegible]

إحدى صفحات مخطوطة رحلة الرافعي الأندلسي

الهشتوكي ١١٢٧هـ / ١٧١٥م

هذه رحلة لأبي العباس أحمد بن محمد بن داود بن يعزي بن يوسف الجزولي نسباً، الأَحُزِي لقباً، الهشتوكي شهرة، التملي بلداً؛ نسبة إلى أنتملت.

هكذا سمى نفسه في مقدمة الرحلة على نحو ما كان منه في إجازته لأبي العباس الدمنهوري المجيز له عامة بما أجازه الشيخ عبد القادر الفاسي.

ذكروا أن له رحلتين حجازيتين ذكر فيهما مَنْ لقيه من العلماء ورجال الفضل، وهما بالفعل رحلتان حجازيتان بالخزانة العامة، من مخطوطات وزارة الأوقاف، انظر المنوني، رقم ٤٩٤ ... وهي تحمل عنوان: «هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام، والوقوف بالمشاعر العظام وزيارة النبي عليه السلام».

وتبتدئ بقوله: «الحمد لله الذي كرَّم وشرَّف بيته العتيق، وأوجب حجَّه على كل مكلف حر مطيق، فتأتيه الركبان وافدة من الناس من كل فج عميق، ليغسل كل منهم بذلك أوزاره وذنوبه التي هو فيها غريق».

إلى أن يذكر تاريخ ابتداء الرحلة الأولى الذي كان يوم ٢٧ من ربيع الآخر سنة ١٠٩٦هـ (٢ أبريل ١٦٨٥م). هذا إلى الرحلة الثانية التي جرت سنة ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م، وهي في الخزانة العامة تحت رقم ١٤٧، ج [(١)].

وينبه الهشتوكي على ضرورة قيام الذي يريد الحج بصلاة الاستخارة التي تعدُّ أساساً لتحرُّك المسلم وتوجهاته.

وهو يمهد لأعماله بتخصيص قصيدة تمهيدية؛ حيث حديثه عن البحر وأهواله، لكنه إذا تعين ركوبه يصبح واجباً إذا أمن الإنسان من العطب:

(١) الكتاني: فهرس الفهارس ٢، ٤٢٣-٤٢٤. د. التازي: ليبيا من خلال الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة ١٩٧٧م، ص ٣٦، التعليق ٣. الإعلام للعباس بن إبراهيم، ج٢، ص ٣٥٣، طبعة جديدة. عبدالله المرابط الترغي: فهارس علماء المغرب، منشورات جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، طبعة أولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ٦٦١-٦٦٢. أعمال السوسي في كتاب الفهرسة، دعوة الحق، يونيو ٢٠٠٢م. المنوني: رقم ٤٩٤.

وكم أمر تساء به صباحاً

وتأتيك المسرة بالعشيّ

والهشتوكي في رحلته ينقل عن ابن خلدون، وهو ينبه الحجاج لحقيقة يجب أن تظل أمام أعينهم، وهي التذرع بالصبر: «واعلم ان كل ما تحتاج إليه من تلك الطريق فإنك تحتاج إلى أضعاف أضعافه من الصبر، فاعتمده واجعله في قمة المروءة؛ فإنه كنز لا يفنى».

ومن جهة أخرى فهو ينبه على أن أفضل عملة يمكن للحاج أن يعتمد عليها هي الذهب، وعلى الخصوص التبر غير المصنوع والمطبوع. وبهذه المناسبة ينصح الحجاج بالإنفاق والإنفاق، فإنك ستجد عاقبته.

ولا يفتأ مذكّراً ومعترفاً بأنواع الحفاوة التي يتلقاها الحاج وهو في طريقه إلى مكة ما دام منفقاً كريماً.

وعلى عادة العلماء القاصدين للحج فإنه مستعد دائماً للجواب عن النوازل... وهو ذو قابلية زائدة للاستطراد والتجول في أطراف الحديث، واستحضار الأشعار اللائقة بالمقام.

رضيت بما قسم الله لي

وفوّضت أمري إلى خالقي

كما أحسن الله فيما مضى

كذلك يحسن فيما بقي!!

وبعد هذا وقبل هذا، سنجد الهشتوكي متأثراً بأبي سالم العياشي ينقل عنه أحياناً الفقرات الطوال، ومعلوم أن العياشي كما قلنا يظل لازمة لجل الرحالين المغاربة، ولهذا فإن الجديد في رحلة الهشتوكي قليل في نظرنا؛ لأنه ظل متأثراً بمرويات أبي سالم باستثناء بعض الاستطرادات والفتاوى المفيدة.

أحمد بن ناصر ١١٢٩هـ / ١٧١٧م

صاحب هذه الرحلة هو الشيخ أبو العباس أحمد ابن الإمام الشهير أبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي. كان ظاهرة في زمانه، موزعاً لأوقاته، مالئاً لها بالمهم من الأعمال، مقتدياً بقول والده الإمام: «مسألة تستفاد خير من خلافة بغداد».

رحل إلى المشرق فأخذ عن جلة القوم الذين أجازوه في الحجاز وبلاد الشام ومصر.

وقد اعتمد كثيراً عند كتابته رحلته على رحلة شيخه أبي سالم العياشي السالفة الذكر، والتي قلنا عنها: إنها كانت عمدة معظم الرحالين المغاربة اللاحقين على نحو ما كان من رحلة ابن جبير بالنسبة إلى السابقين.

وقد توفي سنة ١١٢٩هـ / ١٧١٧م في تمجروت، ودفن مع أبيه.

قال أبو عبد الله محمد المدعو المكي بن محمد الناصري الدرعي الذي كان حياً سنة ١١٧٠هـ[(١)]، قال في كتابه «الدرر المرصعة في صلحاء درعة»: حج الشيخ أحمد الخليفة رضي الله عنه أربع حجات:

الأولى: صحبة والده الإمام الشهير، وكانت بمثابة التمهيد لحجاته اللاحقة[(٢)].

الثانية: بعده عام ١٠٩٦هـ / ١٦٨٤م، وله فيها تأليف رحلة صغيرة مفيدة، وأشار لبعض محتواها في الرحلة الثالثة، وقد صادفت رحلة الرافعي الأندلسي التطواني الذي يذكر فيها شيخه الدرعي على ما سلفت الإشارة إليه عند تلخيص رحلة الرافعي ١١١٠هـ / ١٦٩٨م.

الثالثة: عام ١١٠٩ / ١٦٩٧م، وله كذلك فيها رحلة عجيبة أكبر من الأولى.

الرابعة: عام ١١٢١هـ / ١٧٠٩م، وله فيها رحلة كبيرة تكون في سفرين رباعيين جمع فيها بين اللتين قبلها.

---

(١) ابن سودة، ص ٤٦-٤٧.

(٢) لقد كشف الشيخ السنجاري أنه اجتمع بالشيخ أبي عبد لله محمد بن ناصر سنة ١٠٨٢هـ في بيت العلامة المغربي محمد بن سليمان الروداني الذي كان يخبر عن محمد بن ناصر بالعجائب. منائح الكرم، طبعة جامعة أم القرى، ج٤، ص ٥١٣، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

وإذا كانت رحلاته: الأولى، والثانية، والثالثة لم تنل شهرة، فإن الرحلة الأخيرة سنة ١١٢١هـ / ١٧٠٩م كانت من الشهرة بمكان، وهي الموجودة في أيدي الناس، وتحمل في الخزانة الملكية رقم ١٧٨٧.

وهذه هي المطبوعة على الحجر بفاس سنة ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م في جزأين اثنين... وترجم قسم منها إلى الفرنسية من لدن د. باربروجا على أثر ترجمة قسم من رحلة العياشي، ونشر الجميع بمجلة جزائرية. ويوجد بالخزانة الحسنية عدد من النسخ المخطوطة[١]، وفيها يفصل المؤلف أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي قصة رحلته البرية البحرية إلى الأراضي المقدسة بعد أن خرج من مقره بالزاوية الناصرية يوم ٢٤ جمادى الأولى سنة ١١٢١هـ/ أول أغسطس ١٧٠٩م، ومنها إلى سجلماسة... ومنها إلى بسكرة واصفاً المحطات مستطرداً بذكر بعض التواريخ[٢].

وقد غادر الركب الناصري القاهرة يوم ٢٨ من شوال (٣ ديسمبر ١٧٠٩م)... وركب بحر القلزم، والتقى بالركب المصري في العقبة؛ حيث انضم إليه ركب القدس، وهو يصف لنا بحر القلزم وأهواله ومدينة العقبة... وسار الركب المشترك خلال مفاوز وشعاب ضيقة حتى وصل إلى ينبع أول بلاد الحجاز.

ثم وصل إلى مكة فدخل من باب المعلى وهو الثنية العليا التي دخل منها المصطفى سيد الآخرة والأولى... وقد بالغ الولاة في حفر هذه الثنية وتنقيتها من الأحجار حتى صارت كأحد الأزقة، ومنها يشرف على مقبرة مكة المسماة بالحجون.

ودخلنا مكة بفرحة لم تغادر في النفس ترحة، وجلت عن العيون كل قرحة، صبيحة يوم الخميس السادس من ذي الحجة سنة ١١٢١هـ السابع والعشرين من يناير[٣] (الفلاحي)،

---

(١) فهارس الخزانة الحسنية، ج١، إنجاز محمد عبد الله عنان، عبد العالي لمرير، محمد سعيد حنشي، إشراف ومراجعة أحمد شوقي بنبين مدير الخزانة الحسنية ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ص ٥٦١-٥٦٦.

(٢) الصفوة ص ٢٢١، النشر ج٢، ص ١١٩٦، الالتقاط ص ٦٠، السلوة ج١، ص٢٦٤، طلعة المشتري في النسب الجعفري، ج٢، ص ١٧، الأعلام ج٢، ص ٣٥٧، المطبعة المكية، ليفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي، الرباط ١٣٩٧هـ / ١٩٧٩م، ص ١٠٦-٢٠٧، ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى ج١، ص ١١، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٠م، طبعة ثانية.

(٣) القصد إلى يناير الفلاحي وليس الفرنجي المتعارف عليه والذي يصادف ٦ فبراير ١٧١٠م.

فذهبنا نؤم البيت الحرام، واثقين بنيل كل مرام، فجئنا المسجد الشريف، فدخلنا من باب بني شيبة... فشاهدنا البيت العتيق الذي تزيح أنواره كل ظلام، وقد تدلت أستاره، وأشرقت أنواره، وقد شمر البرقع عن أسافله، حتى لا يكاد الطائف يناله بأنامله.

ويأخذ أحمد بن ناصر في النقل عن أبي سالم العياشي... واصفاً الطواف والسعي رافعاً عقيرة الشكوى، على عادة من سبقه، من وجود السوق في المسعى.

ويخبرنا ابن ناصر بأنه نزل بدار الشيخ محمد بن سليمان التي اكتراها من ورثته بتسعين أحمر، وفيها ثلاثة مساكن، نزل مع زوجتيه بالمسكن الأعلى، وجعل أثاثه وحوائجه في الوسط ونزل أولاده وأصحابه بالأسفل.

ولما كان آخر الليل بعث بزوجتيه فطافتا وسعتا... وصلى الجمعة بمكة، وكان الخطيب هو ولد الشيخ محمد تاج الدين مفتي الحنفية، ووالده هو الذي التقى به في باب المنزل بالمسجد الحرام وأخبره بأنه جار له... وقد سأله عن بعض شراح الهمزية، فذكر أن عنده ابن حجر، فقال له أحمد بن ناصر أردت أن أنظر فيه الشيخ مرزوق الكفافي، فبعث ولده وأتى بالتأليف...

ومن هنا استمرت علاقة الرجلين في باب إعارة الكتب وتبادل النقاش، وتعرف بواسطة هذا المفتي إلى الشيخ عبد الله بن سالم البصري الذي وجده في مكتبته، والكتب محدقة به يميناً وشمالاً ووراء وأماماً!! وقد أجاز صاحب الترجمة في سائر مقروءاته ومروياته ومسموعاته.

ويعود أحمد بن ناصر إلى الموضوع ليحمد الله على ما ناله من الطرب والفرح، الذي أنساه العناء والترح، فلا ترى إلا ضاجاً بالذكر، وصارخاً بالدعاء بالسر والجهر.

وهنا رأى من المناسب أن يستشهد ببعض الأبيات من قصيدة هائية(١)، ويتعلق

---

(١) القصيدة الهائية تذكر في القطعة الهائية التي نظمها المنالي الزبادي (١١٦٣هـ / ١٧٥٠م) في رحلته الآتية الذكر:

لله ذاك البيت ما أسناه
يا سعد من فيه بكت عيناه!

وفِّ المناسك، ثم جُدَّ لطيبة
مأوى الرسول وربعها مغناه!!

الأمر بقول قائلهم، ولله درك:

وما زال وفد الله يقصد مكة
إلى أن بدا البيت العتيق وركناه
فضجت وفود الله بالذكر والدعا
وقد فرّت الحجاج حين رأيناه
وقد كانت الأرواح تزهو لفرحة
لما نحن من عظم السرور شهدناه
فصافحت الأملاك من كان راكباً
وتعتنق الماشي إذ تتلقاه
وطفنا به سبعاً رملنا ثلاثة
فاربعة مشياً كما قد وعدناه
كذلك طاف الهاشمي محمد
طواف قدوم مثل ما طاف طفناه

إلى آخر الأبيات الخمسة عشر، وهو يقول:

فهذا الذي نلناه يوم قدومنا
وأول ضيق للصدور شرحناه

ويذكر أنه في اليوم الثامن - وهو يوم التروية - خرج إلى منى بعد الطواف على ما هي السنة، مستدلاً بما في كتب الفقه المالكي. وهكذا كان يمزج مذكراته باستعراض أقوال الفقهاء.

قال: وكان نزولنا بمنى شرقي مسجد الخيف قريباً من بابه الشرقي، وصلينا به الظهر والعصر خارج القبة التي تواتر أنها موضع خيمة الإمام علي كرم الله وجهه.

وقد اجتمع ابن ناصر هناك بالشيخ محمد أكرم ابن الشيخ عبدالرحمن مفتي الهند، وهو رجل عالم له تآليف حول الإمام البخاري، وهو ضرير كبير السن... وقد سأله أحمد بن ناصر عن المسافة بيننا وبين الهند، فقال: أربعون يوماً في البحر، وأربعة أشهر أو ستة في البر، وإن بلده هو السند، وبينه وبين الهند ثلاثون يوماً.

وبعد أن يهتم بأمر رؤية الهلال الذي تبين أنه خبر سجاح!! يعود إلى قضية المبيت بمنى، وأنه سنة أُميتت من زمان على ما ذكره العبدري وابن رشيد، لكن الشيخ ابن ناصر أحيا هذه السنة في سائر الحجات التي قام بها(١).

وقد نزل بجواره الشيخ عبد القادر بن أبي بكر مفتي الحنفية، فسأله عن البناء القائم بمسجد الخيف ونمرة فأخبره المفتي بأنه من بناء قايتباي.

قال: «ووقفنا تحت الجبل الذي عليه القبة المنسوبة لآدم»، قال: «ولكن الخطيب لم نر له شخصاً، ولا سمعنا له صوتاً، وإن لم يكن بعيداً عنا لكثرة الازدحام، واختلاط الأصوات مع اختلاف اللغات وتباين الرغبات، إلا أصوات التلبية لاشتراك الكل فيها، ولا سبيل إلى تغييرها!!

ووقفنا على إبلنا، وأرحنا بغالنا، إلى أن غربت الشمس، قبل أن ينفر الإمام، ويفر الناس في زحمة محفوفة بالألطاف.

«ولو شاهدت يا هذا تلك الحال، وما عليه الناس، لهالك ذلك المشهد الذي هال أمره وعجز عن وصفه زيد البيان وعمره - يقول ابن ناصر - إذ ترى الملوك في مقام الافتقار والذلة، والفقراء في محل الاضطرار والقلة، والجميع يرغبون في المغفرة من الرحمن، ويطلبون الرحمة والعفو من العفو الرحيم الحنان المنان، فكم من دموع تدفقت، وكم من ضلوع تحرقت، وكم نسمات هبات هبت، وكم سحائب رحمة هبت».

وهنا يأتي أيضاً بأبيات من القصيدة الهائية، بلغت سبعة وثلاثين بيتاً:

فكم حامد! كم ذاكر! كم مسبح!
وكم مذنب يشكو لمولاه بلواه
وكم خاضع! كم خاشع متذلل
وكم سائل مُدَّت إلى الله كفاه
وكم من منى نلنا بيوم وقوفنا
وكم من أسير للمعاصي فككناه

(١) ص ٧٥ من مخطوطة الخزانة الملكية.

فظل حجيج الله لليل واقفاً

فقيل: "انفروا" فالكل منكم قبلناه

بعد هذا الشعر حيث رأينا الملوك في مقام الافتقار والذلة... يخبر ابن ناصر أنهم ساروا إلى المزدلفة حيث التقطوا الأحجار للجمرات.

ويجيء أحمد بن ناصر بطن محسر، وهو وادي النار: البركة الخربة التي على يسارك إن مررت بطريق الأركاب وأنت ذاهب إلى منى... قال: وبهذا عرفه أهل عصره بالمناسك خليل المكي حسبما نقله عنه البلوي في رحلته(1) إلى أن أتينا جمرة العقبة... ورميناها بسبع حصيات.

ويدعو أحمد بن ناصر حلاق الحاج عبد القادر فيحلق، ويسير إلى المسجد الحرام لطواف الإفاضة، حيث وجد البيت العتيق مفتوحاً والناس على ظهره بكسوته.

وهنا عرض له الأخ الحاج بوعزة المراكشي، وحثه على دخول البيت، وقد امتنع الشيخ أحمد بن ناصر تأدباً متعللاً بالزحمة! ويتدخل الحاج بوعزة لدى أمير الركب المصري إبراهيم أبو شنب فيشجعه هذا ويأخذ بيده ليطلعه.. ويشعر أحمد بن ناصر بالهيبة، فيركع لناحية الباب غافلاً عن السنة التي تقضي بأن يجعل الباب خلفه، لقد أنساه الخجل والوجل ما كان يعرف!!

لكنه لما دخل البيت العتيق المرة الثانية في حجته هذه، ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة، ركع إلى سائر الجهات وكبَّر في سائر نواحيه، ومشى في عرضه وطوله؛ طلباً للعلم والوقوف على حقيقة المكان، لا للتفرج والتنزه، وفي كل ذلك كانت تلازمه السكينة والوقار، والإكبار والإجلال، واستشعار الحرمة والعظمة.

قال: روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «عجباً للمرء المسلم إذا دخل الكعبة كيف يرفع بصره قِبَل السقف! ليدع ذلك إجلالاً لله تعالى وإعظاماً. دخل رسول الله ﷺ الكعبة فما خلف نظره موضع سجوده حتى خرج منها».

---

(1) هكذا في مخطوطة أحمد بن ناصر الورقة ٧٦، ولم نعثر على هذا النقل في رحلة البلوي المطبوعة والمحققة من لدن د. الحسن السائح، ج٢، ص ٦. فهل اعتمد ابن ناصر على نسخة أخرى؟!

وبعد هذا يعود للنقل الحرفي عن الإمام أبي سالم حول ما يعتقده بعض العوام والمتفقهة في موضوع تجديد السعي بعد طواف الإفاضة، ثم يأتي هو بتعليق عن الموضوع.

ويعود ليذكر أنه لما فرغ من الطواف جلس للاستراحة في أخريات المسجد، واشترى خبزاً وسمناً وعسلاً، وأكل قبل أن يرجع إلى المنزل بمنى، وكان نزوله بثبير قرب الغار الذي نزلت فيه سورة المرسلات. قال: والناس يتحامون القرب من الجبل تقية من أذى السراق، فيستجير بعضهم من بعض، ويفرون إلى الدخول في غمار الناس، ولا يبالون بما ينالهم في ذلك من وطء الأقدام واستنشاق الروائح الكريهة، ونحن استسهلنا أمر السرقة في جانب هذه المضارّ، وكذلك فعلنا في كل ما مضى من الحجات، والله يعيدنا إليه الكرات بعد الكرات.

قال: وقد ذبح في منى في ذلك اليوم من الغنم ما أحسب الغني والفقير، وكفى البصير والضرير، وأغنى الوارد والمستوطن، فامتلأت الطرقات باللحم، فقد ورد من آفاق الأرض أصناف من الخلق لا تحصى؛ أغنياء وفقراء، فأكل الكل من ضيافة مالكهم، وتزودوا ما قدروا، وفضل ما أعجز الطير والهوام والوحش!!

وهنا أخذ النقل عن الإمام أبي سالم... قبل أن يعود إلى ذكر أنه قضى الليلة بمنى في نعمة كاملة، ويصبح الغد ليتحدث عن الأسواق العامرة، حيث أخرجت البضائع ذوات الأثمان، وتزاحم الناس على الشراء رجاء بركة ذلك المكان، وأكثر التجار يقولون: إن من اشترى شيئاً من منى وجعله في تجارته وجد بركته!

قال: ولما زالت الشمس توضأنا وخرجنا إلى رمي الجمار، مبتدئين الأولى التي تلي مسجد الخيف، ثم بالوسطى، وختمنا بالعقبة.

ويتحدث عن الليلة الثانية بمنى التي يتحدث كل الرحالين عن احتفالاتها وإيقاد المصابيح بها، والتنافس بين أهل مصر والشام في الرمي بالبنادق والمدافع والمحارق المرتفعة في الجو.

قال: فهو (أي موقع منى) أجمل الأندية، ومبانيه أحسن الأبنية، تشرق في النهار

فساطيطه الموثقة، وبالليل مصابيحه المشرقة.

ويعود للاستعانة بالإمام أبي سالم حول هذه التسليات والاحتفالات والمهرجانات..

قال: فلما أصبح الناس في اليوم الثالث أخذوا في الرحيل متعجلين، ولم يبق إلا جماعتنا وبعض أهل البصرة والأحساء، ولو أن سلطان مكة تعجل وكان من عادته ألاّ يتعجل(١).

ولما زالت الشمس في اليوم الرابع ارتحلوا من منى... ومالوا إلى مسجد الكبش فزاروه، ثم مسجد العقبة الذي تمت فيه بيعة الرسول ﷺ، وجاؤوا المحصب ونزلوا به بإزاء مسجد عائشة، حيث صلوا به الظهر والعصر والمغرب والعشاء... ورقد رقدة على حد تعبيره ليتفرغ بعدها للعمرة، ويحرم من التنعيم لتعذر الجعرانة من شدة الخوف وقلة الرفيق!!

وأتينا مكة، فطفنا، وهنا يحكي عن حادثة كثيراً ما تقع للحجاج، قال: «ووطئ إنسان على بنصر رجلي اليسرى ولا أظنها إلا انكسرت!! وأتممت الطواف وأنا أحجل، ولم أقبل الحجر مباشرة في أكثر الأشواط:

هل أنت إلا إصبع وطئت

وفي سبيل الله ما لقيت!!

وخرجت إلى السعي فسعيت على رجلي، وتعبت جداً فعجزت عن إتمام السعي راجلاً، وأوتيت بالدابة فركبت وأتممته راكباً، وأتيت المنزل الذي اكتريناه ورقدت رقدة!».

وأصبحنا بمكة يوم الجمعة، رابع عشر ذي الحجة (ثالث فبراير - الفلاحي)، وأقمنا بها بعد قضاء النسك تسعاً، وفي هذه المدة في تلك العرصات نجول ونسعى، ودخلنا البيت الشريف كما قدمنا، فتمتعنا بإجالة النظر في نواحيه حرصاً على تحقيق مبانيه.

وهنا يأتي ابن ناصر بقطعة ثالثة من القصيدة الهائية التي سبق له أن ذكر المشاهد التي ينبغي للحاج أن يزورها بمكة.

وهنا نقرأ صفحة نقدية مهمة حول مصداقية ما يروى عن تلك المشاهد... وهو يقتفي في ذلك خطوات الإمام أبي سالم القائل باستبعاد ما يروى حول بعض المواقع

---

(١) القصد إلى الشريف عبد الكريم بن محمد بن يعلى من ذوي بركات الذي كانت له مشاكل مع بني عمه المتنافسين على الحكم. السباعي: تاريخ مكة، ص ٤٠٣، ٤١١، ٤١٢.

(مولد النبي مثلاً) بعد مرور الأزمان والأعصار وانقطاع الآثار... كلام طويل ولكنه لا يخرج عن إطار ضرورة التأكد من نسبة هذه الأمكنة إلى أصحابها، وفي إطار أنها إذا تمت زيارتها فإنما تزار رعاية لعظم قدر مَن أضيفت إليه!!

ويؤيد أحمد بن ناصر الإمام أبا سالم في تعليقه على حادثة وقعت في غار حراء لبعض الهنود هناك، حيث هلك بعض الحجاج نتيجة تخلفهم عن الجماعة... لقد علق العياشي بجملة مفيدة رائعة تقول: «والانفراد عن الناس لا سيما في المفازات والمغارات البعيدة عن العمران لا يقوى عليه إلا من أيده الله بروح القدس».

وبعد كل هذا، يخصص الشيخ أحمد بن ناصر فصلاً بكامله لذكر من لقيهم في الحرم المكي من الأئمة، وهنا نجده ينقطع عن النقل من رحلة العياشي.

ونرى من المفيد أن نأتي بلائحة لشيوخه من العلماء الأعلام من الذين ينتسبون إلى مختلف جهات العالم الإسلامي، وهذا الذي يعطينا فكرة عن الوسط العلمي بأم القرى على ذلك العهد، ويذكر منهم حسب قوله:

الشيخ أحمد المخيلي الشافعي.

الشيخ عبدالله بن سالم البصري الشافعي.

الشيخ محمد تاج الدين مفتي الحنفية وابناه.

الشيخ عبد الحسن.

الشيخ عبد المنعم.

الشيخ عبد القادر بن أبي بكر الحنيفي المفتي سابقاً.

الشيخ محمد أكرم الهندي.

الشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي المكي الشافعي، وله تأليف عن التاريخ، ذكر فيه علماء الحادي عشر وصلحاءه وأدباءه وملوكه وشعراءه، وأطلعني على سفر منه ذكر فيه المحمدين فقط، ولم يكمل إلى الآن، وله رحلة إلى اليمن، ولقي الوالد، وأخذ عنه وجعل له ترجمة(١).

---

(١) القصد إلى المؤرخ مصطفى المكي المتوفى سنة ١١٢٣هـ / ١٧١١م، والإشارة إلى تأليفه «فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار أهل القرن الحادي عشر». الزركلي: الأعلام، ج٨، ص ١٤٠، والكتاب مخطوط.

الشيخ محمد بن عبد الباقي الإسكندراني المالكي.

الشيخ إدريس بن أحمد الصعدي الشماع الشافعي، وهو نسبة إلى صعدة؛ بلدة في اليمن.

الشيخ عبد الرحمن السندي (الهندي) والد أكرم.

الشيخ عبد الكريم الهندي، وفي عام ستة وتسعين وألف (١٠٩٦هـ / ١٦٨٤م) التقيناه بمكة وأكرمنا بالشيخ حسن العجيمي.

الشيخ الحسين الحنفي المكي، وأهدى إلينا عكازاً من الخيزران.

الشيخ علي اليمني، وهما من أصحاب سيدنا الوالد رضي الله عنه، وطلعا معنا إلى جبل أبي قبيس، فجلسنا هناك سويعات للدعاء ومشاهدة البيت العتيق والمسجد الحرام ومكة كلها.

وممن أجازنا بمكة من السادات - يقول أحمد بن ناصر - أبو محمد الشيخ عبد الله بن سالم البصري (السالف الذكر)، وقد كان أجازنا بلفظه، ثم بعث إلينا بالإجازة لبلدنا مع بعض أصحابنا.

وبعد أن يأتي الشيخ ابن ناصر بالنص الكامل للإجازة في رواية الكتب الستة التي هي دواوين الإسلام، ورواية موطأ الإمام مالك، هذه الإجازة التي يضيف فيها الشيخ البصري إلى أحمد بن ناصر اسم عالم مغربي آخر هو الشيخ اللوذعي والكامل الألمعي حسين بن محمد بن علي بن نشرحبيل البوسعيدي الدرعي.

وكانت الإجازة تحمل تاريخ الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف، وهي مذيلة بالتوقيع على النحو التالي:

كتبه الفقير إليه سبحانه عبد الله بن سالم بن محمد بن سالم البصري منشئاً، المكي مولداً، الشافعي مذهباً، لطف الله به وبالمسلمين، آمين.

ويعرف الشيخ أحمد بن ناصر بالمشايخ الذين ورد اسمهم في هذه الإجازة المذكورة من الذين أخذ عنهم الشيخ البصري علومه؛ أمثال:

أولاً: الشيخ عيسى الجعفري الذي يقصد به الشيخ أبا مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري شيخ أبي سالم العياشي السالف الذكر في الرحلة العياشية، وقد اعتمد

أحمد بن ناصر في الترجمة للجعفري على النص الكامل الذي أورده العياشي.

ثانياً: الشيخ محمد بن سليمان الذي يقصد به إلى العلامة الفذ ابن سليمان الروداني الذي نخصصه بحيز على حدة، وكان من أصحاب والد صاحب هذه الرحلة... وقد نعته أحمد بن ناصر تقليداً لأبي سالم بحكيم الإسلام وأحد العلماء الأعلام الذي لم يرشح له وعاء... وكان في هذه الترجمة أيضاً يعتمد على جميع المعلومات التي أوردها العياشي عن هذا العالم الجليل، بما فيها اجتماعه بفاس مع أوحد زمانه في سلوك طريق الصدق العديم النظير في معرفة آداب معاملة الحق؛ محمد بن عبد الله معن الأندلسي... الذي تحدث عنه القادري في رحلته (نسمة الآس)... وبما في ذلك مقارنة ابن سليمان من الوجهة العلمية بالشيخ داود الأنطاكي صاحب (التذكرة)(١).

لقد وجد أحمد بن ناصر في ترديد مرويات العياشي ما يستحق التكرار براً بروح الروداني الذي ذهب ـ كما نعلم ـ ضحية صراحته وصدقه.

ونختم تقديمنا لرحلة الشيخ أحمد بن ناصر بالإشارة إلى تنويهه ـ على نحو شيخه أبي سالم ـ بخفة الحمير التي تربط المواصلات بين جدة ومكة. كل الرحالين المغاربة أشادوا بخفتها وقوتها وتحملها حتى لأصبح تعبير (حمار جدة) يعني البريد السريع، ويحتفظ المغاربة إلى اليوم في حديثهم باستعمال كلمة «وحُمَير جدة» (حمير تصغير حمار)... يقولونها في شأن الغلام الخفيف الحركة الوافر الأداء.

---

(١) عن ابن سليمان، اقرأ تاريخ مكة للسباعي، ص ٣٩٨ وما بعدها.

[illegible]

إحدى صفحات مخطوطة رحلة ابن ناصر

القادري ١١٣٣هـ / ١٧٢٠م

هذه رحلة تحمل عنوان «نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس»، وقد ألفها أحد تلامذته: أبو العباس أحمد بن عبد القادر القادري الحسني المتوفى سنة ١١٣٣هـ / ١٧٢٠م.

استهلها بقوله: «الحمد لله الكريم المنان، العظيم السلطان، إلخ...». ومراد المؤلف بأبي العباس الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن عبد الله معن المتوفى سنة ١١٢٠هـ / ١٧٠٨م.

وتوجد نسخة منها في الخزانة الملكية رقم ٨٧٨٧، وبالمكتبة العامة ضمن مجموع رقم ١٤١٨/ك[١].

والطريف في هذه الرحلة أن صاحبها لا يتحدث عن نفسه، ولكنه يغطي رحلة لأستاذه أحمد بن محمد عبد الله معن، فهو يتحدث عنه كشيخ عظيم في قومه وعند مريديه، إذ نلاحظ في أسلوب القادري نوعاً من أدب السلوك مع من نجلُّهم ونكبرهم، وهو من ناحية أخرى يؤدي صورة عن تمسك المالكية بمذهبهم في أداء بعض مناسك الحج من غير أن يخالفوا زملاءهم الحنفية في باقي الممارسات الأخرى، وسنرى أيضاً أن القادري يعمل على التزام السجع في حديثه عن هذه الحجة التي كانت تصادف أيام حكم الشريف أحمد بن غالب بمكة.

قال: ونزلنا من الغد بعسفان، وبها عمارة، وبئر، ماؤها عذب جداً... ثم ارتحلنا منها وسرنا جد السرى فوصلنا غدوة لمكة أم القرى، وحين وصل سيدنا ـ حفظه الله ـ إلى أم العقيق، وذلك بعد صلاة المغرب، أخذ عن يمين الطريق، وذهب يستبق الركب ونحن معه نقتفي أثره ونسلك مهيعه، فادركنا أول الركب مع الدليل بمر الظهران المعروف الآن بوادي فاطمة، ثم جزنا الركب وسرنا إلى أن وصلنا سرف، فمررنا بضريح أم المؤمنين

---

(١) يراجع بحثنا حول رحلة الوزير الإسحاقي في ليبيا، مطبعة فضالة، ص ٣٧، تعليق ١. ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب، ص ٣٦٨.

ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها، وهو معروف مشهور مذكور في «شفاء الغرام» وعليه قبة، فوقفنا به هنالك وزرناه ودعونا وقرأت الفاتحة، وسرنا غير بعيد، فطلع الفجر علينا فنزلنا وصلينا، ثم ركبنا وسرنا فبلغنا ذا طوى، فنزلنا به واغتسلنا عند آبار هنالك، ثم سرنا فدخلنا مكة المشرفة من أعلاها، من ثنية كداء بالمد، وهو الموضع الذي ينحدر منه إلى الموضع المسمى عند العامة بالمعلى، ووجدنا هنالك جل المجاورين خرجوا للقاء سيدنا، ولقيه بعضهم بذي طوى وبعضهم بين ذلك، وفيهم الفاضل الخير الحسيب أبو عبد الله محمد بن طاهر الشهير بابن رضوان الأنصاري البخاري الفاسي القاطن بمكة، فطلب منه أن ينزل عنده بداره وألح عليه في ذلك، فلم يجد بداً من مساعفته جبراً لخاطره ومراعاة لنسبه وجواره له بمدينة فاس حيث كان بها.

وكان يوم دخولنا مكة يوم الاثنين الخامس من ذي الحجة (عام مئة وألف / ١٩ سبتمبر ١٦٨٩م)، وقطعنا حينئذ التلبية وسرنا فمررنا بالحجون، ثم ذهبنا، ثم قيل لنا: هذا هو (المدعى)، وهو الموضع الذي دعا فيه سيدنا إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ...﴾ الآية.

وسرنا فمررنا بالمسعى، ثم أتينا باب السلام، ودخلنا المسجد الحرام، ونحن في خير رفيق، فوقفنا عند البيت العتيق، وشرعنا في طواف القدوم من غير التفات، إذ واجب فعله على كل قادم وآت، وبدأنا بالحجر الأسود فقبلناه، وبلغ كل منا فيه مناه، فطفنا سبعاً، ورملنا في الثلاث الأول، وكلما مررنا بالركن اليماني كبرنا بعدما استلمنا، وإذا وصلنا الحجر مع سيدنا قبّلنا وكبرنا، ثم صلينا ركعتي الطواف خلف المقام.

ثم جاء سيدنا (الملتزم) بين الركن والباب، حيث الدعاء مستجاب، فوقف ووقفنا معه ساعة، رافعاً يديه للدعاء والضراعة، واشتغلنا بطلب المعلمات كالشهادة عند الممات.

ولما فرغ سيدنا من الطواف والصلاة والدعاء، ذهب من فوره نحو المسعى فخرج على باب الصفا، وقد طاب وقته وصفا، ونحن حوله مجتمعون، وأثره متبعون، فبدأ بالصفا فرقاها حيث يرى البيت من أعلاها، فبدأنا بها كما بدأها الله، إن الصفا والمروة من شعائر الله، فنوينا حينئذ بالسعي الفرض والوجوب، سائلين من ربنا تكفير الذنوب، وسرنا

حتى انتهينا إلى المروة، فصعدنا أعلاها واستقبلنا البيت، ودعونا ورجعنا إلى الصفا من فورنا، وكلما مررنا ببطن المسيل خببنا ونحن نتضرع ونرغب، وكم من عبرة تنحدر وتسكب، شعثاً غبراً مشاة، منتعلين وحفاة، حتى مررنا سبعاً، فكان وقوفنا بالصفا أربعاً وبالمروة أربعاً، وقد تم سعينا وشكر سعينا لله الحمد والمنة، فاتممنا بتمامه الركن الثاني من الحج، وأتينا إلى موضع حط الرحال، إلى حيث أنيخت الجمال، فنزل سيدنا بدار ابن رضوان المذكور قرب المسجد الحرام، بموضع يسمى سوق الشام (الشامية)، بمحل مرتفع عن السوق، والأصحاب حوله بدار واحدة جدارها به ملصوق، يصلي بالحرم الشريف سائر الأوقات، ويطوف بالبيت في المساء والصباح، وفي جوف الليل وكل وقت مباح، ويكثر من التنفيل والضراعة، واللجا والتملق كل ساعة، ويكثر ماء زمزم، وفي الوقوف بالملتزم، والناس يقتدون بفعله وصنعه، متبعون لوتره وشفعه، وهم في غاية الفرح والسرور، والسلوان والحبور، وقد بلغوا المنى، وحق لهم الهنا، وقد قلتُ في ذلك شعراً، وقصدت به شكراً:

هنيئاً لمن أمسى وأصبح بالحرمْ
وقام به عند المقام وملتزمْ
وطاف بذاك البيت قرباً لربه
وإن مرَّ بالركنين قَبَّلَ واستلمْ

فلما كان اليوم الثالث من دخولنا مكة، وهو يوم الأربعاء السابع من الشهر، جاء الخطيب إلى المسجد الحرام وصعد المنبر، وخطب الناس خطبة أمرهم فيها بالخروج من الغد إلى منى، وبين لهم بعض المناسك، وما يفعل هنالك، والركاب حينئذ هناك مجتمعة، وفرح الناس أن كانت الوقفة يوم الجمعة، وهذا اليوم - هو اليوم السابع - يسمى يوم الزينة، فتفرق الناس وتهيؤوا لتمام حجهم، ثم من الغد وهو يوم الخميس الثامن من الشهر، ويسمى يوم التروية، أتى سيدنا المسجد الحرام، وطاف بالبيت سبعاً وصلى ركعتي الطواف خلف المقام، ودعا وشرب من ماء زمزم وقام ساعةً يدعو بالملتزم.

ثم خرج من مكة وتوجه إلى منى يلبي راكباً على دابته وذلك قرب الزوال، ونحن معه وفي أثره نلبي ونعظم ذا الجلال، وسرنا حتى وصلنا سوق منى، فنزلنا هنالك في ظل

جدار بمكان مرتفع ينتظر من بقي من الأصحاب حتى لحقوا به، ثم سرنا فانتهى بنا المسير إلى أصل جبل ثبير، وصلينا الظهر والعصر بالتقصير، ونزلنا هنالك بمنى، وبتنا بها حيث المبيت سنة، لله الشكر وله المنة، ثم من الغد وهو يوم الجمعة المشرفة تاسع ذي الحجة ويوم الوقف بعرفة، يوم جعله الله عيداً للمؤمنين، وموسماً للمسلمين، وأنزل فيه على نبيه في فضلهم وشرفهم قرآناً مبيناً: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾.

أصبحنا بمنى ننتظر إشراق ثبير، كنا نرحل ونسير، فلما أشرق ارتحلنا باليمن والبركة، ورحالنا متوافقة ومشتركة، والجمال حينئذ سائرة، والعقول والأفئدة طائرة، وسيدنا على راحلته في هودجه يهيم بين البوازل، ويسأل عن تلك المنازل، حتى مررنا بالمشعر الحرام، ثم المزدلفة، ثم حيناً تراءى جبل الرحمة من جبال عرفة، فأخبر سيدنا وقيل له: هذا جبل عرفة، واعتراه حينئذ بكاء وحنين، وعلته عبرة قوية وأنين، وهو يقول رافعاً صوته: الله، الله، الله، وتارة يقول: يا سيدي يا رسول الله! وبقي كذلك سائراً لم تنقطع عنه العبرة، وتتابع عليه ذلك المرة بعد المرة، ولم تنقطع عنه حتى وصل مسجد نمرة.

ولما وصلنا إليه، وذلك ضحوة، نزلنا جميعاً معه، ونحن رفقة واحدة مجتمعة، وبنينا أمام المسجد الأخبية، وشرعنا في إصلاح ما نحتاج إليه من الأغذية... لما قضيت الأوطار، وذلك قرب الزوال، اغتسلنا وتوضأنا، وللصلاة تهيأنا، ثم لما زالت الشمس قطعت التلبية، وأتى الخطيب إلى مسجد نمرة، وصلى بالناس الظهرين وقصر فيهما وخطب، فبين للناس مناسكهم وما يصنعون في حجهم ووقوفهم، وما هو واجب عليهم في مذهبهم، وغالبهم حنفية.

ثم اجتمعنا نحن المغاربة المالكية خارج المسجد، ونشط الناس، وطابت الأنفاس، بحضور سيدنا أبي العباس، فصلينا هنالك الصلاتين ظهراً وعصراً، جمعاً وقصراً، سراً لا جهراً، بأذانين وإقامتين.

وكان إمام الصلاة يومئذ السيد العفيف الفقيه العالم النزيه، نادرة الزمان أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن، القاطن الآن بالمدينة المشرفة منذ أربع عشرة سنة، كان لقي

سيدنا بمكة وخرج معه حاجاً، وكان لا يفارقه إلى أن خرجنا من المدينة، وكان لا يمر بمكان من تلك الأماكن المباركة إلا ويعرف به ويسميه له ويذكر له ما يفعل فيه، فكان ذلك من منة الله علينا.

ثم لما فرغنا من الصلاة توجهنا إلى عرفات في الحين، ونحن وراء سيدنا مستبشرين فرحين، آمين ذلك الموقف الأعظم، والجمع الأفخم، حتى وصلنا جبل الرحمة، فأخذنا عن يساره لأجل الزحمة، وسرنا يمنتنا فوافينا الموقف الذي وقف به سيدنا رسول الله ﷺ في حجة الوداع. وهو كما حققه العلماء عند الصخرات الكبار المفترشة قرب الهضاب في أسفل جبل الرحمة، وهو الجبل الصغير الذي توسط أرض عرفة الذي بأعلاه القبة المسماة عندهم بقبة آدم، وأخبرنا بذلك أيضاً السيد الشريف الفقيه أبو العباس أحمد ابن عبد الرحمن المتقدم، وأنه معلوم عندهم، فوقف سيدنا بذلك الموضع الشريف مستقبلاً القبلة، والأصحاب من الأشراف والفقهاء وغيرهم حوله ممتثلون فعله، وهو رضي الله عنه على راحلته في هودجه ظاهراً للشمس إذ كان قطع أعلاه كما تقدم، ومعه فيه السيد الشريف النزيه العفيف أبو العباس أحمد بن عمر الحسني السجلماسي المجاور بالمدينة المنورة، وهو دين خير فاضل صالح حدث عنه بعض الفقهاء الثقاة أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت له: يا رسول الله، من تحب من المجاورين؟ فقال: أحب المغاربة والمسلمين من الهنود!

وقد اجتمع بذلك الموقف العظيم والمشهد الكريم بشر كثير وجم غفير، وحضر فيه من الركاب: ركب أهل مكة المشرفة وسلطانهم يومئذ الذي حج بالناس وهو الشريف أحمد بن غالب بعسكره وخدمه وحشمه، وخيله ورجله في زي واحتفال وهوادج ومحفات للنساء والأطفال[1]، والركب اليمني، والشامي، والبصري، والمصري، والفاسي، والقسطنطيني؛ سبعة ركاب، وحضر من عرب الحجاز وغيرهم من الأعراب ما لا يعد، والناس على كثرتهم، واختلاف ألوانهم وألسنتهم، منضمون بعضهم حول

(١) حسب المصادر الحجازية المهتمة بأمر شرافة مكة فإن الشريف أحمد بن غالب ـ وهو من ذوي بركات ـ استولى على مكة بمساعدة والي مصر بتاريخ ثاني شوال ١٠٩٩هـ، وتُلي مرسوم تعيينه في شهر ذي القعدة بالحطيم، وزينت مكة ثلاثة أيام. السباعي: تاريخ مكة، ص ٣٩٢.

بعض، عراة الرؤوس، شعثاً غبراً، رافعين أكفهم صافين أقدامهم، واقفين بين يدي مولاهم، خاشعين متضرعين، خاضعين متملقين، باكين داعين، وذاكرين ومسبحين ومستغفرين، فبقوا كذلك بعد الصلاة إلى غروب الشمس والإمام على ناقته في الجبل يدعو الله ويتضرع طوال تلك العشية، وبإزائه مسمع يسكت ساعة ثم يلتفت ويشير بفويطة[١] إلى الناس رافعاً صوته بالتلبية فيلبون أجمعهم على اختلاف مذاهبهم، رافعين أصواتهم بين تلك الجبال والهضاب، مجيبين لرب الألباب، راجين مولى كريماً وإلهاً عظيماً من ساله أعطاه، ومن استغنى به كفاه، ومن استشفى به شفاه، ومن استغفره غفر له، ومن تاب تاب عليه، فسبحان من يعلم سرهم ونجواهم! ويسمعهم ويراهم! فلو رأيتهم وقد ملؤوا تلك البسيطة مع الهضاب والآكام، وقد استوى هنالك في الرفعة والضعة الخاص والعام، وهم مشرفون على كل شرف، لا يدرى لهم حد ولا حرف، وسيدنا في هودجه على جمله بين الأقوام، كأنه بدر التمام أو مصباح بين الأنام، على هودجه بهاء وجمال، بين تلك الرواحل والجبال، وهو تارة يذكر الله وتارة يصلي على رسول الله، وتارة يرفع يديه يدعو ويتضرع، وساعة تفيض أعماقه ويخشع، وتارة يقرأ دلائل الخيرات[٢] حتى يسكب العبرات، وجميع الأصحاب حوله على تلك الحالة إلى الغروب، راجين مولاهم غفران الذنوب، مستشرفين لكل خير عاجل، مستشفعين بسيد الأواخر والأوائل، فيالها من وقفة ما أعلاها! وعشية ما أغلاها! وكل من حضر ذلك المكان أو رآه، يتيقن بنيل رحمة مولاه.

وقد قلتُ في ذلك:

عشية ذاك اليوم ليس لها مثلُ
على سائر الأوقات حق لها الفضلُ

لقد قامت الأقوام في عرصاته
لدى عرفات الجمع يجتمع الكلُّ

---

(١) يعبر آخرون بخرقة.

(٢) كتاب أوراد من تاليف (الإمام الجزولي) دفين مراكش، وهو واسع الانتشار في الديار المغربية.

بهـا آدم قـد قـام فـيـه لربه
وأبناؤه من بعـده سـيـمـا الرسلُ
وكم من نبي جـاءه في زمـانه
وقـام به طوعـاً ولذ له الوصلُ
وأتبـاعـهم جـيل فـجـيل أتت له
ومـؤمن جنس الجن حـولهم شـغلُ
وخـيـر عـبـاد الله والصحب كلهم
وتابعـهم والتـابعـون لهم تتلو
رجال من أهل الغيب يحضر جمعهم
والأوتاد والأبدال والقطب لا تخلو
عـبـاد قـيـام راغـبـون لربهم
بعـزم وإلحـاح والأعين تنهلُ
ببـاب الكريم الواسع الجـود والعطا
فـمـا منهم إلا ويُرجى له البـذلُ
سـألتُ الذي سـاق الجـمـيع بفضله
يعـاملنا بالسـمح فـهـو له أهلُ

ولما غربت شمس ذلك اليوم، وغاب قرصها عن أعين القوم، نفر الأنام بالناس، ودويت أصوات مختلفة الأجناس، وسارت الهوادج والجمال، ورعدت النفارات والأطبال، واهتز من كل جانب الحجيج، وكثر حينئذ الضجيج، ورجع الناس يطيرون فرحاً وهياماً، ويسرعون من الفرح ركباناً وقياماً، فلا تسمع منهم إلا ذاكراً لمولاه، أو شاكراً لما أولاه، أو مصلياً على رسول الله.

وقضينا حينئذ الركن الثالث وأتممناه، وبلغ كل منا ما يتمناه، وهذا الركن من أعظم الأركان المهمات، كما جاء في الحديث: «الحج عرفات».

ونفرنا معشر الأصحاب مع سيدنا ونحن قائلون بأرفع الأصوات: الحمد لله والشكر لله، ما خاب عبد قصد مولاه، بصيغتها المعلومة عند الحجاج.

وبقينا كذلك مدة طويلة نقولها ونحن سائرون، ثم سكتنا وسرنا على هيئة حسنة مؤتلفة، إلى أن وصلنا بعد العشاء بمدة بمنزلة المزدلفة، فأنيخت الجمال، وصلينا العشاءين جمعاً فيهما وقصراً في الأخيرة، ثم حططنا الرحال، ووضعنا الأثقال، والتقط كل واحد منا سبع حصيات منتخبة، ليرمي بها من الغد جمرة العقبة، وبتنا هنالك بليلة كأنها ليلة القدر، وسيدنا بيننا كنجوم وسط البدر.

ولما طلع الفجر صلينا الصبح على الفور، وارتحلنا في الحين ذاكرين ومسبحين، فوصلنا بعد ساعة إلى المشعر الحرام، وهو موضع بالمزدلفة فيه مسجد وصومعة، فوقف به سيدنا مع الأصحاب، مستقبلين القبلة والمشعر على اليسار، يدعون ويتضرعون، ومن مناهل رحمة ربهم يكرعون، وبقينا كذلك إلى قرب الإسفار، وسرنا وانفصلنا عنه قبل طلوع النهار.

ثم رجعنا نذكر لا إله إلا الله بلسان واحد جهراً، فارسل إلينا سيدنا بعد مضي ساعة أن قولوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فجعلنا نقولها.

ثم وصلنا بطن محسر، ويسميه أهل مكة وادي النار، وهو مقدار رمية بحجر، فأسرعنا فيه وهرولنا، وذهبنا إلى منى، فنزلنا بها ضحوة، وذلك يوم عيد الأضحى ويوم السبت، وسار سيدنا بالفور ونحن معه، فرمى جمرة العقبة بسبع حصيات مستقبلها ومنى عن يمينه وطريق مكة عن يساره، وكبر مع كل حصاة.

ثم أتى حلاقاً فحلق رأسه عند جمرة العقبة، وحلقنا على أثره، ثم ركب دابته وقصد مكة لطواف الإفاضة على هيئة الإحرام، فبلغناها وأتينا البيت الحرام، ودخلنا على باب السلام فخلعنا النعال، وأتينا بيت ربنا المتعال، فإذا بابه مفتوح، وعليه أنوار تلوح، والناس به طائفون، وحوله حافون، فشرعنا في طواف الإفاضة، بعد أن قبلنا الحجر الأسود فطفنا سبعاً بنية الوجوب، وهو الركن الرابع من أركان الحج، ثم صلينا ركعتي الطواف خلف المقام، ثم أتينا الملتزم ودعونا، ثم رفعنا إلى الكعبة فدخلناها، وكنت أنا دخلت قبل سيدنا، فلم أدرِ من دهشتي ما أصنع! فإذا بدر سيدنا عليٌّ قد طلع، فدخل الباب وسار أمامه، ثم مال إلى اليسار، حتى وصل إلى المستجار[1] وصلى به ركعتين،

(١) سيعرفنا القادري بالمستجار بانه بين الركن اليماني إلى الباب المسدود خلف الكعبة.

ثم ركعتين منحرفاً إلى الركن اليماني، ثم جلس هنالك ساعة يذكر الله ويتحدث بنعمه وامتنانه، ووجهه يتهلل سروراً كالواصل لأوطانه، ثم قال مبتسماً، وأنشد ناطقاً ومتكلماً: وهل يقال لفضل الله ذا بكم؟

ثم ذيلتُ بعد ذلك هذا الشطر، وزدت عليه بيتاً في شطر فقلتُ:

قـد قـال لي منشـداً بداخل الحـرم
لما رأى من تـوالي الخـيـر والنعمِ
لا تعـجـبـوا من عظيم الجـود والكرم
وهل يقـال لفـضل الله: ذا بكمِ !!

ثم قام ومشى إلى الركن الذي عن يمين الداخل من الباب تحت الدرج الذي يصعد منه إلى سطح البيت، فجلس هنالك ساعة يتحدث بنعم الله، وبما أولاه سيده ومولاه.

ثم قام وجعل العمود الموالي له خلفه، إذ البيت قائم على ثلاثة أعمدة مصطفة في طول مساحته، واستقبل الجدار الذي عن يسار الداخل وجعل العمودين الآخرين أمامه وصلى ركعتين ثم ركعتين، وصليت معه أولاً وآخراً، ثم عاد إلى موضعه الثاني تحت الدرج وجلس، فقال له بعض فضلاء الأصحاب: يا سيدي هذا المكان الذي قال الله فيه: ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾، ادع الله لنا يا سيدي، اللهم كما أمنتهم فأمنا، فرفع يديه ورفعنا للدعاء ساعة... ومسح على وجهه وتبعته الجماعة.

ثم قام وخرج من عذرٍ ظهر له هنالك، وكان غرضه في المقام أكثر من ذلك، وقد قلت متحدثاً بتلك النعمة، حاكياً ما وقع ثمة:

وإنَّ من الفـضـل الذي مَنَّ ربنا
عليَّ به في مكة بعـد حـجـتي
أتيتُ لبـيت الله ثم دخلتـه
إذا بابن عبـد الله أقبل في الوقتِ
وصلى إلى الركن اليـمـاني بقـربه
وقـام وصلى للعمـودين بالثبـتِ

وبالموضعين ها أنا عن يمينه
أصلي إذا صلى وأجلس في البيت

ولما خرجنا ذهب من فوره إلى منى فوصل إليها قرب الزوال، ونلنا بحمد الله خير سؤال، وعاد عيدنا بها من أعذب الموارد، لكل صادر ووارد، ونعم ربنا علينا ظاهرة، وخيراته لدينا متكاثرة.

ثم نزعنا ثياب الإحرام وبتنا يومين بمنى، وبلغنا بفضل الله المنى، وحق لنا البشارة والهنا، وكنا نقصر بها الصلاة.

ثم من الغد، وهو يوم الأحد، عند وقت الزوال ذهب سيدنا والأصحاب لرمي الجمار، بعد أن التقطوا ما يكفيهم من الأحجار، فرمى الجمرة الأولى وهي التي تلي مسجد الخيف سبع حصيات، قدر حصى الخذف، من جهة المسجد المذكور مستقبلاً طريق مكة، مكبراً مع كل حصاة، ثم تقدم أمامها ووقف ونحن وراءه مستقبلين القبلة، ورفعنا أيدينا فدعونا الله ساعة طويلة، ثم أتينا الجمرة الوسطى فرميناها بسبع حصيات أيضاً مع التكبير لكل واحدة مستقبلين طريق مكة من جهة المسجد.

ثم تقدمنا أمامها وجعلناها عن يميننا ورفعنا أيدينا للدعاء مثل الأولى، ثم أتينا جمرة العقبة ورميناها من الموضع الذي رميناها في يوم النحر، ثم ذهبنا إلى مسجد الخيف، ويعرف اليوم بمسجد سيدنا علي كرم الله وجهه، فصلينا به الظهر بالقبة التي هنالك وسط الضحى، وقد ذكروا أنها موضع خيمة النبي ﷺ في حجته».

وبعد حديث عن فضل مسجد الخيف عاد القادري إلى يوميته ليقول: ثم في الغد، وهو يوم الاثنين الثالث عشر من ذي الحجة، ذهبنا عند الزوال ورمينا الجمرات الثلاث على الصفة المتقدمة، ثم تعجل الناس إلى الحرم، وانصرفوا إليه ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

وسرنا نحن مع سيدنا إلى مسجد البيعة قرب جمرة العقبة في شعب عن يمين الذاهب من منى إلى مكة، سمي بذلك لأن الأنصار رضي الله عنهم بايعوا رسول الله ﷺ هنالك بموضعه، وهو مذكور في «شفاء الغرام»، فصلينا به الظهر وكملنا الصلاة، وكان

إمام الصلاة حينئذ الشريف أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الحسني، وهو الذي كان يصلي بسيدنا بمنى غالباً.

ثم وصلنا إلى مكة المشرفة عند العصر، وكمل ـ والحمد لله ـ حجنا، وأحوالنا مجتمعة لما كانت وقفتنا بالجمعة!

وبعد أن ينقل نصوصاً عن فضل الوقفة يوم الجمعة للشيخ خليل في «مناسكه»، وعن الشيخ زروق في «تحفة المريد»، يذكر أن الشيخ ـ وهو بمنى ـ قام بزيارة الغار الذي يقال: إن سورة المرسلات نزلت به على الرسول ﷺ، وقد زاره سيدنا مرتين.

وبعد هذا يعود القادري إلى مدح شيخه ابن عبد الله معن بنظم يؤرخ في آخره لهذه الحجة بحرفي (شق) أي عام مائة وألف:

وعمرت أوقات أيامه

وحج بها عام (شق) الحجاز

قال: ولما رجع سيدنا إلى مكة واستقر به المنزل زار كثيراً من أهلها، لم يعرفوه وهم عنه بمعزل، تضوع عبير نسيمه وفاح، وانتشر عرفه بين تلك البطاح، فأتاه الناس على طبقاتهم من أكابرهم وسوقاتهم، فكان يأتيه الأشراف والفقهاء والفضلاء والصلحاء من أهل مكة والمجاورين بها بقصد التبرك والزيارة والمجالسة والاستشارة، وهو ضنين بأوقات تلك الأيام حريصاً على قلة المخالطة والكلام، شديد الحرص على الأدب والاحترام... وملازمة المسجد الحرام، مواظب على الصلوات الخمس فيه وما يتبعها من النوافل... وأما طوافه بالبيت فمتتابع ومسترسل، لا سيما في الليل؛ إذ كان يستغرق الأوقات يلازم العبادة بتلك الأماكن والجهات.

وكان إذا فرغ من الطواف ليلاً وشفع، صلى ركعتين لكل جهاته الأربع، وكان يكثر القيام بالملتزم، ويمر بالحطيم ويدخل قبة زمزم، ويشرب من مائه ويشبع، ويكثر منه ويتضلع، ويقف للدعاء بالمستجار، وخارج الحجر قبالة الميزاب عند الجدار، وبكل مكان يظن به الإجابة، وبآثار النبي والصحابة.

قال: والحطيم هو ما بين الحجر الأسود وزمزم ومقام إبراهيم والحجر... والمستجار ما

بين الركن اليماني إلى الباب المسدود خلف الكعبة.

وبعد هذا يتخلص لذكر المشاهد التي زارها شيخه: قبة السيدة خديجة... مولد الرسول ﷺ وعليه قبة خضراء «مثل العمارية عندنا صورة وقدراً»... ودار خديجة... على نحو ما قال التقي الفاسي في «شفاء الغرام»: وهي بموضع يقال له زقاق الحجر... ودار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي... وتعرف بدار الخيزران.

وكان سيدنا ـ يقول القادري ـ يجلس بالمسجد الحرام في غير أوقات الطواف أو عند الفراغ منه مستقبلاً البيت تارة بالمقام المالكي، وتارة عند المقام الحنفي، وتارة بالقرب من الباب الموالي لمنزله، وربما جلس في غيرها من المواضع.

وكان يكرم الشرفاء، ويعطي المساكين والضعفاء، وكان أجود ما يكون، يطعم الطعام، ويفيض الإنعام، ويتصدق على الدوام.

وبعد حديث عن توجيهات الشيخ لبعض الغافلين، ولقائد الركب المغربي، قال: ولما كان يوم الخميس الخامس عشر من ذي الحجة أخبرنا ـ معشر الأصحاب ـ أن سيدنا أراد أن يعتمر ليلاً، فتهيأنا للتعرض له، والاجتماع به، والاعتمار معه، فصلينا جميعاً العشاء من ذلك اليوم بالحرم الشريف، ورجع سيدنا إلى منزله فاغتسل وتجرد من مخيط الثياب، ولبس ثياب الإحرام، وفعل الناس مثل فعله بسرعة، ووقفوا قرب بابه ينتظرونه، فخرج عليهم راكباً على بغلته، لابساً ثياب إحرامه التي أحرم فيها في حجته، فسار وسرنا معه بأجمعنا ـ لله الحمد ـ حتى وصلنا التنعيم، موضعاً على فرسخ من مكة به مسجد وأخصاص وماء، فنزل مَن كان راكباً، ودخلنا مسجده، وصلينا ركعتين وأحرمنا بالعمرة من هنالك، وهي سنة مؤكدة مرة في العمر، كما أن الحج فرض مرة في العمر أيضاً، وركب سيدنا ومن له دابة وجئنا معه نلبي، ونذكر الله ونصلي على رسول الله ﷺ، وسررنا أن كانت ليلة الجمعة، وجماعة الأصحاب مجتمعة، فقصدها الناس للاعتمار من جميع الأقطار، وكنا نمر بهم ونلقاهم ونسمعهم ونراهم، وكانت ليلة مقمرة مضيئة نيرة، فلا تسأل عن مسيرنا بذلك البساط، وما كنا عليه من الفرح والانبساط، ونحن آتون البيت الحرام لبلوغ تمام المرام، سائرين على تلك التبعية مكثرين من التلبية، حتى وصلنا

مكة ودخلناها، وأتينا المسجد الحرام والبيت وطفنا سبعاً مع سيدنا، وصلينا ركعتي الطواف خلف المقام، وخرجنا للسعي على باب الصفا، فأتيناها ودعونا وسعينا أيضاً سبعاً كالطواف في الحج كما تقدم، ثم حلقنا الرؤوس، وطابت النفوس، ومن الغد حلق سيدنا رأسه وقد تمت لنا جميعاً العمرة، وكملت لنا - والحمد لله - المسرة.

وما زال سيدنا على حاله بمكة في بقية تلك الأيام، متراسل الطواف والطاعات، متواصل العبادات ونوافل الخيرات في الليل والنهار، حتى توجه إلى المصطفى المختار.

ولما كان يوم الجمعة الثالث والعشرون من ذي الحجة خرج الركب المصري من مكة فخرجنا معه بعد أن صلينا الجمعة، ولما فرغنا من الصلاة جاء سيدنا إلى البيت (الحرام) وقبَّل الحجر الأسود ونوى الوداع وطاف سبعاً، وصلَّى ركعتين، وقام بالملتزم ساعة يدعو ويتضرع رافعاً يديه، ثم انصرف فاتبعته فتوجه ناحية الباب الموالي لمنزله فمر بالمسجد بجرة مملوءة من ماء زمزم عندها كوز، فأخذه وأفرغ منها وشرب، ثم ملأ وشرب حتى روي، وناولني الكوز فشربت، وما زلت أشرب المرة بعد المرة حتى لم أجد له مسلكاً!!

وسرت في أثره وخرجنا على ذلك الباب، وسار إلى منزله فوجد أصحابه يجمعون الأثقال، ويحملون على الجمال، فوقف معهم حتى فرغوا من ذلك، ثم ركب دابته، وخرج من مكة ونحن معه على باب الشبيكة... وسرنا مع الركب المصري، نقيل بالنهار، وبالليل نسري لحرارة الحجاز وصعوبة المجاز، فنزلنا بعد العشاء مر الظهران، حيث تنزل الركبان، وتركنا مكة الأمينة، وتوجهنا نحو المدينة، ولولا زيارة سيد العرب والعجم لما هان علينا فراق الحرم والملتزم وزمزم.

من ثنية كدا بأعلى مكة وهو الموضع الذي يخرج منه الى الموضع
المسمى عند العامة بالمعلى ووجدنا هنالك جل المجاورين
خرجوا للقاء سيدي وتلقيه بعضهم بين يديه وبعضهم
يتبرك وكان دخولنا مكة يوم الاثنين الخامس عشر من
ذي الحجة وقطعنا جبل الثنية وسرنا قمرنا بالمحفة
ثم مشينا الى ان نزلنا المدعى وهو الموضع الذي عنى
نبيه سيدنا ابراهيم عليه السلام بقوله ربنا اني اسكنت
رواية لم تزل اهله وذهب الى النظر ومررنا [illegible]
حمام شهير معروف عند اهل مكة فوقفنا به وقد عمرنا
وعرفنا الفاتحة وقصدنا [illegible] بالسعي ثم اتينا باب السلام
ودخلنا المسجد الحرام وخرجنا في ربعين ووقفنا عند
البيت العتيق وشرعنا في طواف القدوم [illegible]
اذ واجب بعده على كل قادم وزائر وبدأنا بالحجر الاسود
فقبلناه وبلغ كل منا بغيته منا وطفنا سبعا رملنا
في الثلاث الاول وكلما مررنا بالركن اليمني كبرنا بعد استلامه
وإذا وصلنا الحجر مع سيدي قبلنا وكبرنا ثم صلينا ركعتين
[illegible] خلف المقام ثم جاء سيدي الملتزم بين الركن والباب

جئنا

وفيهم الفاضل الخير الحسيب ابو عبد الله محمد بن ناصر الشهير بابن رضوان الانصاري البخاري الفاسي القاطن بمكة وطلب منه ان ينزل عنده بداره والح عليه في ذلك فلم يجد بدا من قبول عزمته جبرا لخاطره ومراعاة لنسبه وجواره لمدينة فاس حيث كان بها

[illegible]

إحدى صفحات مخطوطة رحلة القادري

الدلائي ١١٤١هـ / ١٧٢٩م

ما كان لنا أن نتخطى الوقوف عند رحلة الدلائي الذي ينتسب ـ كما نرى ـ إلى زاوية كان لها صيت قوي في أواخر دولة السعديين وأوائل العلويين قبل أن يكسر شوكتها ـ أي الزاوية ـ السلطان المولى رشيد، ويستقدم علماءها إلى فاس، حيث حظي النابهون منهم بالتقدير من لدن طلبة العلم ورجال الفكر؛ لأنهم ـ أي الدلائيين أنفسهم ـ كانوا أيام ازدهار زاويتهم يستقبلون من يرد عليهم من الطلبة والعلماء بحفاوة ما عليها من مزيد[1].

وقد كان من بين العلماء الدلائيين الذين حظوا بشهرة واسعة في العهد العلوي أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الدلائي (مؤسس الزاوية).

هذا السيد تلمذ لكثير من الشخصيات العلمية البارزة من أمثال قريبه الشيخ محمد المسناوي الذي ينحدر هو الآخر من الشيخ أبي بكر، كما أخذ عن الحسن بن رحال المعداني وعبد السلام بن الطيب القادري... وقد أهلته فصاحته وجهورة صوته للقيام بالخطبة يوم الجمعة في المدرسة البوعنانية وبجامع الشرفاء من فاس.

وفي سنة ١١٤١هـ / ١٧٢٨م عزم على الحج والإقامة بالشرق في آخر أيامه، فباع جميع ممتلكاته وغادر وطنه صحبة الركب المغربي المتوجه للحجاز... فقد سمعنا له رحلة منظومة تحمل عنواناً جميلاً: «تحريك الساكن وتهييج الشوق الكامن إلى زيارة

---

(١) ليفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، تعريب: عبد القادر الجلادي، الرباط، ١٣٩٧هـ، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر عام ١٩٧٧م، ص ٢١٣-٢١٥. ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص٣٨٠. د. التازي: ليبيا في رحلة الوزير الإسحاقي، ص ٣٦، تعليق ٢. د. حجي: الزاوية الدلائية، طبعة جديدة، ص ٢٦٥. انظر: البدور الضاوية في التعريف بالسادة أهل الزاوية الدلائية، مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم ٢٦١د، الفصل الثاني في ذكر الشيخ محمد ابن الشيخ محمد المرابط الدلائي، ص ٤٤٨-٤٥٧ إلخ. السلوة، ج٢، ص٩٠-٩١، المنوني: ركب الحاج المغربي، ص ٧.

طيبة ومَنْ بها ساكن»، عبارة عن أشعار في مناسك الحج تبلغ نحو مئتي بيت، نسبها إليه أبو عبدالله محمد بن أحمد الفاسي الفهري في شرحه لنظمه «درة التيجان ولقطة اللؤلؤ والمرجان» المحفوظ بالخزانة العامة تحت رقم ١٤٣٢ك.

وقد حضر موسم الحج فعلاً لسنة ١١٤١هـ / ١٧٢٩م، لكنه بعد أن أدى الفريضة وهو في بداية طريقه من مكة إلى المدينة أدركه أجله بعد أن عثر به جواده، وكان مدفنه قرب وادي فاطمة.

وقد خلف محمد بن عبد الرحمن هذا طائفة من المؤلفات علاوة على قصيدته حول الحج، مثل «الزهر الندي في الخلق المحمدي» و«فخر الثرى بسيد الورى»، و«درة التيجان ولقطة اللؤلؤ والمرجان»(١).

---

(١) إلى جانب منظومة محمد بن عبدالرحمن في مناسك الحج، نذكر ان الشيخ محمد بن محمد المرابط الدلائي المتوفى بفاس سنة ١٠٩٩هـ / ١٨٨٨م، نظم قصيدة من مئة وستة وثلاثين بيتاً سماها «الرحلة المقدسة»، رتبها على منازل ركب الحاج الفاسي من باب الفتوح بفاس إلى المدينة المنورة.

الغنامي ١١٤٢هـ / ١٧٣٠م

هذه رحلة لقاضي تامسنا لأبي زيد عبد الرحمن المدعو رحو بن أبي القاسم المزامري الشاوي الغنامي المتوفى بعد سنة ١١٤٢هـ / ١٧٣٠م، وهي تحمل عنوان «رحلة القاصدين ورغبة الزائرين»، ذكر هذه الرحلة الإفراني في كتاب «صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر». ونقل عنها هذا الإفراني في كتاب «نزهة الحادي» معلومة تاريخية عن العلاقات المغربية البرتغالية عندما كان البرتغال يحتل مدينة البريجة(١).

وفي هذه الرحلة يصف الغنامي رحلته لقضاء فريضة الحج، ويمهد لذلك بإيراد طائفة من الأحاديث والأقوال المأثورة حول الموضوع.

وقد وصل إلى مكة المكرمة من باب المعلى، ودخل المسجد الحرام يوم الأحد السادس من ذي الحجة سنة ١١٤١هـ / يونيو - يوليو ١٧٢٩م، وقام بالحديث عن مناسك الحج منذ وصوله إلى رابغ، وهو يبين لنا حكمة التلبية والوقوف بعرفات ورمي الجمار.

وقد زار الغنامي بمكة جميع الأماكن والبقاع المقصودة للزيارة، مثل: قبر السيدة خديجة، والمكان الذي ولدت به السيدة فاطمة الزهراء، كما زار عدداً من قبور أكابر الصحابة والتابعين قبل أن يقوم بزيارة المدينة المنورة بما تحتضنه من مقابر ومشاهد... ثم يقصد الإسكندرية ليأخذ مركبه إلى تونس إلى أن قدم مدينة تطوان في الرابع والعشرين من شوال سنة اثنتين وأربعين ومئة وألف / أواسط مايو عام ١٧٣٠م.

وتبتدئ الرحلة بقوله: «الحمد لله العظيم ذي الجلال والإكرام، المان علينا بنعمة الإيمان والإسلام».

وعلى الرغم مما لحق المخطوطة من بتر، فقد رأينا أن نستخرج بعض ما في بعض صفحاتها(٢)؛

---

(١) روى الإفراني في رحلة القاضي الغنامي ان قبطان البريجة البرتغالي عقد المهادنة مع أهل ازمور لمدة معينة، وفي هذه الفترة أمرت زوجة القبطان زوجها ان يخرج بجيوشه ويبعث لقائد أزمور المغربي ليخرج بجيش المسلمين من أجل تنظيم العاب مشتركة فيما بينهم حيث تتفرج عليهم، وحدث ان حمل برتغالي على مغربي فقتله، فلكم القائد المغربي القبطان واخبره بما وقع، فاجابه القبطان مستهزئاً ساخراً: فما يضركم ان مات شهيداً. نزهة الحادي، ص ٢٦٨.

(٢) المخطوطة بالخزانة الحسنية بالقصر الملكي، ص ٥٦٥٦. انظر فهارس الخزانة، ج١، ص ٥٥٩.

لنقرب الصورة للقارئ حول هذه الرحلة. قال: وأما الحكمة في التلبية فلأن الإنسان إذا ناداه إنسان جليل القدر أجابه بالتلبية، فكيف بمن ناداه مولاه الملك العلام، ودعاه إلى جانبه ليكفر عنه الذنوب والآثام. قال: ومما قيل:

عبد دعاه لقربه مولاه
فأجابه باللطف حين دعاهُ
وأتى يلبِّيه بفرط تذلُّل
يا فوزه بالربح إذ لبَّاهُ

وأما الحكمة في الوقوف بعرفة وأخذ الجمار من المزدلفة، فإن فيه أسراراً لذوي العلم والمعرفة، وكان العبد يقول: حملت جمرات الذنب والأوزار، وقد رميتها في سبيل طاعتك... أنت العزيز الغفار... وأما الحاجة إلى حلق الرأس بمزدلفة فإن حكمته بالغة... إن فيها يقظة وتذكيراً... لأن الحاج إذا وقف بعرفة، وذكر الله عند المشعر الحرام، وضحَّى بمنى، وحلق رأسه، طهر بدنه من الأدناس والآثام، وكتب الله له ثواباً، وضاعف له أجوراً... ووقاه جحيماً وسعيراً. قال: ومما قيل:

إلى بابكم سعيي وإني مقصرٌ
فقير إليكم فارحموا ذلة العبد
فإن تطردوني ليس لي غير بابكم
وإن أنتم جدتم عليَّ فيا سعدي

ثم لما كان الثامن من ذي الحجة الحرام (يوليو) توجهنا مبادرين لطاعته بعد صلاة العصر إلى جبل عرفة، للموقف الأكبر والمشهد الأنور، محل الرحمات، ومجمع البركات، وموطن إجابة الدعوات، ملبين متضرعين لله رب العالمين، فنزلنا ليلة التاسع بمنى إلى الثلث الأخير من الليل، ثم ارتحلنا إلى عرفة، فوصلنا إليها قبل طلوع الفجر، وزرنا في أثناء الطريق الجبل الذي فيه غار حراء، وهو محل ابتداء نزول الوحي الذي أنزل الله فيه ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ... ﴾.

وجمعنا بين الظهر والعصر جمع تقديم... ثم توجهنا تجاه الإمام بالقرب منه، وأنعم

الله علينا بمجاورة كسوة الكعبة وكسوة النبي ﷺ، وبقينا هناك إلى أن تحقق غروب الشمس خاضعين مفتقرين طالبين... وهو موضع تنزل فيه البركات، محل الأبطال، ومجمع الرجال، وهو المشهد الأكبر الذي أنزل الله فيه على نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾.

ثم رحنا بعد الغروب متوجهين للمزدلفة، فوصلناها بعد العشاء الأخير وجمعنا بها، جمع تأخير، ونزلنا قريباً من مسجد الخيف إلى طلوع الفجر، ثم رحلنا ومررنا بالمشعر الحرام وسرنا إلى منى ورمينا جمرة العقبة... فبمجرد الوصول ذبحنا وحلقنا، ثم قدمنا إلى بيت الله الحرام، وطفنا طواف الإفاضة، ثم رجعنا إلى منى.

وهنا يتحدث الغنامي عن بعض من لقيهم في هذه الأثناء، فيذكر أنه لقي أحد رجال الفقه والعلم من المجاورين هناك لعدد من السنين، وهو يحمل اسم سيدي محمد بن عبد الله، فسأله عن عدد الأركاب التي وردت في هذه السنة، فأخبره بورود الركب الفاسي، ثم الجزيري، ثم المصري، ثم الشامي، ثم اليمني، ثم الإسطنبولي، ثم العراقي، ثم الكوفي، ثم البصري، ثم الهندي، ثم العجمي، ثم الكنكي، ثم المسرتي، ثم الغرباوي، ثم السينكالي، ثم الصناري، ثم التكروري (السودان)، ثم المصوعي، مختتماً كلامه بقوله: هذا ما علمت، وخلق الله لا يحصى ولا يعد.

وبقينا هناك إلى أن قدمنا مع سيدنا العلامة فريد وقته وعصره... الحاج محمد بن عبد السلام بن ناني الفاسي، فسح الله في عمره... مع جماعة من الفقهاء إلى مسجد الخيف، حيث قضوا فترة من الزمن في العبادة والتوسل.

بعد هذا توجهوا إلى غار المرسلات... ثم بعد الجمرات رجعوا إلى مكة، وبمساعدة من رجل من أهل الصلاح محمد السجلماسي قام الغنامي بزيارة عدد من المشاهد المقصودة للزيارة، معلقاً على كل منها بما يروى في التاريخ أو بما يسمعه من دليله(١).

(١) مخطوطة رحلة الغنامي بالخزانة الحسنية، ص ٥-٦.

1730=1142

إحدى صفحات مخطوطة رحلة الغنامي

سيدي سعيد المنداسي ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م

نرى من واجبنا - وقد أخذنا على عاتقنا أن نحاول استيعاب مسرد لأدب الرحلات المغربية إلى الحرمين الشريفين - ألاّ ننسى نمطاً من هذا الأدب، لا يعتمد على الفصيح من القول، ولكنه يعتمد على ما يعرف تحت اسم «الملحون»، هذا الملحون الذي خصصت له التآليف من كل حجم، وبكل لغة[١].

وسيدي سعيد المكنى بأبي عثمان هو ابن عبد الله المنداسي الشريف التلمساني، وقد أدركه أجله في سجلماسة بعد سنة ١١٥٠هـ.

ويذكر الناصري في «الاستقصا»[٢] أن المولى محمد ابن الشريف (محمد الأول) من ملوك الدولة العلوية أعطى لسيدي سعيد بو عثمان المنداسي خمسة وعشرين رطلاً من الذهب على قصيدة نالت إعجاب العاهل المغربي.

والمهم أن نذكر هنا أنه مدح الكعبة المشرفة بقصيدة طويلة تعرف بليلى.

ويعلق الأستاذ الشيخ أحمد سهوم - وهو من كبار الممارسين المتذوقين العارفين بالملحون - يعلق على اختيار اسم ليلى كرمز للكعبة بقوله: إن أربعة أخماس غزليات الملحون التي تندرج تحت أسماء نسوية معينة، مثل: ليلى وفضيلة وشامة ومالكة... إلخ[٣]، كلها تعني مكة المشرفة. ويضرب من جملة الأمثلة على ذلك ما قاله الشيخ سعيد المنداسي (١١٥٠هـ / ١٧٣٧م) في مكة المشرفة في قصيدته المعنونة ليلى:

بمحبتها القلوب تسلى

تسقي العاشقين خمراً ختيم حلال

---

(١) محمد الفاسي: معلمة الملحون، بمجلداتها المتتابعة الصادرة عن أكاديمية المملكة المغربية ابتداء من شعبان ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، بيروت، ١٩٧١م، ص ٧٥.

(٢) ج ٤، ص ١٥.

(٣) محمد الفاسي: معلمة الملحون، مئة قصيدة وقصيدة، ص ١٦٤.

خلة ما كيفها خليله
بمحاسنها أهل الفضل تضرب الأمثال
ليلى ! يا من يريد ليلى
أيا يا من ابغى نزورا ذات الخال
ليلى يا زايرين ليلى!
نتمنى في الزمان حضرة
في البقعة الطيبة أمع الناس الحيين
وكيوس الزنجبيل تترى
وأصوات أتردد المعاني صوت احنين
تارة تنشي البكا وتاره
بين الصفين تطرب وتقر العين
ليلى يا زايرين ليلى!
نهواها لو أكثر ابلاها
كذب من يدعي المحبة دون الروع
وإذا ينحاشى لي أهواها
يعمل في القلب ما ابغى نعطيه الطوع
حسن أن يسبى العقل أبهاها
عندي من شكرها المطرز كمن نوع!
ليلى يا زايرين ليلى!
نهواها روضة المحاسن
من لا قبلت أعلى اعرب في فج عميق
ما كبرت في لحضر المداين
ما برزت في أمزلجت بنيان أشريق

مـا حـجـبـت مـثـلهـا اسـلاطين

عجزت الأمثال والشكل من كل افريق

ليلى يا زايرين ليلى!

أنا من حـبـهـا امـتـيم

والناس ايعـاينوا دليلي به الغـيـر

ذات الجـاه الحـفـيل الأعـظم

طب الحيران مـا لهـا في الأرض نظيـر!

قـلبي فـي غـيـرها امـسلم

لو كـان من الرياض الأزهر هي خـيـر!

ليلى يا زايرين ليلى!

أنـا قـلـبـي أيـريـد هـيـفـا

مـوصـوفـة في الكتب تفـز لاتـذكـار

رحـمـة الإسـلام جـهـر واخـفـا

ذات الحـسن المشرفـة بهـجـة الأسـرار

نـبـغـي منـهـا أتـكـون زلفـى

تسـعـد ببشـاير المنى وبعـقـبى الدار

ليلى يا زايرين ليلى!

يـقـض جـفـنك ورد بـالـك

واسمع ما قال في القصيدة بوعثمان

وابـسـط المـشـكـلات حـالـك

واسمح في ما اختل واتفضل بإحسان

واعـلـم إذا الـزمـان خـانـك

يدفع لمحـاينه ويذهـب بالسلوان!

ويؤرخ سيدي سعيد لنظم قصيدة ليلى بسنة ١٠٠٧هـ فيقول:

هاك الدر النفيس الأزهر
مما ركب سعيد في سلك اليبريز
في مولود الأبطحي المطهر
شهر أربيع الفضيل عند الناس عزيز
سبع سنين شاع واظهر
بعد الألف عام باح بألفاظ التمييز
فيمن نهوى أنشيت حلة
بالنظم المشرقي اتخابرها الأفضال
بين أيدين الملوك تتلى
محبوب عن ذكرها تنصت الأقوال
بالحمد كملت القصيدة
في شكر الباهية الشريفة بيت الله!
مختصره طيبة امفيدة
بألفاظ أمرونقة ابديعة عند الله
من دار دفعت الجريدة
ذات الحسن الشريف الأسعد سيف الله
ليلى يا زايرين ليلى!
استيقظ باعشيق لي
هي الكعبة المشرفة مولاة الخال!!
بها بين الصفوف نسلي
كيما يسلي الظمي من الماء طيب زلال!!

وقد كان من قصائد سيدي سعيد القصيدة التي تحمل عنوان العقيقية التي نظمها بعد حجه وأرخها عام ١٠٨٨هـ: عام حشف من الطي أبرزتها في شعبان(١).

(١) محمد الفاسي: معلمة الملحون، ترجمة شعراء الملحون، ص ٢٥٢.

وهذه القصيدة هي التي شرحها الأستاذ بوراس المعسكري، وقد نشرها الجنرال الفرنسي فوربيكي Forebiguet مع ترجمة فرنسية بالجزائر عام ١٩٠١م. وكان المنداسي ـ كما هو معروف ـ هاجر تلمسان إلى المغرب، ولحق بدولة المولى الرشيد ابن الشريف.

وقد وصفه صاحب «الاستقصا» بأنه متفنن، وله الباع الطويل في العلوم ونسيج الملحون. وقد ذكره الأستاذ قاضي محمد في كتابه «الكنز المكنون في الشعر الملحون» (الجزائر ١٩٢٨م)، فقال: إنه كان شاعراً مؤنساً للسلطان المولى إسماعيل، وله فيه قصيدة.

ولا نودع سيدي سعيد الذي أطلق على مكة اسم (ليلى) وأطلق على الحجر الأسود اسم «الخال» دون أن نذكر أن الشيخ الحاج أحمد الغرابلي الذي عاش أوائل القرن الرابع عشر الهجري هو الذي أطلق على الكعبة اسم مالكة:

أراية الملاكة يا مولاتي الهالكة

ليك العبد وكل ما ملك، انصروا مالكة

حمالت المليك![١]

ودون أن نقتطف كذلك أبياتاً من قصيدة للهادي بناني دفين فاس عام ١٩٢٥م[٢]، وهي قصيدة مشهورة على نحو اشتهار قصيدة الحرم يا رسول الله، بعنوان (هاض علي وحش الرسول) وحربتها على النحو التالي:

جيت مزاوك في حماك، جد يا نور الهدى طه

أبحر التعظيم والفضل يا رسول الله!

لعندك نسير فوق عشاري يتباهى

لمكة ذات الجمال من حازت عز وجاه

في رابغ نحرم كيف أمرنا نبينا طه

ونلبي ونطوف كيف طافوا عباد الله

ونقبل حجر الاسعاد، المراغب نستوفاها

ونزيد بشوقي لبير زمزم نروي من ماه

---

(١) محمد الفاسي: معلمة الملحون، تراجم الشعراء، ص ٢٥٢-٢٥٦.

(٢) محمد الفاسي: معلمة الملحون، تراجم شعراء الملحون، ص ١٢٨-١٢٩.

ما بين الصفا والمروة روحي ما ابقاها

نتوسل لسامع الدعاء مقصودي نوفاه

نطلع لجبل عرفة المبهاج

ونفوز بالنجا

ندرك مقام رفيع وادراج

في الضي والدجى

نتسمى في الحين بالحاج!

ويكمل الرجا!!(1)

منجم غني وثري حول الرحلة إلى الحرمين الشريفين في شعر الملحون.

وهو يختلف من شاعر إلى آخر، فمنهم من تيسر له الوصول فناجى الكعبة وهو في رحاب البيت الحرام، ونذكر من النماذج ما نظمه الشيخ ابن عبود والد أخينا الراحل الدكتور المهدي بن عبود:

راقت الروح ورق القلب عند رحاب الكعبة

وكل ما في يا تسعادي ضل يلبي

ومن الشعراء من حج وعاد، لكنه كلما دار الحول عاوده الحنين، فيقول شعراً جديداً على نحو ما نجده عند ابن ريسول عندما يقول:

شوشوني يا با منين طافوا بالكعبة

وعند الزهراوي عندما ينشد:

مكة يا لالي

غيرك ما يحلالي!

أما الفريق الثالث فهو يحلم بالوصول ويتشوق ويتحرق. وحسبنا أن نسوق هذا البيت من عشرات القصائد التي تتناول الموضوع:

هما شموا من الكعبة جل الطيب

وأنا شميت ريحة شياط قليبي!!

---

(1) محمد الفاسي: معلمة الملحون، ص ٣٦٥.

الأميرة خناثة أم الأشراف ١١٥٥هـ / ١٧٤٢م

الأميرة خناثة بنت بكار زوجة السلطان المولى إسماعيل مؤسس الدولة العلوية، أم السلطان المولى عبد الله، جدة السلطان محمد بن عبدالله (محمد الثالث) . من الأميرات العالمات اللاتي أسهمن في حياة المغرب الفكرية والسياسية كذلك . وقد قامت بحجتها التاريخية هذه عام ١١٤٣هـ / ١٧٣١م بصحبة حفيدها محمد الثالث . أدركها أجلها بفاس سنة ١١٥٥هـ / ١٧٤٢م.

وقد قام بتسجيل رحلتها الوزير أبو محمد عبد القادر الجيلاني الإسحاقي الذي كان في صدر الركب الرسمي .

وأحسب الإسحاقي متأثراً بالعبدري في تحاملاته، أكثر من تأثره بالعياشي في مجاملاته! ويتجلى باعه من الناحية الفقهية في الفتوى التي حررها بمكة المكرمة حول جواز تملك العقار بالبلد الحرام، بطلب من الأميرة المغربية المذكورة .

وهكذا فإن لهذه الرحلة طابعاً خاصاً؛ لأنها إلى جانب أنها رحلة حجازية، لكنها من جهة أخرى رحلة رسمية ترأسها أميرة نابهة فاضلة كان لها دور كبير في صنع الحياة السياسية بالمغرب، لصلاتها بملوك المشرق وقادة إفريقية وملوك أوروبا . . . وقد كانت هي كل شيء في الرحلة على ما نشعر به في النصوص التي بين أيدينا والتي تنعتها "بأم سيدنا"(١) .

وسنخصص حديثاً في الرحلة لمقام الأميرة بمكة وقيامها صحبة الركب بمناسك الحج . . . ننقل ذلك بالحرف لتعميم الفائدة، ولكون نص الرحلة لم ينشر بعد .

« . . . وسبقت "أم سيدنا" - نصره الله - قبل ارتحال الركب المغربي، فأناخت بذي طوى

---

(١) د. عبدالهادي التازي: أمير مغربي في طرابلس أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة ١٩٧٦م، ص ٨٧-١٠٢ . د. التازي: المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي، ص ٢٠٣ وما بعدها، نشر الفنك، الدار البيضاء، ١٩٩٢م. هذا وقد دفنت بمقبرة السلطان المولى عبد الله إلى جانب لالة مباركة والدة مولاي إسماعيل.

وصلَّت به المغرب، وتهيأت لدخول مكة، وكنا فيمن تقدم معها، فدخلنا مكة عشاء على ثنية كَدَاء التي تشرف على مقبرة الحجون، وذلك ليلة السادس من ذي الحجة الحرام من السنة ١١٤٣ (١٢ يونيو ١٧٣١م) وأقمنا بمكة يوماً[١]، ثم خرجنا يوم التروية[٢] إلى منى - يقول الإسحاقي - ولم يقع بها مبيت كما كانت السنة، فإن هذه السنة أميتت منذ أزمان.

ثم كان دخول الأركاب إلى مكة: الركب المصري والشامي والمغربي، وهم كذلك يمرون بمنى ولا يبيتون إلا بعرفات، ينزلون بها ليلاً، ويضيعون النزول بمسجد نمرة، ونمرة جبل على اليمين إذا خرجت من مأزمي عرفة، وعليه أنصاب، وتحت الجبل غار ذكروا أن النبي ﷺ نزله، وبين الغار والمسجد ألف ذراع وإحدى وعشرون ذراعاً، قاله الأزرقي، وكنا نزلنا خلف الجبل عن يمينه وأنت مستقبل القبلة.

وقد اجتمع بعرفات، من الركاب الآتية من سائر الآفاق، من البشر جمع لا يحصي عدّه إلا الله عز وجل.

وفي معرض الحديث عن أصل اسم عرفة قال من جملة ما قال: إن آدم عليه السلام لما هبط من الجنة وقع بالهند (سرنديب)، ووقعت حواء بجدة[٣]، واجتمعا بالمزدلفة وتعارفا بعرفة!

قال: وهي بسيط من الأرض مد البصر لو كان محشراً للخلائق لوسعهم! تحدق بذلك البسيط الأفيح جبال كثيرة، وفي آخر ذلك البسيط جبل الرحمة، وفيه وحوله موقف الناس، والعلمان قبله بنحو الميلين، فما أمام العلمين إلى عرفات حل، وما دونهما حرام، ويقال: إنما بناهما الأمراء احتياطاً على الناس ألا يتقدموا فيخرجوا من عرفة قبل غروب

---

(١) د. عبد الهادي التازي: المرجع السابق.

(٢) يتجلى أن هنا بتورا ملحوظة في المخطوطة فلا حديث عن الطواف والسعي... وسيتجلى أن الأميرة وقد دخلت مكة في محملها في اليوم السادس... فتحت لها الكعبة، وقامت بالطواف والسعي قبل أن تقصد منى، وذلك من خلال نص الإسحاقي الآتي الذكر، ومن خلال الشهادة المهمة التي حررها شيخ الحرم الإمام الطبري، ويبدو أن الأميرة دخلت الكعبة مرة ثانية لما فتحت للعموم بعد عودتها من عرفات.

(٣) تراجع رحلة ابن بطوطة، تحقيق: د. التازي، ج٤، ص ١٧٩، تعليق ٢٦١.

الشمس، فأوهموهم أن العلمين حد عرفة، وهما في وسطها؛ حتى يكون من تعجل لا يخرج من عرفة إلا بعد الغروب... وبمقربة منهما مما يلي عرفات بطن عرنة الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه... والواقف في بطن عرنة لا يصح حجه، فيجب التحفظ من ذلك... والمتحفظ لا ينفر من الموقف حتى يتمكن من سقوط قرص الشمس.

وجبل الرحمة المذكور منقطع من الجبال، قائم من البسيط، وهو كل حجارة منقطعة بعضها على بعض، وكان صعب المرتقى، فأحدث فيها بعض ولاة الخير أدراجاً وطيئة من أربع جهاته يصعد فيها بالدواب الموقورة.

ولما جمع الناس بين الظهر والعصر تهيؤوا وتجملوا للوقوف خاشعين باكين متضرعين، والتكبير قد علا، وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع، فما رئي يوم أكثر مدامع، ولا قلوب خواشع، ولا أعناق لهيبة الله خوانع خواضع أكثر من ذلك اليوم!!

وما زال الناس على تلك الحال والشمس تلفح وجوههم (١٥ يونيو) إلى أن سقط قرص الشمس وتمكن وقت المغرب، فأشار الإمام الخطيب بيديه، ونزل عن موقعه فدفع الناس بالنفر دفعاً ارتجت له الأرض ورجفت الجبال، فيا له من موقف ما أهول مرآه، وأرجى في النفوس عقباه!.. ثم نرجع إلى استيفاء حال النفر عشية الوقفة المباركة بعرفات، وكان يوم الخميس على ما ذكره، وذلك أن الناس ينفرون منها بعد غروب الشمس كما تقدم الذكر فيصلون مزدلفة مع العشاء الأخيرة، فيجتمعون بها بين العشائين حسبما جرت به سنة النبي ﷺ.

واتقد المشعر الحرام تلك الليلة كله مشاعل من الشمع المسرج والثريات، وأما مسجده المذكور فعاد كله نوراً «فيخيل للناظر إليه أن كواكب السماء كلها نزلت به» على حد التعبير المتداول بين الرحالين.

وعلى هذه الصفة كان جبل الرحمة ومسجده ليلة الخميس؛ لأن هؤلاء الأتراك المصريين أعظم الناس همة في استجلاب هذا الشمع والاستكثار منه أكثر إضاءة لهذه المشاهد المكرمة.

وعلى هذه الصفة عاد الحرم بهم مدة مقامهم فيه، وكثيراً ما يقصدون حطيم الإمام

الحنفي؛ لأنهم على مذهبه.

وهذه عادتهم في باقي الأماكن المكرمة مثل بدر وغيره، وكذا شاهدنا من ذلك بالحرم النبوي العجب العجاب.

وقد لاحظ الإسحاقي أن هذه بدع منكرة علاوة على ما فيها من إضاعة المال على ما ذكره خليل في «مناسكه».

ومن مزدلفة يستصحب الناس حصيات الجمار وهو المستحب، ومنهم من يلتقطها حول مسجد الخيف بمنى، وكل ذلك واسع.

ومزدلفة أوسع وأوطأ من منى، والمشعر الحرام منها فيما يلي منى، والنزول بالمزدلفة بعد الرجوع من عرفة كما هو معروف في المناسك.

وحدّ مزدلفة مما يلي منى محسر، وهو وادٍ هنالك، وحدُّها مما يلي عرفة مأزما عرفة، وهما جبلان مكتنفان للطريق أفسح من مأزمي منى.

ومن محسر إلى مسجد مزدلفة نحو الميل، ومن مسجد مزدلفة إلى مسجد عرنة أربعة أميال.

وبعد نقاش فقهي حول حدود الموقف يذكر أن الناس لما انتهوا إلى منى بادروا إلى رمي جمرة العقبة بسبع حصيات، ثم نحروا وذبحوا، ثم حلقوا وحلوا من كل شيء إلا النساء والطيب إلى أن يطوفوا طواف الإفاضة إلى آخر ما هو معتاد عند الحجاج.

وقد نفر الناس إلى مكة، فمنهم من صلَّى العصر بالأبطح، ومنهم من صلاها بالمسجد الحرام. ويقف للبحث حول الأبطح وهل هو المحصب مستشهداً بما أنشده الشافعي:

يا راكباً قف بالمحصب من منى
واهتف بقاطنِ خيفها والناهض

ويختم هذا الموضوع بقوله: إن السُّنَّة قضت قديماً بإقامة ثلاثة أيام بعد يوم النحر بمنى لإكمال رمي سبعين حصاة، لكن وقع التعجيل في هذا الزمان مخافة ما يطرأ من الفتن في منى، قد وقع ذلك غير مرة، وأصيبت فيها أموال نعوذ بالله من الفتن!

ويذكر الإسحاقي هنا أنه كان من العادة أن يقف الركب المصري بالمحمل الذي يحمل

كسوة البيت العتيق بعرفات، على نحو ما يقف الركب الشامي بالمحمل الذي يحمل كسوة الحجرة النبوية بعرفات أيضاً... يقفان متسامتين، وينفر الوفدان معاً نفرة واحدة.

ويذكر أن سلطان مكة الأمير عبد الله(١) وقف بإزاء المحملين... لكنه يسجل مع هذا حدثاً اقتضاه التنافس والتنافر بين أميري الحج المصري والشامي... وكان للسلطان المذكور دور في الفصل بين الأميرين «وسلم الله ذلك الجمع السالم من التغيير والتكسير والله على كل شيء قدير...»!

وفي يوم النحر المذكور سيقت ـ على العادة ـ كسوة الكعبة الشريفة المقدسة من محلة الأمير المصري محمد باي(٢) إلى مكة يتقدمها أهل الوجاهة، والشيبي صاحب المفتاح المبارك، والطبول تضرب من ورائها وأمامها، والرايات منشورة حذاءها حتى وصلت إلى المحل الرفيع، فتولى أمرها وتعليقها وشدها بأمراس في غاية ما يكون من الفتل والإحكام السادة الشيبيون والقائمون بذلك الوظيف من أهل البلد، فإذا البيت المبارك يؤول بزينة ما رأى الراؤون مثلها حسناً وجمالاً وبهاء.

وكانت الكسوة من الحرير الأسود، وفيها كتابة بخط أبيض، فيها آيات من كتاب الله بعد البسملة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الآية، وغير ذلك من الدعاء للسلطان العثماني.

وأخذ الكسوة القديمة سلطان مكة (الشريف عبد الله) لنفسه، له في ذلك عادة معروفة، تارة يأخذها، وتارة يأخذها أمير الحاج المصري، وكملت عملية كسوة الكعبة المباركة، وشمرت أذيالها الكريمة صوناً لها من أيدي الناس وشدة اجتذابهم لها وقوة تهافتهم عليها وإكبابهم، فكأنها عروس جليت في أشرف ملابس وأحسن زينة، لا يمل أحد من النظر إليها، تستوقف الأبصار، وتعقل العجلان، وتذهل الأفكار.

---

(١) القصد إلى الشريف عبد الله بن حسن بن أبي نُمي الذي خلف الشريف مسعود الذي كان يقوم بأعمال الترميم بعد ان تعرضت الكعبة للسيل الذي تحدث عنه أبو سالم العياشي في رحلته.

أحمد السباعي: تاريخ مكة، ص ٨٤١ – ٨٤٢.

(٢) لا صلة لهذا الأمير بمحمد علي باشا.. راجع المصدر السابق، ص ٥٢٧.

وفي يوم النحر فتح الباب المبارك للبيت العتيق... فدخله أمير الحاج المصري محمد باي ومن معه من حاشيته وممن قدّر له ذلك من غيرهم ممن صبر على الازدحام على الباب المبارك، فإنه يرى من تزاحم الناس على الباب الكريم وتطارحهم، ووثوب بعضهم على بعض، وسباحة بعضهم على رؤوس بعض كأنهم في غدير من الماء! أمر لم يُرَ أهول منه يؤدي إلى تلف المهج، وكسر الأعضاء، وهم في خلال ذلك لا يتوقفون بل يلقون بأنفسهم على ذلك البيت الكريم من فرط الطرب والارتياح إلقاء الفراش على المصباح، وربما فقد في هذا المزدحم الشديد من دنا أجله!!

وكان ممن اتفق له الدخول إلى البيت المبارك مع أمير الحاج المصري صاحبنا الفقيه القاضي السيد بلقاسم العميري[1] وبعض وصفاء سيدنا، نصره الله، ولكنه على ما أخبرني به خرج بآخر رمق بقي ساعة وهو ملقى ينتظر الإفاقة من غشيته!!

وكنا نحن تأخرنا قليلاً مع ولد سيدنا، نصره الله، فلم يقدر لنا دخول البيت المبارك إذ ذاك ولا ليلة فتحوه للسيدة والدة مولانا، نصره الله، إذ كان ذلك ليلاً على وجه الإخفاء بعد الإغفاء! نسأل الله أن يتغمدنا برحمته، وأن يجزل حظنا من ثواب زيارة بيته العتيق ونظرته، وأن يجعلنا ممن يشهد له بتقبيل حجره الأسعد وتقبيل سدته.

وهنا فقط يذكر ما أسلفنا الإشارة إليه من أنهم وجدوا أستار الكعبة المقدسة مشمرة إلى نحو قامة ونصف من الجدار، من الجوانب الأربعة ويسمون ذلك إحراماً لها... ويستشهد بأبيات ثلاثة لأبي سالم سيدي عبد الله العياشي سالفة الذكر.

ويعود إلى استيفاء الخبر عن المنازل بمنى، وذكر المناسك المعظمة بها مستأنساً دائماً بسلفه العياشي، ثم يتعرض للآثار القديمة كذلك مسترشداً بمن سبقه.

ويعقد فصلاً خاصاً بعنوان: «ذكر مكة، شرفها الله، وما بها من المزارات والآثار المكرمة...».

وهو في هذا يردد معظم ما قيل عن الفرق بين مكة وبكة... وبقية أسمائها، نقلاً عن القاضي عياض في «مشارقه» وأبي الفرج ابن الجوزي، وأبي الوليد الأزرقي الذي يحكي

(١) كان القاضي ضمن الوفد المغربي. انظر ترجمته في كتابنا عن رحلة الإسحاقي، مصدر سابق.

معلوماته عن جده، والذي ظل - كما أشرنا - نعم المرجع لكل الذين كتبوا عن مكة!!

وكان مما روى من ذلك نصيحة الإمام مالك للخليفة هارون الرشيد عندما تناهى إليه التغيير الذي أحدثه بعضهم، قال مالك للرشيد: ناشدتك الله يا أمير المؤمنين، لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك...!

وقد نقل الإسحاقي أيضاً بعض المعلومات عن الرحالة ابن جبير الغرناطي قائلاً: «ومن عجيب أمرها - شرفها الله - ما جعل لها في قلوب عباده من المحبة الصادقة التي تحملهم على الوفادة عليها... ولو كان لهم في ذلك ضرب الرقاب وذهاب المال وتقطع الأسباب. إنها تسترق القلوب، وتسبي عقول ذوي النهى، حتى يقولوا: ما مسنا من لغوب!!»

وكما ذكر بعض سابقيه فإنه يقارن ويفارق بين أهل مكة والمدينة، فيفضل معاملة هؤلاء على أولئك معتمداً على شهادات صعاليك الحجاج الذين لا يملكون بغلة ولا بلغة، والذين يؤيدون هذه المقولات.

وهنا يتخلص لذكر الأسباب التي قد توجب التأخر عن الحج في هذه الأزمنة، وذكر فيها خوف عادية الأعراب، وامتهان الأتراك للحجاج وإذلالهم لهم في المصادر والموارد، ومصادرتهم في الأموال والأمتعة، وقبض الخراج منهم عن يد وهم صاغرون..! وقد شاهدناهم... وكّلوا على مماكسة الحجاج على أحمالهم يهودياً من اليهود[1] وقبض مرتين، وربما احتاج إلى كشف بعض الخيام، بل إلى كشف الحريم لاستخراج ما عسى أن يكون قد غيب من الأغراض التي يشتبه في أنها لم تؤدَّ عليها المكوس التي لا ترتضيها أطايب النفوس..! ويكفيهم مهانة وقلة ديانة اتخاذهم - أي الأعراب والأتراك - البيت الحرام سبباً للمعيشة الحرام! يتهافتون عند الولاة على طلب التولية على الأعمال المكتسبة..!

وهنا يحكي عن نازلة مع من نعتهم بأراذل الغز (فصيلة من الترك):

لقد نزل الركب المغربي بعض المعاطن، فقام الغز واحتجزوا المعطن وحجروه عن المغاربة حتى لا يصل أحد إلى الماء حتى تروي إبلهم ودوابهم. فتقدم جماعة من أعيان الركب إلى سلطانهم فرغبوا إليه أن يخصهم ببئر واحدة أو بناحية منها يدلون دلاءهم مع الغز..

---

(١) ربما كان هذا عند حدود البلد الحرام.

فأنعم لهم بذلك وعين لهم بئراً، فما لبث المغاربة يستقون حتى أقبلت إليهم الغز بالعصي والدبابيز والسيوف فأزاحوهم عنها وبقي صعاليك الحجاج المغاربة رجالاً ونساء يستقون فلا يسقون!!

ويحكي الإسحاقي أنه لما رأى صبياً صغيراً (من الركب المغربي) يتلوى من العطش أخذ ديناراً من الذهب يريد أن يشتري به شربة ماء من البئر... فلما أعياه الطلب تقدم إلى أمير الحج المصري وكان يعرفه، وكان قاعداً على حوض والأدلاء تختلف بين يديه على حوض تسقي إبله، فقلت له: يا أمير! احتجنا شيئاً من الماء وما وجدناه حتى بالشراء وأريته الدينار... فضرب بذقنه إلى الأرض وأولاني أذنا صماء! ثم عاودته وقلت له: أنت أمير وتعرفني، أنا طالب علم، وأيهما أحق بالماء الآدمي أو الجمل؟ فاستنكر مقالتي وأخذته العزة بالإثم! وأمر الغز وأغراهم بالمغاربة وذادوهم كما تذاد غرائب الإبل عن الماء!!

ويعلق الإسحاقي على ذلك بقوله: فمن قال من علماء المغرب والأندلس بسقوط الحج عن أهل بلده واعتقده فاعتقاده صحيح؛ لهذه الأسباب ولما يصنع بالحجاج مما لا يرتضيه الله عز وجل.

وقد استمر الإسحاقي في حديثه هذا ملتمساً العذر للذين لا يؤدون هذه الفريضة.

وهنا ينقل عن مناسك الحج للشيخ خليل ما نصه: «وتشترط في الاستطاعة الأمن على النفس والمال من لص أو مكاس إذا كان يأخذ ما يجحف به، وفي سقوطه بأخذ المكاس ما لم يجحف به قولان، ورجح بعضهم عدم السقوط... وقال أيضاً: بعضهم يرى أن نفس السفر مبيح للتيمم ولو كان على الماء... وبعضهم يتساهل في الصلاة بالكلية... ومضى خليل في تعقيبه قائلاً: إن بعض الناس إنما يحج عادة أو فرجة أو صناعة أو ليقول: لي كذا وقفة، وكان سنة كذا وكذا وسنه كذا وكذا»(١).

ومن الطريف أن نجد الإسحاقي - وهو يعلق على كلام خليل - يتنبه لظاهرة تستحق الالتفات، ويتعلق الأمر بمغاربة يحترفون خدمة الحجاج ذهاباً وإياباً... وهكذا يذكر أن

---

(١) تراجع فتوى الطرطوشي وابن رشد، كما يراجع الاستقصا للناصري، ج٧، ٨٢، وسلوة الأنفاس للكتاني، ج٢، ص ١٢-١٥- ١٦- ١٨.

هناك من يساعد المغاربة من مصر إلى مكة، ومن مصر إلى طرابلس، ثم يرجع إلى مصر ويبتدئ سفراً آخر إلى الحجاز... ومنهم من يحصل على شيء من الدنيا، ويعمل منها رأس مال يتجر به.

وفي تعليقه على بعض أصحاب هاته "الوكالات" التي قد تتعرض للإفلاس قال: وما رأيت متلفة للمال مثل مصر، فإن شهواتها كثيرة ومفاسدها كثيرة، والمعصوم من عصمه الله!

وهنا يقوم بمقارنة بين الإسلام في المغرب والإسلام في المشرق، وأن المذهب المالكي وعقيدة الأشعري يحكمان القبضة في المغرب. وبعد مقارنة بين تعمق العلماء هنا وهناك حيث يصل - من وجهة نظره - إلى أنه لم يبق هناك من تُشدُّ إليه الرحال! بعد هذا يعود إلى مكة التي هي غرضنا من هذا البحث، فيذكر أن لمكة ثلاثة أبواب، يذكرها ويذكر ما جاورها.

وبمناسبة قيامه بسنة العمرة يذكر أن طفلاً من أهل مكة تعلق به ليدلَّه على الطريق كما هي عادة صبيانهم في تعلقهم بالحجاج في مقابل فضة، وأنه حين مرورهم بقبرين يقال إنهما لأبي لهب وامرأته طلب إليه الطفل أن يرجمهما، لكن الإسحاقي كان غير مبالٍ بهذه الأساطير... وقد أدى الإسحاقي أكمل وصف للطريق الذي يربط بين مكة ومسجد السيدة عائشة... وفي حديثه عن مسجد عائشة حيث ميقات المعتمرين المالكيين يذكر أن الشافعية يعتمرون من المساجد المجاوة وأن مسجد عائشة ينسب إلى علي بن أبي طالب.

وفي الفصل الخاص بالمسجد الحرام يذكر الإسحاقي بعض أوصاف المسجد تبركاً على نهج ما نعرف من كيل بالدراع أو الشبر معتمداً على ما في رحلة ابن جبير، وعلى ما أفاده به زعيم الشيبيين محمد بن إسماعيل(١).

---

(١) يتاكد لي أن الإسحاقي كان مشدوداً إلى التزاماته مع الأميرة، فلم يتمكن من تحقيق كل ما كان يريد، فهو يقول: «نسال الله أن يحقق رجاءنا بتيسير الرجوع إلى هذه الأماكن حتى نستدرك ما فاتنا من هذه»، ونحن نعلم أن السفر مع الأمراء والأميرات والملوك يقتضي التضحية بما ترغب فيه النفس، ولا ينبئك مثل خبير!!

وفيما يتصل بمقام إبراهيم نجد أنه نال من وصفه حيزاً مناسباً، كذلك الحجر الأسود الذي «يتطامن إليه الطويل، ويتطاول إليه القصير»! ثم يتحدث بدوره عن أئمة الحرم الأربعة السنيين، وكان هناك ـ يقول الإسحاقي ـ قبل هذه الأزمنة خامس لفرقة الزيدية الذين قرأنا عنهم في الرحلات السابقة... ويلاحظ الرحالة أن الإمام الحنفي اليوم أخذ مكان الشافعي الذي كانت له المرتبة الأولى في عهد العباسيين... لأن الساعة اليوم ساعة الأتراك، وهم حنفية.

وللشافعي حطيم حافل خلف مقام إبراهيم، ويصلي الإمام المالكي قبالة الركن اليماني، وله محراب من حجر... أما الحنفي فيصلي قبالة الميزاب عند حطيم مصنوع له، ثم الحنبلي وصلاته مع المالكي، وصلاتهما في وقت واحد، وموضع صلاته يقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليماني.

ويتخلص الإسحاقي بعد هذا لذكر أبواب الحرم الشريف التسعة والثلاثين على عهده، ولا نجد كبير فرق بين الأمس واليوم، وهو كسابقيه يتحدث عن الصفا والمروة ناقلاً عن كتاب (نشق الأزهار في أخبار الأمصار) لابن ياسر الحنفي (ت ٩٣٠هـ)، ويذكر السوق المزدحمة التي كانت بين الصفا والمروة والتي لا يكاد الساعون يخلصون من سعيهم لكثرة رواد السوق!

وفي معرض حديثه عن بعض مشاهد مكة وآثارها يذكر المواضع التي أشار إليها من قبله مؤكداً أنها مصونة، وقد بنيت بناءً يليق بمثلها: مولد الرسول، ودار الخيزران، ودار أبي بكر الصديق، ثم الغار الذي يحاول بعض الحجاج أن يدخلوه بجبل ثور بناء على بعض المرويات... معلقاً على هذه المرويات بانها خزعبلات. ثم يخصص فصلاً يذكر فيه ما خص الله به مكة من الخيرات والبركات... وكان من أبرزها ميل الأفئدة إليها فكان بها مغناطيساً! ولم يَنْسَ اهمية أسواق مكة وما تتوفر عليه من شتى البضائع... بما في ذلك الطيب والعقاقير والثياب الهندية والأواني الصينية علاوة على الفواكه وخاصة البطيخ الذي "يشغلك الاستمتاع بطيب شذاه عن أكلك إياه"!!

ومن الطريف أن تقرأ عن الإسحاقي وصفاً لمهارة الحلوانيين في تشكيل حلوياتهم

لدرجة أنهم يصنعونها على شكل الفواكه الحقيقية من رطبة ويابسة(١)، تعرض على أسمطة بين الصفا والمروة لم يشاهد مثلها لا بمصر ولا سواها . . . « تقيد الأبصار، وتستنزل الدرهم من صياصيه والدينار »!

وكان من أهم المعلومات التي قدمها إلينا الوزير الإسحاقي وهو يذكر أن هذه الفواكه تجلب من الطائف، وعلى الخصوص من مكان معروف بالهدة (الهدا) الذي يحدد الإسحاقي موقعه الجغرافي، ويقول: إن الله جلب إلى الطائف أفواجاً من المغاربة ذوي بصارة بالفلاحة والزراعة، فأحدثوا فيه بساتين ومزارع، فكان ذلك أحد الأسباب في خصب هذه الجهات.

وكان مما يؤكد هذه المعلومة في نظرنا ما وقفتُ عليه من وجود أسر كثيرة هناك تحمل لقب المكناسي والتواتي(٢).

وبعد هذا يتخلص الإسحاقي لذكر من لقيه بمكة من العلماء الأعلام، وهو ما يعطي فكرة عن توالي النشاط العلمي بمكة المكرمة عبر العصور والدهور.

وهكذا يقدم لنا العالم العامل عمر البار باعلوي الحسيني . . . الذي سأل بعض أصحاب الإسحاقي عن بعض المعلومات المتصلة بالمغرب.

وكان الثاني فارس الميدان وأعجوبة الزمان أبا عبد الله محمد بن أحمد عقيلة الذي اجتمع به في منزله، وكان الإسحاقي صحبة ابن أخيه الفقيه العربي بن محمد؛ حيث اطلع الضيفان المغربيان على جملة من مؤلفاته ومصنفاته . . . وحصل الإسحاقي على إجازة الشيخ عقيلة(٣).

وكان مما نقله الإسحاقي من معلومات أخذها عن الشيخ المذكور أن قبر عبد الله بن عمر بن الخطاب يوجد بجبل حزمان عن يسار الذاهب إلى عرفات، وليس ما يزدحم الناس اليوم عليه!!

---

(١) يقصد أنهم يصنعون الحلوى على شكل برتقال أو إجاص وتين، فكأنك أمام أطباق حقيقية من الفواكه الطرية.

(٢) د. التازي: الطائف من خلال رحلة العياشي، نشرته صحيفة سعودية.

(٣) محمد إبراهيم الكتاني: رحلة الأميرة المغربية السيدة خناثة، بحث قدم إلى الندوة العالمية الأولى لدراسة تاريخ الجزيرة العربية، كلية الآداب، الرياض، إبريل ١٩٧٧م.

وكان ثالث المشايخ هو العلامة الورع الشيخ محمد بن علي بن فضل الحسيني الطبري إمام مقام إبراهيم الخليل، لا يخرج عن بيته إلا ليلة السابع والعشرين من رمضان؛ حيث يحيي ليلة القدر بمقام إبراهيم يختم فيها القرآن ثم لا يراه أحد!

اجتمع به الإسحاقي في داره، وأطلعه على تفسيره للقرآن في ثلاثة مجلدات. ونسجل بالمناسبة أن هذا الشيخ كتب شهادة مهمة للأميرة خناثة، وجاءت أهميتها من أنها ـ أي: الشهادة ـ تعطينا فكرة عن أن بعض الشخصيات المرموقة من عيون الحجاج كانت تسلم لهم مثل هذه الشهادات التشريفية للتبرك بها، ولتسجيل حضورهم في البيت الحرام..!

والشيخ يذكر في هذه الشهادة أنه لما كانت سنة ألف ومئة وثلاث وأربعين حجت إلى بيت الله الحرام ثمرة الشيوخ المعتبرين المنتخبين من أكرم سلالة، وأفلاذ أكباد العلماء، المتغذين بلبان الجلالة... خناثة بنت المرحوم الشيخ بكار المغفري زوجة المرحوم المقدس مولانا السلطان مولانا إسماعيل، أعلى الله مقامه في الجنان، ورفع لهذه أعلام السيادة تتلى على مر الزمان.

وصلت ليلة السادس بعد العشاء إلى مكة المشرفة وعليها السكينة مرفوفة، راكبة في عجلها وهي في جلالة عظيمة وسيادة فخيمة، في محفل من الأجناد، وجمع من الأجواد، ولهم زجل بالتلبية ووغير بالتسبيح والتقديس والأدعية، فطافت طواف القدوم وطلعت إلى دارها المكرى المعلوم، ثم إنها طلعت إلى عرفات ولهم دوي بالتسبيح والتقديس، وكانت الوقفة يوم الخميس، ثم نزلت إلى منى فأقامت ثلاثة أيام وأكثرت من الهدي، وبذلت الشراب والطعام، ثم نفرت إلى مكة وجاءت بعمرة الإسلام، وفي مدة إقامتها بمكة كانت تنزل في جنح الظلام، وتطوف بالبيت الحرام، وتكثر من الصدقات على الدوام، وبذلت بغير حصر، وأعطت عطاء مَنْ لا يخاف الفقر، ولما فتحت الكعبة دخلتها، وأفضلت على خدمتها.

وقد ذيلت الشهادة بقصيدة رائية من ثلاثة عشر بيتاً في مدح الأميرة الجليلة، وختمت بتاريخ شهر ذي الحجة سنة ١١٤٣هـ.

وكان رابع هؤلاء في الفضل والدراية وتصحيح الرواية الشيخ أبو الفضل تاج الدين ابن عبد المحسن الحنفي مفتي الحنفية بالحرم المكي... لقيه بالمسجد الحرام مراراً، واستمطره في العلم فوجده غيثاً مدراراً... وتبادلا إنشاد الشعر الذي نعدُّه من نفحات الأدب النبوي الرفيع.

ويفيدنا الإسحاقي أن لشيخه هذا مرتَّباً يبعث به إليه العاهل المغربي السلطان المولى عبد الله يبلغ مئة مثقال ذهب مطبوعة تأتيه كل سنة مع أمير حاج المغرب، وكان هذا المرتب لوالد الشيخ جعفر على عهد السلطان المولى إسماعيل، فأقرها ابنه المولى عبد الله على نحو ما كان منه في الصلات المخصصة للحرمين الشريفين ومصر وغيرها.

وكان خامس هؤلاء الفقيه العالم العلامة مفتي الشافعية بالحرمين الشريفين مولانا زين العابدين بن سعيد المنوفي، الذي يقال: إنه، أصلاً، من ذرية مولانا عبد السلام بن مشيش دفين جبل العلم بالمغرب.

لقيه بالمسجد الحرام قدم حاجاً من المدينة المنورة، وله في كلا الحرمين دار، لكن الأصلية بمكة... فسأل عن السلطان المولى عبد الله عاهل المغرب... وقد أقام المفتي المذكور حفلة كبرى على شرف الوفد المغربي، فحضر الإسحاقي وأعيان الركب: القاضي وشيخ الركب وغيرهما من الخاصة والعامة، «فهش لنا وبش، ورش مزن إكرامه وطش»، على حد التعبير السائر.

وقد تطارح الإسحاقي الشعر مع المنوفي على ما نقرؤه في الرحلة، ولما أخبره الإسحاقي أن معه عيالاً[1] وهو يعتزم زيارة المدينة كتب المنوفي كتاباً لولده هناك؛ حيث أنزل الإسحاقي في مصرية له جديدة بالمدينة... وقد رأى الإسحاقي أن يكرم هذا الولد فقدم له أربعة مثاقيل ذهبية، فرفض المنوفي الابن قائلاً: الفضل كل الفضل في أنكم نزلتم عندنا!!

وكان سادس هؤلاء الرجال السيد الحلاحل الأديب الكامل مولانا الشيخ تاج الدين ابن عارف المنوفي، وهو من أقارب زين العابدين السالف الذكر الذي تعرف إليه بالمسجد الحرام، وفي المادبة الكبرى التي أقامها قريبه الشيخ زين العابدين؛ حيث

---

(١) يتأكد أن ركب الأميرة كان يضم سيدات أخريات على ما يتأكد من هذا النص، كن في رفقة الأميرة.

انعقدت بين الجانبين أواصر المودة.

وكان سابع المشايخ من الذين تعرف إليهم الشيخ الإسحاقي القدوة الشيخ عبدالله الإسكندراني الضرير الذي «جعل الله قوة بصره في بصيرته...».

دخلنا عليه - يقول الإسحاقي - في منزله قرب باب العمرة، وحدثنا بتصانيفه في التفسير والحديث وعلم الكلام، وغير ذلك، منها تفسير للقرآن بالنظم يزيد على ثلاثة آلاف بيت (في الرجز)(١).

ومن المهم أن نعرف أن الشيخ عبدالله كان يعتزم توجيه مؤلفاته إلى المغرب، وطلب من الإسحاقي أن يحملها معه بما فيها (التفسير المنظوم) حتى يوصلها إلى يدي أمير المؤمنين السلطان المولى عبد الله ابن السلطان المولى إسماعيل.

فقلت - يقول الإسحاقي - نحملها على بركة الله، ونقر عينك بذلك، فقال الشيخ: كنت عزمت على هذا الغرض في حياة مولانا إسماعيل رحمه الله فلم يقدر لي ذلك.

ويذكر الإسحاقي أن الشيخ الإسكندراني بدا له إمساكها عنده... ولم يمكنا الكلام معه في ذلك لضيق الوقت... والجدير بالذكر ختاماً للحديث عن هذا الضرير أن الاختيار وقع عليه في أن يستفيد من وقف أجرته الأميرة خناثة على من يدرس البخاري

---

(١) الاسم الحقيقي لهذا الشيخ هو محمد بن عبدالله، وقد ترجمه المرادي في سلك الدرر: ٤/١٢٣، فذكر أن اسمه محمد بن سلامة بن إبراهيم الضرير الإسكندري ثم المكي المالكي، وأنه توفي في ذي الحجة سنة تسع وأربعين ومائة وألف، ويذكر أن التفسير المنظوم يحمل عنوان «تحفة الفقير في بعض ما جاء في التفسير»، يقع في عشرة مجلدات، وقد وقفتُ على نسخة من هذا التفسير بمركز جمعة الماجد في دبي، وقد صورها عن النسخة الأصلية بالمكتبة الظاهرية بدمشق، وتفضل الأخ الماجد فأهداني فاتحة الجزء الأول وخاتمة الجزء العاشر، وهو يبتدئ هكذا:

يقول راجي ربه المقتدر
المالكي محمد الإسكندري

وينتهي بهكذا:

وافضل الصلاة والسلام
على النبي المبدأ والختام
وصحبه وآله من بعده
ومن مشى بعدُ على منواله

في الحرم الشريف.

وكان ممن لقيه الإسحاقي في المسجد الحرام، وهو الثامن من هاته الشخصيات، الفقيه الوجيه والسري الثري محمد ابن الفقيه العلامة الرحالة محمد بن سليمان الروداني صاحب الصيت بالحرمين الشريفين، وفي البلاد المشرقية كلها.

وهنا يشير الإسحاقي إلى أبي سالم العياشي وما قاله عن ابن سليمان، الذي لم ينقطع عن ذكره لسان!

وكانت داره قرب المسجد الحرام ملاصقة له ورثها عن والده... قال الإسحاقي: إن نسبة هذا الرجل إلى سوس المغربية تنوسيت.

دار المغرب بمكة

وقد سجل الإسحاقي في رحلته أن الأميرة المغربية حبست داراً بمكة على من يتلو القرآن، ويدرس صحيح الإمام البخاري بالحرم الشريف، وقد كانت تقع بباب العمرة، اشترتها من أبناء العلامة الشيخ عبدالله بن سالم البصري بثمن يقرب من ألف مثقال مطبوعة، وذلك بمساعدة محمد بن سليمان الروداني المذكور... وقد عينت الجماعة التالية للقرآن بالاسم، والتزموا القيام بذلك، كما انتدبت لتدريس الإمام البخاري العالم محمد الإسكندراني الضرير السالف الذكر... وعينت الأميرة كذلك التاجر الحاج قصارة الفاسي أحد التجار المجاورين للإشراف على التصرف في مستفاد الدار، وكان الإسحاقي هو الذي تولى كتابة عقد الشراء من أبناء الشيخ البصري بتقديم له على ذلك من لدن الأميرة... لكن الذي حصل أن أمر الشراء استهدف لبعض المشكلات العارضة التي أثارها القاضي القادم من إستانبول!

ويبدو أن المشكلات كانت في الأصل "سياسية" إذا صح التعبير قبل أن تكون فقهية، ومع ذلك فسنستعرض الأحداث كما رواها الإسحاقي الذي قال: ولما ذهبنا للقاضي برسم كتب عقد الشراء، واستظهرت بمرسوم التوكيل من قِبَل السيدة على الشراء ودفع الثمن، واستظهر النائب عن البائع كذلك بالتوكيل، قال القاضي: لا يمكن أن يعقد البيع بين وكيلين، ولا بد أن يباشر العقد أحد المتبايعين بنفسه... فقلت له: أما السيدة

فلا سبيل لكم إليها..! وعند ذلك وجه القاضي عدلين فسمعا من البائع؛ لأنه كان بحال مرض ألزمه الفراش.

ولما تم العقد ولم يبق إلا كَتْب الوثيقة قال القاضي: لا بد من مئة ريال على هذا العقد..! وبمشقة اتفقنا على أداء خمسة وعشرين ريالاً دفعناها لهم، فلما قبضوها قالوا: هذا حق عقد البيع، ونعمل مجلساً آخر لكتب عقد التحبيس.!!

وأرخينا لهم العنان حتى تسلمنا عقد البيع وانصرفنا، فكتبنا عقد التحبيس بشهادة أصحابنا العدول المغاربة تفادياً من جور القاضي وعدوله، وكانوا جميعاً يشربون الدخان[1] على الرغم من أن مكان القاضي يشرف على الكعبة من شراجيب، وذلك لعمري من الأعاجيب!!

ويعود الإسحاقي لمشكل شراء دار المغرب، فيذكر أن الناس هناك اختلفوا في شأنه وأكثروا، فقال بعض المجاورين ممن استند إلى بعض الحكام الجائرين: لا يجوز بيع ديار مكة ولا شراؤها، وقال آخرون من ذوي النهي والأمر: نحن براء من هذه الدار وشرائها.

وهنا أرسلت السيدة إلى الوزير الإسحاقي قائلة: إني أرغب في هذه الحسنة فلا تحرموني منها! وقد قلدتك بها. فطمأنها الإسحاقي قائلاً: إن هذه المسألة جرى عليها قديماً وحديثاً عمل الناس، وها نحن أولاء نحرر لك ما قيل فيها من الفقه.

ويخبرنا الإسحاقي بأنه عندئذ طلب إحضار كتب المذهب المالكي، وحرر فتوى تعدُّ في نظرنا من أروع الفتاوى الفقهية، نقل معلوماتها عن الشيخ خليل في «مناسكه»، والحطاب في «حاشيته على المناسك» وغير هذين، وردت هذه الفتوى في مخطوطة الإسحاقي (ص ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠).

وعلى الرغم من أن الإسحاقي لم يشر إلى ما ورد حول شراء دور مكة عند أبي الوليد الأزرقي في أخبار مكة[2]، فإن الفتوى المالكية تسوِّغ بوضوح كبير كيف أن أرض مكة

(١) ظل المغاربة يستغربون من تناول زملائهم المشارقة لطابا يعدون ذلك مما يخل بالمروءة.

(٢) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تأليف أبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، تحقيق رشدي الصالح ملحس، ج ٢، ص ١٦٢: من كره كراء بيوت مكة وما جاء في بيع رباعها... طبعة ثامنة ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، مطابع دار الثقافة بمكة المكرمة.

هي ملك لأصحابها، وليس لحاكم ما أن يمنعهم من التصرف فيها بالطريقة التي يرونها هم، وليس غيرهم.

وقد ابتدأ الفتوى على هذا النحو: قال في البيان: ولا خلاف عن مالك وأصحابه أن مكة افتتحت عنوة، إلا أنهم اختلفوا: هل منَّ على أهلها بها فلم تقسم لما عظم الله من حرمتها، أو هل أقرَّتْ للمسلمين؟ وعلى هذا جاء الاختلاف في جواز كراء بيوتها، فروي عن مالك فيه ثلاث روايات... إلى أن يستدل بملك الناس لبيوتهم بالآية الكريمة ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾، وبقوله ﷺ: «مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن...»(١).

قال الإسحاقي: وحينما كتبنا هذه النقول وأنهيناها للسيدة المذكورة، أعزها الله، وعرفت مضمنها ومعناها تلقتها بالرضى والقبول، وأجمعت الشراء في الدار المذكورة والتحبيس... وتحققت آنذاك من تسويل إبليس الخسيس..!

ويأتي الإسحاقي بعد هذا بفصول في مناسك الحج وفي حدود الحرم، وفي أصلها... ثم بفصل آخر يتضمن تفسير المناسك المباركة بطريق الإشارة إلى معانيها، وهل الأفضل الحج والعودة أو الحج والجوار؟ ثم يأتي بفصل نقله من مناسك خليل... وختم بذكر أسئلة تتعلق بالحج مع الجواب عنها.

لقد أقاموا بمكة عشرة أيام استغرق الحديث عنها نحواً من سبع عشرة ومئة صفحة... وهكذا ودعوا مكة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذي الحجة الموافق ليوم ٢٣ يونيو عام ١٧٣١م بعدما طافوا طواف الوداع.

وودعنا البيت العتيق، على نحو ما قال الشاعر، وداع:

أحبة راعها، والشمل منتظم
داعي الوداع فمن باكٍ ومعتنق!

---

(١) ينبغي أن يراجع حول الموضوع كتاب البيان والتحصيل لابن رشد، تحقيق الحاج أحمد الحبابي، ج٣، ص ٤٠٥-٤٠٦، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، وكتاب البين وكتاب المقدمات الممهدات لابن رشد أيضاً، تحقيق سعيد أحمد أعراب، دار الغرب الإسلامي، ص ٢١٨-٢١٩، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، وكتاب مواهب الجليل شرح مختصر خليل للخطاب، طبع السلطان مولاي حفيظ، ج٥، ص ٤٢٣، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٩هـ مع شكرنا لمكتبة دار الحديث الحسنية، الرباط.

وخرجوا من باب كدى من أسفل مكة المكرمة اقتداء بسنة رسول الله ﷺ، وكان الركب المصري خرج قبلهم، فوجدوه قد ضرب مضاربه بوادي فاطمة حيث أقام الركب جنازة للشهيد أبي القاسم التسولي الذي كان عينه السلطان مولاي عبد الله لملازمة نجله الأمير سيدي محمد، وقد أدركه أجله قريباً من قبر السيدة ميمونة زوج النبي ﷺ في أعقاب حر شديد(1)، تغمده الله برحمته.

(1) د. عبد الهادي التازي: أمير مغربي في طرابلس أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة، المغرب، ١٩٧٦م، ص ١١٣.



الأميرة خناثة بنت بكار زوجة السلطان المولى إسماعيل بريشة الفنانة الإسبانية إميليا ر. ف.

وذلك عليهم مهابة وجلالة نعم ما تقع عليهم عين الفقير يعرف أنهم
شرفاء، وقد قال الأمير عبد الله ابن عباس فيما روي عنه رضي الله عنه
خصصنا نحن معاشر بني الناس بفصاحة وصباحة وسخاوة
عند النساء، وينبع تلقفنا وأهل مكة شرفها الله من الأشراف
وغيرهم ومعهم ماء زمزم وغيره من بركة مكة يتعرضون بذلك
لأمير الركب ومن يعرفونه من الناس وقد تعرضوا السيد والدي
مولانا نصره الله بذلك فأكرمهم الإكرام التام جزاهما الله بالخير
ثم ارتحلنا من ينبع الكرام فاتصل المسير وكان النزول على
بدر ومنها لنا الموضع المبارك المشهور محل الغزوة
المباركة المشهورة المستغنية عن الإشارة إليها ولقد نصركم
الله ببدر وأنتم أذلة، وهو واد به ماء معين عذب وعليه نخل
وعمارة كما يقولوا منها شيء يسير لقربها ابيار كانت هنالك تسمى
ابن بدر لاستدارتها وصفاء مائها او شيء باسم محتفرها بدر بن
قريش بن حبة ويذكر كذا في القاموس وبدر معظم اليوم تحفه
جبال من جميع جهاته تقوم به سوق جامعة لأهلها ومن
جاورهم الى المدينة المشرفة يتعيشون من الركب ويستعدون
لذلك ويبيعون ما يبتاعون به من تمر وغيره جمال وغنم وذلك
ومن قبلها مواضع مباركة يرغب الحجاج في زيارتها منها

مجلد
رحلة [illegible] 1742

إحدى صفحات مخطوطة الإسحاقي عن رحلة الأميرة خناثة

أبو مدين الدرعي ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م

هذه رحلة حجازية لأبي مدين محمد بن أحمد بن الصغير السوسي الروداني الأصل الدرعي المتوفى سنة ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م، وقد سافر للحج مرتين: أولاهما سنة ١١٥٢هـ/ ١٧٤٠م، وعنها ألّف الرحلة.

ينقل عنها كثيراً أبو إسحاق إبراهيم السوسي العيني المتوفى سنة ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م في رحلته الآتية الذكر، ويصفها بالطول والإسهاب(١)، وكان الشيخ المختار السوسي وقف على نصفها بخط المؤلف عند بعض أهل المؤلف في قرية سيدي داود من أكلو في ضواحي تيزنيت توجد منها نسخة بالخزانة العامة رقم ٢٩٧ ق. كما توجد نسخة ثانية ضمن مجموع ص ٢٠ - ٢٨٠ مع تذييلها بنصوص إجازات مشرقية للرحالة بخطوط أصحابها ص ٢٨١-٢٩٣(٢)، ويمكن أن نلخص الحديث عن هذه الرحلة في الأسطر الآتية:

يبدو أن الرحلة كانت أولاً مذكرات متناثرة عند المؤلف، ثم ظهر له أن يجرد تلك المذكرات في رحلة؛ «اقتداء بآثار من سبقه إلى ذلك، وإن لم يكن أهلاً لتلك المسالك». يقول أبو مدين: وذلك لتكون عوناً لمن انتهت إليه على فهم بعض المهمات المحتاج إليها، وتنبيهاً على الأماكن الصعبة والبلدان العادية لصوصها، والمالحة مياهها، مقتدياً بشيخه العلامة الجامع بين الحقيقة والشريعة سيدي أحمد بن محمد بن ناصر.

وكانت الديباجة اشتملت على هذه العبارة: الحمد لله الذي أهلنا لحج بيت الله الحرام، ومتعنا بالطواف بالبيت العتيق، واستلام الركنين والصلاة خلف المقام، ونعمنا بالتضلع من ماء زمزم كما أمر سيد الأنام، ووفقنا للسعي بين الصفا والمروة سبعاً على التمام، وبلغنا المنى بالمبيت بمنى اقتداء بمولانا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام،

---

(١) ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص ٣٤٧-٣٤٩. د. التازي: ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة، ١٩٧٧م، ص ٣٨-٣٩، التعليق ١، مخطوطة الخزانة العامة تحت رقم ٢٩٧.

(٢) المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج١، ص ١٨٩، رقم ٤٩٩.

وعرفنا فضله بالوقوف بعرفات لنحط به عنا الذنوب العظام، وقربنا إليه زلفى بالمزدلفة، وقد تضرعنا إليه بالمشعر الحرام، وأرشدنا لرمي الجمار والحلق لنرمي عنا الأوزار والآثام، وكمل رجاؤنا بطواف الإفاضة، فتم حجنا وبلغنا المرام.

وقد خطط أبو مدين لرحلته عندما فصلها إلى أبواب... وكان من مضامين الباب الأول الحديث عن خروجه من مصر إلى الحجاز، فقد ذكر المراحل التي قطعها ليصل إلى مكة المكرمة[1]... وكان في معظم هذا يذكر نقولاً عن الرحلة العياشية.

«... فدخلناها من باب المعلى، وهو الثنية العليا التي دخل فيها رسول الله ﷺ المسماة بـ (كَدا) بفتح الكاف، وقد بالغت الولاة في حفرها حتى صارت كأحد الأزقة[2]، ثم الحجون، التقى بقربها مع صاحبه الحاج محمد بن سعيد الذي كان مع جماعة من الإخوان الذين سبقونا، واكتروا لنا داراً للنزول، فذهبوا مع الجمال وسرنا نحن آمين المسجد الحرام، فدخلناه من باب السلام، ونلنا بدخوله الأمن والأمان التام، فشاهدنا البيت الحرام، وكمل بفضل الله المقصود والمرام، وأزاحت أنواره من قلوبنا كل ظلام، وقد تدلت أستاره وأشرقت أنواره».

وهنا استشهد على نحو ما فعله الآخرون بقطعة شعرية من ثلاثة أبيات لأبي سالم العياشي حول تشمير الكعبة طوال هذه الأيام.

وقد أورد بعد هذه القطعة، مباشرة ومن دون مقدمة، اثنين وعشرين بيتاً من القصيدة التي سبق أن أورد معظمها الشيخ أحمد بن ناصر في رحلته من دون نسبتها... ويتعلق الأمر بالقصيدة الهائية:

وما زال وفد الله يقصد مكة
إلى أن بدا البيت العتيق وركناه
فضجت وفود الله بالذكر والدعا
وكبرت الحجاج حين رأيناه

(١) ماء الموائد، ج١، ص ١٩٠.

(٢) ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص ٣٤٧-٣٤٩. د. التازي: ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة، ١٩٧٧م، ص ٣٨-٣٩، التعليق ١، مخطوطة الخزانة العامة تحت رقم ٢٩٧.

وقد كادت الأرواح تزهق فرحة

لما نحن من عظم السرور شهدناه

تصافح ذي الأملاك من كان راكباً

وتعتنق الماشي إذا تتلقاه

إلى آخر الأبيات التي أوردها في الصفحة ١٢٥-١٢٦ من المخطوط الذي يحمل رقم ٢٩٧.

وقد أخذ عنه الشيخ أبو مدين بذكر الأدعية التي يقولها الحاج وهو يجد نفسه أمام الكعبة: «اللهم زد هذا البيت شرفاً وتعظماً وتكريماً ومهابة.. اللهم أنت السلام ومنك السلام...» إلخ.

وعلى نحو هذا يذكر دعاء خاصاً عند الحجر الأسعد: «بسم الله، الله أكبر، الله أكبر، إيماناً وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك...» إلخ.

ويتحدث عن الأشواط التي أتى بها وماذا دعا به في الشوط الأول: «اللهم اجعله حجاً مبروراً، وذنباً مغفوراً، وسعياً مشكوراً...» إلخ.

وبين ما يقال في بقية الأشواط: رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم[1].. إلخ.

ولما كمل طوافه صلى خلف المقام ورجع للملتزم؛ حيث نبه لما ينبغي أن يتوسل به عند الملتزم: «يا رب عبدك المسكين وأسيرك الضعيف ببابك واقف.. ولا ملجأ منك إلا إليك..» إلخ.

ثم زمزم الذي يذكر له دعاء خاصاً... «اللهم نور قلبي بأنوار معرفتك... وارزقني الأنس بقربك...» إلخ.

ثم يرجع إلى الصفا من باب الصفا... وهنا أيضاً يذكر الدعاء الخاص بهذا المكان: "إن الصفا والمروة من شعائر..." إلى: وكبر ودعا قبل أن يسير إلى المروة ويخب في بطن المسيل... إلخ.

ويخصص الباب الثاني لكيفية الحج والمناسك... وهو على فصول؛ الأول: كيفية الحج.. إلخ.

(١) تراجع ترجمة الحسين بن عبد الله بن الجصاص الجوهري المتوفى سنة ٣٢٠هـ.

قال: وفي اليوم الثامن وهو يوم الاثنين ١١٥٢هـ (٧ مارس ١٧٤٠م) خرج لمنى... وهنا يعود لما دأب عليه من ذكر الدعاء الخاص... اللهم أبلغني صالح أملي واغفر لي ذنوبي.

وبات بمنى، وفي جوف الليل توجه سلطان مكة مسعود بن سعيد مع جيوشه إلى عرفات على أن يتوجه أبو مدين وصحبه في الصباح بعد بزوغ الشمس إلى عرفات، حيث ساروا إلى نمرة، وحيث اغتسلوا غسلاً خفيفاً قبل أن يحضروا الصلاة، لقد صادفت الوقفة يوم الثلاثاء ٨ مارس عام ١٧٤٠م، وينفروا بعد ذلك إلى تتميم المناسك على نفس المنهاج الذي نعرفه(١).

وهنا أيضاً يأتي بجانب من القطعة الشعرية الهائية التي أوردها قبله الشيخ أحمد بن ناصر:

فكم حامد، كم ذاكر، ومسبِّح
وكم مذنب يشكو لمولاه
وكم خاضع، كم خاشع متذلل
وكم سائل مدت إلى الله كفاه
وساوى عزيز في الوقوف ذليلنا
فكم ثوب ذلٍّ في الوقوف لبسناه

إلى أن وصل إلى قوله:

فظل حجيج الله لليل واقفاً
فقيل: انفروا، فالكل منكم قبلناه

ويعود إلى هذه القصيدة بعد أن ينهي طواف الإفاضة على نحو ما فعله أحمد بن ناصر:

وردَتْ إلى البيت الحرام وفودنا
ونحن له كالطير حنَّ لمأواه
وطافوا طواف الإفاضة حوله
ولذنا به بعد الجمار وزرناه(٢)

(١) تولى الشريف مسعود بن سعيد سنة ١١٤٦هـ وبقي في الولاية حتى سنة ١١٦٥هـ، وهكذا كانت مدة ولايته نحو عشرين سنة. أحمد السباعي: تاريخ مكة، ص ٤٢٧.

(٢) انظر مخطوط أحمد بن ناصر، ص ٧٧، ومخطوطة ابن مدين، ص ١٣٧.

رحلة أبي مدين

[illegible]

إحدى صفحات مخطوطة رحلة أبي مدين

سيدي بناني ١١٦٣هـ / ١٧٥٠م

فضلنا أن نحلي صاحب هذه الرحلة بالتحلية نفسها التي حفظناها له ونحن صغار نتردد على زيارة ضريحه بدرب يقع بين (الديوان) و(الصاغة) من عدوة القرويين قلب مدينة فاس.

له نظم في أصل بيت بناني، وفي نسبه وشيوخه نظمه حين أراد الذهاب إلى الحج سنة ١١٤١هـ / ١٧٢٨م، ويقع النظم في نحو الستين بيتاً.

ولقد اشتهر في عهد الدولة العلوية عدد كبير من أبناء الأسرة البنانية في الفقه والإفتاء، والأدب والسياسة والدبلوماسية، وبرز من بينهم هذا العالم الكبير الفصيح البليغ محمد بن عبد السلام بن حمدون المتوفى في ١٦ ذي القعدة سنة ١١٦٣هـ / ١٧ أكتوبر ١٧٥٠م في التسعين من عمره.. أخذ عن عدد من فطاحل علماء المغرب، أمثال: أحمد بن الحاج، وأبي عبدالله بردلة، وعبد السلام القادري جد القادري صاحب نشر المثاني، ومحمد بن عبد القادر الفاسي.

ولما حج في السنة التي ذكرنا أخذ عن جماعة من المشارقة، وله منهم إجازات حسبما تضمنته فهرسته، ويذكر أن سيدي بناني جمع عدداً من التآليف من المشرق استعداداً لشرح كتاب الاكتفاء للكلاعي، وقد شرحه فعلاً في ستة أسفار... اضافها إلى تآليفه العديدة التي لم يصرفه عن إكمالها غير المرض الذي ألم به وألزمه الفراش مدة طويلة.

وقد كان في صدر تصانيفه ـ ونحن نتحدث عن الرحلة الحجازية المغربية ـ فضائل الحرمين الشريفين وتوضيح حدودهما وأوليتهما، وغير ذلك مما لا يجمل بالمؤمن جهله، طبعاً مع ذكر فضائل الحج ووجوبه على المستطيع وترتيب مناسكه ومتعلقاته.

وقد اشتملت رحلته هذه على مقدمة وتسعة عشر باباً وخاتمة، وقد خصص الباب الثامن عشر لذكر مَنْ لقيه بالحرمين.

وقد ذكر الكتاني في فهرس الفهارس أنه وقف على الكتاب المذكور، وهو في مجلد،

وقد أحال في هذا الباب على رحلته الصغرى التي نعتقد أنه ذكر فيها أن وقفته بعرفات صادفت يوم الأربعاء (٦ يوليو) في أيام تشتد فيها الحرارة، ولا يزال الأمل معقوداً على العثور على هذه الرحلة التي قد تكون من جملة ما آلت إليه كتب الكتاني أخيراً مما يوجد الآن ضمن كتبه المسلمة من أهله إلى الملك الحسن الثاني التي تحتضنها مكتبته الخاصة بالقصر الملكي بمدينة مراكش[1].

---

(١) ترجمة ابن الطيب القادري في نشر المثاني، ج٤، ص ٨٠. السلوة ج١، ص١٤٦، منشورات الجمعية المغربية للتاليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

الكتاني : فهرس الفهارس ج٢، ص١٦٠-١٦١-١٦٢ .

عبد السلام بن سودة : ج٢، ص ٣٤٨-٤١٦ .

د. التازي : تاريخ جامع القرويين، المجلد الثالث، ص ٨٠٢.

المنالي الزبادي ١١٦٣هـ / ١٧٥٠م

هذه رحلة جليلة الفائدة تحمل عنوان «بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام»، وهي للعلامة المشارك عبد المجيد المنالي الزبادي المتوفى سنة (١١٦٣هـ/ ١٧٥٠م).

رحلة غنية ثرية، بما تحويه من موضوعات متنوعة كنت استشرتها وأنا أعد بحثاً حول رحلة الإسحاقي وإفاداته عن ليبيا[١]... كانت آنئذ في عداد المخطوطات، أما اليوم فقد قيض الله لها أحد نبهاء طلبتنا وجدٌّ في عزيز من زملائنا من شجعه على تحقيقها وإعدادها رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا[٢].

وقد وجدت مشقة كبرى في الاستغناء عن بعض مقاطعها المفيدة، خاصة وأنا مع موضوعي (مكة)، لقد كان صاحبها كاتباً وشاعراً في كل ميدان، ومع ذلك فإني سأحاول أن أقدم ما أراه أكثر فائدة من هذه الرحلة، ولاسيما مكة وما حواليها من معالم.

لقد ابتدأ الزبادي بمشاعره وهو يجد نفسه أمام الكعبة التي كان يتوجه إليها صباح مساء، فلقد عرفنا عن عبارة العبدري التي رددها ابن بطوطة: «تقوي بصيرة المستبصر، وتسدد فكرة المتفكر».

فماذا عن مكة عند الزبادي؟

كان دخولنا لمكة - زادها الله تشريفاً - بعد حل النافلة بقليل يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة ١١٥٨هـ (٢٨ ديسمبر ١٧٤٥م) مع الركب المصري، وفي الخامس دخل الركب المغربي، وفي السادس دخل الركب الشامي، وفي السابع دخل الركب المدني، وفي الثامن دخل بقية ركاب الآفاق كاليمن والعراق، وكان يوم دخولنا هو السادس عشر من ديسمبر، وخامس أيام زمن الليالي[٣]، فدخلنا من باب المعلى خاضعين للعلي الأعلى،

---

(١) ليبيا من خلال رحلة البزير الإسحاقي، ص٣٩، تعليق ٣، مطبعة فضالة، المغرب، ١٩٧٦م.

(٢) الطالب رشيد اليونسي، والأستاذ الدكتور علال الغازي، قدمت الرسالة في السنة الجامعية ١٤١٥ - ١٤١٦هـ/ ١٩٩٤- ١٩٩٥م.

(٣) يلاحظ أن الزبادي يعتمد على التقويم الفلاحي.

شاكرين للكبير المتعالي على إحسانه المتوالي، فلقيت الرفقة في بعض الأزقة قد عينوا داراً للكراء، وتعرضا لي حتى أرى، فذهبت معهم إليها، ووافقتهم عليها، فحططنا بها الأثقال، وأطبنا لأهلها المقال، وكانت متصلة بحومة الشاميين الموالية لباب زيادة؛ أحد أبواب الحرم، فلما فرغوا من حط المتاع، ذهبت معهم بين البطء والإسراع، حتى أتيت البيت الحرام، فدخلناه من باب السلام، وضفنا الملك العلام ذا الجلال والإكرام، وتطفلت وإن لم أكن من أهل هذا المقام:

وفـــدْتُ بذلّي على مـــاجـــد
وإني مـن زللي ذو احـــتـــشـــام
وفــدت علـى أكـــرم الأكـــرمين
ولـيـس يـخــــيـب نـزيـل الـكـرام

فلما وقعت على البيت العتيق الأبصار، ونفذ من ظاهره إلى باطنه الإبصار، خضعت الجوارح والأسرار، لما احتف به من الأنوار، وتمثل لي البيت المعمور الذي هو بالأنوار الجمالية مغمور، والمولى جل وعلا يقول وهو الشكور المشكور: «مرحباً بضيوفي، ونعم الضيوف، لقد رضيت عن كل من بساحة هذ البيت يطوف»، فما أكرمه من كريم عطوف رحيم، ووجدت معنى أن الله إذا تجلى بالجمال لشيء بالجلال خشع وخضع، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾، وإذا تجلى بالجمال بهر العقول، ولم تشف فيه النقول، وأحبته القلوب، وحنَّت له الأفئدة، وارتاحت إليه النفوس، وتذكرت به الألباب، ونفذت منه الأسرار إلى رب الأرباب، ومن وقف عنده كان له أعظم حجاب، ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها، ولولا هذا التجلي ما كانت الكعبة ولا البيت المعمور، ولا وافاهما أحد يزور، وإذا تجلى لشيء بالكمال في غاية الاعتدال، وكان الله سمعه وبصره وبروح منه أيده ﴿فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، فكان عين الحقيقة وشمس الوجود، من فتح بصره فيها ليظفر بكنهها رجع إليه البصر وهو حسير، ومن أطرق حياء وتعظيماً رأى

الكون كله مملوءاً بأنواره مستمداً من أسراره، «من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه». ثم أتيت البيت العتيق من باب بني شيبة، وذلك من السنن يعدّ، فأتيت الحجر الأسعد ولم أصد عنه بالازدحام، فقبلته بفمي لا باليد، وكبرت الله تعالى، وشرعت في طواف القدوم، على الوجه المعلوم، وعند التمام صليت ركعتين خلف المقام، ثم ازدحمت فالتزمت الملتزم، ثم تقهقرت فدعوت في الحطيم مستنداً إلى زمزم، ثم خرجت من باب الصفا فأتيتها حتى علوت عليها، ونظرت إلى الكعبة وكبرت الله وحمدته وهللت وسبحت ودعوت، وسرت إلى المروة، ففعلت مثل ذلك إلى أن كملت السعي، فرجعت إلى المسجد، فصلينا الظهر مع بعض جماعاته الأربع، ومكثت في المسجد، لا أبرح ولا أذهب لمنزلي إلا لأكل أو قضاء حاجة أو نوم بالليل حتى تحل النافلة، أو بعد العصر حتى تصلي المغرب، فأشتغل في هذين الوقتين بالذكر.

فلما كان اليوم السابع من الشهر، وكان يوم الجمعة، خطب بنا للجمعة خطيب ظريف، لبيب لطيف، خطبة جيدة، وهو من أهل البلد، وهو الذي رأيته يخطب للجمعة لمدة إقامتنا بمكة، فصلينا الجمعة، وبعد الفراغ بقي الناس في مواضعهم حتى أتى خطيب آخر، فخطب بنا خطبة مشتملة على مناسك الحج وفضائله. ومن الغد، وهو اليوم الثامن، ارتحلت الركاب إلى عرفات، فصلينا الظهر في المسجد الحرام، وخرجت راكباً على ناقة، حامداً لله بحسب الطاقة، فنزلنا منى وقت العصر، فحططنا بها الرحال، ودخلت مسجد الخيف، فصليت العصر في القبة التي كانت بها خيمة رسول الله ﷺ، وكان نزولنا عند مسجد الخيف، فصلينا المغرب هنالك، وارتحلنا إلى عرفات بارتحال الركاب كلها إلا الشريف[1]... وبهذا جرت العادة منذ سنين، فأتينا عرفات، وصلينا العشاء هنالك، ومن الغد اغتسلنا قرب الزوال، ولما تمكن صلينا الظهر والعصر، ولم نذهب لنمرة لبعده من موضعنا جداً، ولكثرة الازدحام من أجل الركاب النازلين هنالك، ثم ذهبت للوقوف راكباً على ناقتي، وهو من السنة معروف، فما زلنا واقفين بالقرب من

---

(١) القصد إلى الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد حاكم مكة. السباعي: تاريخ مكة، ص ٤٢٧. عبدالفتاح حسين: أمراء البلد الحرام، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

الداعي من الناحية السفلى عن موقف النبي ﷺ ندعو الله ونسبحه ونحمده ونهلل ونكبر حتى غربت الشمس غروباً محققاً، ودخل الليل دخولاً بيناً، ونفر الناس فنفرنا ذاكرين الله تعالى، مصحوبين بمطر من غير أن يتقدمه سحاب ولا مقدمات (ثاني يناير ١٧٤٦م)، فنزل معه في القلوب الرحمات، وكان على القبول من واضح السمات، فخرجنا من بين المأزمين، فما غاب الشفق بلامين حتى حططنا الرحل بمزدلفة، فجمعنا بين العشائين وتعشينا والتقطنا الجمار، وأحيينا الليلة بالصلاة والتلاوة والأذكار، ثم صلينا الصبح في أول وقته وارتحلنا مغلسين، وأتينا المشعر الحرام، ووقفنا خاشعين خاضعين ذاكرين داعين إلى الإسفار البين، وسرنا مرملين ببطن محسر، وأوله من القرن المشرق من الجبل الذي على يسار الذاهب إلى منى، ثم يخرج منه سائراً إلى منى سالكاً للطريق الوسطى التي تخرج إلى العقبة، وليس من مزدلفة ولا من منى، وهو مسيل ماء بينهما. فأتينا منى، ونزلنا قريباً من مسجد الخيف، وذهبت فرميت جمرة العقبة، ونحرت شاة عن لبس الثياب، وحلقت جميع رأسي، وسرت إلى مكة المشرفة وطفت طواف الإفاضة، وقد صليت الظهر بمسجد البيعة بأسفل العقبة عن يمين الذاهب إلى مكة، ونسيت هل ذلك قبل أن نصل إلى مكة أو بعدما خرجت منها، وهذه هي المسائل الأربع التي تفعل يوم النحر، ثم تضلعت من ماء زمزم وخرجت من مكة، فما صليت العصر إلا في مسجد الخيف، ومررت أيضاً بمسجد البيعة، فدخلته وصليت فيه ولست أدري هل الظهر في الأولى وفي الثانية النفل أو العكس، ولما صليت العصر في مسجد الخيف خرجت حتى أتيت غار المرسلات، فقعدت هنالك تبركاً بآثار الرسول ﷺ، وذكرت الله ودعوته، وذهبت إلى منزلي فبتُّ، ومن الغد إثر الزوال رمينا الجمرات الثلاث. ولقيت هنالك شيخنا العلامة أبا عبد الله سيدي محمد بن الطيب الصميلي نزيل الحرمين الشريفين(١)، فلما فرغنا من الرمي ذهب بنا إلى زيارة الشيخ المسن البركة، الولي الكبير والعارف الشهير أبي محمد سيدي عبد الله مدهر الشريف الحسيني الباعلوي اليمني الحضرمي ثم المكي، فدخلنا عليه في مقعد من المقاعد المشرفة على

(١) هذا هو صاحب الرحلة التي وقفنا عليها في مكتبة لايبسك بألمانيا، وقد توفي سنة ١١٧٠هـ / ١٧٥٧م على ما سنرى.

سوق منى... وحضر معنا في ذلك مولانا أبو عبد الله العراقي(١)، فجلسنا إلى آخر الظهر، وخرجنا من عنده وودعناه، ودخلنا مسجد الخيف، فصلينا الظهر جماعة، وجلسنا هنيهة، فحضر وقت العصر، فصلينا جماعة، وخرجنا إلى الغار، ثم إلى منزلنا فبتنا، وكانت ليلة من أعاجيب الدنيا(٢)، أولها من صنع الخالق على يد الخلائق من كثرة المدافع والمحارق التي تعلو الشوامخ الشواهق، وكثرة المصابيح البديعة الصنع المختلفة الوضع من أشكال الأشجار والسباع والأطيار، وأنواع الشبابيك والخواتم والدوائر والأوفاق، وقد شغل ذلك أذهان الركاب والرفاق. فلما مضى من الليل نحو الثلث على تلك الحال، انقلب الأمر واستحال، وحضر صنع الواحد القهار مكوِّر الليل على النهار، إذ حضر رعد هائل وبرق على الأبصار صائل (يناير) كاد الناس يصعقون من هوله، فتبرأ كل واحد من حوله وقوته، فبقي ذلك مدة يعجز عن وصفها الواصف، وأتى الله بريح عاصف أكفأت الكثير من البيوت والمنازل، فبينما الناس منها في شغل شاغل وتعب هائل، أتت السماء بمطر وابل شديد الوقع متصل سائل، فبنفس ما انقطع بدأ الفجر وسطع، وانكشف ما بالجو وانقشع، وذهب ما حل بالناس وارتفع، فصلّينا الصبح، وجلسنا حتى أضحى النهار، فتحسسنا الأخبار، فإذا هو قد وقع في الخلق موت كثير من الآدميين والجمال والخيل والبغال والحمير، وضاع للناس ما ضاع، وفسد ما فسد(٣). وأنجز الله لهم اللطف كما وعد. وشرع الناس في الارتحال، فلما تمكن الزوال رمينا الجمرات الثلاث على توالٍ، وارتحلنا لارتحال الركاب كلها متعجلة، فلما كنا عند مسجد البيعة صلينا الظهر وانصرفنا إلى مكة، ولم يتهيأ لنا التحصيب فدخلنا مكة في عيش خصيب، والتحصيب النوم بالمحصب، وهو الشعب الذي مخرجه إلى الأبطح ساعة من الليل، وقيل: المحصب موضع رمي الجمار من منى، وليلة الحَصبة بالفتح التي بعد أيام التشريق.

وبعد أن استطرد الزبادي بذكر عدد من الفوائد في تحديد موقع عرفة... وتحديد

(١) القصد إلى العلامة المغربي محمد الهادي العراقي الذي كان رفيقاً له إلى جانب العلامة المولى أحمد الصقلي وآخرين.

(٢) معظم الرحالين المغاربة استوقفتهم هذه الليلة في منى بما يجرى فيها من تظاهرات واحتفالات.

(٣) تحدثت مصادر تاريخ مكة عن هذه الأحداث، انظر تاريخ مكة: السباعي، ص ٤٢٩.

المزدلفة... وتحديد موقع منى... وبعد أن يورد بعض الشعر في التشوق إلى تلك الأماكن يأتي أيضاً بفائدة أخرى تتركز على أسماء مكة معتمداً في ذلك على من سبقه من المؤلفين، ثم يرجع إلى مكة ليقول:

فدخلنا مكة عشية الأربعاء الثاني عشر من ذي الحجة، فبقيت أياماً نسيت عددها، ثم خرجت عشية يوم إلى التنعيم، وهو «موضع على ثلاثة أميال أو أربعة من مكة أقرب أطراف الحل إلى البيت، سمي بذلك لأن عن يمينه جبل نعيم، وعن يساره جبل ناعم، والوادي اسمه نعمان»، وهناك المسجد المنسوب لعائشة رضي الله عنها، بني في المكان الذي أحرمت منه بالعمرة مع أخيها عبد الرحمن بأمر النبي ﷺ في حجة الوداع، ومن ذلك المكان يحرم الناس بالعمرة في المواسم وغيرها، حتى صار يطلق على المكان اسم العمرة تسمية للشيء باسم ما يقع فيه. وأما الجعرانة فلم يبق أحد من الناس يحرم منها، حتى تنوسي بين الناس أنها محلة فلا يعلم ذلك إلا الفقهاء[1]. وفي "القاموس": «والجعرانة وقد تكسر العين وتشدد الراء، وقال الشافعي: الشد خطأ؛ موضع بين مكة والطائف سمي بريطة بنت سعد، وهي المراد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾».

فوصلتُ إلى التنعيم عند الغروب فاغتسلنا من مائه، ولبست الإزار والرداء والنعلين، وصلينا المغرب جماعة في مسجد عائشة رضي الله عنها، ثم أهللت بعمرة، ورجعت إلى مكة والناس يخرجون من صلاة العشاء من المسجد، وطفت وركعت خلف المقام، وخرجت إلى الصفا فسعيت، ولما فرغت من السعي حلقت ودخلت المسجد، فصليت العشاء وأوترت، وذهبت إلى منزلي لضرورة الغداء.

ولأجل شغفي بالبيت والطواف والجلوس للاستراحة والذكر قرب المطاف، لم يتيسر لي في مكة ملاقاة الأعلام ولا أهل الحال والمقام؛ لأنني علمت أني لا أجاور؛ لأني أخذت بذلك العهد على الوالدين، فاغتنمتُ هذه الأيام بملازمة البيت الحرام، إذ العلماء والصالحون في كل مكان، والكعبة وما حولها لا توجد في غير هذا المكان! فآثرت التنعم

(١) من الجعرانة قمنا بعمرتنا سنة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م. د. التازي: التحليق إلى البيت العتيق، نشر دارة الملك عبدالعزيز، الرياض (السعودية)، ١٣٢٢هـ، ص٩٩.

بها على ما سواها، فإن كنت مخطئاً فالله المسؤول أن يقبل عذري، على أن الصالحين لم تفتنا بركتهم؛ إذ لا يخلو البيت منهم للصلاة والطواف، ويجمعنا معهم عرفات ومزدلفة ومنى، وهم القوم لا يشقى جليسهم نعم الآثار والمشاهد، ولم أكن فيها بزاهد، غير أني لم أزد كرة على مرة.

وبعد هذا يقوم بتعداد الآثار التي وقف عليها بمكة المشرفة من غير أن يفوته التعليق على أن بعض هذه الآثار لم يقف في شأنه على مصدر يرجع إليه..! يتخلل كل هذا فوائد جمة تتعلق بالحياة الخاصة للرسول الأكرم ﷺ، وبأهل الحَجون الذي يصرُّ على ضبطه بفتح الحاء.

ويعود الزبادي إلى مكة لملازمة البيت كما يفعل... على أن يختم عنوانه بإلمامٍ ببعض ما يتعلق بالبيت الحرام.

وهنا ينقل نصاً عن أخيه العلامة الشريف سيدي أحمد الذي كان مجاوراً بالحرمين الشريفين عن وصف المسجد الحرام وتأثيثه.

كما ينقل عن الرحلة العياشية وصفاً للبيت العتيق... وتصميمه... ثم ينقل عن شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي معلومات عن تطور بناء الكعبة، وأنها بنيت عشر مرات، ولكن من غير أن يجرؤ على ذكر ما رواه الإمام المحدث الحربي المتوفى سنة ٢٨٥هـ / ٨٦٨م من إسهام تاجر من الروم يحمل اسم باقوم في بناء بيت إبراهيم بعد مفاوضة مع قريش[١]... على نحو ما كان بالنسبة إلى المسجد النبوي وجامع دمشق[٢].

وعلى نحو ما قاله الرحالون السابقون[٣] من أن الطير لا تعلو الكعبة وجدنا الشريف الزبادي يردد ذلك، ونحن نعلم عن رواية ابن الصباح حول الموضوع.

ويخصص الزبادي حديثاً طويلاً عن زمزم مشدداً النكير على ما يروى من نحو: (الباذنجال لما أكل له)، مؤكداً أن ذلك من وضع الزنادقة، مختتماً هذا الفصل بذكر

---

(١) كتاب "المناسك" وأماكن طريق الحج ومعالم الجزيرة للحربي، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، المملكة العربية السعودية، ص ٤٨٦-٤٨٧.

(٢) رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. التازي، نشر أكاديمية المملكة المغربية ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ج١، ص ٢٧١-٢٧٢.

(٣) قال ذلك أول من قاله أبو عبيد البكري. تراجع أطروحة اليونسي، ج٢، ص ١٨٧، تعليق ٤.

أسماء البيت الحرام قبل أن يخبرنا بخروجه من مكة المكرمة فيقول:

لما كملت العشرون من ذي الحجة أخذت الرفاق في الذهاب إلى الآفاق من شام ويمن وعراق... حتىٰ كان يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من ذي الحجة خرج الركب المصري... وأصبح الركب المغربي الذي يمشي معه، وهو ركب فاس، يودع يوم الأربعاء من غير ازدحام... فأقمت في البيت أتنعم بالطواف والصلاة والذكر والنظر والدعاء والشرب من ماء زمزم حتى اشتد النهار، وفرغ أهل ركبنا من الوداع.

وودعنا أخانا في الله ورفيقنا من فاس إلى طرابلس الفقيه الناسك عبدالرحمن الشنقيطي السوسي؛ لأنه أراد التوطن هناك... وودعت أخانا الفقيه سيدي بلقاسم بن أحمد المغربي من عمالة الجزائر وقد ظهر له أن يجاور هذه السنة... وودعت سيدي نصر ابن العريف بن محمد بن علي بن العريف العباسي السوداني الذي ورد بقصد الاستيطان هناك... وودعت المرابط المجتهد أبا العباس مولانا أحمد المراكشي المغربي المجاور هناك منذ سنين. وتآخيت في الله مع خليل بن أحمد أحد الموكلين بأبواب الحرم سداً وفتحاً، وأخرج لي من داره قدح لبن... وأعطاني شيئاً من الند الذي يبخر به الكعبة... وتم هذا: تناول الشرب وعطاء الطيب عند الكعبة بينها وبين المقام المالكي.

وقمت بطواف الوداع وأديت ركعتين ثم خرجت من باب زيادة، وكانت رفقتي تنتظرني عندها، وأخذت نعلي من حارس النعال وهو الشيخ أمان الله، وتآخيت معه طالباً منه ألا ينساني من الدعاء... فركبت ناقتي، وتبرأت إلى الله من حولي وقوتي، فسرنا من الشبيكة... ثم كان الارتحال من الغد عند الزوال، وأتينا خليصاً بعد الغروب فأنخنا حتى ارتوينا.

ومن المهم بعد هذا أن أشير إلى قصيدة من البحر الكامل هي رائية الزبادي... وهي من نحو ثلاثين ومئة بيت، خصصها لمراحل الحجاز وذكر المناسك، وهي وحدها تحتاج إلى أن تكون رحلة! على نهجها سار ابن عاشر (١٠٤٠هـ / ١٦٣١م)، وسيجري التازي في المرشد المعين (١١٧٠هـ / ١٧٥٧م)، وقد سمَّاها: (إتحاف المسكين الناسك ببيان المراحل والمناسك)، ويقول في مطلعها:

في بركة بركت بنا الأكوار
لما رمتنا للفلا الأمصار

إلى أن يصل إلى مكة ليقول:

وأنل من المعلاة وادخل بلدة
في العالم العلوي لها أنوار
بلد شريف بالمناسك مجده
مرَّت على تعظيمه الأعصار
ما زاغ فيه زائغ إلا غدا
داء له أو غاله الإعصار
حنَّت له حبًّا قلوب أسلمت
وعنت له من عزِّه الأمصار
واقصد لبيت الله من باب السلا
م تلح لك الأنوار والأسرار
سلِّم وكبِّر والْثَم الحجر الذي
في ركنه الشرقي، يا زوار[1]

ومن المهم كذلك أن نختم بالإشارة إلى أن الزبادي خصص نحواً من ثلاثين صفحة للحديث عن تحريم الدخان؛ لما فيه من مخالفات لمبادئ الدين، وصحة الإنسان، وسلامة المجتمع... وقد كانت الدولة في الحرمين أزمعت على محاربته كما تؤكد ذلك المصادر التاريخية، وقد حركه لذلك أن أحد المشايخ الذين أجازوه شرط عليه ألا يمنح إجازته لشارب دخان[2].

ونعيد إلى الذاكرة أن ابن سليمان الروداني كان أول من رفض شرب الدخان لما قدمه إليه مفتي إستانبول، ثم كانت تدخلات العياشي، ثم الزبادي الذي اقتدى بها اللاحقون... وهكذا يسجل التاريخ مناهضة السجائر منذ أربعة قرون خلت قبل أن تتحرك اليوم منظمة الصحة العالمية لكشف الأضرار المحدقة به.

---

(١) بلوغ المرام لعبد المجيد المنالي الزبادي، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، قدمها الطالب اليونسي رشيد بإشراف الأستاذ علال الغازي لجامعة محمد الخامس، كلية الآداب ١٤١٥ - ١٤١٦هـ / ١٩٩٤ - ١٩٩٥م، القسم الثاني، ص ٣٠٠.

(٢) أخبار مكة للسباعي، ص ٤٢٩.

القائد الولتيتي ١١٦٨هـ / ١٧٥٥م

الحديث عن هذه الرحلة غير مسجل بمداد الأقلام، ولكنه مسجل بمداد الآلام المزدوجة بدموع الأبناء والإخوان والثكالى من مختلف الأوساط المغربية على اختلاف شرائحها وطبقاتها قمة وقاعدة.

لقد ابتلع البحر زهاء أربعمئة حاج وهم في طريق العودة إلى الديار المغربية بسبب عطب لحق بالسفينة التي كانت تنقلهم، التي صادفت هيجان البحر الذي كان يصادف فصل الشتاء، ونحن نعلم عن ظروف النقل البحري وقتئذ(١).

أربعمئة نفر ليس بالعدد السهل؛ ولذلك فإنه ترك أثراً حزيناً في المغرب، ولم تنسه الحوليات وكتب التاريخ.

لقد اعتاد معظم الرحالين المغاربة على أن يشير إشارات قوية إلى مختلف الأخطار التي كانت تهدد الحجاج، والتي كان الحجاج يعرفون عنها سلفاً، لكنهم كانوا يخاطرون ويغامرون. وفي كثير من الأحيان كان الناس يروحون إلى الحجاز، وكان أهلهم ينتظرون عودتهم، لكنهم لم يعودوا إلى أهلهم! كانوا لا يبالون بالمصير المهم عندهم أن تكتحل عيونهم برؤية الكعبة الشريفة.

ضروري أن نرجع إلى ما كتبه ابن بطوطة مثلاً عن استخفاف الناس بأرواحهم واسترخاصها في سبيل أن يصلوا إلى مكة لا تخيفهم المفازات، ولا تنال من إرادتهم وقاحة اللصوص والقراصنة، سواء أكانوا في البر أم في البحر.

لنقرأ هذه العبارة في رحلة ابن بطوطة: «وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها (مكة)، ويشاهد التلف في طريقها، فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مسروراً مستبشراً كأنه لم يذق لها مرارة، ولا كابد محنة ولا نصباً، إنه لأمر إلهي وصنع رباني، ودلالة لا يشوبها لبس، ولا تغشاها شبهة، ولا يطرقها تمويه...». وإلى جانب ابن بطوطة أقترح

---

(١) محمد الأمين البزاز: ظروف النقل البحري والحجر الصحي في أدب الحج المغربي، مجلة (الحج والعمرة)، شعبان ١٤٢٣هـ / أكتوبر-نوفمبر ٢٠٠٢م، ص ٥٢-٨١.

عليكم إعادة قراءة رحلة عبد الله بن الصباح الموريسكي الذي فسر بقلمه البسيط وبتلقائية وعفوية معنى الآية: ﴿ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ... ﴾.

واقرأ تقديم ابن عبد السلام الناصري الذي يتحدث عن الموتى والمفقودين والغرقى.

ولقد كانت ظروف النقل البحري رديئة، وبخاصة بعد أن تلقى الأسطول المغربي ضربات موجعة من الأجانب الذين كانوا يريدون أن يبقى البحر لهم وحدهم.

حاولت عبثاً أن أعرف جنسية السفينة التي ابتلعها البحر المتوسط، وبحثت عنها في التاريخ البحري للدول التي كانت تعتاد نقل الحجاج من طنجة إلى الإسكندرية، ومن الإسكندرية إلى طنجة.

وجولة عاجلة في ظروف النقل البحري عبر التاريخ كافية لتصور مدى المغامرة التي يقدم عليها الحاج المغربي لكي يصل إلى ممرات وطئتها أقدام الرسول وصحابته.

ومن طريف ما يحكى بهذا الصدد أن الأسر المغربية وهي تتلقى أخبار مفقوديها من الحجاج كانت تتسلى عندما تسمع أن فقيدها أدركه أجله بعد أن وقف بعرفات، أي: بعد أن أدى فريضة الحج، ولا يزال محفوظاً عند العامة تعبيرهم السائر: «الذهب الإبريز هو الذي يبقى هناك...». وإذا رجعنا إلى هذه الرحلات التي نقرأ اليوم عن مضامينها فسنجد أن طريق الحاج مرصعة جميعها، وعلى طول المدى، بالشهداء الذين أدركتهم الوفاة، لا بد أن نجد ضريحاً لأولئك من الأمراء والقواد والعلماء وضعاف الحال.

وفيما يتعلق بالقائد الولتيتي... نعرف أن العادة جرت بأن يبعث ملك المغرب في كل موسم ركباً رسمياً على رأس المئات من الحجاج... لدعم الصلات بحكام الحرمين إلى جانب أداء المناسك.

وهكذا كان الأمر أيام السلطان المولى عبد الله... الذي بعث بركب كان يرأسه القائد الشهير أحمد الولتيتي، الذي كان بالمصادفة هو والي مدينة الرباط، معززاً بطائفة من الأعيان والعلماء والشرفاء، وهو أصلاً من قبيلة (ادا ولتيت).

هذا الولتيتي الذي نجد لقرابته ذكراً عطراً بين أعلام سوس[1]، قبل أن تشيد مدينة

---

(١) المختار السوسي: المعسول، ج ٨، ص ١٧٥-٢٠٠.

الصويرة من لدن السلطان سيدي محمد بن عبد الله أو محمد الثالث، كما نقول بلغة اليوم.

دور علماء إقليم سوس، وما أدراك ما سوس! في صنع تاريخ المغرب لا يزال بحاجة ماسة إلى دراسة، وأريد القول: إن القائد الولتيتي الذي ابتلعه البحر في جملة من ابتلع كان قائداً للجيش المغربي، وإن الملك المولى عبد الله رأى أن يجعله رئيساً لهذا الركب الذي كتبت له الشهادة، والذي فضلت أن أجعل منه رحلة حية تعبر عن التعلق غير المشروط بمكة والبيت العتيق.

لقد وردت في أحداث سنة ١١٦٨هـ عند ابن الطيب القادري في نشر المثاني[١] في شعبان: ورد الخبر من فاس بأن سفينة مملوءة بالحجاج سافرت من الإسكندرية... قاصدة بلاد المغرب عبر تونس وفيها نحو أربعمئة رجل من المغاربة؛ أهل فاس وغيرهم، غرق جميع من فيها، ونجا منهم بعض الأفراد على بعض الألواح، ومنهم على بعض البراميل التي كانت عندهم لحمل الماء الحلو، وأما السفينة فغرقت بما فيها من الأمتعة والأموال.

ومن جملة من غرق فيها اثنان من السادة العراقيين، وهما سيدي عبد السلام وشقيقه سيدي عبد القادر ابنا الشريف العفيف أبي العلاء سيدي إدريس بن محمد العراقي الحسيني[٢] القاطن بحومة (فرن الشطة) من عدوة فاس القرويين، وكان أمرهما عظيماً.

وإلى جانب هذا النص نجد نصاً آخر للنقيب ابن زيدان يقول: وفي عام ١١٦٨هـ (١٧٥٥م) انكسرت سفينة حافلة للحجاج لدى منقليها من الديار الحجازية فيها من المغاربة سكان فاس وغيرها أربعمئة نسمة، من جملتهم القائد أحمد الولتيتي الرباطي

---

(١) نشر المثاني، ج٤، ص ١١١.

(٢) القصد دون شك إلى حافظ المغرب وعالم فاس سيدي إدريس بن محمد بن إدريس بن حمدون بن عبدالرحمن العراقي الحسيني المتوفى في شعبان سنة ١١٨٣هـ / ديسمبر ١٧٦٩م، السلوة، ج ١، ص ١٤١-١٤٢.

ليفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، ص ٢٤٥، تعليق ١٦. د. التازي: تاريخ جامع القرويين، ج ٣، ص ٨٠٤.

وشريفان من أعيان العراقيين سكان فاس، ولم ينجُ من ركابها غير قليل، وكان ورود الخبر المؤلم لفاس في شعبان[١].

ومن الطرائف التي سجلها التاريخ الدبلوماسي أنه بهذه المناسبة بعث شريف مكة مساعد بن سعيد إلى السلطان المولى عبد الله بوفد للتعزية، فخرج العاهل المغربي بنفسه للترحيب به. وقد استقبله العاهل المغربي بقصره في دار الدبيبغ في فاس على ما يذكره الأسير السويدي ماركوس بيرك Marcos Berg الذي كان يعيش آنذاك في القصر الملكي في العاصمة المغربية[٢].

---

(١) ابن زيدان: الإتحاف، تقديم وتحقيق د. التازي، ج ٤، ص ٤٥٩.

(٢) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٩، ص ٥٥، رقم الإيداع القانوني ٢٥/ ١٩٨٦م.

ابن الطيب الشرقي ١١٧٠هـ / ١٧٥٧م

هذه رحلة للعلامة اللغوي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الطيب الصميلي الشرقي الفاسي المتوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠هـ. وهي في الحقيقة صياغة ثانية لرحلة سرقت من المؤلف ضمن ما سرق له كما يقول.

وقد وصف الشرقي أخبار رحلته من فاس إلى مكة سنة ١١٣٩هـ / ١٧٢٧م، ويوجد منها مخطوطة فريدة في خزانة جامعة لايبسيش (ليبسيك) بألمانيا مكتوبة بخط مشرقي، وكان الأستاذ الراحل محمد الفاسي قد اطلع عليها عام ١٩٣٤م، وكَتَب عناوين فصولها، وكُتِبَ لي أن أقف عليها صيف ٢٠٠٢م، وأن أقوم بتسجيل ما يتعلق بالحرمين الشريفين(١). والرحلة في مجموعها تشتمل على سبع وستين ومئتي صفحة.

ومن المهم أن نعرف أن صاحبها كان إماماً للغة العربية في وقته، ويكفي أن نعرف أنه شيخ لشارح القاموس الشيخ مرتضى الزبيدي وعمدته في تاليفه حول أعمال الفيروزآبادي.

وللشركي هذا تآليف كثيرة... وكان ممن اهتم به الشيخ عبد الحي الكتاني في (فهرس الفهارس)... وقد خصه زميلنا الدكتور عبد العالي الودغيري بتأليف جامع خاص يحمل عنوان: التعريف بابن الطيب الشرقي(٢).

لقد خصص الشرقي فصلاً كاملاً لدخوله مكة المكرمة وهو يقول تمهيداً لهذا: إنه بعد مرورهم بالتنعيم وصلوا إلى وادي الزاهر الذي يسمى «جنان مكة»، وبه آبار وأشجار وبه يوجد قبر عبد الله بن عمر(٣)... وبما أن الشرقي كان من الأدباء والشعراء على ما

---

(١) كان ذلك بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي الثامن التابع للأمم المتحدة حول الأسماء الجغرافية في برلين أغسطس - سبتمبر ٢٠٠٢م.

(٢) منشورات عكاظ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م. د. التازي: دور الفيروزآبادي في ازدهار الدراسات اللغوية بالمغرب، بحث قدم إلى المؤتمر العالمي للذكرى المئوية السادسة لوفاة الفيروزآبادي في مدينة شيراز وفيروزآباد لمحافظة فارس، إيران، جمادى الأولى ١٣٢٠هـ / سبتمبر ١٩٩٩م.

(٣) الرحلة العياشية، ج ١، ص ١٨٩.

يعرفه أهل المغرب والمشرق فقد كانت هذه الصفة فيه تدفع به إلى أن يعتمد على السجع في أداء تعابيره، كما يعتمد على الشعر في الإعراب عن عواطفه، ومن هنا نجده لما انحدر إلى الجحون، ودنت له مكة، وأشرقت عليه بأنوارها، واشتدت الأشواق إليها، قال قصيدة هذا مطلعها:

لقــــد فــــزنا ولله الثناء
وأدركـنـا مـن المولى العطاء
وأشــــرفنا على حــــرم أمين
له من كل ناحــيــة يجــاء!![1]

قال الشرقي: وكانت أكثر من ثلاثين بيتاً اختطفتها يد السارق، وتركت القلب من أجلها في محارق.

ودخلنا[2] مكة في عصر سادس من ذي الحجة الحرام (٢٠ أغسطس ١٧٥٧م) ولم يسعنا أن نقدم شيئاً قبل التوجه إلى بيت الله الحرام، إذ ذاك هو منتهى الشوق وغاية المرام، فجئنا نؤم البيت الحرام، بنيل المنى وبلوغ المرام، وكادت أن تطير من شدة الفرح القلوب، وفازت بما هو لديها المأمول والمطلوب، ودخلنا البيت من باب السلام، اقتفاء لأثر النبي عليه الصلاة والسلام، داعين للبيت العظيم، بزيادة التشريف والتعظيم، قال التقي الفاسي: باب السلام هو أول باب في الجنب الشرقي، وعليه منارة المسجد الحرام... إلى آخر النص الذي أورده الشرقي نقلاً عن الفاسي حول باب السلام.

وأشرفنا منه على ذلك البيت الشريف، الغني عن التعريف، وقد تبدت أنواره، وتدلت أستاره، وبرقعه مشمر عن الأسافل، حتى لا يكاد يناله علي ولا سافل، إذ عادتهم أن يفعلوا ذلك به من أول ما تقدم الوفود، ولا تطلق أستاره حتى تؤوب وتعود،

---

(١) شعر ابن الطيب الشرقي الفاسي، تحقيق د. عبد العالي الودغيري، طبعة ١٩٩٦م، رقم الإيداع القانوني ١١٩٥/ ١٩٩٦م، ص٢٧.

(٢) حصلت على صورة كاملة من مكتبة ليبسيك، وإني لأغتنم هذه الفرصة لأجدد الشكر لترحيب القائمين على المكتبة، كما أشكر سفارتنا في برلين لمساعدتها الثمينة في شخص سعادة القائم بالأعمال الأستاذ رضى الفاسي.

وقد قال أبو سالم في هذا المعنى، وأبدى فيه تشبيهاً غريب المبنى، وهنا أورد الأبيات الثلاثة المعروفة التي أوردها العياشي.

فلما وقعت عليه الأبصار تحير النظر والإبصار، واقشعرت الجلود، وذهلت العقول، وشاهدنا من الهيبة والعظمة ما ليس بمعروف في غير ذلك المكان ولا معقول.

ثم أورد قطعة شعرية همزية من ستة أبيات لم ينسبها، وهي كالآتي:

بدا لك الحق فاقطع ظهر بيداء
واهجر مقالة أحباب وأعداء
واقصد على عزمة أرض الحجاز تجد
بعداً عن الخط في نزل الأوداء
وقل إذا نلت من أم القرى أرباً
وهو الوصول بأسرار وإبداء
يا مكة الله قد مكنت لي حرماً
مؤمناً لست أشكو فيه من داء
فمذ رأى النازح المسكين مسكنه
في قطرك الرحب لم ينكب بإيذاء
شوق الفؤاد إلى مغناك متصل
شوق الرياض إلى طل وأنداء

ولما ضج الضجيج، وراتفعت أصوات الحجيج، ذكرت قول القائل في مثل هذا الموقف الهائل:

وافى الحجيج إلى البيت العتيق وقد
سجا الدجى فبدا نور به بزغا
عجوا عجيجاً، وقالوا: الله أكبر ما
للجو مؤتلقاً بالنور قد صبغا
قال الدليل: ألا هاتوا بشارتكم
فمن نوى كعبة الرحمن قد بلغا

نادوا على العيس بالوقران وانتحبوا

ودّ كل فؤاد نحوه وصغا

وكل من ذم فعلاً نال محمدة

في مكة ومحامد قد جنى وبغا!

قال: وكلما جددت النظر في محاسن البيت الشريف كدت أغيب عن الوجود، واستشعرت قول العارف الشبلي لما وفد على حضرة الجود:

قلت للقلب إذ تراءى لعيني

رسم دار لهم فهاج اشتياقي

هذه دارهم وأنت محب

ما احتباس الدموع في الآماق؟!

إلى آخر الأبيات المعروفة.

وكلما نظرت يميناً وشمالاً، وهبّت عليَّ من نفخات البيت صباً وشمالاً، أنشدت وقد ملت في الوجد مَمالاً:

هذي أباطح مكة حولي، وما

جمعت مشاعرها من الحرمات

أدعو بها لبيك تلبية امرئ

يرجو الخلاص بها من الأزمات

قلت: المنى، بمنى، لو أنني لم أخف

بالخيف من ذنب أحال سماتي

وعرفت في عرفات أني ناشف

للعفو عرفاً عاطر النسمات(١)

إلى آخر الأبيات التي أوردها الشرقي.

ثم تجاوزت باب بني شيبة وفي قلبي ما لا أكيفه من الهيبة، وتيممت الحجر الأسود،

(١) شعر ابن الطيب الشرقي الفاسي، تحقيق: د. الودغيري.

وتجنب كل أحمر وأسود! وكبَّرت وقبَّلت، وجعلت البيت عن يساري، وشرعت في الطواف، وأقبلت حتى فرغت من طواف القدوم، واستشعرت الوجود، وقد كنت من الذهول في حيز المعدوم! وربما كنت أتمثل في المطاف، وقد ألبست جلابيب الألطاف، الدانية القطاف، بقول ابن رشيد البغدادي[1]، تقوية لأمرادي:

على ربعهم لله بيت مبارك
إليه قلوب الناس تهوى وتهواه
يطوف به الجاني فيغفر ذنبه
ويسقط عنه جرمه وخطاياه
وكم لذة أو فرحة لطوافه
فلله ما أحلى الطواف وأهناه![2]

وربما أتوجه إلى الله في نيل الأوطار، التي حببت لها الأقطار، وأحمده على أن سكن القلب في حرمه، وطالما إليه طار! وألجأ إليه فيما ارتكبه من الأخطار، طوبى لمن طاف بالبيت العتيق، وقد لجأ إلى الله في سر وإجهار.

فكل من طاف بالبيت العتيق نجا
حقاً وقد راح معتوقاً من النار

وربما تأملت حسن جمال الكعبة الباهر الظاهر، فأنشدتها قول من أقبل عليها بالنداء الظاهر:

يا كعبة الله! كم من عاشق قتلا
شوقاً إليك ورام الوصل ما وصلا!
يمسي ويصبح محزوناً ومكتئباً
ويهجر الأهل والأوطان والطللا

---

(١) تنعت مخطوطة ابن الطيب الشرقي التي بين أيدينا، وهي ليست بخطه، تنعت ابن رشيد بالبغدادي، وإنما نعرفه منعوتاً بالسبتي، وهو صاحب الرحلة السالفة الذكر.

(٢) وزن هذه القطعة ورويها يذكر في قطع طويلة كان أحمد بن ناصر يستشهد بها في رحلته، وتبعه عدد من الرحالين، ولم أهتد حتى الساعة لاسم ناظمها.

لولاك ما سرت الركبان من طرب

كلا ولا قطعت سهلاً ولا جبلا

ولا رأت كل ضيق فيك متسعاً

كلا ولاخفٌ عند كل ما ثقلا

باعوا النفوس رخيصاً في هواك وما

تغلو النفوس بوصل منك إن حصلا!

فيا ما أطيب هذه الأوقات المباركة التي لا تعدل بمقاومة ولا مشاركة! ويا ما ألذ ما لقيناه عند تقبيل الحجر من الازدحام، والمنهل العذب كثير الزحام! ويا ما أقصر الوقوف - وإن طال - بالملتزم! ويا ما أكثر الورود من ماء زمزم! ويا ما أحسن التمتع في الحجر بلا حجر! ويا ما أكمل الأماني بالوقوف حول الركن اليماني!! ويا ما أقرب الدعاء في تلك الأماكن للإجابة! ويا ما أسعد من أكرمه مولاه فجاء به إلى بيته الحرام ولبى دعاه وأجابه!

ولما غربت الشمس، وطابت النفس، أدَّينا صلاة المغرب، وقدمناها على ركعتي الطواف تحرياً للخروج عن وقت النهي مع قلة الفصل، ثم صلينا ركعتي الطواف خلف المقام، وقبّلنا الحجر، وخرجنا لقضاء شعيرة السعي من باب الصفا، وبدأنا بما بدأ الله تعالى به، فوقفنا على الصفا، وارتقينا على مدارجها حتى قابلنا البيت، وبالغنا في الدعاء لله تعالى لنا ولوالدينا ولأشياخنا وأحبابنا ولعامة المسلمين وخاصتهم.

ثم أتينا المروة في زحام كثير من أخلاط الناس الواردين وغيرهم من البلاد؛ لأن المسعى سوق من أسواق مكة العظيمة، ولو وفق الله الأمراء لمنع الناس من التسوق فيه أيام الموسم، لكان في ذلك خير كثير لما يحصل للساعين من التضرر بكثرة الزحام(١)!

وما فرغنا من السعي حتى قربت العشاء، فدخلنا المسجد، وصلينا العشاء، وخرجنا نتنظر محلاً ننزل فيه، فما ألفيناه حتى مضى ربع من الليل بقرب المسعى، فأنزلنا فيه أمتعتنا، وبتنا به حتى طلع الفجر، وتوضأنا وجئنا لصلاة الصبح بالمسجد الحرام، فطفنا

(١) هذه شكوى ظلت شعار الحجاج منذ أن رفعه أبو سالم العياشي ... وقد حقق الله اليوم أماني أولئك السالفين بما أنجز على أيدي اللاحقين من آل سعود.

لأن تحيته الطواف، ويتأكد في حق المسافر... وصلينا فيه وبقينا حتى أشرقت الشمس، وكمل لنا الأنس، وظللنا ذلك اليوم نردد العبادة بين صلاة وطواف، وتمتع بالنظر في الكعبة والطواف، وتضلع بماء زمزم، وتذلل بين الركن والمقام والحجر والملتزم، ومع ذلك نبالغ في اللجوء إلى مولانا، ونسأله الزيادة على ما أولانا!

ولما قبل ابن الطيب الشرقي الحجر الأسود الذي لا أشرف منه ولو أسود، قال شعراً حول الحجر على نحو ما أنشده من الملتزم، وفي الحجر والحطيم، وعندما بلغ الأماني بالطواف في الركن اليماني، وعندما خلص القلب وصفا وسعى بين المروة والصفا.

ثمانية مواقع لم يستطع الشرقي أن يمر بها دون أن يسجل له شعراً حولها مما يعبر عن مدى تعلق الرجل بتلك الأماكن، ونحن نعرف أن الشاعر لا يصوغ بيتاً من الشعر إلا عندما يحس في أعماقه بنازع ووازع.

يشبه الشاعر البخور فلا ينشر طيباً إلا على النار يحرق!!

وتقديراً لعواطف الرجل فإننا نثبت هذه الأشعار هنا، قال في الحجر الأسود:

حصلت على المجد والسؤدد
وأمنت من سالح أسود
وصليت ما شئت خلف المقام
وقبلت فالحجر الأسود

وقال في الملتزم وقد التصق به الجسم والتزم:

يا إلهي قد أتى الملتزما
عبدكم يرثي الذنوب أزما
هد يا رب قواه وبرى
جسمه مولاي حتى عزما
فاخفضنْ بالفضل ربي نصبه
واجعل الملتزم الملتزما

وقال في الحجر والحطيم، وقد ضاعت أعرافها ولا ضوع المسك اللطيم:

هديت إلى الصراط المستقيم
فجئت لحجة البيت العظيم
وعند الحجر قال الحجر: أبشر
فقد حطمت ذنبك بالحطيم!

وقال لما بلغ الأماني بالطواف حول الركن اليماني:

حصلت على الذخائر والأماني
وبُدِّل كل خوف بالأمان!
أما قد بلّغت حول البيت سبعاً
ولامست اليد الركن اليماني

وقال لما خلص القلب وصفا، وسعى بين المروة والصفا:

صفا القلب لما أن وقفت على الصفا
فلله ربع فيه كل امرئ صفا
وأمسى فؤادي ليّناً ذا سهولة
وقد كان قدماً وهو أقسى من الصفا
وفي المروة الغراء زادت مروءتي
كمالاً، ولم لا وهي منزلة الوفا؟(١)

وخرجت - يقول الشرقي - بعدما ارتفع النهار لأدبر الخروج إلى عرفات، وأصلح الأواني مما أصابها من الآفات، وأستعد للزاد، وأنظر ما نقص وزاد! فظللت أسعى في تحصيل ذلك الغرض، وكلما عنَّ وقت من أوقات الصلاة آتي المسجد الحرام فأصلي فيه الوقت الذي عرض.

وبتنا بمكة أيضاً وقد فاضت علينا أنوارها فيضاً، وأصبحنا يوم الأحد (٢٢ أغسطس) جادين في الرحيل إلى عرفات إذ لم يتأخر عنه في ذلك اليوم أحد، وهو ثامن ذي الحجة

(١) شعر ابن الطيب الشرقي الفاسي، تحقيق د. عبدالعالي الودغيري، البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع، القنيطرة ١٩٩٦م.

الذي يتعين فيه الخروج لعرفات تكميلاً للحجة، وهو المعروف بيوم التروية. وكان آخر العهد بالبيت الطواف به؛ لأنه مشروع عند الخروج لمنى وعرفات كما نص عليه أبو الحسن والشيخ خليل وابن هلال وغير واحد من أرباب المناسك.

وارتحلنا بعد الزوال؛ لأن ذلك هو السنة في الارتحال، فنزلنا بمنى فوق مسجد الخيف بسفح جبل ثبير، وبتنا في تلك الليلة بمنى إذ المبيت بها هو السنة كما في دواوين الفقه، وقد منّ الله علينا بإحياء هذه السنة حول هذا الموضوع التي قد أميتت منذ أزمان.

فقد قال الحطاب: وهذه السنة قد أميتت منذ أزمان... وهنا ذكر الشرقي بعض الرحالين الذين اقتبس منهم حول هذا الموضوع من أمثال ابن رشيد والعبدري وغيرهما وذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك بعد ذهاب الأركاب.

قال الشرقي: ولما رأينا ذلك طلبنا من الشيخ (شيخ الركب المغربي) أن يبيت هناك إحياء لتلك السنة، فأسعفنا بذلك، وبتنا هنالك، وقد صدق القائل: فإن الموضوع مخوف! فقد سرقت في هذه الليلة جماعات كثيرة من ركبنا، وذهبت بغال وأموال عريضة، وسرقت لنا خيمتنا بما فيها من حوائج وأمتعة وطعام وغير ذلك، حتى لم يبق لنا ما نسد به الرمق هنالك! تقبل الله جميعه منا، وجعله سبب رضاه! فإن المصيبة في مثل هذا المقام لا تخلو من ألطاف خفية يتعذر حصولها لمن قعد أو قام!

وأصبحنا مسرورين بقبول ذلك القربان، وظهر علينا فضل الله تعالى في ذلك وبان...

وارتحلنا من هناك بعد طلوع الشمس قاصدين لعرفات التي عرف فيها من كل وحشة الأنس، وفاضت فيه عرفات رحمة الله على الجن والإنس، وليس عندنا قلامة ظفر، نقضي بها أدنى غرض بين أهل الوفر! ومع ذلك لا أبالي ولا يخطر أسف على ما تلف ببالي، فقيض الله جماعة الركب، وقاهم الله من كل كرب، أن تعرضوا لي في الطرقات، لما سمعوا أني ممن عمته السرقات! ونوعوا لنا أنواع الطعام، وأظهروا كل نوع ناعم وبالغوا في الإكرام، وأنالوا غاية المرام، جزاهم الله خيراً، ووقاهم ضيراً، وأكثروا من التردد إلينا، والورود علينا، وتأنيسنا بالكلام اللين، وتذكيرنا بأن ما سرق سهل في جنب ما نلناه من

الأماني وهين! وما علموا أن ذلك عندنا هو المطلوب، وأنه راحة الأجسام والقلوب، إذ هو علامة القبول والإقبال، فأنى يخطر لي التغير عليه ببال؟!

ولم نزل في الخيام التي ضربناها للقيلولة إقامة للسنة، والناس ينوعون الأطعمة والأشربة فرحاً بهذا اليوم العظيم، الجدير بالتبجيل والتعظيم، ويأتوننا بذلك، أو يطلبون منا التوجه معهم لخيامهم جبراً لخواطرنا وتأنيساً لنا بذاك؛ لأن عادة أهل الدنيا أنهم يبالغون في الأسف على ما فاتهم منها أو سرق لهم فيقيسون الناس على أنفسهم!!

وكنا نساعفهم بالأكل من الطعام الوارد، والذهاب مع من طلب، جبراً لخواطرهم، ورغبة في استئناسهم حتى زالت الشمس، وأتانا بعض أصحابنا بكوب ماء فاغتسلنا الاغتسال الثالث من اغتسالات الحاج، وصلينا الظهر والعصر جمعاً، وارتحلنا لقضاء الركن الذي لا أعظم منه، وهو الوقوف بعرفات الذي قال فيه النبي ﷺ: «الحج عرفات»؛ أي معظم أركانه، كما هو مقرر في الفقه...

ومنّ الله علينا بأن جعل الله الوقفة يوم الاثنين (٢٧ أغسطس) فقد صرحوا بأفضليته من عدة وجوه مذكورة في المناسك وغيرها حتى جعلوه قريباً من يوم الجمعة أو مساوياً لها.

وصعدنا الجبل ووقفنا شامي القبة التي على الجبل، وحشر الناس في نواحي الجبل أفواجاً أفواجاً، ودفعوا في أرجائه وجهاته أمواجاً أمواجاً، وأخذنا في الانتقال من موضع إلى موضع رجاء أن تحصل لنا من الوقفة بركة سبب تلك الحركة ....

وكثيراً ما حرصنا على سماع الخطيب، وقربنا من موضعه لاستماعه، فلم نتمكن من سماع حرف واحد من خطبته! لكثرة الأصوات واختلافها، وازدحام الناس على ارتضاع أخلافها مع اختلاف لغاتها ومطالبها، وتباين مقاصدها ومآربها!!

ولم نبرح واقفين متذللين خاضعين لله تعالى سائلين طالبين راغبين راهبين باكين داعين، نبالغ في الدعاء، ونسأل الله تعالى من فضله أن يمن علينا بخيرات الدنيا والآخرة العاجلة والآجلة، لنا ولوالدينا ولأشياخنا وأصحابنا وإخواننا، ولمن سألنا الدعاء، ولجميع المسلمين، وعلى الله تعالى البلاغ، حتى غربت الشمس وتحقق غروبها، ونفرنا من

هنالك... وقد وقعت فتنة بين أمير الركب الشامي وأمير الركب المصري حتى عزما على القتال، وتقابلا للاقتتال، فحال بينهما أمير مكة وفصل بين الأميرين، ودخل بينهما جزاه الله خيراً!!

وسرنا في الأخريات، ولم نر بفضل الله زحاماً ولا ضيقاً حتى خرجنا من بين المأزمين بعد مغيب الشفق، وعدلنا يميناً، واستندنا للجبل، ونزلنا وجمعنا بين الصلاتين، وبتنا بخيمة محبنا التاجر الفاضل الحاج محمد بن عبد الحميد المراكشي؛ لأنه كان يحاذينا من نفورنا إلى أن وصلنا لهذا المحل، وحرص على مبيتنا عنده جزاه الله خيراً.

ولما نزلنا أكرمنا وسقى بغلتنا وعلفها، فبتنا عنده في أرغد عيش، وجلب من عرفات أنواع الفواكه والأرز وغير ذلك، تقبل الله عمله، مع كونه سرقت له بغلة جيدة يوم سرقنا بمنى ... تقبلها الله منه ...

والتقطنا الجمار من مزدلفة، ونمنا حتى طلع الفجر، وجاءنا السيد الحاج محمد بالماء فتوضأنا وصلينا، وارتحلنا مغلسين إلى المشعر الحرام فوقفنا حوله، داعين مكبرين مبالغين في الدعاء والتطفل على الله تعالى لنا ولأحبتنا ولجميع المسلمين إلى الإسفار.

ولما كان الشرقي يعرف عن خفاء موقع بطن محسر فقد حاول أن يحدده فيما يلي: ثم سرنا قاصدين منى، وأسرعنا في بطن محسر المعروف بوادي النار، وهو من أول ما تحاذي البركة الخربة التي هي على يسارك، إن مررت بطريق الأركاب وأنت ذاهب إلى منى، حتى تأخذ في الطلوع إلى منى وترتفع بك الأرض. وبهذا عرفه أهل عصره بالمناسك الشيخ خليل حسبما نقله البلوي في رحلته إذ سأله عن حدّه.

وسرنا راكبين على هيئتنا حتى رمينا جمرة العقبة من أسفلها بالحصيات السبع التي التقطناها من المزدلفة، وملنا إلى الحلاقين الذين هنالك فألفيناهم في شغل شاغل من كثرة الزحام، وأكثر الناس يكتفي بحلق ناحية من رأسه، ويغتر بقول الحلاقين له: يكفيك هذا!

وهنا ينتقد الشرقي مثل هذه الأقوال من الحلاقين فيعلق على ذلك بأن قصدهم أن يتفرغوا لكسب دراهم أكثر من الحجاج حتى لا يفلت منهم أحد!

ويرجع إلى الموضوع ليقول: ثم ذهبنا كذلك لنغتنم طواف الإفاضة ... ولما فرغنا من الطواف ألفينا باب الكعبة المشرفة مفتوحاً فأخذنا في معاطاة أسباب الوصول إليه، فتعرفنا للقيم عليه فيسر الله علينا أمره، وارتفعنا للدخول إليه راغبين، ولم أشعر حتى وجدت جسمي ملقى في داخل البيت، وكأني أفقت من هيئة ميت! ولم أدر كيف وصلت لذلك!! ولا بماذا نلت الوصول لهنالك، فأخذتني قشعريرة، واعتراني ما يعتري الموصول من ذهول الوصول!! وأخذنا في الصلاة إلى أركان البيت الأربعة، وأطلنا في الصلاة، وبالغنا في الدعاء لنا ولأهلينا .... وأطلنا المكث فيه، رغبة في تحصيل ثواب داخله وقاصده...

وبعد أن ينتقد الشرقي القول بمنع دخول الكعبة يحاول أن يقدم وصفاً لما رآه داخل الكعبة ليعطي فكرة عن ذلك للذين لم يستطيعوا الدخول إليها: «... وداخل الكعبة كله مرخم برخام ملون مجزع». وهنا ينقل عن التقي الفاسي حول أول من رخم الكعبة وأنه الوليد بن عبد الملك ... كما ينقل كذلك عن الأزرقي .... وفيه ثلاث دعائم، وفيه مصابيح كثيرة معلقة، بعضها من الذهب، وبعضها من البلار الأبيض الصافي المكتوب بلون أزوردي ... قال: وتأملنا هذه الأشياء وإن كان إمعان النظر فيه سوء أدب لما رأينا أنه يغتفر في حق من أراد تحقيق الأمور....

ثم نزلنا مسرورين فرحين من البيت الحرام الذي لم يطل فتحه. ويفيدنا أن العادة جرت على أنه لا ينصب سلم للدخول، وإنما يدخله من تكلف الصعود بمعين أو من يتوفر على خفة أعضاء! قال: وعلى الباب أحد خدام الأمير يمنع الناس من الدخول إلا أن الناس يكاثرونه، فإن منع من جانب دخلوا من الجانب الآخر، وربما يتعامى عن البعض.!

قال: ويحصل لكثير من الناس في ذلك المكان سوء أدب من ضرب وشتم بألفاظ ينزه المكان عنها، والأولى عدم الدخول إلا لمن يتيسر له ذلك عفواً صفواً من غير إيلام ولا ملام كما منَّ علينا بذلك، دون كلفة ولا مشقة ولا سوء أدب هنالك، لله الحمد سبحانه.

وبعد هذا أخذ الشرقي يصف أوضاع الحجاج في الطواف، كل وطريقه الخاص في أداء واجبه... من يمشي مشية المتكبرين! وفيهم المسرع، ومنهم الباكي والضارع، قال:

فمن مزهو بوصاله، متبختر في طوافه، يتمايل بجميع أوصاله منشداً بلسان حاله:

لا تنكرن حال الطواف تبختري
وتمايلي سكراً بغير شراب!
قد كنت بالذكرى أهيم فكيف لا
عند الوقوف بمرتع الأحباب؟

ومن متعلق بأستار الكعبة مردد قول من سأل فيها ربه:

أستار بيتك أمن المستجير وقد
علقتها طامعاً في العفو يا باري
وقد نزلت ببيت قد أمرت بأن
نأتيه للأمن في العقبى من النار
وإننا جار بيت أنت حافظه
فارحم جواري كما أوصيت بالجار

ومن آخر أدركته من ذنوبه حجلة، فأخذ ينشد قول الشهاب ابن أبي حجلة:

سألتك كشف الضرّ في السرّ والجهر
بحرمة هذا البيت يا مسبل الستر
فحرمته أنت العليم بقدرها
ونحن مع الآباء في عالم الذر

قال: وتركنا الناس ورجعنا إلى منى، لنكمل لنا بالأماني كل المنى، فكان نزولنا عند محبنا الحاج محمد الرسموكي، فكان كثيراً ما يبر بنا وغالب إقامتنا في خيمته...

وفي عشية النهار ذهب بعض أصحابنا ببغلتنا فسقاها لنا من ماء المزدلفة، وعلفها لنا صاحبنا الطالب السيد سالم الصيد القروي، وبالغ في تكثير الشعير لها!!

وفي الليل أوقدت الأركاب المشاعل للمشاركة في الاحتفالات التي تجري بمنى بهذه المناسبة، وخاصة من لدن الركب المصري والشامي، وهنا يتحدث الشرقي عن ليالي منى بما تعرفه من إطلاق مدافع ومحارق.

وبعد أن يتحدث عن إقامته بمنى يومين لإتمام عملية الجمار يخبر عن قصيدة شعرية قالها في هذه الأثناء، لكن يد السارق سطت عليها، ومع ذلك فإنه يورد ما علق منها بالبال:

قد عرفنا الخيرات في عرفات
وضمنا من سائر الآفات
وظفرنا بما أردنا وفزنا
بعليّ القصور والغرفات
وازدلفنا لربنا وجمعنا
كل خير بجمع مزدلفات
ولدى المشعر الحرام شعرنا
بقبول الأعمال والدعوات
وأرتنا المنى منى ولدى الخيـ
ـف أمنا من سائر الخوفات
ورمينا الجمار نطفي جمار الـ
ذنب، فاعجب للضد في الجمرات
وحلقنا فحلقت حولنا كم
حلقات من أضرب الخيرات
ثم طفنا إفاضة حول بيت الـ
ـله - جلَّ - سبعاً في الطوفات
وركعنا خلف المقام فيا حسـ
ـن الركوع هناك والمستجدات
ورجعنا إلى منى لتمام ال
أمنيات هناك والنيات
منزل لحماه تجتمع الأر
كاب طراً من سائر الساحات

قـــدرها وازدهى فليس له شـــبـ
ـه ومـــا إن لحـــسنه من مـــوات!
وتشـــابهت الســـمـــاء مع الأر
ض لديه في غـــاسق الظلمـــات
فـالسـمـاء بشـهـبـهـا قـد أضاءت
والثـرى بشـــمـــوعـــهـــا الزاهرات

ويتحدث الشرقي الفاسي بعد قصيدة "الخير في عرفات" ... عن خروجه لرمي الجمار لما زالت الشمس... حيث أخذ بالأولى التي تلي مسجد الخيف ثم الوسطى ثم ذات العقبة.

وهنا يتحدث عن "الموضع المعد لذبح الهدايا" الذي مر به عند ذهابه للرمي وإيابه.. ويذكر أنه رأى في هذا الموضع من البقر والغنم والإبل المذبوح ما أوسع الغني والفقير، ونال منه الجليل والحقير، حتى كان البعض من الفقراء يأخذ العشرين من الغنم وأكثر، وأما الجلد والساقط، فلا يأخذها لاقط... ومع ذلك فضل عن الفقراء ما أعجز الوحش والطير والهوام، وعم الخواص والعوام... وهو يرجو الله أن يشفع هذه الضيافة المحسوسة لعباده بالضيافة المعنوية، ويقابلهم بالمغفرة والعفو.

ويتحدث عن سوق منى التي يقصّر القلم دون وصفها ولا يبلغ معشارها فضلاً عن نصفها، جمعت بين أنواع البضائع، ما ليس بضائع، والناس يتزاحمون فيها على البيع والشراء ومعاهدة التجارة رجاء بركة ذلك المكان... ومن السوق قصد مسجد الخيف... وقف على العقبة التي في وسطه التي يقال: إنها محل خيمة الرسول ﷺ... كان يتردد على هذا المسجد طوال أيام مقامه بمنى.

وبهذه المناسبة يتحدث عن آيات منى التي يذكر فيها أنها تتسع لهذا العدد الضخم من الحجاج مع أنها محدودة المساحة.

ويتخلص بعد هذا لإيراد شعر الشهاب ابن أبي حجلة في منى يقول في أوله:

شكرت إلهي بعـــد حلقي في منى
بيوم حمدنا في صبيحته القرى

وشعر الصلاح الذي يقول في أوله:

قد رميت الشيطان في يوم حجه

بجمار في طاعة الرحمن

ويذكر أن قريحته جادت كذلك بشعر قاله لما حل بمنى:

بلغنا المنى لما بلغنا إلى منى

وزال العنا عنا فلم نعن بالعنا!

وحصيت الآثام عند محصب(١)

وبالخيف زال الخوف عن كل من عنى

... ويلاحظ اهتمام ابن الطيب ببغلته، والعناية بها، والاطمئنان عليها شاكراً لزملائه الذين يكفونه أمر علفها من أمثال أبي العباس التازي.

ولم ينس ابن الطيب الشرقي الليلة الساهرة بمنى؛ حيث بالغ أهل مصر وأهل الشام في إيقاد المصابيح واتخاذ المصانع منها، وصور الأشجار والأخبية والوحوش والطيور.

لقد أكثروا الرمي بالمدافع والبنادق والمحارق التي ترتفع في الجو، وقد فعل مثل ذلك سلطان مكة، وقابله أمير جدة، وأبدعوا في المعارضات والمقابلات.

إن ليالي منى غرر في أوجه الزمان، ومواسم فرح وسرور لأهل الإيمان، ومجال بركة وعافية وأمان... إنشاء من هذا القبيل يردده الشرقي الفاسي بأسلوبه المعروف.

ومن الغد أصبح الناس متأهبين للارتحال.. وارتحلنا متعجلين... إذ لم نجد من يعيننا على الإتمام... لا ننسى أن الشرقي نهب عند مبيته بمنى وهو ما يزال يشكو من كثرة اللصوص و"الحرامية" كما ينعتهم على نحو نعت المصريين.

وهكذا توجه للبيت الحرام بمكة... إن القلب ما يزال يتشوق إليه... فالقلوب مجبولة على الميل إليه، لا تكاد تصبر ساعة عليه، وهذا من خصائص هذا البيت المعظم.. وهنا ينقل عن العلامة الفاسي في كتابه "العقد الثمين" حول الآيات البينات التي خص الله بها هذا البيت، وهي كثيرة نقلها ابن رزين الحنبلي... وكان في صدرها حنين الأفئدة إليه، فكأن مغناطيساً يجذب القلوب إليه.

---

(١) شعر ابن الطيب مصدر سابق.

محاسنه هيولي كل حسن
ومغناطيس أفئدة الرجال!
لا يرجع الطرف عنها حين يبصرها
حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

ولا تكفيه الأبيات المفردة، فيأتي بقطعة شعرية نونية من اثني عشر بيتاً، وهي تقول:

أطوف به والنفس بعد مشوقة
إليه، وهل بعد الطواف تدانِ؟
وألثم فيه الركن أطلب بردها
بقلبي من شوق ومن هيمانِ
فوالله ما أزداد إلا صبابة
ولا القلب إلا كثرة الخفقانِ
فيا جنة المأوى ويا غاية المنى
ويا منيتي من دون كل أماني
أبت غليان الشوق إلا تقرباً
إليك، فما لي في البعاد يدانِ!
وما كان صبري عنك هد قلالة
ولي شاهد من مقلتي ولسانِ
دعوت اصطباري عنك من بعد والبكا
فلبّى البكا، والصبر عنك عصاني!
وقد زعموا أن المحب إذا نأى
سيبلى هواه بعد طول زماني!!
ولو كان هذا الزعم حقا لكان ذا
دواء الهوى في الناس كل أوانِ
بلى إنه يبلي التصبر والهوى
على حال لم يبله الملوانِ

وهذا محب قاده الشوق والهوى

بغير زمام قائد وعنانِ

أتاك على بعد المزار ولو هوت

مطيته جاءت به القدمانِ!!

وقد أتى بعد هذه القطعة بما أنشده ابن رزين الحنبلي[1] حول ميل الخلف إلى الكعبة الشريفة:

محبة ما عرفت الدهر سلوتها

تجري مع الروح أو تسري مع النفس

وما لها آخر لكن أولها

تعارف سابق في حضرة القدس

في عالم الذر ناجاني البشير بها

أهلاً بمثبتها طهراً من الدنس

أشهى إلى النفس من أمن علا وجل

ومن مجال الكرى في الأعين النفس

ويستمر في النقل عن ابن رزين الحنبلي الذي ينشد:

يا كعبة ملاتنا

شوقاً يسوق العزائم

كم ذا قلوب إليها

مثل الطيور حوائم!

من بيت عليا له في الأرض منزلة

يكاد يحسده من أجلها الأفق؟

قد أودعت فيه أسرار الهوى، فلذا

تراه يلثم أركاناً ويعتنق!

(١) كتبت في المخطوطة الزين وهي ليست بخطه، والصواب ابن رزين. والقصد إلى عبد الرحمن بن رزين بن عبد العزيز بن فكري بن علي بن أبي الجيش الغساني الحواري الحواراني ثم الدمشقي الفقيه سيف الدين أبو الفرج. ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب، ج٤، ص ٢٦٤.

ويمضي ابن الطيب الشرقي في هذا النقل الرفيع الذي يحاول أن يبرز السر في اشتياق المؤمنين إلى مشاهدة الكعبة... معلقاً بقوله: وهذا كلام بديع في معناه، دال على أن قائله قصده مولاه بالعناية وعناه!!

وبعد هذا الاستطراد... يعود إلى الحديث على أنه دخل المسجد هذه المرة كذلك من باب السلام حيث بادر للطواف، إن الطواف للغرباء أفضل والصلاة للمقيمين أفضل، وإن الطواف يعني التواضع لله والحضور الكامل أمام الحق سبحانه:

يا من يطوف ببيت الله في الجسد
والجسم في بلد والروح في بلد
ماذا فعلت؟ وماذا أنت فاعله
مبرح في التقى للواحد الصمد
إن الطواف بلا قلب ولا بصر
على الحقيقة لا يشفي من الكمد

قال: ولهذا كرهت الإقامة في الحرمين مع اشتغال البال بغيرهما!! والتشوق للبلدان والإعراض عن خيرهما!! إن اشتاق الإنسان إلى الحرمين وهو في بلده مما يثاب عليه بخلاف إقامته في الحرمين مع وجود قلبه يتعلق ببلده!! وينقل هنا عن الإحياء للغزالي حول الإقامة بمكة:

يطوفون بالبيت العتيق تقرباً
إليك وهم أقسى قلوباً من الصخر!!

وقد أنشد ابن رزين الحنبلي للشريف موسى الخطاب:

ظفرت من الطواف ببيت رب
بأوقات لها في القلب حظوه
فمن لي بالخلاص ولو بشوط
ومن لي بالقبول ولو بخطوه!!

ويتحدث ابن الطيب عن فضيلة الطواف في أثناء نزول المطر... وينقل عن ابن رشيد الفهري في رحلته فضل تلاوة القرآن في الطواف عند ذلك النزول.

إن الحاج في البيت الحرام بمكة، مهما كان مركزه، يجب أن يستشعر الذلة والصغار... إن الأكابر فيها كلهم صغار، يقول الشرقي الذي يستشهد بهذا البيت:

ونحن الأوالي في البلاد جميعها
وفي حي ليلى من أقل عبيدها!!

ويتخلص لفضائل الحجر الأسود... مستشهداً لذلك بما ورد في الأحاديث وما حفظه من الشعر من أمثال:

أقول وقد زوحمت عن لثم أسود
من السراب: عجيب فما البيت يحجب!
فإنك مني بالمحل الذي به
محل سواد العين أو أنت أقرب!

هذا إلى أشعار للصلاح، وكان منها قطعة طويلة من ثلاثين بيتاً قافيتها راء يقول في أولها:

إذا لاحت لنا ذات الستور
فأهون بالشموس وبالبدور

وبعد أن يعرض بالقرامطة الذين استطالوا على الحجر يختم هكذا:

ونال المؤمنون علو مجد
وأهل الكفر خصوا بالدحور!

وينقل عن أبي عبيد البكري في كتابه «المسالك والممالك» ما قاله عن مصير الذين جرؤوا من القرامطة على السطو على الحجر... الذي ـ كما نعلم ـ قبّله النبي ﷺ، وهنا ردد ابن الطيب قولة عمر بن الخطاب: إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت محمداً يقبلك لما قبلتك.

ويستمر ناقلاً حول الحجر الأسود عن ابن رزين الحنبلي والشيخ خليل في «مناسكه».

ويقدم الرحالة كذلك ما قيل نثراً وشعراً عن الركن ومقام إبراهيم والحجر (بكسر الحاء) والميزاب وزمزم.

وللشهاب ابن أبي حجلة:

يا سائلي عن مقامي بالمقام عسى
جلوت كأس مرام عند مغتبق
وكم حسنات فاض في الحجر درها
وسال بها حتى امتلأ حجري

وأنشد ابن رزين الحنبلي لبعض الأدباء:

وطاف بكاسات الأماني ودونها
فطيب عيشي في المقام وزمزما

كما أنشد حول زمزم أبياتاً لآخرين:

ودار بماء زمزم لي نديم
وطاف لنا بكأس من معين!
لزمزم نفع في المزاج وقوة
يزيد على ماء الشباب لدى فتك
وزمزم فاقت كل ماء بطيبها
ولو أن ماء النيل يجري على مسك!!
شفيت يا زمزم داء السقيم
وأنت أصفى ما تعاطى النديم!
يا زمزم الطيبة المخبر
يا من علت قدراً على المشتري

وقد ذكروا لزمزم أسماء تنيف على خمسة وعشرين نبّه عليها ابن رزين الحنبلي، وأومأ إلى بعضها التقي الفاسي وغيره:

با لله قولوا لنيل مصر
بأنني عنه في غناء
زمزم العذب عند بيت
محقق الستر بالوفاء

وعدد ابن رزين الحنبلي وغيره لبئر زمزم آيات بينات غنية عن إقامة الحجج وإثبات

البينات!! وذكر منها أنه يقوم مقام القوت، وعليه جماعة من علماء المذهب، فمنعوا الاستنجاء منه، وفيها أنه لما شرب له، إلى آخر الأبيات التي ذكرها..

ويذكر هنا من شعر الشهاب ابن أبي حجلة:

لزمزم بئر غدا ماؤه
يرده بصفي حر
تزاحم الناس على شربه
والمنهل العذب كثير الزحام

وقال غيره:

حمدت إلهي إذ بلغت مرادي
بأم القرى مستمسكاً بعباد
وقد رويت من ماء زمزم غلتي
فلست بمحتاج لماء ثماد

ويخبرنا الرحالة بأنه أحياناً يلوذ السقائف لحماية نفسه من اشتداد الحرارة... ليبقى متمتعاً برؤية الكعبة التي تعتبر وحدها نوعاً من أنواع العبادة لله.. بل إنها عند بعضهم أفضل من الصوم والصلاة والجهاد:

قفوا واجتلوا من كعبة الله منظراً
فما لفوات منه في الدهر تعويض
وقد لبست سود اللباس تواضعاً
وكل ليالينا بانوارها بيض

ولله در القائل:

يا كعبة الله إن ربي
آياته فيك بينات
وحيث ما كنت يا مناها
فلي إلى وجهك التفات

ويذكر قطعة نونية من أربعة أبيات تختتم بهذا البيت:

أما إنه بيت الكريم، ومن أتى

فناء كريم لم يفته حنانه

نعم هو بيت كريم خصه الله بالتكريم، يقول الشرقي الذي نقل هنا أن الإمام ابن جماعة ذكر لتفضله على مسجد الرسول وجوهاً كثيرة تنيف على اثني عشر، أرجحها وجوب قصده للحج والعمرة دون المدينة، وبعد تعليقه هو على الموضوع أورد ما أنشده ابن رزين الحنبلي من قول الشاعر:

هذي الديار التي قلب المحب به

شوق إليها وتذكار وأشجان

وأنة وحنين كلما ذكرت

ولوعة وشجى منه وأحزان

وقد ذكروا من وجوه أفضلية الكعبة كونها في الفلك، في المتوسط من الدنيا، ووسط كل شيء أحسنه:

لو لم يكن وسط الأشياء أحسنها

ما اختارت الشمس في أفلاكها الوسطا

وبعد أن يعلق الشرقي على الفكرة من وجهة نظر فلكية ينشر الأسماء العديدة المعروفة بمكة... قبل أن يعود إلى الحديث عن البيت الشريف والكسوة السوداء:

يا حسن بيت الله وهو مجرد

ولنا لهيبة نوره أطراف

فكسوه أسود والقلوب تترد لو

ضمت عليه سوادها الأحداق

ومرة أخرى يطرب الشرقي ذاكرتنا بالمزيد مما قيل من الشعر حول البيت المعظم:

حمانا من مخوف الدهر بيت

له بالذكر أركان وسقف

مـحـوط بالسـرور وبالتـهـاني
عليـه البـشـر والإقـبـال وقف

الأبيات...

والشرقي بدوره يذكر أن حمى البيت الحرام لا يعلوه حمام، وإنما يطير في جوانبه خلف وأمام...

وحتى يؤكد ميوله الأدبية والشعرية وظهورها في رحلته فيقول: "وياما أنشدتني الأشعار إذا حدا إليها حادٍ له الأدب إشعار، فأقول له: إذا لوحت محاسن الكعبة التي خلبت قلوب البشر، واطمأن الفؤاد بالإقبال عليها واستبشر... وهنا يأتي أيضاً بقطعة ميمية من خمسة عشر بيتاً حول الكعبة المشرفة وما احتف بها من معالم في البيت الحرام:

وانظر عـروس البـيـت يجلى حـسنهـا
للناظرين فلذ بهـا مـسـتـمـتـعـا
والطيـر لا يعلو على أركـانهـا
إلا ليـشـفى إن غـدا مـتـألما!

وبعد هذا كله قام الشرقي الفاسي بأداء سنة العمرة حيث نجده في التنعيم لتعذر الجعرانة من كثرة الخوف وقلة الرفيق... لقد بانت الطريق من مكة إلى التنعيم كأنها سوق واحدة.

واغتسل هناك بالمسجد الذي يسميه الحجاج بالعمرة، وقصدوا الكعبة على ما هو معروف.

ويختم حديثه عن مكة المكرمة - وهذا مهم - بذكر من لقيهم من الشخصيات المرموقة من أمثال العلامة أبي عبد الله محمد بن عبدالله الفيلالي وابنه اللذين وردا من المدينة بنية الحج والعمرة[1].

وهذه فقرة تعيد إلى ذاكرتنا ذلك العدد المهم من المجاورين المغاربة بالحرمين الشريفين ممن عرفنا أسماءهم ومن لا نعرف.

---

(١) سلك الدرر ٢، فهرس الفهارس ٢، ص٨٨، د. عبدالعلي الودغيري، التعريف بابن الطيب الشرقي، منشورات عكاظ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ص ٩٩.

العلامة الفيلالي هذا كان خير مرافق للشرقي الذي يذكر أنه كان يتحدث معه حول عدد من المسائل المتنوعة من الفنون العلمية: نحواً وفقهاً وبياناً وحديثاً على حد تعبيز الشرقي.

ولما عرف الفيلالي مركز ابن الطيب سعى لكي يلقي درساً خاصاً بمكة حول تفسير البيضاوي.

قال ابن الطيب: وألفيت معه (الفيلالي) جماعة من طلبة الهند، فأخذ يثني لهم علينا، ويبالغ في الثناء بالسعة في العلوم... وإن كنا لسنا أهلاً لما قاله، جزاه الله خيراً. وسألني أن أقرئهم طرفاً من تفسير البيضاوي... فتعللت له بأني لا كتب لي ولا حواشي أستعين بها على ذلك... فأبى أن يقبل... فساعفناه بذلك في تلك الأيام التي انقضت كالأحلام، وكان الفيلالي يحضر هو وولده وناس كثيرون.

قال ابن الطيب: وطالع (الفيلالي) جملة وافرة من كتابنا (شرح نظم الفصيح)[1] فأعجب به إعجاباً كبيراً، واستغرب فوائده وكتب لنا عليه نحواً من خمس أوراق، بالغ فيها بالثناء عليه وعلى مؤلفه بكلام حسن وراقٍ، غير أن ما كتب إليَّ ضاع لي مع غيره من الأوراق!!

وإلى جانب الفيلالي التقى الشرقي الشيخ محمد الإسكندراني الضرير الذي سبق ثناء الإسحاقي على تفسيره المنظوم... الذي كان ينوي إهداءه إلى العاهل المغربي السلطان المولى عبد الله على ما أسلفنا، ويبدو أن الشرقي لم ينسجم مع هذا العلامة الضرير الذي انتقده انتقاداً قاسياً: يفخر بالذهاب للملوك للإرفاد، ولا يصرف الهمة لمن أفاد ولا لمن استفاد، يكثر من النظم في الرجز دون غيره من البحور... ورد علينا مراراً واختبرناه، فإذا هو رجل شاب فشبت فيه خصلتاه، وعمي قلبه لما عميت مقلتاه، طال أمله وأسند حرصه ونقص كماله وكمل نقصه، إذا تكلم ملأ الدنيا دعواً وأطال، فلا طائل ولا جدوى... سنحضر جملة وافرة من السير والحديث على ما بها من القصور، ومع ذلك تجده كثير الجدة والعناد شديد الغلظة على العباد يزعم أنه وأنه، وما علم أن أمثاله جديرون أن يثنوا أنة بعد أنة، ومولانا سبحانه يجبر كسرنا وكسره، ويطلق من

(١) هذا هو الكتاب الذي شرح به منظومة مالك بن المرحل السبتي (توفي ٦٩٩هـ) لفصيح ثعلب المشهور، لذلك سميت أحياناً (بشرح نظم الفصيح)، وقد خصص له د. عبدالعلي الودغيري بحثاً جيداً في كتابه قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب.

هاتك الدعاوي العريضة الكاذبة أسره[1].

وكان من العلماء الذين تعرف إليهم الشرقي الشيخ أبو العباس أحمد بن حجر مدرس قبة الشمع من الحرم الشريف الذي قال عنه ابن الطيب: رجل لا بأس به، له معرفة بالحديث كأسلافه رحمهم الله، وكان منهم الشيخ جعفر الذي تحدث عن صلاحه وسيرته.

وكان من العلماء الذين ذكرهم الشيخ أبو محمد عبد القادر بن يحيى الحنفي اليمني أحد خطباء الحرم وأئمته، وقد أثنى عليه قائلاً: وكان يبدي خطباً مجدة جامعة لا بأس بها، مع إتقان الحفظ ومراعاة المعنى واللفظ.

وكان كذلك منهم الشيخ محمد بن محمد قاضي زاده الأنصاري الشهير بالقاضي عيد الذي قال عنه: ودعانا إلى داره فأسعفناه رغبة في إدخال السرور عليه؛ لأنه رجل طعن في السن، يناهز المئة مع تعلقه بأسباب العلم، وتمسكه بأذيال الحكم، وخضنا معه في مسائل علمية متنوعة إلى عربية وحديث وأدب وغير ذلك، وقد شاهدنا من أحواله سمة الصلاح لما رأينا من إكثاره للذكر وإعلامه بالحمد والشكر.

إلى جانب هؤلاء تعرف الشرقي الفاسي إلى شخصيات أخرى في مكة، ولكنه لم يتذكر أسماءهم، ولم يشرب ماءهم.

ومن المهم أن نذكر أن الشيخ الشرقي الفاسي كان له نشاط علمي تميز به في أثناء مقامه، ويتعلق الأمر بطلب رأيه في بعض النوازل التي عرفتها المنطقة، وذكر ـ على سبيل المثال ـ إلقاء السؤال عليه حول شرب المسلم من الميزاب الذي كان على عهده من ذهب... ولا بد أن يتردد هنا أيضاً اسم ابن رزين الحنبلي.

وأخيراً يفيدنا بأنه ظفر من الديار الملكية المعظمة المشرفة بنص الرسالة التي قيدها الشيخ البكري التي ذكر فيها منازل الحاج الحجازية ومناهله... إذ نجد الشيخ الشرقي الفاسي يشرع في الاستفادة من مضامين الرسالة المذكورة وتقديمها للقراء.

---

(١) بهذه الكلمات القاسية تحدث الشرقي الذي لا شك ان للمنافسات العلمية اثرها في جملته، لا سيما وقد وقفنا اليوم على (تفسير المنظوم) بالمكتبة الظاهرية بدمشق وبمركز جمعة الماجد في دبي... وهو تفسير ينم على باع الرجل وكفاءته العلمية الممتازة.

كما ورد في الأحاديث ولما انحدرت من تلك الثنية انحاز منا بعض صحبنا
الى بعض الأشجار وجعلوا لنا حائلا عليها للستر واغتسلنا هنالك
واشرقت علينا انوار الحرم الشريف ضاعف الله له التعظيم والتشريف
ولاح لنا شعب ابي طالب الجامع لجميع المطالب وتذكرت قول ابن ابي
حجلة في ذلك لما وصل لهنالك

ولم انس اذ وافيت مكة بكرة ... ودمعي من الشوق بها يتحدر
طويت اليها شقة البيد في السرى ... وانوارها من ذي طوى لي تنشر
بذل كنوز الدمع في مكة ... يغلب بذل المال في الغالب
فكيف اخشى في الورى مهلكا ... ومطلبي شعب ابي طالب

وكنت لما انحدرت الى الحجون ودنت لي مكة واشرفت عليها واشتدت
بي الأشواق اليها قلت قصيدة اولها

لقد فزنا وسد الثناء ... وادركنا من المولى العطاء
واشرفنا على حرم امين ... له من كل ناحية بهاء

وكانت ازيد من ثلاثين بيتا اختطفتها يد السارق وترك القلب من
اجلها في محارق

دخلنا مكة المعظمة في عصر
سادس الحجة الحرام ولم يسعنا ان نقدم شيئا قبل التوجه الى بيت الله
الحرام اذ ذاك هو منتهى الشوق وغاية المرام فجئنا نؤم البيت الحرام
بنيل المنى وبلوغ المرام وكادت ان تطير من شدة الفرح القلوب واثنين
وفازت بما هو لديها المأمول والمطلوب ودخلنا البيت من باب
السلام اقتفاء لأثر النبي عليه الصلاة والسلام داعين للبيت المعظم
بزيادة التشريف والتعظيم قال التقي الفاسي باب السلام هو اول
باب في الجنب الشرقي وعليه منارة المسجد الحرام قال فاذا دخل القادم
من باب بني شيبة ورأى البيت رفع يديه وكبر وقال اللهم زد هذا
البيت تعظيما وتكريما وتشريفا ومهابة وبرا وزد من عظمه وحجه تعظيما
وتكريما وتشريفا ومهابة وبرا الحمد لله اللهم انك دعوت الى حج بيتك الحرام
وقد جئتك له فتقبل مني واصلح لي شأني كله واشرفنا منه على ذلك البيت الشريف

إحدى صفحات مخطوطة رحلة الشرقي

العامري التازي ١١٧٠هـ / ١٧٥٧م

هذا نوع من الرحلات يعبر بدوره عن مدى تعلق المغاربة بمكة المكرمة ... الرحلة ليست محررة بالمنثور من القول، ولكنها مكتوبة بالنظم ... ولا يخفى ما في الأداء الشعري من صعوبة على الناظم.

وهكذا نجد هذه الهمزية الرائعة التي بلغ عدد أبياتها خمسة وثلاثين وثلاثمائة بيت، وكانت من عمل الفقيه العلامة الأديب أبي عبدالله محمد ابن الحاج منصور العامري التلمساني ثم التازي، المتوفى بالمشرق في حدود السبعين من المئة الثانية عشرة[١]. قام التازي في هذه القصيدة المذكورة بوصف المراحل من تازة إلى مكة، ومنها إلى الشام وصفاً كافياً، وصدرها بباب استوفى فيه تعداد الأشياء التي يحتاج إليها مريد الحج على نحو ما قام به بعض الرحالين من السابقين واللاحقين...

القصيدة التازية روعة في استيعابها لأغراض الحاج، ولكن ذكرها بنصها الكامل يطول، لذلك نقتطف منها بعض الأبيات وبخاصة ما يتعلق بتوجيهات القاصدين لمكة، وهي تبتدئ على النحو الآتي:

أَزْمِعِ السيـر إن دهت أدواء
لشفيع الأنام فهو الدواءُ!
وادّخر عولة العيال فلا تد
ري بأي الأمور يأتي القضاءُ!!
واستحل الإخوان والأهل مما
كان منك وإن يكونوا أساؤوا!
وانتخبْ أسرع المراكب سيراً
وجمالاً تطوى بها الأقلاءُ

(١) أبو الربيع سليمان الحوات: السر الظاهر ... الشيخ التاودي: الفهرسة ... المنوني: ركب الحاج المغربي، مطبعة المخزن تطوان ١٥٣، ص ١٨٠-١٨٨.

واتخذ للفصول خير لباس
سيما عندما يحين الشتاءُ
إن برد الحجاز أعسر برد
وهو أصعب إن تكن رمضاءُ!
كم قتيل بشؤمه وقت حرّ
مثل قرّ تفنى به الأحياءُ!
واصحب الشمع للإضاءة والفا
نوس تَحْظَ بما به يستضاءُ
وليُصاحبْك كاغد ودواة
مع أقلامها لما قد يشاءُ
لا تقلل من استقاء فكم من
سوء خلق إذا يقل الماءُ!!
فبقدر المشقة يحصل الأجـ
ـر، فلا تستأمنك الضراءُ!!
واتخذ يا فتى من العطر شيئاً
رب وقت به يكون الشراءُ!!
ثم لا تتفرد عن الركب لحاً
إن ذاك يساق منه البلاءُ!!
لا تفارق جماعة الشيخ[1] كي لا
تستبد بتيهك التيهاءُ!
وكلنْ واشربنْ على حسب الحا
ل، فالإسراف نقمة وبلاءُ
ثم أحكم ربط البهيمة في الرا
ضة كي ما ينال منها الهناءُ!

(١) القصيدة إلى شيخ الركب.

ثم بت في الينبوع معطن عذب

ثم بدر حنين فيه ارتواءُ

إلى أن يصل إلى وادي فاطمة حيث يقول:

ثم في واد فاطم انزل على ما

ءٍ ومن بعد مكة الغراءُ!

أكثرن الطواف بالبيت والشر

ب بزمزم إذ لديه الشفاءُ

فهو يغني عن الطعام، وعن شر

ب، ويمنح ما يسر انتواءُ(١)

وتعاهد معاهد الخير فيها

ومن الشيخ نالها الإنشاءُ

موضع البيت مهبط الوحي، مأوى الر

سل حيث الأنوار، حيث البهاءُ

حيث فرض الطواف والسعي والحلـ

ـق، ورمي الجمار والأهداءُ

حبذا! حبذا! معاهد منها

لم يغير آياتهن البلاءُ

حرم آمن، وبيت حرام

ومقام، فيه المقام تلاءُ

(١) الإشارة بكلمة (انتواء) إلى دور النية في مفعول هذه العين، ونحن نعلم الحديث الشريف «ماء زمزم لما شرب له». هذا ومن طرائف ما قرأناه اليوم ظهور موقع الإنترنت لتقديم معلومات زاخرة عن هذه العين تشمل أسماءها وفوائدها وبركاتها وذكرها أو الإشارة إليها في القرآن والسنة بالإضافة إلى تحليلها الكيميائي ومعلومات أخرى شائقة، ويوحي تصميم الموقع الجميل الذي يحتوي على درجات لونية زرقاء إلى التي تعيش جو بيئة مائية نقية تمثل ماء زمزم خير تمثيل. جريدة (الشرق الأوسط)، عدد ٢٠٠٢/٩/٢٦م.

فاجتهد في الدعاء فيها بصدق
كم فاز فيه بالمنى الدعاءُ!
فإذا ما قضيت حجك فارحل
حيث طيبة نورها لألاءُ
فهي خير أرض لخير نبي
منه يرجو الشفاعة الشفعاءُ

بعد هذا يعود الشاعر إلى الحديث عن المراحل التي توجد بين مكة والمدينة المنورة، وتعبيراً منه عن التعلق بثالث الحرمين: القدس الشريف، خصص فصلاً للمراحل التي تبلغ الحاج إلى بيت المقدس:

وإذا ما أردت مشياً إلى الشا
م ففيها أئمة أنبياءُ
ولديها جمع كبير من الصحـ
ـب كذا التابعون والأولياءُ
وهناك صخرة القدس في المسـ
ـجد الأقصى حازتهما إيلياءُ

إن الذي نتوخاه من الحديث عن هذه الرحلة الحجازية الشعرية هو تأكيد أن نصيب الرحلة عند الشعراء لا يقل عن نصيبها عند الكتاب والناشرين ... وليست قصيدة التازي إلا واحدة من عشرات القصائد التي اهتمت بمكة المكرمة وما يتصل بها.

الهلالي ١١٧٥هـ / ١٧٦١م

رحلة حجازية للعلامة المشارك أبي العباس أحمد بن عبدالعزيز الذي ينتسب إلى الإمام باز النوازل أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الهلالي، شهرته السجلماسي، نزيل مدغرة، ودفين سجلماسة (تافيلالت) يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ربيع الأول عام خمسة وسبعين ومئة وألف (٢٠ أكتوبر ١٧٦١م).

درس بمدغرة بسجلماسة وبفاس، وكان على صلة بالملك العالم محمد الثالث، وله عدد من التآليف المرجعية.

والمهم أن نذكر أن ابن الطيب القادري ذكر في كتاب «نشر المثاني»(١) أنه ـ أي الشيخ الهلالي ـ رحل إلى الحجاز قصد الحج مرتين، وأنه ألف في رحلتيه رحلة لخصها في «نشر المثاني» مؤلفه، وأنه لقي مشايخ مصر والحرمين الشريفين، وأن له إجازات عن المشايخ المشارقة.

ويذكر الشيخ الهلالي في جملة ما يذكره عن أخذه في المسجد الحرام بمكة، أنه سمع من الشيخ العلامة سيدى محمد بن الطيب المغربي حديث: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)، قال: وهو أول حديث سمعته منه بخلوته في المسجد الحرام عن الشيخ محمد ابن الشيخ حسن العجيمي اليمني نجاراً، المكي داراً، الحنفي مذهباً، النقشبندي مشرباً. ويذكر الشيخ الراحل رشيد المصلوت ـ رحمه الله ـ في ترجمته للهلالي أن من أساتذته كذلك الشيخ عبد الوهاب

---

(١) نشر المثاني للقادري، ج ٤، ص١٤٥. د. التازي: تاريخ جامع القرويين، ج ٣، ص ٨٠٣. ابن زيدان: الإتحاف، تقديم وتحقيق د. التازي، ج٣، ص ١٢٩. ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ص ٣٠٩، ٣١٨، ٣٤٨، ١٤٠١. رشيد المصلوت: إتحاف المعاصر والتالي بجمع ترجمة الشيخ الهلالي ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص٧، ٢١، ٢٣. الروضة المقصودة في سائر بني سودة لأبي الربيع سليمان الحوات، ج ١، ص ٢٩٦، تعليق ١٠٢، أكادير، تحقيق وتعليق عبدالعزيز تيلاني، طبعة الوى ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، رقم الإيداع القانوني ١٠٦٧ / ١٩٩٤م.

ابن أحمد الطنشي أصلاً، الأزهري تربية، المكي مجاورة، الشافعي مذهباً، ويذكر من تاليف رسالة وجهها إلى سيد الوجود ﷺ(١)، وهي موجودة بالخزانة الملكية بالرباط ... كان ذلك في ذي الحجة عام خمسين ومائة وألف ١١٥٠هـ (أواخر مارس ١٧٣٨م).

ثم ذكر الهلالي في فهرسته عن أبي سالم العياشي ما يتعلق بهذا الحديث، ويظهر من خلال هذا النص أن وقفة الشيخ الهلالي بعرفات صادفت يوم الأحد (الموافق ٣٠ مارس...).

---

(١) رشيد المصلوت: الإتحاف، ص ٣٢.

ابن مسايب ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م

هذا شاعر تلمساني مشهور، ويعدّ كسلفه سيدي سعيد من الفحول الكبار في الملحون. الحاج محمد بن أحمد بن مسايب، ينتمي إلى أسرة هاجرت من الأندلس إلى فاس حيث عاش مع أسرته مدة طويلة ببلاط السلطان المولى إسماعيل الذي كان موضع قصائد له ... ثم نزحت الأسرة إلى وحدة وتلمسان حيث ولد شاعرنا، وقد قصد بلاد المشرق لقضاء فريضة الحج، وهناك نظمٌ لا يزال إلى الآن يتردد على ألسنة المغرمين بالكعبة وما يتصل بها...

وقد أدركه أجله بتلمسان سنة ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م، وضريحه بمقبرة السنوسي، ويقصده الناس لعودة من غاب عنهم من قريب أو حبيب!

سيدي ابن مسايب

حضار الغايب!

وقد كتب عنه الأستاذ عبدالحميد حميدو التلمساني مقالاً بالفرنسية بمناسبة المؤتمر الثاني لكليات العلوم في إفريقية الشمالية.

ونشر له السيد قاضي محمد في كتابه «الكنز المكنون في الشعر الملحون» عدة قصائد.

ومن المراجع حول الرحلة بحث بالفرنسية للباحث الدكتور الأستاذ محمد العربي بن محمد بن شنب حول (مراحل الحج من تلمسان إلى مكة)(١).

وإلى السيد الجليل ابن مسايب تنسب القصيدة التي قالها بعد أداء المناسك وزيارة المدينة، وهذه القصيدة التي لا يخلو بيت في المغرب من إنشادها والاستمتاع بترديدها وهي تحمل عنوان:

«الحرم يا رسول الله»

---

(١) عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، بيروت، ١٩٧١م، ص ١٦٢-١٦٤.

الحرم جيت عندك قاصد
يا سيدي رسول الله!
الحرم جيت عندك قاصد
يا صاحب الشفاعة الأمجد
خوفي بزلتي نتمرمد
يوم الوقوف عند الله!
عاري عليك يا محمد
عار الوصيف عن مولاه

* * *

عاري عليك يا بلقاسم
يا صاحب اللوا والخاتم
تراني على أفعالي نادم
مادرت باش نلقى الله
ما تبت، ما قريت اللازم
يبليس غرني بهواه

* * *

يبليس غرني واجلاني
للمصايب للذنوب ارماني
ضيعت في الغرور زماني
والشيب الغدار اكساه
ما فقت به حين ابراني
رأسي شاب يا ما اكواه!

* * *

ما فقت حين ظهر شيبي
واليوم خفت يظهر عيبي

روحي تعبت في شبابي
وجميع ما فعلت نراه
واللي راد ربي نلقاه

* * *

يوم نموت يوفي أجلي
لا بد نلتقي عملي
في القبر، كي يكون اسالي
نكير ومنكر معاه!
ربي برحمته يغفر لي
وفضله كثير نترجاه

* * *

صلٍّ على الرسول الهادي
عين الوجود محمدي
تاج الكرام نور تمادي(١)
سيدي وسيد خلق الله
نمدح مدح في نشادي
حتى تسير عند الله

* * *

نمدح مدح العدناني
بالقلب والأعضاء ولساني
مولوع به طول زماني
ذكره في خاطري ما أحلاه!

(١) القصد إلى إثمد العيون.

أحلى من العسل في اكناني
مدح النبي رسول الله

* * *

مدح الرسول فيه كرايم
ويزيد للقلوب نعايم
أزكى الصلاة عليه وسلم
واتلُ الرضى على من يرضاه
وعلى الحافظ من تعلم
والوالدين ومن رباه

* * *

أحمد بن مسايب مدحك
والناس تفخر بنشادك
في الخلود درنا جيرانك
يسر لمن طلب مولاه
سبحان ربنا من وداك
وأعطاك الفضل والجاه

* * *

واعطاك الفضل والجود
يا ولد يامنة وحليمة!
سعدت بك هذا الأمه
جاهك عظيم عند الله
في يوم ساعة القيامة
عندك مداحك تنساه!!

لقد تعمدت الإتيان بالنص الكامل لهذه القصيدة التي تتردد ـ كما أشرنا ـ على كل

لسان والتي وجدت فيها السيدة أم كلثوم منيتها عندما زارت بلاد المغرب حيث كان لدور "الملحون" في أدب الحجاز عطر لا ينسى.

وبقي لي أن أقول في ختام حديثي المقتضب عن رحلات الحجاز عندأصحاب الملحون: إن هناك العشرات من الرحلات التي دونها الشيوخ في الماضي والحاضر عن مناسك الحج، والتعلق بأذيال الكعبة، وزيارة الروضة النبوية، مما نرجو أن يرجع إليه القارئ في مظانه(١).

---

(١) محمد الفاسي: معلمة الملحون، روائع الملحون ١٩٩٠م، ص٩١-٩٥. تراجم شعراء الملحون ١٩٩٢م، ص٣٨ - ٤٠ - مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية. د. عباس الجزائري: القصيدة، ص٦١٤، الضعيف في مدح الرسول.

ابن عبدالسلام ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م

صاحب هذه الرحلة هو السيد الطاهر بن عبد السلام (السلاوي) المتوفى سنة ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م، وكان سفيراً للعاهل المغربي الملك محمد الثالث عدة مرات، وتهمنا هنا السفارة الأخيرة لدى السلطان مصطفى الثالث بن أحمد الرابع، هذه السفارة التي اقترنت بحج بيت الله الحرام سنة ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م، حيث كان بصحبة السيد الطاهر بناني (الرباطي)، وحيث حملها السلطان هدية نفيسة فيها خيل عتاق بسروج مثقلة بالذهب مرصعة بالجواهر والياقوت ونفيس الأحجار، وفيها أسياف محلاة بالذهب، ومرصعة بالياقوت المختلف الألوان، وفيها حلي من عمل المغرب، وهي المبادرة التي أجاب عنها السلطان مصطفى بهدية رقيقة عبارة عن مركب موسوق من آلة الحرب: مدافع ومهاريس نحاسية وبارود وإقامة كثيرة للمراكب القرصانية المغربية من صوار ومخاطيف وقلاع وحبال، وفيها ثلاثون من مهرة المعلمين الذين لهم خبرة بإفراغ المدافع والمهاريس والكور والبند ... حيث اتجهت النية إلى إحياء دار (صناعة السفن) التي كانت بسلا أيام الموحدين وبني مرين[1] إلخ ...

وقد جاء ذكر "الرحلة" عند صاحب (إتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا) عند ترجمته لهذا السفير الأديب الذي كان مفخرة للمغرب:

ومنهم المحاضر الأديب
الكاتب المبرز الأريب
محمد الطاهر وهو ابن علي
ثم ابن عبدالسلام فيها منجلي
سافر عنه لبلاد الترك
في عهد مصطفى الجميل النسك

---

(١) الاستقصا، ج ٨، ص ٢٥، ٣١، ٣٢، ٥٤. الإعلام للعباس بن إبراهيم، ج٣، ص٢٦٣، مصدر سابق. الإتحاف الوجيز لابن علي الدكالي، منشورات الخزانة العلمية، طبعة ثانية بسلام المغرب، طبعة ثانية ١٩٩٦م، ص ١٤٩-١٥٠، تعليق ١١٧.

وحـمل الهدية العظيمة
ولم تزل معروفة فخيمة

* * *

وأن يزال الحلي عن مصاحفا
كانت لدى الحرام وقفاً شرفا
لما تعذر انتفاع الواقف
بها وخيف من مآل التالف
فأعمل النظر مصطفى وحال
يتركها بحالها وقفاً كمل
ثمت عاد ثانياً سفيرا
في عهد (أخي) مصطفى ظهيرا
لأجل أن يفتدوا الأسارى
من كل أقطار النصارى
وشاء من عبدالمجيد أن يرى
برأيه في فكها محررا

وقد ختم هذه القطعة التي اختصرناها بهذين البيتين المهمين، وخاصة الثاني الذي ينص على تدوينه للرحلة الحجازية التي لا نزال نأمل في العثور على نصها . . .

وكم لهذا الشيخ من سفارة
عادت بربح القطر والعمارة
حج وزار ورأى المعالما
وقيد الرحلة فيما أبهما(١)

وعلى الرغم من اختفاء نصوص الرحلة اليوم فإننا ما نزال نتطلع إلى الحصول عليها، وكما قلت في مناسبة مماثلة فإن اقتناع الخبير بوجود البترول في الحقل لا يتوقف على رؤية ضخه بالفعل!!

(١) أبو زيدان: الإتحاف، طبعة ثانية، تقديم د. التازي، طبعة ثانية، ج٣، ص ٢٩٨- ٢٩٩.

الحضيكي ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م

توجد مخطوطة لهذه الرحلة بالخزانة العامة للرباط رقم د/٢/٩٩٦ ضمن مجموع ورقة ١٠/أ-٢٩/أ، كما توجد نسخ منها في الخزانة الملكية بالرباط[١]، وصاحبها هو الشيخ مَحمد (بفتح الميم) ابن أحمد بن عبدالله السوسي الجزولي اللكوسي ثم الإيسي.

وقد ولد الشيخ الحضيكي سنة ١١١٨هـ/ ١٧٠٦م وتوفي سنة ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م، رحل في طلب العلم وكاتب من لم يلقه في المشرق والمغرب، ويستغرب الإنسان إذا طالع «طبقاته» وكناشته التي تضم إجازات مشايخه المشارقة والمغاربة. يعد شيخ البلاد السوسية وأستاذها.

وقد كان في صدر تآليفه الرحلة الحجازية، وقد حج سنة ١١٥٢هـ/ ١٧٤٠م.

ويهمنا في هذه الرحلة أن نلخص حديثه عن الذين لقيهم في سفره لأداء مناسك الحج، ذلك السفر الذي لم يكن يخطر له على البال على الرغم من شدة شوقه إلى زيارة تلك الديار لولا قريب له سدد له النفقة ... وهكذا نجده يأخذ طريقه إلى أن نجده في وادي طوى بمكة المكرمة.

وبعد أن أدى واجبه في البيت الحرام، وقف قليلاً عند هذه المدينة مكة، ليتحدث عنها، وعن المشاهد والقبور والأمكنة المجاورة للمدينة مستحضراً نصوص القرآن والحديث وأقوال الفقهاء، متخلصاً إلى تحليل بعض الأحاديث ومدى صحتها على نحو ما فعل حين أورد الحديث النبوي المتعلق بالحجر الأسود[٢]...

وقد عُني الحضيكي في هذه الرحلة بتقديم الكثير من المعلومات الجغرافية والتاريخية

---

(١) د. المنوني: المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م. د. التازي: رحلة الإسحاقي، مطبعة فضالة ١٩٧٦م، ص٣٩، تعليق ٢، فهارس الخزانة الحسنية، طبعة جديدة ١، ص ٥٣٦، ٥٣٧.
المختار السوسي: المعسول ٢، ص٣٠٢. سوس العالمة ١٩٣، فهرس الفهارس للشيخ الكتاني، الترغي: فهارس علماء المغرب، ص٤٠٨: دعوة الحق، يونيو ٢٠٠٢م.

(٢) د. عباس الجراري: مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية، بحث قدم إلى الندوة العالمية الأولى لدراسة تاريخ الجزيرة العربية، كلية الآداب، جامعة الرياض، مصدر سابق. مجلة المناهل المغربية، العدد ١٠.

للأماكن التي زارها، ولفت النظر إلى بعض الملاحظات الاقتصادية والاجتماعية فضلاً عن المادة الفقهية التعليمية التي قدمها(١)...

فهو عند حديثه عن (نمرة) يقول: إنها حد عرفة من جهة مكة .. وهو في جميع الأماكن التي مر منها الركب مهتم بقضية الماء، وهي - كما نعلم - قضية حيوية بالنسبة إلى الحاج.

وقد تحدث عن قبور الشهداء والصحابة وأزواج النبي عليه الصلاة والسلام، وعن المساجد والبقاع على نحو ما فعل السابقون، وكان من تلك المزارات البيت الذي يقال: إنه مولد النبي ﷺ مروراً بمنزل السيدة خديجة ... ودار الأرقم ... ومسجد بأعلى مكة، ومسجد آخر في الموقع نفسه يعرف بمسجد الجن ... ومسجد ثالث كذلك هناك يقال له مسجد الشجرة، ثم مسجد يسميه أهل مكة مسجد عبدالصمد بن علي؛ لأنه هو الذي بناه، ثم مسجد على يمين الموقف، غير مسجد عرفة الذي يصلي فيه الإمام، ثم مسجد الكبش بمنى، ومسجد على جبل أبي قبيس يقال له: مسجد إبراهيم باسم بعضهم، ومسجد عند سوق يحمل اسم سوق الغنم، ثم مسجد العقبة، ثم مسجد ذي طوى، ثم مسجد الجعرانة حيث أحرم النبي ﷺ، ومسجد التنعيم الذي أحرمت منه عائشة بأمره عليه الصلاة والسلام، ثم جبل حراء وجبل ثور...

ويتضح ميل صاحب الرحلة إلى تقديم بعض المعلومات التي كنا نعرفها مثل قوله عن المسجد الحرام: إنه كان صغيراً، ولم يكن عليه جدار، وكانت الدور محدقة به، وبين الدور أبواب يدخل منها الناس، فضاق المسجد على المصلين، فاشترى عمر بن الخطاب دوراً فهدمها، ثم أحاط عليه جداراً قصيراً، ثم وسع المسجد عثمان بن عفان بعد أن اشترى من قوم أرضهم، ثم زاد فيه عبدالله بن الزبير بعد أن اشترى دوراً كذلك فادخلها في المسجد، ثم زاد المنصور في شقه الشامي، ثم كانت زيادة المهدي، قال: وكانت الكعبة في جانب من المسجد فأحب أن تكون وسطاً فاشترى دوراً ووسطها، وكان أول من جلب إليه أساطين الرخام وسقفه بالساج المزخرف هو الوليد بن عبد الملك.

---

(١) د. عباس الجراري: مدخل لرحلة الحضيكي الحجازية، بحث قدّم إلى الندوة العالمية الأولى لدراسة تاريخ الجزيرة العربية، كلية الآداب، جامعة الرياض، مصدر سابق.

وشبيه بهذا قوله في منبر الرسول عليه السلام: وأما منبره ﷺ فقد احترق في جملة ما احترق بالمسجد سنة أربع وخمسين وستمئة، وقد أخذ ما بقي من أعواده فصنعت منها أمشاط للتبرك بها. والمنبر الموجود الآن ـ يقول الحضيكي ـ ليست له فضيلة منبره ﷺ، ولو أن فضل هذا الجديد عظيم لكونه يوجد ضمن البقعة الشريفة.

وقد كان وصفه لغار ثور على نحو ما تردد في الرحلات المعروفة من أن له بابين... أما الجانب الاقتصادي في الرحلة عند الحضيكي فتبدو فيه بعض الملاحظات المهمة التي انتبه إليها ولفت إليها الأنظار كقضية العملة المستعملة وضرورة تحويلها إلى ذهب، وكبعض السلع القابلة للتبادل والمقايضة، وفي هذا يقول ناصحاً للحاج: وعليك أن تصرف دراهمك بالذهب؛ فإنه هناك أرخص سواء أكان ذلك تبراً أو مسكوكاً ... وفي ذلك فائدتان:

الأولى: أن الذهب يروج في كل بلد أمامك، وتصيب به غرضك حيث كنت وكيف شئت! بخلاف هذه الدراهم الإسماعيلية[1]، فرواجها إنما يكون في المغرب! فإذا خرجت منه فلا تروج إلا ببخس!!

الفائدة الثانية: أنك إذا صرفتها ذهباً، تبراً أو مسكوكاً، خف عليك حمله، تشده إلى بطنك أو تعلقه على جنبك، فلا يثقلك إذ من أهم الأمور أن تصاحب نفقتك ولا تفارقها طرفة عين في الحركات والسكنات مخافة السراق، وتدفع الذهب معه أيضاً في بلاد المشرق بأكثر مما أخذته به هنا.

ولك أيضاً أن تصحب معك العطرية: الكحل والشب والكبريت والمشط والمرآة والجلود المدبوغة: الحمر والصفر، والنعال، فإنك ستلقى العرب رجالاً ونساء يسألون عن ذلك ومعهم اللحم والخضر والفواكه والسمن واللبن وغير ذلك يدفعونه في العطرية، ولا تنال غرضك منهم إلا بها ...

وهكذا نقرأ في خطاب الحضيكي أساليب أخرى لم نعتدها في الرحلات الأخرى.

ويتحدث الحضيكي عن أسواق منى وليالي منى مما يدخل في هذا الجانب

---

(١) يقصد إلى العملة المغربية، ولا تنس أن الحضيكي يتحدث أيام حفيد السلطان مولاي إسماعيل.

الاقتصادي، فيذكر أن الحجاج في منى - بعد أن ينحروا ويفيضوا - يعرضون من الزينة والحلي والحلل وأنواع الملابس ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، من نسيج اليمن والعراقين (عراق العرب وعراق العجم) والهند والروم وخراسان، ويعرضون أنواع الطيب بمختلف أنواعه مما تهب به الريح من كل جانب يفوح به الهواء! هذا إلى أنواع السلع ونفائسها التي تبرز للتجارة بأصنافها، فيا لذلك الموسم العظيم والمربح الكبير الجسيم من بركة عظيمة ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾(1).

والرحلة بعد هذا غنية بالارتسامات الاجتماعية على نحو شهادته في أهل مكة بأنهم أهل كرم وجود، وجوههم مسفرة ضاحكة مستبشرة، وأن ألوانهم إلى الأدمة ناشرة، ظهرت فيهم سمة المجاورة، وعلتهم محاسن الكعبة. وهو يخالف بهذا ارتسامات حجاج آخرين ممن التقوا مكيين من نمط آخر!!

وكعادة معظم الحجاج عندما يجدون أنفسهم في ذلك الفضاء وعندما يشعرون بارتجاج نفوسهم، فإننا رأينا الحضيكي - منذ البداية - يتحدث عن مشاعر الحجاج وقد خلعوا المخيط واتخذوا المآزر والنعال بعد التنظيف والاغتسال، واستأنسوا بالتلبية والابتهال من طول الوحشة والأوجال، وركبوا - وقد استهل الهلال - على الرواحل والجلال... وازدحموا للتجول والانتقال، وأهلوا بالحج على الجبال مقبلين على مواطن الخيرات والأعمال، بقاع تحط فيها الأوزار والأثقال، وترفع فيها الأكف إلى الله مولانا المتعال ... حيث يرعى المولى الجليل عبده الحقير بالغفران والكمال، في مهبط الرحمة أم القرى وحرم الله ذي الإكرام والجلال، سبحانه من إله بلا مثال...

---

(1) المخطوطة، ص ٢٠.

الورثيلاني ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م

هذه رحلة حجازية تحمل عنوان «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار» والمشهورة بالرحلة الورثيلانية (نسبة إلى قبيلة قرب بجاية)، وهي للشيخ الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلاني المتوفى سنة ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م، وقد تمت الرحلة سنة ١١٧٩هـ / ١٧٦٦م، وقد نشرها الأستاذ الراحل محمد بن العربي بن أبي شنب ولم يقدَّر لي أن أقف عليها إلا في مكتبة مؤسسة التراث الإسلامي بلندن (الفرقان) بمناسبة زيارتي لها أواخر أكتوبر عام ٢٠٠٢م[١].

وسنقف مع مؤلفها بمكة المكرمة لنقف على الجديد في الرحلة بالنسبة إلى ما مر من رحلات مغربية سابقة.

وكان من الملاحظات البارزة في الرحلة الورثيلانية، وخاصة بهذه البقاع المقدسة، أن الشيخ الورثيلاني ظل مشدوداً إلى من سبقه من أصحاب الرحلات ابتداء من الإمام أبي سالم العياشي والشيخ أحمد بن ناصر، وهكذا نجده يفسح المجال واسعاً لما سبق ذكره من لدن هؤلاء.

ومع ذلك، فإننا، رغبة في توفر الفائدة، سنصحبه في زيارته لمكة التي «لم تغادر في النفس ترحة، وأعادت عن الجفون كل قرحة، فدخلناها في زحمة عظيمة كادت النفوس أن تزهق، غير أن سرورها بالوصول إليها خفَّف بعض الألم، بل قد زال التعب والنصب، كأن النفوس في وليمة عظيمة لا يعلمها وما فيها من الفرح إلا من منحه الله تلك النعمة».

إلى أن يحكي أنه دخل من باب بني شيبة، فأفاض الله عليه من جوده كرامة وهيبة.

وهنا ردد ما قاله شيخه سيدي أحمد بن ناصر: «فشاهدنا البيت العتيق الذي تزيح أنواره كل ظلام، وقد تدلت أستاره، وأشرقت أنواره، وقد شمر البرقع عن أسافله حتى لا

(١) طبعة الجزائر ١٩٠٨م، وأعيد طبعها عام ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م بعناية معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، جمهورية ألمانيا الاتحادية. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص ١٦٢-١٦٣.

يكاد الطائف يناله بأنامله».

ثم ينقل عن الإمام أبي سالم أبياته الثلاثة المعروفة حول تشمير كسوة الكعبة...

ويطوف بالبيت سبع (طوفات) على حد تعبيره، ولم يبال بالازدحام، والمورد العذب كثير الزحام ... إلى آخر نص العياشي ...

وبعد أن يخبرنا بأنه خيَّم بوادي سيدي أبي طالب تحت أبي قبيس قبل أن يكتري داراً لسكناه ... يعود ليتحدث عن الزحمة العظيمة من الرجال والنساء، ويذكر أن معه جماعة كثيرة تكاد ألاّ تحصى، يطوف بهم يعلمهم كيفية الطواف الذي يبتدئ من الحجر الأسود ... «ولما رأى أهل مكة فعلي ذلك تغيروا، وقالوا: ألم تعلم أن أهل مكة لا ينتظرون إلا هذا الموسم، وقالوا: طف لنفسك واترك الناس، فقلت: أنا أطوف بهم وأعلمهم، وأنتم خذوا الأجرة منهم..»!

ولم يفتأ الشيخ الورثيلاني يشكو من الحرّ العظيم الذي كان يسود آنذاك (أواسط مايو ١٧٦٦م).

وهنا يردد ملتمس العياشي في أن يبقى المسعى بعيداً عن السوق التجاري ... ويذكر أن النساء المصاحبات لركبه طفن طواف القدوم بالليل.

ثم ارتحل إلى منى في اليوم الثامن من ذي الحجة (١٨ مايو)، فانفصلنا عن مكة في ازدحام شديد ... وبعض الأركاب من المصري والشامي والعراقي والمغربي لم يرحل حتى إلى نصف الليل أو الثلث الأول منه ....

ووصلنا ضحى إلى مسجد نمرة حيث تم الجمع بين الظهرين فيه بالقصر ... واشتد الحر بحيث لا يقدر أحد أن يضع رجله على الأرض عند الضحى ... وأخبر عن رجل ضرير ورد عليه، كان فقيهاً عالماً يحفظ أكثر الشراح، وهو مالكي من جزيرة العرب، أعني البحرين، يقول الورثيلاني، ولما سأله عن مذهب أهلها، قال: أكثرهم مالكيون... ويتحدث مرة أخرى عن الحر فيقول: إن العرق يسيل علينا فلا نرى أحداً إلا وكادت روحه أن تزهق!

وصلينا خلف الإمام، ونوينا القصر، وصلى هو بالتمام....

ويعود للنقل عما ذكره شيخه في الرحلة الناصرية بما نال وفد الله من الطرب والفرح، ونسيان العناء والترح ... ذاكراً القصيدة الهائية التي طالما اقتبس منها الرحالون التي مطلعها (١):

وما زال وفد الله يقصد مكة
إلى أن بدا البيت العتيق وركناه

الأبيات...

ويتابع نقله عن الناصري الذي اجتمع بمسجد الخيف بالشيخ محمد أكرم ابن الشيخ عبدالرحمن مفتي الهند، الذي قال عنه: إنه رجل عالم له تاليف على رجال البخاري.

كان الشيخ الورثيلاني يتنقل من نقل إلى آخر ليزيد الأمر توثيقاً على ما يبدو، ويعود إلى القصيدة السابقة ليكملها بقوله:

فكم حامد! ذاكر! كم مسبح
وكم مذنب يشكو لمولاه بلواه!
فظل حجيج الله لليل واقفاً
فقيل: «انفروا»، فالكل منكم قبلناه

إلى أن يذكر أنه عند طواف الإفاضة: وجدنا البيت مفتوحاً، والناس على ظهره يكسونه، ويحكي على نحو ما حكاه شيخه المذكور أنه عرض له الأخ الحاج بوعزة المراكشي الذي حثه على دخول البيت العتيق، فامتنع تأدباً إلى أن أدخله أمير الحاج المصري إبراهيم أبو شنب ... وإنما يدخله من تكلف الصعود بمعين أو بخفة أعضاء ..!
ويعود للنقل من أبي سالم حول نوازل فقهية معلقاً عليها بما علق به الشيخ ...

ومن الغريب أن نجده ينقل حرفياً ما قرأناه سالفاً في رحلة الشيخ من أنه لما فرغ من الطواف وتوابعه جلس للاستراحة في أخريات المسجد، واشترى خبزاً وسمناً وعسلاً فأكله قبل أن يرجع لمنى. !! ويتحدث عن امتلاء الطرقات باللحم ... وما ينفك ناقلاً عن الإمام أبي سالم الذي ـ كما أسلفنا ـ بقي مرجعاً لمعظم الذين توفروا على رحلته من

(١) لم أهتدِ لصاحب القصيدة التي لا أستبعد أنها للشيخ أحمد بن ناصر.

أمثال الشيخ ابن ناصر ....

ويتحدث عن سوق منى وبركته ... وعن لياليها وما يتم فيها من تظاهرات ومواسم، وفي الحديث عن التنعيم يذكر ما سبق أن ذكره الشيخ من أن إنساناً وطئ على بنصر رجله اليسرى ولا يظنها إلا انكسرت، فتمم الطواف وهو يحجل، وتذكر قول الشاعر:

هـل أنـت إلا أصـــــبـع دمـــــيـت

وفي ســـبـــيـل الله مـــا لقـــيـت!!

ويعود إلى القصيدة التي عند أحمد بن ناصر:

وردتْ إلى البـــيـت الحـــرام وفـــودنا

تحنُّ له كــــالطـيــــــر حنَّ لمأواه!

وبعد هذا يتخلص لذكر المشاهد التي ينبغي للحاج أن يزورها بمكة ... معتمداً على ما ذكره أبو سالم في كل ما قاله وما علق به وما انتقده كذلك، من غير أن تفوته قصة الحاج الذي انفرد عن أصحابه فتعرض للمتاعب والمشكلات مردداً قولة أبي سالم: «والانفراد عن الناس لا سيما في المفازات والمغارات البعيدة عن العمران لا يقوى عليه إلا من أيده روح القدس»!

و"ينعطف" الشيخ الورثيلاني مرة أخرى إلى ما كان بصدده، فيحكي عن مسجد نمرة، ومكان الوقوف، حيث أصاب الناس شدة الحر والوهج حتى كاد أن يذهب بالروح والمهج.... لكنه عوض الوقوف على الناقة وقف على بغلته يتبعه في ذلك سيدي أحمد الطيب، وسيدي أحمد بن حمود، وسيدي محمد الشريف الطرابلسي ... وتمكن من الوصول إلى الخطيب في عرفات الذي ابتسم في وجهه ... نعم يقول الشيخ: وجدنا قلوبنا في ذلك المحل، وشاهدنا فيه أمراً عظيماً لا يمكن التعبير عنه ...

ويذكر أن شيخه أحمد بن ناصر ذكر أن بطن محسر هو وادي النار إلى آخر النص...

"وينعطف" مرة أخرى إلى منى ليتحدث عن الجمرات التي رماها، كما قال شيخنا، بالتكبير إلخ ....

ويرجع إلى الكعبة ليدخل البيت العتيق مرة أخرى راوياً عن عائشة رضي الله عنها:

«عجباً للمرء المسلم إذا دخل الكعبة كيف يرفع بصره قبل السقف؟!»... ينقل عن الناصري بالحرف.

و"ينعطف" مرة أخرى إلى الحديث عن أسواق منى(١).

ويتحدث الشيخ بدوره عن الخوف من اللصوص، ويشكو الفساد والظلم من الأشراف وغيرهم من المتنفذين ... ولقد قتلوا صاحب أخينا سيدي محمد بن قسوم الريغي على شربة ماء!

ويروي أنه دخل على سلطان مكة (مساعد بن سعيد)(٢) في داره بمنى حول بعض الإبل التي نهبت، فلما عرف السلطان أنه من أهل العلم احترمه ووعده بإرجاع الإبل، ويؤكد الشيخ أن السلطان اسمه مساعد، بينما كان السلطان في الحجة الأولى مسعود، معلقاً على هذا بقوله: نعم الحج قد كاد أن يكون ساقطاً بسبب الظلم من الولاة وأصحابهم والعرب والشيالين الذين زادوا في الارتياش للظلام...

و"ينعطف" مرة أخرى إلى ذكر العمرة من التنعيم ويقول: لله در شيخنا، ويردد مرة أخرى بعض القصيدة الهائية:

وردت إلى البيت الحرام وفودنا
تحن له كالطير حنّ لمأواه

ويختم بذكر ما نقله عن شيخه المذكور من المشاهد التي ينبغي للحاج أن يزورها مكرراً ما ذكره الشيخ أبو سالم عن الدار التي ولد فيها النبي ﷺ.

ثم يذكر من لقيهم شيخه في الحرم المكي من الأئمة: المخيلي، والبصري، وتاج الدين، ثم يتحدث عمن أجاز أحمد بن ناصر بمكة طالباً منا أن نرجع إلى ذلك في الرحلة..!

وفي (تتمته) ذكر من أخذ عليه شيخه سيدي أحمد بن ناصر، حيث نجد الورثيلاني

(١) يلاحظ أن الأستاذ الباحث الدكتور محمد بن أبي شنب ما ينفك في بعض الهوامش يحاول أن يرمم نص الرحلة الورثيلانية مقارنة مع ما في رحلة الناصري.

(٢) تولى مساعد بعد وفاة أخيه مسعود في ٢/٤/١١٦٥هـ ومدة ولايته نحو سبع سنين. السباعي: تاريخ مكة، ص٤٣٠ - ٤٣١، مصدر سابق.

يعدّهم بالكامل معرَّفاً بهم وبمتعلقاتهم نقلاً كذلك عن الرحلة الناصرية . . .

ولا ينهي هذا الموضوع دون أن "ينعطف" إلى الأماكن التي ينبغي زيارتها بمكة زيادة على ما تقدم، غير مهمل تعليق أبي سالم عما رواه عن أهل العلم بمكة بما في ذلك قبة أبي طالب السالفة الذكر . . .

وأخيراً لم يفته هو الآخر الحديث عن مزايا (حمير جدة) التي يضرب المغاربة المثل بها في الجري والنشاط، ويختم الحديث برائيه الإمام أبي علي اليوسي رضي الله عنه وأرضاه، التي يقول في مطلعها:

أحـجـاج بيت الله سـيـروا وأبـشـروا

بمـا لـم ينـلـه رائـح ومـــــبـكّـرُ

وطيـروا عـجـالى فـوق أجنحـة القطا

وأجنحـــة الشـــوق المبـــرّح أطيـــرا

الأمير المولى علي ١١٩٧هـ / ١٧٨٣م
وحديث المصاهرة بين حكام المغرب وحكام الحجاز

هذه رحلةٌ جماعية حجازية من نوع خاص، كانت برئاسة الأمير المولى علي الابن الأكبر للسلطان سيدي محمد بن عبدالله وخليفته وولي عهده المتوفى سنة ١١٩٧هـ / ١٧٨٣م.

نقول: إنها من نوع خاص؛ لأنها لم تقتصر على أداء المناسك من طواف وسعي ووقوف بعرفة ... ولكنها كانت تصحب معها أميرتين جليلتين هما كريمتا العاهل المغربي، زُفت كبراهما لسلطان مكة الشريف مساعد بن سعيد، وزفت صغراهما للابن الأمير سرور الذي نعلم عن طموحه ومركزه ونشاطه ومنشآته ومنجزاته ...

والمهم عندنا في هذه الرحلة أنها تؤكد ما رددناه مراراً من أن تاريخ الحجاز يظل ناقصاً ما لم يُبحث فيه عما يكمله في الجهات الأخرى من العالم الإسلامي، وخاصة بلاد المغرب ...

وها نحن أولاء أمام حدث كبير أشارت إليه المراسلات الفرنسية المعاصرة، أكثر من هذا تتحدث عنه تقارير التاريخ الدبلوماسي العثماني، علاوةً على المصادر المغربية، لكنه (أي هذا الحدث) لم يجد له صدى في مؤلفات التاريخ المحلي الخاص بالحجاز من التي اهتمت بتاريخ أمراء البلد الحرام، وخاصةً الشريف سرور، المتوفى يوم ١٨ / ٤ / ١٢٠٢هـ الموافق ٢٧ يناير ١٧٨٨م.

لقد ورد في نصوص تلك الرسائل والتقارير التي كان يرفعها إلى بلاده القنصل الفرنسي لوي دُو شينيي الحديث عن الجَسْر الذي كان يربط بين المغرب والحجاز، عبر الإسكندرية على سفنٍ فرنسية مثلاً ... وخاصةً في موسم الحج حيث كانت الغرفة التجارية الفرنسية بمرسيليا تستفيد من ذلك الجسر الذي كنا نستغرب من حركته وتنظيمه وتهافت الحجاج عليه ...

وقد كانت من تلك المراسلات الفرنسيةِ التي سجلت الوصول إلى (ينبع) مراسلة في

صيف سنة ١١٩٣هـ / ١٧٨٠م.

وفيها حديثٌ عن مصاهرة العاهل المغربي لشريف مكة، وحديث عن أمراء (ينبع) التي يكتبها التقرير، هكذا: YAMBU أو YAMBOL.

لقد ظهرت هذه المذكّرات في تأليف القنصل شينيي المطبوع بباريز منذ عام ١٧٨٧م، ونحن ما نزال نغط في منامنا، ولا نعرف للمطابع أثراً في ربوعنا(١)!!

وأتى مصدرٌ عثماني معاصر مخطوط يتحدث عن مصاهرة ملك المغرب مع سلطان الحجاز، أو بالتدقيق مصاهرة الملك محمد الثالث مع الشريف سرور...

ويتعلق الأمر بما ورد في التقرير السري الذي رفعه السفير التركي إسماعيل أفندي إلى السلطان عبد الحميد بعد عودة السفير من مهمته بالمغرب، وهو يحمل تاريخ ١٥ ربيع الأول ١٢٠١هـ / ٥ يناير ١٧٨٧م. وكان قصده أن ينبه الباب العالي على شعبية العاهل المغربي ونفوذه، بل وخطره على الوجود العثماني في شمال إفريقية وفي أقطار الحجاز وفي الحرمين الشريفين وما يتبعهما كذلك(٢)...

ومع هذين المصدرين الفرنسي والعثماني نقرأ عن هذا الحدث السعيد في مصدر مغربي يؤرخ للعصر الأول من الدولة العلوية، ويتعلق الأمر بمخطوطٍ معاصرٍ للمؤرخ المغربي محمد بن عبدالسلام المشهور بالضُّعَيّف (١٢٣٣هـ / ١٨١٨م) (تصغير ضعيف)، وهو يذكر سلطان مكة أعزها الله... ويقول: إن العاهل المغربي سيدي محمد بن عبدالله (محمد الثالث) أهدى له بنتين من كريماته: واحدة له، والثانية لولده، فتوفيت واحدة بمكة، والأخرى هي شقيقة الأمير المولى اليزيد، وكانت هي لالة حبيبة التي أعادها الأمير المولى اليزيد إلى بلادها المغرب بعد وفاة زوجها الشريف سرور(٣).

---

(1) Recherches historiques sur les maures et histoire de lempire de Maris 1787. T. 3.P. 465. Pierre Grillon: les corresponces du consul. Luis chenier T. 2. P. 815. Etc.

(٢) د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج ٩، ص ٥٥، مطبعة فضالة، المحمدية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

(٣) تاريخ الضعيف، تحقيق أحمد العماري، نشر دار المأثورات، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ١٩٣، البحث العلمي، ٢٨ مايو ١٩٧٧م، ص ٢٨٦.

وقد جاء في مخطوطة للمؤرخ المغربي المعروف أبي القاسم الزياني (ت١٢٤١هـ / ١٨٨٣م) في كتابه «الروضة السليمانية» بالحرف:

«وفي عام اثنين وثمانين ومئة وألف (١٧٦٩م) وجَّه السلطان ولده الكبير مولاي علياً وأخاه عبد السلام صغيراً للحج، وأصحبه هدية عظيمة لأهل الحرمين الشريفين ... ومالاً كثيراً يفرق على أشراف الحجاز، وجوائز العلماء والنقباء وأهل الوظائف بمكة والمدينة، ووجَّه معهم من وجوه أهل المغرب وأولاد أمراء القبائل وجملة من خدامه وأصحاب أشغاله بالخيول الموسومة والسلاح الشاكّ ما تحدث به أهل المشرق دهراً، ومعهم كان زفاف ابنة السلطان مع أختها لسلطان مكة الشريف سرور.. مع الركب النبوي، وكان في جهازها ما يزيد على المائة ألف دينار من الذهب والياقوت والجوهر، وكان يومُ دخولها لمكة المشرفة مهرجاناً عظيماً حضره عامَّةُ أهل الموسم»[١].

وقد ورد في كتاب (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري النّص الكامل المتعلق بهذا الحدث[٢] ممهداً له هكذا: «ولما كان سلطان مكة الشريف سرور ـ رحمه الله ـ بالمحل الذي أكرمه الله بلداً ومحتداً رغب السلطان سيدي محمد ـ رحمه الله ـ في مصاهرته، وسمحت نفسه ببذل كريمته ...

وهكذا فلما أحلت سنة اثنتين وثمانين ومئة وألف[٣]، وعزم ركب الحاج المغربي على السفر إلى الحجاز، بعث معهم السلطان المذكور ابنته، وزفها إلى بعلها المذكور، وبعث ولده الأكبر وخليفته الأشهر المولى علياً لأداء فريضة الحج، ومعه شقيقه المولى عبد السلام صغيراً دون بلوغ إلى آخر ما ورد عند المؤرخين السابقين».

تعمدت ذكر نقل الزياني بكامله والضُّعَيّف بكامله لإبراز أهمية الحَدَث الذي تحدث

(١) مخطوطة الخزانة الحسنية، ورقة ٣٨٤، مع شكرنا للأستاذ محافظ الخزانة الدكتور أحمد بينبين.

(٢) الاستقصا، طبع دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٦م، ج ٨، ص ٣٤.

(٣) هكذا ورد تاريخ هذا الحدث في المصادر المغربية، ويتأكد لدي أن هناك خطأ في النسخ وقع للمصدر الأول فاقتفى الأثر سائر الباقين، ولعل الصواب عام ١١٩٢هـ / ١٧٧٨م، وهو ما تعضده المراسلة الدبلوماسية الفرنسية والتقرير العثماني ... بل وتؤيده ترجمة حياة الشريف سرور الذي كان في التاريخ المثبت عند المؤرخين المغاربة .. كان ما يزال ناعم الأظفار.

به ـ كما قرأنا ـ أهل المشرق دهراً، والذي كان يوم دخوله إلى مكة يوماً مشهوداً تناقلت حديثه الركبان من سائر الآفاق!

ويأتي بعد هؤلاء المؤرخين مصدر مغربي رابع هو كتاب «إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس...» تأليف النقيب ابن زيدان(١).

هذا المصدر أيضاً يؤكد أن الملك محمد الثالث وجه ولده الأكبر أبا الحسن علياً صحبة الأميرات إلى آخر الأخبار التي قرأناها ...

ويدخل في إطار هذه التحركات المتوالية نحو المشرق ما يقف عليه في سجلات الحوالات الحبسية (أي حجج الوقف) من مبالغَ ضخمةٍ وسخيةٍ موجهة إلى رجال الحكم في الحرمين بل وإلى سائر الجهات بالمنطقة على نحو ما نجده في هذه العقود الموثقة التي نقدمها ضمن هذه الأوراق...

ونريد بعد هذا تأكيد أننا لم نجد ذكراً لهذا الحدث في التوايخ المتداولة للحجاز من التي نتوفر عليها(٢)، وهو ما يؤكد أن المصادر المشرقية لا تعي دور مصادر التاريخ المغربي في كتابة تاريخ المشرق، وعلى الخصوص دور الرحلة المغربية في التأريخ للحجاز.

ولا نشك في أن الأميرة المغربية لالة حبيبة كانت تشارك زوجها السلطان سرور في التنقلات التي كان يقوم بها إلى المدينة وإلى ينبع وإلى الطائف، كما تشاركه في الاحتفالات الكبرى التي كان يقيمها الشريف سرور، وخاصة الحفل العظيم الذي أقامه في قلعة أجياد بمناسبة ختان أولاده وأولاد أخيه الذي استمر سبعة عشر يوماً، وشاركت فيه سائر طبقات الشعب بطبولهم ومزاميرهم، فقد ظل القصر مفتوحاً في وجه الجميع،

---

(١) الإتحاف، طبعة ثانية ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، تقديم: د. التازي، مطبعة إيديال، الدار البيضاء ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ج ٣، ص ١٦٧، ٢٢٦، ٣٥٧.

(٢) خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن النبي عليه الصلاة والسلام إلى وقتنا هذا بالتمام، تأليف شيخ الإسلام السيد أحمد بن زيني دحلان، طبعة أولى، مصر ١٣٠٥، ص٢٠٧ فما بعدها. تاريخ مكة، تأليف أحمد السباعي، طبعة سابعة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، تاريخ أمراء البلد الحرام عبر عصور الإسلام، جمع وتعليق عبدالفتاح راوه المكي، الطائف ١٩٨٦م.

وأمر فيه السلطان سرور عند آخر يوم للاحتفال باستعراضٍ عام مشى فيه الخيالة والجند في موكبٍ كبير تتقدمه المدافع.

ويذكر الأستاذ السباعي مؤرخ مكة أن هذا الاستعراض كان أول استعراض بهذا الحجم يجري بمكة...

ولم يكفِ الشريف سرور كل ذلك، فدعا النساء من الحضر والبادية إلى احتفالٍ عام غنَّت فيه المغنيات[1]، ومدت فيه الموائد، ووزعت الهدايا والملابس الفاخرة ...

وأخيراً، نرى من المفيد أن نذكّر بما سيرد بعد نحو من قرنين من الزمن عندما وقف رئيس الركب المغربي القاضي سكيرج يذكّر الشريفَ حسين بن علي بهذا الحدث التاريخي الكبير؛ إذ استمعنا إلى جواب الشريف حسين وهو يؤكد أمر المصاهرة.

وهكذا، فعندما تقدم القاضي بخطابه أمام الشريف حسين "مذكراً" أنه يحمل من سلطان المغرب المولى يوسف بن الحسن التهنئة لسلطان مكة مجدداً الروابط الودية فيما سلف لسلفه الطاهر مع سلفكم الطاهر من المصاهرة... قال الشريف حسين عن هذه الجملة المتعلقة بالمصاهرة التي كانت بين الأسرتين الطاهرتين: «إنه يعرفها حق المعرفة؛ لأن واسطة عقدها إحدى جداته الطاهرات، وإنه يقدر حق هذا الارتباط قدره[2] ...».

---

(١) نعتقد أن لعبة الزير المعروفة في ينبع كانت حاضرة في احتفالات مكة ... يراجع تاليف (نسب حرب)، تاليف عاتق بن غيث البلادي، دار مكة للتوزيع، طبعة ثالثة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(٢) الورقة ٩٠ من المخطوطة التي حصلنا على صورة منها بفضل أسرة القاضي سكيرج رحمه الله.

Départ de Moulay Yézid pour La Mecque

Les princes Moulay Yézid et Moulay Abderrahman, qui avaient été arrêtés en février et mars et traités avec quelque rigueur, furent relâchés par ordre de l'empereur dans le courant de juin. Ce souverain, dans l'espérance d'adoucir le caractère fougueux du premier de ces princes, a pris le parti de l'envoyer par terre à La Mecque, avec sa mère, un de ses frères et deux de ses jeunes sœurs, que l'empereur se propose de marier avec des princes de Yambol [1], ses parents (le père de Moulay Ismaïl était un chérif de cette famille). Ce prince, avec une suite nombreuse et de riches présents, est parti de Miquenés dans le mois de juillet pour ce voyage religieux.

نص المراسلة الفرنسية، وجانب من التقرير العثماني، وإحدى صفحات مخطوطة الزياني

حول مصاهرة سلطان المغرب لسلطان مكة

نموذج من لائحة الجهات التي تصلها الهبات المغربية

جملة الريال الكبير اعلاه تسعة عشر الف وثمانماية وثمانون

اهل الزوايا

جملة المال الذي بعث مولانا المنصور لمن ذكر اعلاه وحوله على حساب صرف الريال ماية الف
ريال واربعماية ريال وثلاث وستون ريالا

نموذج آخر من لائحة الجهات التي تصلها الهبات المغربية

العيني ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م

هذه رحلة حجازية لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم المسكدادي التوماناري ثم العيني المتوفى سنة ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م، الذي نعته الشيخ المختار السوسي في موسوعته «المعسول»[١] بالعلامة الفائق الكبير القدر .... من أعظم الحريصين على الاستفادة والإفادة ... له عدة تآليف ... كانت له رحلته المخطوطة إلى الحجاز، وهي ـ يقول صاحب المعسول ـ من كبريات الرحلة الحجازية السوسية، حذا فيها حذو ما صنعه الشيخ أبو سالم العياشي (١٠٩٠هـ / ١٦٧٩م)، وأبو العباس أحوزاي (١١٢٧هـ / ١٧١٥م)، والشيخ أحمد بن ناصر (١١٢٩هـ / ١٧١٧م)، وأبو مدين الدرعي الروداني (١١٥٧هـ / ١٧٤٣م) .... في رحلاتهم المشهورات. آراؤه الفقهية كثيرة ومعروفة في (معهد أكلو) القريب من تيزنيت الذي سعدتُ بزيارته ...

كان يتوفر على إجازة من أستاذه الكبير محمد بن محمد الواسخيني، عن إمام الحرمين في وقته إبراهيم الكردي، عن شيخه عبدالله الدهوري، عن الشيخ قطب الدين النهروالي، إلخ ...

وتفصح رحلته الحجازية عن همته العلمية، ولو أنها مع الأسف مبتورة، لكن ما يوجد منها يكشف عن سعة معرفة الشيخ العيني، وقد لخصها أبو عبدالله محمد بن مسعود المعدري البونعماني، ثم قام الأستاذ المختار السوسي كذلك باختصار ما يوجد فيها.

وتبتدئ الرحلة بالإشارة إلى أوراق تشتمل على رحلته لحج بيت الله الحرام، يذكر فيها المراحل التي اجتازها، والفوائد التي استفادها من خلال سفره.

ويتضح من الصفحات الأولى من الرحلة أن الرجل كان متأثراً إلى حد كبير بما كتبه قبله أبو سالم العياشي، وأبو العباس أحوزاي، وأحمد بن ناصر، وأبو مدين على ما أسلفنا.

وهكذا نجد أن العيني ما ينفك يقتبس من نصوصهم بالحرف .... ولكنه يستأثر

---

(١) المختار السوسي: المعسول، ج ١٣، ص ٢٨٣، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م.

أحياناً ببعض الفوائد التي يحتاج إليها بعض المريدين والقاصدين يحشرها في بعض المرويات والمنقبيات.

لقد ودع إخواناً له في (العين) و(تومانار) وخرج من مدينة الصويرة في جمادى الأولى عام ١١٩٨هـ، إلى أن وصل إلى شالة (الرباط) حيث مدفن السلطان الأكحل.... ثم مكناس وفاس حيث زار ضريح الفاتح إدريس، على نحو ما زار ضريح الإمام ابن العربي(١) ... وتعرّف هناك إلى أبي زيد عبدالرحمن بن عبد القادر بوخريص الذي كان هو قاضي الركب النبوي، ويستمر في طريقه نحو الشرق، فينقل ـ كما أشرنا ـ المعلومات التي أوردها أسلافه عن وضع عين ماضي في الغرب الأوسط ... وأحيانا ينقل عن بعضهم عبر بعضهم الآخر، فهو ينقل عن العياشي بواسطة رحلة أبي مدين ...

وقد ظهر أن الشيخ العيني صاحب الرحلة ركب البحر من جربة إلى الإسكندرية في مركب للنصارى من غير تعيين جنسيتهم على العادة، وبهذه المناسبة ينتقد وضع تلك المراكب لعدم مبالاتها بأمور النظافة والطهارة، ويضرب مثلاً لهذا الإهمال أنه كان في المركب خنزير يمشي بين الحجاج! وينجس ممرات المركب! كما ينتقد طريقة ذكاة ثور كان أعطاه قائد جربة للحجاج فصعد به مركب المسؤولين (النصارى) إلى حيث ذبحه القامرة على طريقتهم التي تخالف الشرع..! وهذا ما جعله يندم على ركوبه المركب، وهنا يتوسل إلى الله، ويذكر القطعة الشعرية التي يقول مطلعها:

سـهـرت أعين، ونامت عـيـون
لأمـور تـكـون أو لا تـكـون
إن رباً كـفـاك بالأمس مـا كـا
ن سـيكفـيك عندمـا سـيكون!

ويمرون على جزر سكنها النصارى (الكريك) ـ (اليونان) الذين كانوا تحت ذمة السلطان التركماني ...

---

(١) ظل ضريح الإمام أبي بكر بن العربي سفير يوسف بن تاشفين إلى المستظهر العباسي ببغداد مزاراً للأمراء والعلماء ورجال الفضل إلى عصرنا الحاضر.

وبعد أن يذكر بعض ما يقع بين الركاب والمسافرين من تشنجات ومعاكسات يخبر بأنه وصل إلى الإسكندرية .... حيث قام بزيارة بعض مشاهدها مثل ضريح المرسي ... وابن عطاء الله العمري .... ولم يخلُ حديثه عن (القهوة) و(الدخان) على نحو ما لاحظه أسلافه من ذي قبل ...

وقد لاحظ الذين اهتموا برحلة العيني أن جديده قليل بالنسبة إلى رحلة العياشي مثلاً، ولهذا فإن الرحلة العياشية تبقى هي المرجع الأساسي لكل هذه الرحلات الحجازية التي زخر بها القرن الثاني عشر مما أشرنا إليه في بداية الحديث.

والمهم القول: إن الضائع في الرحلة كان نسخة طبق الأصل لما حرر العياشي وأمثاله على ما يتوقعه كل الذين تحدثوا عن العيني[1].

---

(١) المختار السوسي: المعسول، ج ١٣، ص ٣٠٠.

ابن عمار ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م

هذه الرحلة إلى الحجاز تمت سنة ١١٦٦هـ / ١٧٥٣م، جاور صاحبها بمكة إلى ما بعد ١١٧٢هـ / ١٧٥٩م، ويتعلق الأمر بأحمد بن عباس بن عبدالرحمن بن عمار الجزائري الذي ورد في ترجمته أنه مهتم بالتاريخ(١)، وأن رحلته المتحدث عنها طبع قسم منها، وهي الحقيقة التي تؤكدها النسخة المخطوطة التي حصلنا عليها بفضل مساعدة ثمينة من معالي الأستاذ الطيب بلعيز وزير التشغيل والتضامن الوطني بالجمهورية الجزائرية(٢)، كما تؤكدها النسخة المطبوعة التي وقفنا عليها في مكتبة مؤسسة علال الفاسي بالرباط(٣)...

والمخطوطة موضوع الحديث يوجد أصلها بالمكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم ٢٧٥٧ وتحمل عنوان «نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب».

وقد رتبها على مقدمة، وغرض مقصود، وخاتمة. فأما المقدمة ففي ذكر ما أنتجه العزم على الارتحال، وأما الغرض ففيما يحدثه السفر من الذهاب إلى الإياب وحط الرحال، وأما الخاتمة ففيما نشأ عن ذلك بعد السكون ...

وتتحدث المقدمة عن الآية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قيل معنى (ومن كفر) أي من لم يحج، وعبر عنه بالكفر تغليظاً كقوله ﷺ: «من ترك الصلاة فهو كافر» ...

---

(١) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧١م، ص٣١ – ٣٢.

(٢) نشكر سعادة الزميل الدكتور بوعلام السايح سفير الجمهورية الجزائرية على عمله لالتقائي مع السيد الوزير في بيته يوم ٢٣ رمضان ١٤٢٣هـ / ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٢م.

(٣) نغتنم هذه الفرصة لنجدد الشكر للزميل العزيز الأستاذ عبد الرحمن الحريشي مدير المؤسسة على ما قام به من جهد في ترميم النسخة المخطوطة والربط بينها وبين المطبوعة الموجودة بالمؤسسة، وهو الأمر الذي جعلنا نصل إلى السر الذي يكمن وراء اختفاء بعض الورقات من المخطوطة، والذي لم يكن - في نظرنا - غير تجنب المبالغات في علاج بعض القضايا الثانوية.

وفي معرض التنويه بمن وطئت أقدامه مكة من الحجاج والعمّار، وأن ذلك من شأنه أن يضفي على الحال هناك أردية الشرف والوقار، في معرض ذلك استدل بأبيات مجنون بني عامر:

رأى المجنون في البيداء كلباً
فجر عليه للإحسان ذيلا
فلاموه على ما كان منه
وقالوا: لِمَ منحت الكلب ذيلا
فقال: دعوا الملام فإن عيني
رأته مرة في حي ليلى!!

ومن هنا تخلص لذكر زيارة قبر النبي ﷺ التي - كما رأينا - في عنوان الكتاب «نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب» يخصصها بالذكر ...

«... واعلم أني عزمت على الرحلة إلى الحجاز عزماً نسختها حقيقة المجاز أوائل سنة ست وستين ومئة وألف (١٧٥٢ - ١٧٥٣م)».

ويمضي ابن عمار في التعبير عن أشواقه بكل ما تأتي له من قافية ... وتحدث عن عادة أهل الجزائر: إذا دخل ربيع الأول انبرى من أدبائها وشعرائها من ينظم القصائد المديحيات والموشحات النبويات، يلحنونها على طريق الموسيقى بالألحان المعجبة، ويقرؤونها بالأصوات المطربة ... وأنه لما استهل هذا الشهر الشريف من هذه السنة أنشأ قصيدة هذا مطلعها:

يا نسيماً بات من زهر الربا
يقتفي الركبان
احملن مني سلاماً طيباً
لأهيل المكان

وهي قطعة طويلة الذيل ...

ويعود للقول بأن له من هذا النمط وغيره من التوشيح والقريض قصائد شتى في مدح النبي ﷺ ضمنها بطن ديوانه ... وبعد أن يلاحظ أن الشعر القريض في هذا الغرض ما

أنزره وأقله في هذا العصر والذي قبله! يؤكد أن مقدم الجماعة في هذا الباب هما عاشقا الجناب المحمدي: البوصيري وابن الفارض...

وبهذه المناسبة يورد بعض مولدياته التي تطرب وتروق، وتبهر الشمس عند الشروق:

نلت المرام * بالله حادي القطار * قف لي بتلك الديار * واقر السلام

وهي كذلك طويلة عريضة أتى بعدها بقوله يتشوق إلى أرض الحجاز:

الركب نحو الحبيب قد سارا

يود شوقاً إليه لو طارا!

ويذكر بعد هذا اسم علم من الأعلام في باب القصائد المولدية: سحبان البلاغة، وقس البداعة أبي عبدالله محمد العربي بن محمد الشهير بابن علي، الذي أثبت له ابن عمار ما يرشف رحيقاً وينشق مسكاً سحيقاً(١).

هاج الغرام * بالله طاوي القفار * عرج بذاك المزار * حيث الكلوم!

وهو يفيد أنه ترجم لابن علي هذا في تأليفه «لواء النصر في فضلاء العصر»، ولم يتردد ابن عمار في إعادة ذكرها هنا على طولها ... وقد ضمنها مراسلات بينه وبين المترجم الذي يذكر عنه ـ وهذا مهم ـ أن الأديب المغربي الكاتب أبا زيد عبدالرحمن الجامعي الفاسي ذكره في رحلته(٢) عندما ذكر الجزائر، ونعته بمحيي طريقة لسان الدين بن الخطيب ذي القدر العلي ابن عبد الله بن محمد بن محمد المعروف بابن علي، وبعد استطراد طويل عريض عاد ليذكرنا بعادة احتفال أهل الجزائر بموسم مولد النبي ﷺ واتخاذه عيداً من أعياد الإسلام تشريفاً وتعظيماً لليوم الذي ظهر فيه نور الإسلام (ص٩٣ من المخطوط).

ومن هنا يتخلص لموضوع الاحتفال بالمولد النبوي في دار الإسلام، ونحن نعلم أن المغرب في العهد الأول للإسلام: عصر الأدارسة والمرابطين والموحدين لم يكن يعرف من

---

(١) هو محمد العربي بن محمد بن علي بن محمد المهدي الشهير بابن علي، نشأ بالجزائر العاصمة، وهو ابن محمد بن علي صاحب «مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر». عادل نويهض، الجزائر، ص١٦١ – ١٦٢– ١٦٨، مصدر سابق.

(٢) محمد المنوني: عبدالرحمن الجامعي الفاسي حامل راية الأدب على مستوى المغرب الكبير، مجلة (دعوة الحق)، السنة ١٦، عدد ٤ـ٥ مزدوج، ١٩٧٤م، ص ٧٧–٨٩. المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج ٣، ص ٢٤٤.

أعياد الإسلام غير الفطر والأضحى حتى كانت أيام بني مرين[١].

وإذا كان علينا أن نعرف عن صلة هذا التأليف بالرحلة إلى الحرمين الشريفين فإن الصلة تتجلى في أن ابن عمار يتوجه بالعتاب واللوم للمشرفين على الحكم بمكة والمدينة على عهده منْ الذين يغضون الطرف عما يجري في الحرمين من بدع منكرة بمناسبة الاحتفال بذكر مولد الرسول الأكرم سواء بمكة أو بالمدينة . . .

لقد اختار المؤلف أن يعالج في رحلته الحجازية موضوعاً اعتاد الرحالون أن يسلكوه من وصف المناسك والمراحل . . . وهذا نمط من الأنماط التي كان علينا أن نقف على نموذج صادق من نماذجها . . .

لقد ركز الرحالة الذي قلنا: إنه كان من عداد المجاورين، ركز في البدع التي شاهدها في عرفات، وفي المسجد الحرام بمكة، والمسجد النبوي بالمدينة، وخاصة التي تتصل باختلاط النساء بالرجال في تلك الأماكن المقدسة التي كان ينبغي أن تبقى بعيدة عن التبرج والتزين بأفضل الحلي . . . وقد تتبع ابن عمار هذه المخالفات ليس فقط أيام موسم الحج، ولكن كذلك في الأيام التي تصادف عيد المولد النبوي الذي نصب ابن عمار نفسه للدفاع طويلاً عن شرعيته، ونحن نذكر مرة أخرى أن عيد المولد النبوي عيد طارئ على الغرب الإسلامي[٢].

وقد تتبع ابن عمار كذلك الأيام التي تصادف الإسراء والمعراج وما يظهر فيها من مخالفات وتجاوزات . . . تتصل بالاختلاط وبالإسراف في استعمال المشاعل وإسراج الأضواء.

وقد اعتمد ابن عمار في حملته على ما نقله عن شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي المكي (المتوفى سنة أربع وسبعين وتسعمئة ٩٧٤هـ) في تأليفه «إتمام النعمة الكبرى على العالم بمولد سيد ولد آدم»[٣].

---

(١) د. التازي، لماذا عيد المولد النبوي في الغرب الإسلامي؟ مجلة (دعوة الحق)، العدد ٢٧٧، جمادى الأولى ١٤١٠هـ / ديسمبر ١٩٨٩م.

(٢) المصدر السابق.

(٣) البغدادي، هدية العارفين، طبع إستانبول، ج ١، ص١٤٦، سنة ١٩٥١م، مكتبة المثنى - بغداد.

قال نقلاً عن ابن حجر المذكور: يجب صون مجالس المواليد ونحوها من القبائح والرذائل والشنائع التي صدرت من الناس مقترنة بعمل المولد، ولا سيما بمكة والمدينة، منها اختلاط النساء بالرجال في المسجد الحرام والمسجد النبوي، وتزينهن بأحسن الحلي والحلل، وتطيبهن بأطيب الطيب، اختلاطاً فاحشاً، بحيث يقع في تلك الليالي من المفاسد والقبائح ما تصم عنه الآذان، ويقول الموفق: يا ليت ذلك ما كان(١)!!

قال: ومنها نصب الشموع وإيقادها والقمر في سلطانه، وقد شنع النووي على ما يفعله الحجاج ليلة عرفة من الوقود فيها أتم تشنيع! ولا شك أن ما يجرى في ليلة المولد بالحرمين أقبح وأشنع!!

قال: وأكثر الناس لا يمنعون النساء من الإشراف والتطلع على الرجال ونظرهن إليهم، وذلك قبيح؛ لأنه محرم على معتمد مذهبنا، ومكروه على مقابله...

وقد جعل أئمتنا من الأعذار المانعة من وجوب الاستجابة إلى وليمة العرس، جعلوا من ذلك توقع إشراف النساء على الرجال..!

قال: ولقد وقع بمكة أن كثيراً من علماء المذاهب الأربعة قاموا أشد القيام، وانتصروا أشد الانتصار في منع النساء من الخروج من بيوتهن إلى المسجد الحرام بالكلية؛ لما اشتهر عنهن من قبائح تصدر عنهن حتى في المسجد، لكن آخرين عارضوا ... فزادت تلك القبائح وطمت، واستباح أولئك الفسقة أعراض المتمسكين بالسنة ...

قال ابن عمار: وقد وقع بالمدينة نظير ذلك، فسعيت في منع اختلاط النساء بالرجال في ليالي المولد والمعراج وموسم سيدنا حمزة وموسم الحج، فعارضني جمع ممن العلم في عمائمهم دون قلوبهم! وأغروا بي السفهاء حتى إنهم سعوا في قتلي!!

وبعد حملات من هذا النوع يعود لذكر البدع التي كان يعتقد أنها حَرِيَّةٌ بالمنع، فيذكر منها استعمال المشامع والمجامر المصنوعة من الفضة، معتقدين أن ذلك من تعظيم

---

(١) يحرص السلف على الا تضيع فضيلة على حساب أخرى، إن الحج مجموعة من الفضائل وليست مجرد حركات.

سبح وصلِّ وطف بمكة زائراً * سبعين لا سبعاً فلست بناسكِ

جهل الديانـة من إذا عرضت له * أطماعه لم يُلْفَ بالمتماسكِ!!

النبي ﷺ، وهو جهل عظيم، فإن تعظيمه إنما هو في تعظيم شرعه القويم.

ويستمر ابن عمار في تعداد البدع التي ترتكب في الحرمين بمناسبة الاحتفال بعيد المولد النبوي داعياً إلى أن تقتصر الاحتفالات على أن يجمعوا أهل الصلاح والتالين للقرآن والذاكرين ويطعموا الطعام ويتصدقوا على المساكين ... ويأمروا من ينشد لهم شيئاً من المدائح النبوية المتعلقة بالحث على الأخلاق الكريمة مما يحرك الإنسان على فعل الخيرات، والكف عن البدع والمنكرات.

وينقل ابن عمار عن أبي عبدالله بن الحاج في كتابه «المدخل»(١) حول التنبيه على ما أحدثه الناس من البدع والأهواء في الموالد ولياليها، مكرراً الإشادة بآراء ابن حجر المكي الهيثمي السالف الذكر ...

ونظراً لانشغال ابن عمار بأمر هذا الاختلاط الذي يقع بعرفات ومنى والمطاف وغير ذلك ، والذي لم يجعل أحداً من العلماء يمنع تلك العبادات لأجله، فإنه - أي ابن عمار - يعود إلى الاقتصار على مناشدة المؤمنين والمؤمنات بأن يحافظوا على دينهم، «فكل مأمور بترك الطيب والزينة وسائر دواعي الإثارة» ... وهنا يذكِّر بالسر في منع حج المرأة بغير محرم...

ويعود إلى جانب هذه المناشدة بتبرير إظهار الأفراح والتجمل بأحسن الملابس واستعمال الطيب وتحسين الهيئة اهتبالاً لمثل تلك المناسبات: عيد المولد وما شابهه.

ويتلخص بعد هذا إلى تخصيص فصل كامل للاحتفالات بالمولد وما قيل فيها من لدن العلماء سواء بالمغرب أو المشرق مذكراً بما قاله أبو العباس العزفي صاحب سبتة، وما قاله علامة الدنيا ابن مرزوق الخطيب(٢)...

أكثر من هذا تخلص لطرح السؤال حول ما إذا كانت ليلة المولد النبوي أفضل من ليلة القدر، مستدلاً مرة أخرى بأقوال ابن حجر الهيثمي المكي في أن الاحتفال بليلة عيد المولد تعدّ بالنسبة إلى المسلم ليلة لا تعادلها ليلة من ليالي العمر!

---

(١) المدخل لابن الحاج الفاسي، ج٢، ص٢، طبع دار الحديث جوار الأزهر، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

(٢) د. التازي، لماذا عيد المولد النبوي في الغرب الإسلامي؟ مصدر سابق.

صفحات تتلوها صفحات ... كانت غير موجودة في مخطوطة الرحلة التي حصلنا عليها من الجزائر، لكنها موجودة في النسخة المطبوعة، وهذا ما يحمل على التساؤل عن سبب فقدانها في المخطوطة، وهل كان الداعي لذلك هو الاختصار أم أن هناك سبباً آخر يتجلى في تجنب المبالغات التي أشرنا إليها في بداية هذا الحديث؟!

ومن المفيد أن نذكر مع هذا أن ابن عمار ـ وهو يعنون رحلته بزيارة الحبيب كما أسلفنا ـ يأتي بالنص الكامل للقصيدة اللامية التي نظمها الشيخ أبو محمد الشقراطسي التوزري باعتبارها كما يقول من القصائد العظام، وكان الرحالة العبدري السالف الذكر أورد كذلك نصها في رحلته الحجازية المعروفة:

الحمد لله باعث الرسل
هدى بأحمد منا أحمد السبل
خير البرية من بدو ومن حضر
وأكرم الخلق من حاف ومنتعل

أوردت كل هذا عن رحلة ابن عمار لأذكر مرة أخرى بأنه كان يقصد بكل ما ذكره ودعا إليه أن تجري المناسك على أحسن الطرق وأفضل السبل، ولأذكر كذلك بأن ابن عمار ـ إلى جانب كونه كاتب رحلة ـ أديب كبير لم يستطع أن يحمي نفسه، وهو يتحدث عن الرحلة إلى الحجاز، مما يكنه ويكنه كل مسلم من حب للرسول ﷺ، ومن هنا كان حديثه المستفيض عن المولديات، ومن هنا وجد نفسه في مجالس السلطان أبي حمو (تلمسان) الذي كان من كثرة احتفائه بمولد الرسول يخصص الليالي الغراء للتعبير عن الفرحة العارمة، ويستدعي لها كبار الرجال وأصحاب المناصب ... حيث تحضر المباخر والمرشات، وحيث تعرض للعموم بمناسبة عيد المولد خزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة الفائقة الصبغة، وباعلاها أيكة تحمل طائراً فرخاه تحت جناحه، إلى آخر الحديث عن الساعة الأسطورة التي كانت محل الأشعار عام ستين وسبعمئة على ما هو معروف في التاريخ الحضاري لدار السلام(١).

(١) د. التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٧، ص٨، تعليق ١، رقم الإيداع القانوني ٢٥/ ١٩٨٦، مطابع فضالة ـ المحمدية.

أحمد بن حجر نفعنا به في النعمة الكبرى يجب صون [illegible] الموالد ونحوهما من الضلال
والقبائح والشنائع التي صارت من لوازم مغتفرة بفعل الموالد ولا سيما بمكة أي
والمدينة منها اختلاط النساء بالرجال في المسجد الحرام والمسجد النبوي
وتزيينهن بأحسن الحلي والحلل وتطيبهن بأطيب الطيب اختلاطا فاحشا بحيث
يقع في تلك الليالي من المفاسد والقبائح ما تصم عنه الآذان ويقول المؤمن ليت
ذلك ما كان. ومنها تعليق الشموع وإيقادها والتزيد في ذلك كأنه وقد شنع
النووي على ما يفعله الحجاج في ليلة عرفة من الوقود فيها إنه تشنيع ولا شك أن مثله
يكون بالحرم الشريف وأشنع. قال وأكثر الناس من يفعل ذلك النساء من الأشراف
والتطلع على الرجال ونظرهن إليهم وذلك فيه ما فيه لأنه حرام على معتمد مذهبنا ومذهب
على معتمد ما تقرر الذي ذكر شهوة ولا فتنة والراجح والمتعارف والواقع من النساء في الموالد
كثيرا ما يترتب عليه الشهوة والفتنة بل أبعد من نظر النساء إلى الرجال وما نظرهم إليهن
المترتب غالبا على الإشراف عليهم ونظرهن إليهم فحرام على الأصح عندنا وإن لم يكن شهوة
ولا خشية فتنة وقد جعل أئمتنا من الأعذار المانعة من وجوب الإجابة في وليمة العرس
إشراف النساء بل والمرأة الواحدة على الرجال بل وقيل حرم على من علم أن امرأة تنظر
إليه لم يبعد لأن الإعانة على المعصية معصية انتهى كلام ابن حجر بحروفه وهو نفيس
جدا. قال ولقد وقع بمكة أن كثيرا من علماء المذاهب الأربعة قاموا أشد القيام
وانتصروا أشد الانتصار في منع النساء من الخروج من بيوتهن إلى المسجد الحرام بالكلية
لما اشتهر عنهن من قبائح تصدر عنهن في المسجد وفعل بعضهم آخرون فتنة وحسما
لأغراض الفسقة ومن في قلبه زيغ وهوى إلى نظرة الباطل وبقاء تلك الخبائث كما
كانت قد زادت وطمت وانتشرت وعمت واستباحها ولا بد الفسقة أغراض الحظ
بالخطأ والسب. قلت وقد وقع لنا بالمدينة نظير ذلك فسعيت في منع اختلاط
النساء بالرجال في ليالي المولد والمعراج وموسم سيدنا حمزة وموسم الحج فعارض
جمع ممن العلم في عمائمهم دون قلوبهم وأغروا بي السفهاء والفسقة حتى إنهم
سعوا في قتلي مرارا بأنواع من السعي ولم يزل الحال إلى الآن والله المستعان
قلت ومنها استعمال الشمع والجوامع المصنوعة من الفضة

إحدى صفحات مخطوطة رحلة ابن عمار

ابن عثمان ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م

هذه رحلة حجازية من نوع جديد ومع شخصية جديدة معروفة في العالم الدبلوماسي بالمشرق وبأوربا وأمريكا كذلك.

لقد سفر ابن عثمان لمليكه محمد بن عبدالله (محمد الثالث) الذي - كما نعلم - كان صحب جدته الأميرة خناثة إلى مكة في موسم سنة ١١٤٣هـ / ١٧٣١م ... كان سفيراً له سنة ١١٩٣هـ / ١٧٧٩م لدى العاهل الإسباني كارلوس الثالث، وعن هذه السفارة ألف كتابه «الإكسير في فك الأسير».

ولم يلبث أن عين سفيراً مرة أخرى في مالطة ونابولي، وهي السفارة التي خصها بكتابه «البدر السافر في افتكاك الأسارى من يد العدو الكافر».

وبعد هاتين السفارتين قام بسفارة من نوع آخر، وبهذه المناسبة أتيح له أن يؤدي مناسك الحج ويؤلف كتابه: «إحراز المعلى والرقيب...». ويتعلق الأمر برحلته إلى القسطنطينية العظمى في رجب سنة ١٢٠١هـ / مايو ١٧٨٧م لإبلاغ السلطان عبدالحميد خان أسباب اعتباره للمبعوث التركي إسماعيل افندي شخصاً غير مرغوب فيه(١).

وقد استمر ابن عثمان يعمل في البلاط الملكي بعد وفاة الملك محمد الثالث سنة ١٢٠٤هـ / ١٧٩٠م وتنصيب ولده المولى اليزيد؛ حيث عمل سفيراً أيضاً لهذا السلطان الذي أرسله إلى العاهل الإسباني الملك كارلوس الرابع، وبعد وفاة اليزيد عمل ابن عثمان في بلاط أخيه المولى سليمان الذي بويع في رجب سنة ١٢٠٦هـ / مارس ١٧٩٢م.

وفي هذه الفترة أصبح ابن عثمان وزيراً للخارجية بكل ما تحمله هذه الصفة من معنى، وهنا برز ذكره أكثر ما يكون البروز على الصعيد الدولي، فكان له اتصال أيضاً بالإدارة الأمريكية ... إلى أن أدركه أجله في أحداث الطاعون الذي ضرب البلاد نحو

(١) الترجمانة الكبرى لأبي القاسم الزياني، تحقيق عبدالكريم الفيلالي، مطبعة الرباط ١٩٦٧م، ص٨٢، ٨٣، ٨٤ د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج٩ ص٣٤، ٣٥، ٣٦.

المحرم سنة ١٢١٤هـ / يوليو ١٨٠٠م(١).

وقد اخترنا الحديث عن هذه الرحلة؛ لأنها تحتوي على عدد من الخاصيات، فهي أولاً ـ وكما أشرنا ـ رحلة حجازية قام بها برعاية الدولة العثمانية وحمايتها سفير مغربي معروف بصدقه ودقة ملاحظاته.

وهي ثانياً تصادف تاريخاً مهماً ١٢٠٢هـ / ١٧٨٨م يعتبر مؤشراً إلى ما كان ينتظر المنطقة من تحولات أدت في النهاية إلى أن استقر التنافس بين الجهات على «خدمة» الأماكن المقدسة... وثالثاً فقد اشتملت الرحلة على بعض المعلومات التي خلت منها الرحلات السابقة، وخاصة المعلومات المتعلقة ببعض القادة العثمانيين الذين لم يعودوا منضبطين إزاء رؤسائهم.

وأخيراً فإن الرحلة تكشف عن جانب من التدرج الذي عاشته المنطقة أيام العاهل المغربي الملك محمد الثالث الذي كان يعاصر السلطان عبدالحميد خان، والشريف سرور أمير مكة.

وهكذا فنحن مع رحلة الأديب والفقيه والوزير والسفير: محمد بن عثمان، وهي تحمل عنواناً طويلاً على هذا النحو:

إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب(٢).

لقد التقى ابن عثمان وهو في طريقه إلى مكة المكرمة الركب المصري والركب المغربي حيث تسلم بعض المكاتيب الموجهة إليه من لدن العاهل المغربي الملك محمد بن عبدالله علاوة على رسائل الأهل ... ويخبرنا ابن عثمان أن الركب المصري كان يضم في صدر ما يضمه الأمير المغربي المولى اليزيد بن الملك محمد بن عبد الله الذي يتأكد لي أنه ورد ليصحب أخته الأميرة ... التي كانت في عصمة السلطان سرور بن مساعد الذي وافته المنية في ١٨ ربيع الآخر من هذا العام ١٢٠٢هـ.

---

(١) الاستقصا ج ٨، ص ١٠٦.

(٢) توجد نسختان من الرحلة بالخزانة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط تحت رقم ٥٢٦٤ ورقم ١٢٣٠٧. انظر د. التازي في كتابه: القدس والخليل في الرحلات المغربية، منشورات الإيسيسكو ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ص٢٥ وما بعدها.

لقد وصل ابن عثمان إلى ظاهر مكة[1] المشرفة عند الضحى، وكان هو اليوم السابع من ذي الحجة سنة ١٢٠٢هـ الذي كان يوافق ٧ سبتمبر من عام ١٧٨٨م. ويلاحظ منذ البداية أن ابن عثمان كان يستعمل الساعة التي كانت حديثة الظهور، وإنما يتوفر عليها الخاصة من الناس، فهو يقول مثلاً: وصلنا بعد ثلاث عشرة ساعة ... وهذا شيء جديد بالنسبة إلى بعض الرحلات التي مررنا بها ومرت بنا...

نزلنا الخيام واغتسلنا للطواف؛ لأنه لم يمكن لنا الاغتسال بذي طوى لعدم مرورنا عليها، وتوجهنا إلى البيت، ودخلنا على باب السلام، وهنا يفتح ابن عثمان قوسين لينبه على حقيقة تاريخية، يقول: وليس هو باب السلام الذي كان يدعى باب بني شيبة؛ لأن هذا الباب أصبح في داخل المسجد اليوم، وهو باب المسجد القديم، وهو في مقابلة المقام وباب البيت، وهو الذي ينبغي الدخول منه، وهو اليوم مقوس بالبناء في موضعه القديم علامة عليه، وأما باب السلام الذي يسمى الآن باب السلام فهو أحد أبواب المسجد المزيدة، وليس هو في مقابلة باب البيت فهو منحرف عنه بعض الانحراف، وباب المسجد الذي هو في مقابلة بابه الداخلي هو باب النبي ﷺ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يأتي من تلك الناحية؛ لأن داره كانت في زقاق الحجر وهو في تلك الناحية[2].

فطفنا بالبيت طواف القدوم، وصلينا ركعتي الطواف خلف مقام إبراهيم، ودعونا عند الملتزم بما نرجو إليه قبوله، وخرجنا من باب الصفا، فسعينا بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثم رجعنا إلى البيت الحرام، فقعدنا به نتبرك بمشاهدة الكعبة، وبعثنا بعض أصحابنا ليكتري لنا داراً لنزولنا، فهيأها لنا، وانتقلنا من الخيام إليها، ومن منة الله أنها كانت قريبة من المسجد الحرام، وقد حضر خطبة اليوم السابع بالبيت الحرام، وهي إحدى خطب الحج.

ومن الغد، وهو يوم التروية، خرج الناس من مكة قاصدين عرفات، ولم ينزلوا بمنى ولم يبيتوا بها، فقد أميتت هذه السنة، وصار الناس في هذا الزمان يخرجون من مكة اليوم الثامن، ويروحون إلى عرفات وينزلون في موضع الوقوف، فسرنا كذلك، ووصلنا

(١) المخطوطة، ص٢٢٩.

(٢) هذه معلومات في منتهى الدقة، وهكذا يلاحظ أن باب بني شيبة الذي تحدث عنه يختفي اليوم.

إلى الخيام بعد العشاء. بين مكة وعرفات نحو أربع ساعات أوخمس، فبتنا بالخيام وبتنا بعرفات، وقد عمر هنالك سوق عظيم، خرج الناس من مكة بجميع المأكولات والمشروبات والأمتعة وغيرها، والأعناب والرمان من الطائف وجميع الفواكه. وعند الزوال توجه الناس إلى مسجد نمرة، وقد خلفناه من ورائنا لكونه في طرف الحرم، ونحن تجاوزناه إلى عرفات، وهي في الحل.

فخطب الخطيب، وهذه هي الخطبة الثانية من خطب الحج التي حضرتها، وجمع الناس فيه بين الظهرين.

وهذا المسجد أفسدته الأعراب فتدخل إليه بمواشيها! وأعدوه مقيلاً لهم ... فكان المسجد ملآن ببعر الغنم، وهو كبير، فسقفه ثلاث بلاطات وباقيه فضاء عارٍ من السقف.

ورجع الناس إلى الخيام، وبعد العصر بهنيهة ركب الناس ووقفوا، فمن وجد فسحة قرب من الجبل، ومن لم يجد فسحة وقف بمكانه، وصعد الخطيب على ناقته إلى الجبل واستمر في خطبته إلى أن أغربت الشمس و« دفع » الناس من عرفات.

وتقدم وزير الشام بمحمله وعسكره وطبوله، وكذا باي مصر بمحمله وعساكره وطبوله تنقر، والمزامير تزمر، والعسكر يخرج المدافع، وكل واحد من الفريقين يجتهد في أن يتقدم على الآخر، وسبق أمير الشام فتقدم بمحمله وعساكره، وتبعه أمير مصر كذلك، والحجاج من ورائهم. واستمروا كذلك بعد أن مررنا بين المأزمين، وهما بناءان؛ أحدهما عن يمين الطريق، والآخر عن اليسار إلى أن وصلوا إلى المزدلفة.

ونزلنا بها بغير خيام؛ لأن الخيام تقدموا بها إلى منى، فلما حططنا بالمزدلفة، وقد وصلناها بعد العشاء، صلينا بها العشاءين جمعاً وقصراً للأخيرة، والتقطنا جمار العقبة منها وبتنا بها.

ولما طلع الفجر صلينا الصبح لأول وقتها، وسرنا بغلس إلى المشعر الحرام فرجعنا إليه، لأننا خلفناه وراءنا فهو في آخر المزدلفة، فوقفنا به للدعاء إلى الإسفار، ثم رجعنا عن أدراجنا إلى أن وصلنا الخيام بمنى، وتماديت على المسير إلى العقبة فرميت الجمار، ثم رجعنا إلى الخيام، ثم ذبحنا شاة ترتبت علينا من فدية؛ لكوني لما أحرمت أبقيت رأسي

مستوراً خشية من أذى الحر! ثم حلقنا وتوجهنا إلى مكة من فورنا في ثياب إحرامنا فطفنا طواف الإفاضة، ثم رجعنا إلى منى فبتنا بها، ومن الغد رمينا الجمار الثلاث الأولى التي تلي مسجد منى، والثانية التي في الشرق، وختمنا بالعقبة، ثم رجعنا إلى الخيام، وفي الغد رمينا الجمار أيضاً، كما تقدم، وتعجلنا في المسير إلى مكة، بل وتعجل الناس كلهم، ولم يبت أحد ليلة الرابع بمنى.

وقد أحييت سنة التحصيب أيضاً، فلم ينزل به أي المحقب (المحصب) أحد.

وفي الليلتين اللتين بتنا فيهما بمنى كان يقع بالليل مهرجان عظيم، حيث يوقد أمير الشام مصابيح كبيرة على كيفية مخصوصة وترتيب عجيب، ويرفعها على أعمدة طوال. وكذلك يفعل أمير مصر وسلطان مكة، ويبيتون ليلتهم كلها يرمون بالمحاريق، أهل الشام يرمون لناحية مصر، وأهل مصر يرمون لناحية أهل الشام، فتنشأ هناك فرجة عظيمة.

ثم بعد ذلك توجهنا للإتيان بالعمرة، فأحرمنا بها من وادي التنعيم، وهنالك بركة معدة للماء لكن بها بعض خراب فليس بها ماء اليوم، وبإزائها مسجد، فدخلنا إليه وأحرمنا منه، ثم أتينا إلى مكة فطفنا، ثم خرجنا إلى المسعى فسعينا وحلقنا، ولله الحمد وله المن.

وبقينا بعد ذلك في مدة مقامنا بمكة ملازمين البيت والصلاة فيه والطواف والوضوء من زمزم والشرب منه إلى أن أذن الناس بالرحيل، وسألت عن كدا لأخرج منه، فلم يعرفه من كان حاضراً معنا! إلا أنه ذهب بي إلى أحد أبواب المسجد في الناحية التي من وراء البيت، وقال: من هذا الباب يخرج المودع، فظننت أنه ذلك، وهو مناسب لكون الدخول من أمام، وهذا الباب الذي يخرج منه من وراء، فخرجنا وقلوبنا متبصرة، ومن الفراق متحسرة.

ثم قصدنا بيوتنا فوجدنا المحامل للركوب موجودة، فركبناها وسرنا إلى الخيام، وقد كانت في موضع يقال له: الشيخ محمود، على نحو ساعة من مكة...

وقد رأى ابن عثمان المكناسي أن عليه أن يقدم لنا نبذة من المسجد الحرام والزيادة فيه عبر الأزمان ... وهكذا يقول عنه: إنه من أكبر مساجد الإسلام وأعظمها، ولسنا - يقول ابن عثمان - نعني المسجد الحرام القديم وحده فذاك صغير جداً، وحده ظاهر بوسط

المسجد، وهو على المطاف، وإنما قصدنا المسجد الحرام على الكيفية التي هو عليها الآن من الزيادة والتوسعة، فطوله من المشرق إلى المغرب إحدى وأربعون قوساً مرفوعة على أعمدة الرخام، وفي عرضه ثمان وعشرون قوساً كذلك، عرض كل قوس خمس عشرة قدماً ونصف، وعرض العمود قدم ونصف، وبعضها ثلاث أقدام، تساوي مساحة طوله بتقريب سبعمئة قدم وخمس أقدام، وعرضه أربعمئة قدم وست وسبعون قدماً(١) تقريباً أيضاً ... وسقفه ثلاث بلاطات فقط دائرة به من الجهات الأربع، ووسطه براح متسع جداً، وعدد أبوابه نحو الأربعين. أخبرني بذلك بعض أهلها، وفي وسط البراح بيت الله الحرام.

والمهم عندنا في هذا النص أنه أول نص في الرحلات الحجازية التي مرت بنا يذكر القدم معياراً من معايير القياس، فقد مرت بنا "الأذرع والأشبار"، لكن القدم نقرؤه أول مرة عند ابن عثمان كما قرأنا "الساعة" عوض اليوم والليلة والمراحل والمناهل والمقاهي كذلك!

ولقد صادف مقام ابن عثمان بمكة الذي استمر إلى اليوم السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ١٢٠٢هـ صادف على ما يتأكد لي فتناً داخلية واضطربات خطيرة، لذلك نراه يعتذر عن عدم "استيعابه" للزيارات ... فقد قطع عنها - يقول ابن عثمان - ما ليس يرسم في حساب، ومنع من الإتيان بها شوائب فتنة عريقة الانتساب، ومن طلب من الأيام دوام الصفا فقد أخطأ في نظره وهفا، لكن الدهر تارة يهش وتارة يهر! فلما فاتنا ذلك القصد بما عرض من الصد جبرناه بالملازمة في البيت الذي هو المطلوب معتكفين على طواف ودعاء جابر كسر القلوب، حتى تعين السفر ونفرنا مع ركب حجاج الشام إذ نفر، ورجعنا أدراجنا نفري المعالم والمجاهل ونحوم على المنازل حتى وصلنا إلى طيبة.

ولقد كان ابن عثمان فعلاً يتحدث عما نعته "بالفتنة العريقة الانتساب"، وهي الفتنة التي أشار إليها أحمد محمد السباعي في تأليفه: «تاريخ مكة»(١) بوفاة سرور بن مساعد سلطان مكة يوم ١٨ ربيع الآخر عام ١٢٠٢هـ عن عمر لم يتجاوز خمساً وثلاثين سنة بعد أن حكم مكة نحو خمس عشرة سنة ونصف السنة، بعد ذلك آل الأمر إلى

---

(١) المقاسات نفسها التي سيقدمها الزياني معاصر ابن عثمان في الترجمانة الكبرى، ص١٨٢.

أخيه غالب الذي وصله تأييد السلطنة من العثمانيين ... لكن الذي حصل أن بعض إخوته ثاروا عليه مستنجدين ببعض القبائل من هذيل اليمن والشام فاطاعوهم، فمضوا بهم إلى جبال المفجر بجوار منى.

وقد بلغت أخبارهم السلطان غالباً فخرج إلى مكة يوم ١٩ ذي الحجة سنة ١٢٠٢هـ واستطاع أن يهزمهم، فسارت جموعهم إلى الطائف، فهزمهم وكيله في الطائف، فاجتمعوا في واد بالقرب من العتيق، واستأنفوا مسيرهم إلى مكة، فبرز إلى الأبطح للقائهم، وبعد مناوشات دامت عدة أيام استطاع أن يهزمهم، فتفرقوا بالقرب من الطائف ... ثم استأنفوا سيرهم إلى مكة، فعسكروا في وادي النعمان من يوم ٢٤ من ذي الحجة سنة ١٢٠٢هـ.

ورأى السلطان غالب أن يحسم الشر بدعوتهم إلى الصلح، فندب لهم القاضي الشرعي في هيئة من كبار علماء مكة وأشرافها فاتصلوا بالمخالفين، وعرضوا ذلك عليهم فقبلوا منه بشروط رضيها السلطان، وبذلك تم الصلح بين الفريقين، وعاد المغاضبون إلى مكة فاحتفل بهم في مكة، وبذلك استقر الأمر لغالب.

بهذه الصفحة يشرح السباعي: ما أجمله المكناسي في كلمته القصيرة الدالة "الفتنة العريقة الانتساب"، وهو ما يؤكد ما وردنا كثيراً من أن تاريخ الحجاز يرتبط بتاريخ الرحلات المغربية إلى الحرمين الشريفين، والعكس صحيح ...

ونرى من المفيد أن نختم رحلة المكناسي بالإشارة إلى الأرجوزة الطويلة التي نظمها استجابة لطلب بعض الإخوان من الطلبة الملازمين له في موضوع المناسك على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه ...

بلغ الرجز إلى القريب من ثلاثمئة بيت!! ابتدأها هكذا:

قال محمد هو ابن عثمان

الحمد لله الرؤوف الرحمان

---

(١) مطبوعات نادي مكة الثقافي، طبعة سادسة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ص٤٤٨. وبهذه المناسبة أجدّد الشكر للأستاذة هالة التواتي التي أهدت إليّ تأليف الأستاذ السباعي.

فعلم الإنسان ما لم يعلم

من فضله علّمنا بالقلم

إلى أن يقول:

سميته نور الضيا الوهاج

على دلالة مريد الحاج

الحج فرض مرة في العمر

خلاف في تأخيره أو فور

تحدث في هذه الأرجوزة عن أركان الحج، ويتخلص لوصف ما على الحاج أن يقوم به من أعمال، وما أن يؤديه من هدي إذا أخل بالمطلوب فيه.

ويبين للقراء ما يتصل بالحج إذا كان إفراداً أو تمتعاً أو قراناً:

وإن ترد حجك بالتمتعِ

فافعل كما أصفه لك وعِ

فأتِ بعمرة على الكمالِ

أحرم بحجك على التوالي

وهي وثيقة فقهية ممتازة على المذهب المالكي ختمها بالتوسل إلى الله والتضرع إليه:

لا تحرمنْ عبداً أتاك طامعا

من جاهك السامي ملاذاً شافعا

من أرض مغرب غريب الدار

ذا فاقة وكثرة انكسار

واختم لنا الختم الذي ترضاه

موفقاً لنا لمقتضاه

ويذكرنا هذا الرجز بأرجوزة سابقة رفيعة المستوى قدمناها للشيخ ابن عاشر ١٠٤٠هـ/ ١٦٣١م لأحد الحجاج المغاربة المعروفين من الذين حفظنا نظمهم ونحن في المدارس الأولية من مدينة فاس المحروسة.



ابن عثمان

الفاسي ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م

هذه رحلة حجازية لأبي العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الشيخ عبدالقادر الفاسي الفهري المتوفى سنة ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م، وقد قام بها سنة ١٢١١هـ / ١٧٩٧م، كنتُ وقفتُ عليها بفاس عند مالكها الزميل الراحل الأستاذ محمد العابد الفاسي، وأنا أقوم بتحقيق القسم المتعلق بليبيا من رحْلة الإسحاقي(١).

وتوجد منها مقتطفات قليلة بخط محمد بن عبدالله المراكشي بكناشة بالخزانة العامة رقم ٨٨ من صفحة ١٦٤ إلى ١٨١.

وقد وصفها د. محمد الفاسي، رحمه الله، (دعوة الحق عدد ٤ من السنة الثانية، يناير ١٩٥٩م) مؤكداً أن للرحلة نسخة في خزانة البلدية بالإسكندرية، وفي مكتبة أحمد تيمور باشا. وقد أُخبرت بأن النسخة التي كنت وقفت عليها بفاس ضاعت! ومن حسن حظي أن أحصل على صورة من النسخة المحفوظة بالإسكندرية بفضل مساعدة ثمينة من أستاذنا وزميلنا العزيز الدكتور أحمد مختار العبادي الذي أجدد الشكر له بهذه المناسبة(٢).

وهي تبتدئ هكذا: خرجنا من الحضرة الفاسية بعد صلاة ظهر يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الثانية عام أحد عشر ومائتين ثنتين وألف، ووافق اليوم الرابع من ديسمبر العجمي، وخرج شيخ الركب صحبة نجل مولانا المنصور بالله ... وصحبة أخيه وجماعة الحجاج ضحى اليوم المذكور ...

وهو ينقل عن الرَّحالة ابن بطوطة استيلاء النصارى على طرابلس (ص١٥)، كما ينقل أحياناً عن العياشي وعن الزبادي المنالي كذلك...

---

(١) د. التازي: ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي ١١٤٣هـ / ١٧٣١م، مطبعة فضالة المغرب ١٩٧٦م، ص ٤١ تعليق ١.

(٢) وصلتني المخطوطة وأنا أتلقى العلاج في مستشفى ابن سينا بالرباط على أثر أزمة صدرية حادة (١٠ مارس ٢٠٠٣م)، ولما تماثلت كانت المخطوطة سلوتي طوال فترة النقاهة، فالحمد لله على أفضاله وألطافه.

وهو يؤكد في هذه الرحلة أنه في يوم الأربعاء (الثامن من صفر عام ١٢١٢هـ) توفي نجل مولانا المنصور بالله مولانا أحمد وقت العصر، ودفن هناك بوسط مقبرة، وقد خرج من مكة المشرفة مريضاً بالبطن، واستمر به ذلك إلى أن توفي (ص٦٠). وهو يخبرنا كذلك أنه وقف في طرابلس على نسخة فريدة لصحيح البخاري بخط الحافظ الصدفي على ما نقرؤه مفصلاً في رحلة ابن عبدالسلام الناصري المتوفى بعده(١) ...

ويبدأ الفاسي حديثه عن مكة بذكر مسجد التنعيم الذي يتم فيه الإحرام بالنسبة للمعتمرين؛ حيث يتحدث عن الأصل في اتخاذ هذه المواقع منطلقاً للإحرام ... وقبل أن يبدأ الفصل المخصص لدخوله مكة يأتي ببيتين من الشعر لقائل لم يذكر اسمه:

وفدتُ بذلّي على ماجدٍ
وإنّيَ من زللي ذو احتشام
نزلتُ على أكرم الأكرمين
وليس يخيب نزيل الكرام!

قال: ويدخل الحاج إلى مكة راكباً أو ماشياً، كما استظهره الأجهوري، وصحح الشافعية المشي.

ويبتدئ الفاسي الفصل المتعلق بمكة بالنقل عن «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي الذي يروي عن النبي ﷺ قوله: «إن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه في كل سنة مئة ألف، فإن نقصوا أكملهم الله بالملائكة...» إلى آخر الأثر.

وهو يخبرنا أنه نزل بمكة المشرفة عند الشروق يوم السبت سابع ذي الحجة سنة ١٢١١هـ (٣ يونيو ١٧٩٧م)، وذهب إلى الطواف، فلما أشرف على الكعبة استحضر قول أبي الفضل الجوهري:

قلتُ للقلب إذ تراءى لعيني
رسمُ دار لهم وهاج اشتياقي

(١) د. التازي: صحيح الإمام البخاري بخط الحافظ الصدفي شيخ ابن سعادة، مجلة دعوة الحق، مارس ١٩٧٣م. مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ١٩، ج ١، مايو ١٩٧٣م. صحيح الإمام البخاري بخط الصدفي، بحث القي في المهرجان الدولي للبخاري ـ سمرقند، اغسطس ١٩٧٤م. مجلة البحث العلمي بالمغرب عدد ٢٤ المحرم ١٣٩٥هـ / يناير ١٩٧٥م.

هذه دارُهم وأنت محب
ما احتباس الدموع في الآماق
حل عقد الدموع واحلل رباها
واهجر النوم واقض حقَّ التلاقي
فالمعاني للصب فيها مغان
فهي تدعي مصارع العشاق!

وطاف طواف القدوم، وركع ركعتين خلْف مقام إبراهيم، قال في الإحياء: من طاف بالبيت أسبوعاً وصلى ركعتين فله من الأجر ثلاثون رقبة، وخرج للصفا والمرة وسعى، وأكثر من شرب ماء زمزم ... وفيه يقول (يعني عبدالمجيد المنالي الزبادي (١١٦٣هـ / ١٧٥٠م) في قصيدته، وقد كان نبه على أنه اتخذ من هذه القصيدة الرائية دليلاً له يرشده إلى مناسك الحج، قال:

وانزل من المعلاة وادخل بلدةً
في العالم العلوي لها أنوار
بلد شريف بالمناسك مجدهُ
مرت على تعظيمه الأعصار
ما زاغ فيه زائغ إلا غدا
داء له أو غاله الإعصار
حنَّت له حُبًّا قلوب أسلمت
وعنت له من عزّه الأمصار
واقصد لبيت الله من باب السلا
م تلُحْ لك الأنوار والأسرار
بيت له الشرف المؤثل والسنا
وله العلا والمجد والإيثار
سَلّمْ وكبّرْ والثم الحجر الذي
في ركنه الشرقي يا زوّار!

فـــإذا غُلبت فــضع يمينك واســتلم
كــبِّــر فــقط إنْ صــدك الإكــثــار
وانْو الطواف لقــادم حــتــمــاً ودُرْ
بالبــيت بالتــسـبـيح وهو يســار
وارمل إذا طفت القــــدوم ثلاثة
ولتــمش باقــيَــهُ عــداك العــار
يمنيّــه المس مــا مــررت وأســودا
قَـــبّلْه، إن لم يحــصل الإضــرار
فـإذا أتيت بسـبـعـةٍ فـاقـصـد إلى
خلف المقــام وصلّ فــهــو شــعــار
واخــرج إلى باب الصــفــا ولْتــعْلُهــا
كــبِّــر وهلل وادع فــيــهــا جــؤار
ولْتــــسع منه لمروةٍ واخــــبب لدى
بطن المســيل فـــإنه المخــتــار
واجـعل بمروة مـا فـعلن على الصـفـا
واســتــوف ســبــعــاً عــدها الأبرار
فـــالســعي بينهــمــا بســبعٍ واجب
مـــا إن لـه بـدل ولا أعــــذار

وقد ساعدت الفاسي خفة الازدحام على تقبيل الحجر الأسود، فكان كلما أراد تقبيله تمكن من ذلك من غير كلفة ولا مشقة، فيقبله مصوتاً مستحضراً في ذلك قول القائل(١):

وقـالوا: إذا قـبلت وجْنة من تَهْـوَى
فلا تُسـمـعنْ صوتاً ولا تعلن النجوى
فـقلت: ومَن يملك شفـاها مـشـوقة
إذا ظفـرت يومـاً بغـايتـهـا القـصـوى

---

(١) الأبيات لمحب الدين الطبري: مواهب الجليل ج ٣، ص ١٠٨.

وهل ينفع التـقـبـيل إلا مـصـوّتا!

وهل يبرد الأحشا سوى الجهر بالشكوى؟!

وبعد حديث عن الحجر الأسود بما نعرفه من مرويات عن ابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وكذا عمر بن الخطاب عندما قبل الحجر الأسود وقال: أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك..!

وقد حفلت رحلة الفاسي بعدد من "اللطائف"؛ بمعنى أنه يستطرد بذكر بعض القضايا، ويجعل ذلك تحت عنوان (لطيفة).

وهكذا يذكر (لطيفة) يضمنها نقلاً عن «الاكتفاء» للكلاعي حول بدء خلق هذا البيت الحرام... وبدء خلق الركن... قبل أن يأتي بنقلٍ مماثل عن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري من حديث عبد الصمد بن جعفل عن وهب بن منبه... حول أول بيت وضع للناس.

وقد أردف هذه (اللطيفة) بلطيفة أخرى حول استحباب الإكثار من شرب ماء زمزم، وعما ورد حول (ماء زمزم لما شرب له ...) في مختلف النصوص.

وتخلص بعد اللطيفتين إلى (بشارة) تحدث فيها عما منّ الله به عليه من دخول مقام سيدنا إبراهيم الذي قال الله فيه: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ...﴾.

ويحكي بهذه المناسبة عن الفرصة التي مكنته من هذه الزيارة، فيذكر أنه لما عزم على الرحيل من مكة إلى جبل عرفة يوم ثامن ذي الحجة الذي هو يوم التروية بعث إليه شيخ الركب المغربي، فقدم عليه ووجده داخل المقام صحبة الأمير ... نجل سلطان المغرب ...

دخلت وزرته وتمسحت به، وشربت هناك ماء زمزم من أثر القدمين بداخله... ودعا الله هنالك شاكراً للذين أتاحوا له هذه الفرصة... وقد رحل عشية اليوم المذكور قاصداً جبل عرفة.

ويعلل الفاسي أسباب الرحلة لعرفة مباشرة دون أن يقصد منى، يعلل ذلك بمخافة أن يكون الشهر خرج ناقصاً، قال: وكثيراً ما يحدث ذلك فيتشوش على الناس أمرهم، وهكذا يقفون في اليوم الثامن والتاسع.

قال: وبتنا هنالك بعرفة، ومن الغد، وهو يوم الاثنين التاسع من الشهر (٥ يونيو ١٧٩٧م)، اغتسلوا بعد الزوال على جهة الاستحباب وصلوا الظهر والعصر جمعاً بأذان

وإقامة لكل صلاة، ووقفوا راكبين، والإمام يدعو والناس يجيبونه . . .

وبعد (لطيفةٍ) أخرى عن فضل الوقوف بعرفة نقلاً عن كتاب «الإحياء» يتحدث عن نفرهم بعد الغروب للمزدلفة، حيث قام بما يقوم به الحجاج إلى أن يذهب لمكة لطواف الإفاضة . . . حيث وجد شريف مكة السلطان غالباً يعلق أستار الكعبة على العادة . . . ويرجع لمنى بعد أن تضلع من ماء زمزم . . . وهنا يعود للاسترشاد برائية المنالي الزبادي التي كان - كما أسلفنا - يصحبها معه كدليل:

واســـمع لخطبـــة ســـابع، وانزل منى
في ثـامـن، وبـهـــا المبـــيت أجـــار
واقــصـــد إلى عــرفــات تاسع شــهــرنا
فـــيـــه إلى عَـــرض العـــبـاد يـشــار
وانـزل بـنـمـــرة، واســـتـــمع قـــرب الزوا
ل لخطبـــــة تـزكـــــو بـهــــا الأبرار
واجـــمع به الظهـــرين أول وقـــتـــه
وقـــفـــوا لســــاق الجـــد يا زوّار
وادعـــوا الإله وســبـــحـــوه وكـــبـــروا
فلـه تـعـــالـى العـــز والإكـــبـــار
ولـتـطلـبـــوا غـــفـــران كل ذنوبكم
فـــهـــو الكريم وإنه الغـــفّـــار
ولـتــحـــمـــدوه وعظمـــوه وهللوا
فلربنا التـــوقـــيـــر والتـــعـــذار
ولتـــرسلوا العـــبـــرات من وجناتكم
فـــصنيـــعكم بدمـــوعكم ينـهـــار
فـــإذا توارتْ بالحـــجـــاب فـبـــادروا
جـــمـــعـــاً وتكثـــر منكم الأذكـــار
واحطط بمزدلفـــة اجـــمعنّ وبت بهـــا
ولتـــحـــيـــهـــا وبهـــا تعـــدّ جـــمـــار

والصبح صلِّ بها وغلّس راجلاً
وبمشعر قف أو يرى الإسفار
واذكر به مولاك، وادع، واسرعن
في الوادي حيث له تضاف النَّار!
وانزل بخيف منى تنل كل المنى
بضيافة كم نيلت الأوطار
ولترم جمرة عقبة، وانحر وسِرْ
للبيت بعد الحلق يا ضَيْطار!(١)
وطف الإفاضة فهو ركن ما له
بدل، ولا يكفيك الإنهار
والآن قد أحللت، فافعلْ ما تشا
مما نفى الإحرام لا الإنذار
والظهرَ صلِّ بمكة أو في منى
لكن تبيت بها كما الأكوار

ويوالي وصفه لما قام به من رمي الجمرات في الأوقات المطلوبة مستدلاً مرة أخرى بشعر المنالي الزبادي:

إثر الزوال ارم الجمار ثلاثها
كلاً بسبع عزت الأحجار!

ومن المهم أن نسمع أيضاً في رحلة الفاسي هذه عن المهرجان العظيم الذين تشهده ليالي منى بهذه المناسبة؛ حيث يتبارى الركبان المصري والشامي في إخراج البارود إلى جانب عسكر السلطان الشريف غالب... تارة بالمدافع وتارة بالمحارق التي تكون على أصناف، وهنا نقرأ عما يسمى اليوم بالشهب الاصطناعية... إذ يقول الفاسي بأسلوبه: «تارة تخرج جماعة من المحارق على صورة فرس مسرج مركوب، وتارة على صورة المحمل، مع ما انضم لذلك من وقد المصابيح التي لا تحصى كثرة. وبالجملة فهي - يقول الفاسي - ليلة

(١) الضيطار: العظيم من الرجال.

عظيمة لا أظن أنه يقع ذلك في غير ليلة منى، فهي ليلة معلومة مشهورة تشد الرحال لفرجتها، وتعمر فيها الأسواق بالسلع النفيسة والمأكولات وغير ذلك»(١).

ويتخلص الفاسي لذكر أن جميع الحجاج رحلوا بعد الزوال بعد إنهاء رمي الجمرات الثلاثة على نحو ما سبق «حرفاً بحرف ووصفاً بوصف» على حد تعبيره. وبعد أن تبرك بزيارة المكان الذي نزلت فيه سورة المرسلات وهو قريب من مسجد الخيف يعود إلى مكة ضمن الحجاج الذين لم ينزل أحد منهم بالمحصَّب على ما هو المندوب، فإن هذه العادة أميتت منذ أزمان وخاصة بالنسبة إلى من يتعجل... وهنا يعود إلى رائية المنالي الزبادي:

ومن الغد افعل مثل ذا وتعجلَنْ
إن شئت أو بتْ والمبيت نجار
إن بت فافعل في الزوال كما مَضَى
واذهب لمكة في المحصَّب جار

ويقوم الفاسي بأداء العمرة انطلاقاً من التنعيم يوم ١٤ من ذي الحجة بعد أن اغتسل بزمزم .. وبعد هذا قام ـ وهو في مكة ـ بزيارة بعض المشاهد التي اعتاد الحجاج أن يتبركوا بها ... على نحو ما يأمر به المنالي في قوله:

فإذا حططت بها الرحال فسرْ إلى الـ
تنعيم تغسل عنده الأوضار
احرم هناك بعمرة وتجردنْ
كالحج، لبّ وطفْ كما يختار
ولتسع بين المروتين بذلّة
واحلق وللنسكين منك غزار
والبيت لازم للطواف وللصلا
ة ورؤية لا تلهك الأستار
والحِجْر أنزله مثابة جوفه
إن صدك الرؤساء والأُمَّار

---

(١) نغتنم هذه الفرصة لنجدد الدعوة إلى إحياء ليالي منى كطريق يجمع بين الثقافة والدين والسياحة.

مقدار ستة أذرع من جوفه
صحت به للناسك الأخبار
ولتكثرن من ماء زمزم شارباً
متضلعاً فيه لك الأوطار
ولتدع ربك عند ملتزم، كذا
عند الحطيم تحطم الأوزار
ثم اشهدن تلك المشاهد كلها
إن ساعدتْ بحضورها الأقدار

وبعد هذا الشعر أتى الفاسي أيضاً بما يسميه (بشارة)؛ إذ تحدث عما أنعم الله به عليه ـ مرة أخرى ـ من دخوله إلى بيت الله الحرام يوم الأحد ١٥ ذي الحجة، عندما كان الثلث الأخير من الليل، وفتح البيت العتيق لغرض، حيث بادر الفاسي إلى زمزم فأسبغ وضوءه، وطلب من الشيبيين الموكلين بالمفتاح أن يأذنوا له بالدخول، فأجابوه لذلك ورحبوا به، ودخل وصلى إلى جوانبه الأربع، وتمسح بسائر جدرانه، ودعا الله بما حضر في الوقت ... وهنا تذكر قول السيدة عائشة: «يا عجبا للمرء كيف يرفع بصره قِبَل السقف؟! لِيدَعْ ذلك إجلالاً لله وإعظاماً له! دخل رسول الله الكعبة فما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها...».

ويختم حديثه هذا بلطيفة أخيرة حول دلالات المناسك ومغزاها عند بعض العارفين من أمثال الإمام الشاطبي.

وقبل أن يرحل عن مكة ضحى يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة قام بطواف الوداع على جهة الاستحباب قبل طلوع الفجر، ودعى الله عند الملتزم والحطيم، وشرب من ماء زمزم وتضلع منه، بل ونقله معه اقتداءً بالرسول الأكرم الذي كان يفعل ذلك.

فإذا عزمت على الخروج فودّعن
بيت الإله ودمعك المدرار
واخرج من اسفلها إلى الوادي وسر
متن الطريق وربُّنا السَّتار

وبني بها بسرف بقية البير وكيف الزيارة وجيه الوادي المرجون جيبة
ميمونة المذكورة وبمساجد التنعيم وهو الذي يكون منه الاحرام بالعمرة
وهنا لك المسجد المنسوب لعائشة رضي الله عنها ومنه المكان
الذي احرمت منه بالعمرة مع اخيها عبد الرحمن بامر النبي صلى الله عليه
وسلم في حجة الوداع وهو ادنى الحل ويسميه الناس العمرة تسمية
للشيء باسم ما يفعل فيه ومن لنا من العزيز المشهور بمكة المشرفة
على [illegible] ثلاث عشرة ساعة فجملة ما بين فاس ومكة
المشرفة اربعمائة ساعة وعشر ساعات غير كسر وانشدت
هنا قول القائل:

ومرت بنا على ماجد وانه من ناله خيرا حتشام
لك على اكرم الاكرمين ولبعض يحبب من بلد الكرام

ويدخل مكة راكبا او ماشيا كما استحبه الامام وجمع الشافعية

الشرف ذكر دخولنا مكة المشرفة زادها الله تشريفا وتعظيما

ذكر في احياء علوم الدين لابي حامد الغزالي ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال ان الله عز وجل قد وعد هذا البيت ان يحجه في كل سنة ستمائة الف
فان نقصوا اكملهم الله عز وجل بالملائكة وان الكعبة تحشر
كالعروس المزفوفة وكل من حجها يتعلق باستارها يسعون حولها
حتى تدخل الجنة فيدخلون معها وذكر في الاحياء ايضا انه جاء في
الاثر ان الله عز وجل ينظر في كل ليلة الى اهل الارض فاول من ينظر الله

إحدى صفحات مخطوطة رحلة أحمد الفاسي

The Journey of Journeys

Makkah In One Hundred Moroccan Journeys and A Journey

Dr. Abdulhadi Al- Tazi

Revised by

Dr. ABBAS S. TASHKANDY

Vol. One



1426H / 2005

عبد الهادي التازي

● ولد بمدينة فاس في ٨ شوال ١٣٣٩هـ/ ١٥ يونيو ١٩٢١م.

● تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بفاس، ونال شهادة العالمية من جامعة فاس (القرويين) سنة ١٩٤٧م، وعين أستاذاً بها ابتداءً من سنة ١٩٤٨م.

● حصل على دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة الإسكندرية بمرتبة الشرف الأولى سنة ١٩٧١م.

● عين مديراً للمعهد الجامعي للبحث العلمي من سنة ١٩٧٤م إلى ١٩٩٤م.

● عين سفيراً للمملكة المغربية في ١٣ مايو ١٩٦٣م لدى الجمهورية العراقية، ثم لدى ليبيا في ٤ يونيو ١٩٦٧م، ثم في العراق مرة ثانية في ٢٠ سبتمبر ١٩٦٨م، وعهد إليه بالسفارة لدى الإمارات العربية المتحدة في مارس ١٩٧١م، ثم عين سفيراً لدى الجمهورية الإيرانية الإسلامية في ٢٨ أبريل ١٩٧٩م، ثم عين مكلفاً بمهمة بالديوان الملكي.

● نشر مقالات تفوق ٧٠٠ عنوان، وترجم عن الفرنسية والإنجليزية عدداً من الدراسات والمقالات، كما ألف وحقق مجموعة من الكتب.

● عضو المجمع العلمي العراقي منذ ١٩٦٦م، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٦م، والمعهد العربي الأرجنتيني ١٩٧٨م، ومؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي ومجمع اللغة العربية (الأردن) مارس ١٩٨٠م، والمجلس الاستشاري الدولي لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي (لندن ١٩٩١م)، والمجمع العلمي المصري ١٩٩٦م.

● نال عدة أوسمة محلية وعالمية، منها: وسام العرش من درجة ضابط (المغرب ١٩٦٣م)، الحمالة الكبرى للاستقلال (ليبيا ١٩٦٨م)، وسام الرافدين (العراق ١٩٧٢م)، قلادة الكفاءة الفكرية من الدرجة الممتازة (المغرب ١٩٧٦م)، الميدالية الذهبية لأكاديمية المملكة ١٩٨٢م.

MAKKAH AL- MOKKARAMAH : THE CAPITAL OF THE ISLAMIC CULTURE 1426 H. (2005 A. D.) (2)

The Journey of Journeys

Makkah In One Hundred Moroccan Journeys and A Journey

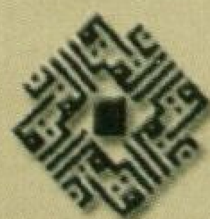
Dr. Abdulhadi Al- Tazi

Revised by

Dr. ABBAS S. TASHKANDY

Vol. One





AL-Furqan Islamic Heritage Foundation
Encyclopedia of Makkah and Madinah Branch

1426H / 2005